فريق
متميزون
E-BOOK
أندرو أنستاسيوس
عراف الماء
THE WATER DIVINER
ترجمة: محمد عبد العزيز
كتوبيا
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE
ترجمة حصرية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

عراف الماء

(رواية مترجمة)

أندرو أنستاسيوس

ترجمة: محمد عبد العزيز

عن الرواية..

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى، قرر "جوشوا كونور"، وهو مزارع حطمه الحزن وأحيانًا منقب عن المياه في أستراليا، تحقيق رغبة زوجته المتوفاة، والسفر إلى جاليبولي لاستعادة جثث أبناءهما الثلاثة ودفنهم في أرض الوطن. هذه ليست رواية حرب، ولا هي رواية مناهضة للحرب حتى. وإنمَّا هي تركز على المعارك التي تدور داخل قلوب وعقول مجموعة صغيرة على الأستراليين والأتراك بينما هم يكافحون لدفن موتاهم وإعادة بناء حياتهم من جديد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لا تبحث عن ضريحنا في الأرض بعد وفاتنا؛ إنما ضريحنا في قلوب العارفين»

«جلال الدين الرومي»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

التمع عود ثقاب وسط الظلام، لكنه سرعان ما انزوى ميتًا ميتة سريعة بائسة، أشعل عودًا ثانيًا، هذه المرة وضع يده حوله لحماية شعلته ثم قربه من فتيل الشمعة، وبينما هالة من الضوء البرتقالي تنير المخبأ لفظ عود الثقاب أنفاسه الأخيرة.. بأظافر مشذبة قوية فتح الرجل ساعة جيبه، والتي تسبب العرق في التصاق غطائها؛ كانت الساعة تشير إلى الخامسة إلا خمس دقائق... أعاد الساعة إلى جيبه قبل أن يفكر لثوانٍ، ثم يخرجها ثانية... أخذ يمسح غطاءها في كمه الصوفي الخشن، قبل أن يضعها في صندوق معدني صغير على سريره. أنبأه شعور غريزي داخله أنه لن يحتاج إلى الساعة بعد اليوم، وإذا سار كل شيء كما خُطِط له فلن يعود بحاجة إلى أي شيء على الإطلاق.

تجول الرجل في المخبأ الصغير، يلتقط أغراضه الشخصية الضئيلة ليجمعها في الصندوق... فاجأه المدى الذي يمكن أن يصل له تقشف عَالَم رجلٍ مثقف، عندما يتم اختزال الحياة إلى أبسط عناصرها، فمن اللافت للنظر قلةً ما أنت بحاجة إليه حقًا. يحب بعض الضباط تجهيز منزل آخر بعيدًا عن منزلهم الأصلي، وإحاطة أنفسهم بوسائل الراحة المحببة؛ الكولونيا المفضلة لديهم، وجهاز جراموفون، وأدوات صنع القهوة، وأرفف مليئة بالكتب، لكنه قاوم إلحاح جلب كل هذا. لا يريد أن يشعر أن ما يحدث هنا عادي أبدًا، ولا يرغب إطلاقًا في أن يحضر الحياة المتحضرة إلى هنا، أو يحس أنه يفعل هذا من أجل التحضر. ومع ذلك كان هذا العرين منزله منذ شهر أيار (مايو)، خلال صيف شديد الحرارة تبعه خريف شديد البؤس، والآن ها قد أتى شتاء رطب ليخمد شعلة حماسه. تساقطت الثلوج الشهر الماضي، و عثروا ذات صباح على حارس عمره ثمانية عشر عامًا متجمدًا في مكانه. لا يمكنك أن تتخيل أبدًا كيف ومتى يمكن أن يموت رجل، صغيرًا كان أم كبيرًا، في الحرب. لذا منذ وصوله إلى هناك كان يستعد للموت؛ بأن يحزم الصندوق بهذه الطريقة... نفس الأشياء الضئيلة بالترتيب نفسه، ربما رتبها ثماني مرات استعدادًا لتركها لشخص آخر، حتى أصبح شيئًا مشابهًا للطقوس، كأنها شعائر جنائزية.. ها قد صار كل شيء في مكانه.

أنا الآن مستعد لأسوأ الأشياء.. أتحداكم.

نقر بأصابعه على مذكراته الثمينة بالنسبة له، والتي لطختها المياه والأوحال. تذكر مداخلاته الأولى فيها، لكم كانت مدروسة للغاية وتمتلئ بالكثير من الوعي بالذات، كل كلمة مثلت عبئًا عليه كأنها مخاض. كتب بالأمس: «استيقظت باكرًا، كان البرد قارسًا، أعطيت التقرير للعقيد. بعد سبعة أشهر

من المعاناة، لم يتبق شيء لأقوله.» مسح غلاف المذكرات بيده قبل أن يلقيها في الصندوق، ثم وضع صورة عائلية فوقها. أخذ يلعب بكوز صنوبر منغلق على نفسه بين أنامله كأنه قنبلة يدوية، قبل وضعه هو الآخر داخل الصندوق. أتبع ذلك وعاء الحلاقة وشفرة الحلاقة والفرشاة. ثم رفع وشاحًا أنثويًّا نحو أنفه، وأخذ يستنشق رائحة زوجته أو ذكراها على الأقل، فمن يعرف أي شيء على وجه اليقين بعد الآن؟ لف الوشاح حول حزمة من الرسائل، وأسقط حزمته داخل الصندوق وأغلق الغطاء. وبينما هو يتحرك إلى الطاولة حيث يرقد مسدسه، أخذ ضوء الشمعة المتراقص ينعكس على شاراته على كتفه ومقبض السيف المربوط إلى جنبه.

ضابط محترف برتبة رائد، يبلغ من العمر أربعين عامًا، يتمتع بشخصية وقورة ذات تصميم. شعر بنفسه مرهقًا ومشدودًا، وكان على وشك طلب هجوم آخر لا طائل منه على خنادق العدو في «جاليبولي». فعل هذا مرات لا تحصى من قبل، لكنه اليوم ولسبب غير مفهوم لم يكن راضيًا عن فعلها، فهو يعلم أن هذا الهجوم قد يكلفه حياته! لن يكون هناك جديد؛ القناصة من الجانبين يستهدفون الضباط بشكل منظم لقطع الرأس المُخَطِط للعدو. يعرف أن المئات من رجاله سيموتون في الثلاثين دقيقة القادمة بدون سبب وجيه، ومهما كانت المسافة التي سيتقدمونها هذا الصباح ضئيلة سينتزعها العدو منهم مرة أخرى غدًا. يحدث هذا مع كل ذهاب وإياب في «لون باين»، لم تتقدم الخطوط الأمامية شبرًا واحدًا منذ أربعة أشهر. كان هناك وقت يشعر فيه بالاشمئزاز من مدى تفاهة الحياة، أما الآن فهو يشعر بالملل والإرهاق فقط. تخلل الضوء ستارة الخيش الخشنة التي يستعملها كباب، وسمع صوت سعال خشن، وهو السعال المميز من الرقيب التابع له، فابتسم لنفسه. كان قد ارتدى قبعته، ومسدسه في جرابه، وسيفه يصطدم بساقه، دفع الضابط الستارة للخلف وتقدم للخارج في ضوء ما قبل الفجر. ظهر وجه خشن أمام الرائد «حسن»... كان يعتبر الرقيب أول «جمال» أسدًا أكثر مما يعتبره رجلًا، وقد تعرض «جمال» هذا لأقسى تقلبات الحياة، كما أنه رجل مخضرم شهد العديد من الحملات. تحدث بالتركية، بينما الضباب يخرج مع أنفاسه:

-خمس دقائق؟

نظر «حسن» إلى ما وراءه ولأسفل متفقدًا الخندق العثماني الموحل حيث يقف رجال جيشه الأقوياء، كبار السن ذوو الشوارب الضخمة بجوار مراهقين مرعوبين، والمزارعون بجانب المحاسبين من إسطنبول. كان بعضهم يرتدي زيًّا رسميًّا كاملاً، بينما ارتدى البعض الآخر مزيجًا غير متجانس من الملابس المدنية مع السترات والسراويل والأحزمة العسكرية. كانت الحكومة العثمانية لا تزال تتعافى من حرب البلقان، ولهذا فقد كانت تفتقر بشدة للأزياء

الرسمية والإمدادات لدرجة أن العديد من هؤلاء المجندون يرتدون ملابس القتلى، بعدما تم غسلها من آثار الدماء، وتم اعتبار ثقوب الرصاص التي تملؤها كتعويذات لجلب الحظ، على اعتبار أنه لا يمكن أن يضرب البرق نفس المكان مرتين. ارتدى سعداء الحظ منهم أحذية طويلة الرقبة -غالبًا ما تم إنقاذها من أقدام الرفاق الذين سقطوا- وأما الباقون فقد لفوا أقدامهم الحافية بقطع قماش اتقاءً للبرد. أومأ «حسن» برأسه قائلًا:

-ننتظر شروق الشمس..

ألقى «جمال» التحية، وسرعان ما أتاه الرد بهدوء بطول الخندق بكلمة هامسة أو إيماءة. تصافح الجنود وقبلوا رفاقهم أو آباءهم أو أبناءهم على كلا الخدين، ثم مر إمامٌ ملتحٍ جليل ليمنح بركته للرجال بينما هم متجمعون حول الموقد بينما حرارة اللهب المنبعثة منه لم تبدد إلا القليل من صقيع الخوف المميت. كان الهواء البارد يجمد العظام، وقد صاحبه الصمت مخيمًا على المكان.. أشرف «جمال «على رفع السلالم على جدار الخندق، بينما اصطف الرجال في أماكنهم، كان توترهم واضحًا محسوسًا ملموسًا وقد طقطقت الأسنان؛ ليس فقط من البرد. لوثت رائحة البول اللاذعة، تصاحبها رائحة مقبضة مثيرة للغثيان لتحلل الأموات، هواء الصباح الذي طفا فوق الامتداد المروع المتواجد بين الخطوط الأمامية. رأى «حسن» صبيًا صغيرًا وقد اختفى جسده الضئيل أسفل سترة كبيرة الحجم، وقد وضع قدمه على آخر درجة من السلم. إنه مصمم أن يكون أول من يصل فوق القمة. اتجه الضابط نحوه، فنظر الصبي لأسفل نحو الأرض باحترام معلنًا عن إذعانه للضابط الكبير.

-«ما اسمك أيها الجندي؟»

سأله «حسن» بصرامة، رد الصبي وهو لا يزال ينظر نحو الأرض:

- «يلماز»..

ثم -كأنه أعاد التفكير- أضاف:

- «من «ماردين» يا سيدي».

- «أحضر منظاري أيها الجندي «يلماز» من «ماردين». إنه في مخبأي»

- «لكنني هكذا سأتأخر عن...»

- «افعل ما آمرك به!»

نهره «حسن» مقاطعًا إياه. على مضض تخلى «يلماز» عن مكانه في مقدمة الصف وشق طريقه على طول الخندق. راقب الرائد «حسن» الصبي حتى اختفى من أمامه، فصعد على السلم، وقام بإلقاء نظرة على قمة أكياس

الرمل في خطوط العدو. غطى الغبار الامتداد الكئيب لتلك الأرض القاحلة الخاوية من البشر، بالإضافة إلى تلألؤ بلورات متناهية الصغر من الصقيع، والتي عكست أول أشعة من ضوء الفجر الباهت المتسلل على استحياء. انطلق صوت بندقية بعيدة ليحطم الصمت المخيم على المكان، فحاول «حسن» أن يتفاداها وتقدم حتى أعطى إشارته إلى قائد فرقة عجوز، والذي بدا متألقًا في سترته المخملية الممزقة وشاربه المشذب اللامع، لوح قائد الفرقة بعلم في الهواء، فتجمعت حفنة من ضاربي الطبول وعازفي البوق سويًا، وانطلقوا يعزفون بصخب إشارة للرجال أن يتجمعوا. أخذ الرجال يرتقون السلالم وجدار الخندق في حالة من الفوضى وهم يصرخون:

- «الله أكبر! الله أكبر!»

كان «حسن» قد قام بضبط توقيت الهجوم بشكل مثالي مستغلًا شروق الشمس من ناحية «بحر إيجة» لتعمي أعين العدو بينما تتقدم قواته عبر الأرض القاحلة. تسلق «حسن» أكياس الرمل بينما يلهث «جمال» بجواره كأنه سباح خرج من الماء ناشدًا بعض الهواء. أخذ الجنود العثمانيون يصرخون بأعلى قوتهم من حولهم، كأنما يحاولون طرد خوفهم وقلقهم. وأخذ حاملو البنادق يطلقون النار بشكل متهور نحو ضوء الفجر أمامهم، كما لوحوا بالأدوات الزراعية الباقية والحراب المصنوعة يدويًا، بانتظار سقوط رجال فريقهم بجانبهم حتى يتمكنوا من الاستيلاء على بنادقهم وامتلاكها. بلغ طول الخط الأسترالي الأمامي طول ملعب التنس بالكاد، ولكن الأرض كانت رطبة وغير مستوية، وتتخللها الحفر والجثث المنتفخة التي شكلت عقبة مروعة للراكضين. أخذ الجنود يتساقطون، وقد تشابكت كواحل بعضهم في لفائف الأسلاك الحادة الملتوية البارزة من الوحل، بينما سقط البعض الآخر في ثقوب القذائف المليئة بمزيج بشع من الماء الراكد وأجزاء الجثث المبتورة. وسط حالة الارتباك تلك أمكنهم سماع صوت تجهيز بنادق من خنادق العدو! تجمعت الفرقة عبر الميدان في تشكيل واسع، وهي لا تزال تعزف نشيدها الجريء المتنافر، ولكن الفرقة صارت الآن تفتقر لعدد قليل من الأدوات. لوح قائد الفرقة الموسيقية بعلم الكتيبة ٤٧ كأنما هو مروض وحوش يلوح بقطعة قماش حمراء لثور. أمسك «حسن» المسدس في يده وهو يسير متعثرًا عبر الأرض القاحلة، بينما «جمال» إلى جانبه، متوقعًا في أي لحظة أن تصيبه رصاصة حارقة ويسقط أرضًا ويختلط الوحل بشعره.. يعلم أن رقيبه سيكون سعيدًا إذا تمكن فقط من وصول قائد الفرسان إلى خندق العدو وهو قطعة واحدة. يكاد يسمع «جمال» يفكر، لماذا لا يمكن أن يكون الرائد مثل معظم الرجال من رتبته ويبقى خلف الخطوط؟ هذا هو الغرض من المنظار.

لقد فاجأوا الأستراليين دون حراسة في ساعة مبكرة؛ تخيلهم «حسن» وهم لا يزالون مختبئين تحت معاطفهم الخاكية مثل أطفال الشوارع، بينما تهدر الأحذية التركية بجانبهم، ناثرة الطين هنا وهناك، وأنهم سيستخدمون حرابهم لإيقاظهم بغلظة. في الاعتداء الأخير شاهد «حسن» معظم رجاله يتم حصادهم بواسطة نيران الرشاشات قبل أن يتخذوا خطوة. لم يعد يتمكن من عد كم واحد منهم سقطوا مرة أخرى عائدين إلى الخندق، وقد قُتِلوا حتى قبل أن يزيلوا أكياس الرمل. هل «الأنزاك» – القوات الأسترالية والنيوزيلندية - ينتظرون فقط حلول الوقت المناسب قبل إطلاق وابل النيران؟ أمكن لـ«حسن» أن يرى على مبعدة الموجة الأولى من هجومه عند خط العدو تقريبًا، وقد رفعوا الحراب وأخذوا يصرخون في الأستراليين، يتحدونهم على القيام بأقصى ما بوسعهم. وبعد ذلك، وسط ضباب شهر ديسمبر، حدث شيء ما! توقف الأتراك الغاضبون فجأة في صمت تام، وتلاشى صوت إطلاق النار، وهدأ الصراخ بينما الجنود المرتبكون يقفون في صمت ينظرون لأسفل، نحو خندق العدو. دفع «جمال» الجنود جانبًا بينما شق «حسن» طريقه من خلال قواته إلى حافة الخندق، ومن مكانه فوق كيس من الرمل أخذ ينظر في عدم تصديق. لا يوجد أحد هناك! ولأن «حسن» مجبول على توقع الأسوأ دائمًا، فقد اشتبه في وجود شيء ما؛ إنه فخ... لابد أنه فخ! أخذ «جمال» يهز كتفيه... إذا كان الأمر كذلك لكانوا هجموا علينا بالفعل! سقط «حسن» في خندق «الأنزاك» وانضم إليه «جمال»، وقد انتبه كلاهما، حذرًا من الفخاخ المتفجرة.

خيمت كل من الحيرة والارتباك على رجال الفرقة الـ«٤٧» الذين أخذوا ينظرون في صمت، ارتفع انفجار مفاجئ من بندقية مسندة على حافة الخندق، فانتفض الرجال بحثًا عن مخبأ وبالكاد أجفل كل من «جمال» و«حسن». أخذ الرجلان يتفحصان البندقية التي بلا صاحب، والتي كان الدخان لا يزال يتصاعد من فوهتها. لاحظ «حسن» أنها قد تم إعدادها لإطلاق النار على خط الجبهة العثمانية أوتوماتيكيًا. كان قد تم إعداد البندقية لإطلاق النار بواسطة نظام ذكي يتكون من علب صفيح مملوءة بالماء، ومثقوبة بطريقة معينة بحيث تفرغ تدريجيًا في العلبة التي أسفلها، وتضغط العلبة التي تملأ بالماء على الزناد، لا يسعه إلا الإعجاب بتلك البراعة. أعاد «جمال» تعبئة البندقية، وخلع العبوة المثقوبة المملوءة بالماء، وكان على وشك صب الماء في العلبة المعدنية المقيدة للزناد، لكنه توقف، لينظر نحو مجموعة من الجنود يراقبون نهاية فوهة البندقية بفضول، وأخذ يلوح بيده لهم ليبتعدوا وهو يزمجر:

- «تحركوا وإلا ستموتون!»

تعلم الرجال أن تجاهل أمر من رجل متهور مثل «جمال» سيجعلهم عرضة للخطر، فتدافعوا مبتعدين عن الطريق بينما هو يُفرِغ العلبة المعدنية في العلبة المقيدة للزناد، لتنطلق النيران من البندقية بصوت عالٍ... هز «جمال» رأسه في إعجاب. تابع «حسن» سيره بطول الخندق، ومر بجوار منضدة مُعدة للعب الشطرنج؛ كان قد تم دفع بيدق أبيض مسافة مربعين نحو خط العدو. كما كانت هناك ملاحظة باللغة الإنجليزية تحت القطعة مكتوب فيها: «دورك للعب يا عبدول». ابتسم «حسن» ابتسامة ساخرة. في وقت آخر ومكان آخر، ربما كان ليستمتع بلقاء لاعب الشطرنج هذا. من الغريب أن يفكر في أنه وسط كل فوضى الحرب اللا إنسانية هذه، وجد جندي من جنود العدو العزاء في مثل هذه التسلية المتحضرة. ظهر «جمال» وهو يمسك بمضرب كريكيت كأنه في النادي.

سأل «حسن»:

- «سلاح؟»

- «لقد شاهدتهم يلعبون هذه اللعبة التي لا طائل منها بالقرب من الشاطئ، بين القناطر»

حمل «جمال» المضرب فوق كتفه وأخذ يؤرجحه في الهواء قبل أن يتفرس فيه باهتمام قائلًا:

-مهما كان الأمر، فقد أخذوا الموضوع على محمل الجد أكثر من الحرب..

قاطع هتاف بعيد حديثهما، وعندما نظرا من فوق أكياس الرمل وجدا قائد الفرقة يلوح بعلمه ويرقص، كان يشير إلى البحر. ارتقى «حسن» درجات سلم، ورفع منظاره ليرى أثر سفينة أبيض يشق طريقه عبر بحر «إيجة» داكن السواد، وأثر الدخان من سفن قوات «الأنزاك» المغادرة أثناء انطلاقهم مباشرة نحو اليونان. عندما أدرك رجال «حسن» ما حدث، أفسح الصمت المجال لموجة من الاحتفال. قبل هذا بلحظات، كانوا قد استسلموا لحتمية الموت المفاجئ والعنيف. قام انتهاء التوتر المسيطر على المكان بإزكاء شعلة القوات العثمانية المتجمعة مثل فتيل مشتعل. سجد بعض الرجال على ركبهم في صلاة صامتة، بينما أخذ آخرون يبكون ويهنئون أصدقاءهم على البقاء على قيد الحياة. لكن معظمهم أخذوا يهتفون ويطلقون النار من بنادقهم في الهواء صارخين:

- «الله أكبر! الله أكبر!»

فكر «حسن» أن القدر قد وقف في صفهم أخيرًا اليوم، بعد شهور من كونه متفرجًا سلبيًا. جلس «حسن» على حقيبة رملية ومال برأسه على جدار

الخندق. كان مأخوذًا بأهمية اللحظة الحالية، غير قادر على تحديد ما إذا كان يجدر به أن يضحك أم يبكي. بعد ٢٣٨ يومًا مروعًا من التحديق في بعضهم البعض عبر الخندق، مهاجمين بعضهم البعض بالبنادق الرشاشة، محاولين الإمساك ببعضهم البعض أثناء الذهاب إلى المراحيض، وزرع الألغام في خنادق بعضهم البعض، والاستماع إلى جرحى بعضهم البعض وهم ينزفون في أرض قاحلة بلا بشر، وأخيرًا قذف الهدايا من السجائر والطعام من خندق إلى الآخر، ها قد تسلل الغزاة هاربين خلال الليل. كان يعلم أنه يجب عليهم فعلها، قبل أن تغمرهم الفيضانات الشتوية فتُسقِطهم من فوق المنحدرات التي كانوا يتشبثون بها بعناد. هذا شيء جيد؛ كان هذا ما يصلون من أجله. ولكنه شعر للحظة يشعر بأنه قد أخذ غدرًا، لقد أعطى وجود العدو معنى لوجوده، منحه هدفًا يتطلع إليه.. ولكن الآن، ها هم قد هربوا فجأة تحت غطاء الظلام دون إعطائه الفرصة لإنقاذ أي شيء إيجابي من هذا المستنقع. ظهر «يلماز»، الصبي الجندي، وهو يركض عبر الأرض المقفرة، وهو يلهث بشدة:

- «سيدي.. لم أجد منظارك و...»

ثم صمت عندما لمح المنظار معلقًا حول رقبة الرائد.. رد عليه «حسن» نصف مبتسمًا:

- «أيها الجندي «يلماز» من «ماردين»، يبدو أن حظك جيد، فاليوم قد كُتِب لك عمر جديد.»

انطلقت الفرقة تغني أغنية شعبية تركية بينما رمي الجنود بنادقهم وبدأوا بالغناء والرقص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

تحت سماء صافية بزرقة النيل سار رجل عبر حقل واسع، يتجول في المكان بغرابة وكأنه يرقص بعشوائية؛ خطا في اتجاه معين بالبداية، ثم انحرف في اتجاه آخر بعد هذا، ثم كرر خطواته ببطء قبل أن يلتفت فجأة، حين لمحت عيناه أسفل حافة مغبرة تربة ذات لون أحمر كالصدأ. لم ينتبه قبلًا لجمال منظر شروق الشمس، بينما أول الأشعة الذهبية تمتد عبر سهول «مالي»، متلألئة فوق عشب الصيف الظمآن. توقف فجأة، وحدق في يديه المشدودتين أمامه كمرتاد الكنيسة الذي نسي الكلمات التي ينبغي عليه قولها.. تساءل بداخله كيف لم يلحظ قبلًا أن جلد يديه صار متجعدًا مثل لحاء الأشجار، فبدت يدان ذات عمر أكبر بكثير من الستة وأربعين سنة اللاتي تمثل عمره. في كل قبضة كان يمسك بأنبوب نحاسي قصير غطاه الصدأ منذ سنوات من كثرة الاستخدام. برز سلك بطول قدم منثنيًا على شكل حرف L اللاتيني من كل أنبوب، مثل مجسات قرون الاستشعار عند الجراد. بينما الرجل يتحرك، أخذت المجسات تدور هنا وهناك تستكشف المكان. تتبعهم وهم يتمايلون كأنهم في حلبة، متحينًا اللحظة التي سيتقاربون فيها؛ حيث سيجد مراده، لكنه لا يعرف أبدًا لأي مدى سيتوجب عليه أن يحفر حتى يصل لهذا المراد.

كان «جوشوا كونور» صلبًا وعنيدًا مثل الأرض التي ولد فيها، ذو بشرة داكنة كالجلد المدبوغ، وطويل القامة، بكتفين عريضين وصدر مشدود العضلات، لا يملك الرغبة ولا والوقت للقيام بمغامرة؛ نظرًا لكونه رجلًا محكوم عليه بالعمل لأيام طويلة ومرهقة تحت أشعة الشمس الأسترالية. بالنسبة له، كان التنقيب عن المياه هو الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله - تمامًا كما كان شيئًا تفعله والدته، ووالدها قبل ذلك. لو رجعت بالزمن بضعة أجيال للوراء لكانوا سيُطلقون عليهم اسم سحرة المياه. لو أنهم عاشوا في زمن أقدم قليلًا، لكانوا على الأرجح سيتم حرقهم على وتد خشبي كما كانوا يفعلون مع السحرة! ولكن هنا اليوم، في هذه المناطق النائية الأسترالية الجافة التي لا ترحم، حيث يمثل الماء الحياة أو الموت، كانت موهبة «كونور» الغريبة ثمينة بقدر ما هي عصية على التفسير. ولأنه كان قاسيًا وسريع الغضب، لم يكن الرجل الأكثر شعبية في المنطقة، ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر أن قدرة «كونور» المحيرة في الشعور بالمياه الجوفية المختفية قد أنقذت العديد من المواطنين.تسمر «كونور» مكانه وترك طرف الأسلاك يستقر، ثم انحرف في شكل قوس على يمينه، وظل كلبه الراعي كثيف الذيل يراقبه بحذر؛ فقد تعلم منذ فترة طويلة الحفاظ على مسافة معقولة بينهما.. أي تغيير مفاجئ في اتجاه سير «كونور» يمكن أن يتسبب في ركلة قوية يتلقاها المخلوق ذو الفراء في ضلوعه. تركا بصمات حذاء «كونور» وآثار أقدام الكلب فوق التربة

الحمراء تتبعهما، كثعبان يقتفي أثرهما، ويتتبع هذه الطقوس الغريبة التي تحدث عبر الحقل، ثم أشار «كونور» إلى مجموعة وحيدة من أشجار الأوكالبتوس، المنتفخة عند قاعدتها من العطش مثل شاه ميتة في موسم الجفاف، وتحدث إلى كلبه كما كان ليفعل مع طفل ذكي:

- «إنها هنا في مكان ما، هؤلاء الأوغاد لا يعيشون على استنشاق الهواء وحده.»

قبع الكلب بصبر وسط الغبار بينما ارتفعت الشمس فوق الأفق، لتقضي على برودة الفجر المتبقية في الجو.

مسح «كونور» حبة من العرق عن جبينه بظهر يده، إذ لست بحاجة إلى أي مواهب خاصة لتعرف أن اليوم سيكون قائظ الحرارة.

تكلم مع كلبه:

- «فلننتهِ من هذا الأمر يا صديقي.»

تفرس «كونور» في الأسلاك وهي تدور ببطء وتتأرجح في اتجاه، ثم في الاتجاه الآخر، ثم لم تلبث المجسات أن استقرت، مشيرة نحو مسارات موازية لنتوء صخور.

- «انظر، التربة مختلفة هناك؛ الصخور قريبة من السطح.»

اتجه حيث تشير الأسلاك، مغيرًا من اتجاهه كلما تأرجحت في اتجاه معين، ثم بدأ يأخذ خطوات أصغر، بالكاد يجر قدميه للأمام، حتى تلاقت الأسلاك واستقرت راسمة شكل صليب في الهواء. فكر بينه وبين نفسه كم أنه من الغريب أن يعني الصليب كنزًا أو خلاصًا أو موتًا - إنه فقط يعتمد على الزاوية التي تنظر منها للموضوع- وضع «كونور» علامة على البقعة بكعبه، وأخذ يحفر في الأرض وهو يشير إلى كلبه:

- «اهدأ يا فتى... ابق مكانك.»

استقر الكلب على قائمتيه الخلفيتين، منتظرًا «كونور» الذي عاد إلى فرسته وعربته، يحدق بعينيه الزرقاوين في مواجهة ضياء الصباح الحارق للعينين، لا يوجد شيء سهل بخصوص هذه الأرض. وبينما بدأت الأرض تُمسي أكثر دفئًا، استيقظت أوركسترا الحشرات الصاخبة؛ خطا «كونور» خطوات واسعة متزامنة مع إيقاعها، بينما انطلق أزيزها الحاد يشق الهواء. وقفت الفرسة بصبر في ظل شجرة صمغ عربي متهالكة، تلوح بحوافرها وتنفض أذنيها لدرء مد الذباب الأسود الذي يرتفع وينخفض من حولها. هي تعرف النظام؛ لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة اضطر فيها «كونور» إلى ربطها على السكك

الحديدية.. وهي ليست من النوعية التي تنطلق لتتجول هنا وهناك، ثم أين ستتجول على أي حال؟ شعر «كونور» بالجفاف الشديد كأنه قطعة من الإسفنج، فأخذ رشفة من زمزميته ثم قفز على مقعد العربة قائلًا:

- «حان الوقت لكسب رزقك أيتها العجوز!»

قالها وهو يربت عليها بمودة ويشد لجامها، فبدأت الفرسة تتحرك بتوجيه «كونور» نحو البقعة البعيدة حيث يقف الكلب للحراسة. سارعت الفرسة من خطواتها، مثيرة موجة حمراء من التراب في هواء الصباح الصافي، فاستمتع «كونور» بالسرعة التي جعلت الرياح الباردة تندفع إلى وجهه، وقد تركت خلفهم سحابة كثيفة من الغبار وكأنها دخان يحجبهم عما خلفهم. وتمايلت العربة واهتزت مع تحرك حمولتها المكونة من أغصان معقودة مربوطة في حزم، وحبال ثقيلة، ودلو قماشي مربع، ومجارف ومعول. رآهم الكلب يقتربون فتململ في مكانه بعصبية. لن تكون المرة الأولى التي ينتهي فيها المطاف به تحت أحد حوافر الفرس.

- «اثبتي مكانك يا فتاة»

سحب «كونور» زمام الفرسة، موقفًا العربة، ثم قفز عنها إلى الأرض وانحنى يخمش الكلب بخشونة خلف الأذنين.

- «فتى مطيع، الأسرع على الإطلاق، أليس كذلك؟»

أفرغ «كونور» العربة، ووضع معداته بعناية في أكوام منظمة، ثم انحنى فوق العلامة المرسومة على الأرض ورفع الفأس فوق رأسه، متمتمًا:

- «دعنا نأمل ألا يكون الأمر عميقًا جدًا هذه المرة، اتفقنا؟»

تحرك الكلب بسرعة بعيدًا، بينما هوى «كونور» بالفأس على الأرض الصلبة، وكان لارتطامه صدمة قوية هزته، وترددت عبر ذراعيه، مما جعل أسنانه تصطك معًا. رفع «كونور» الفأس مرة أخرى، وهوى به من جديد. مرة بعد أخرى، بدأت الأرض الصلبة تستسلم بصعوبة تحت تأثير ضرباته وتتفتت؛ لتنزاح الكتل الحمراء الصغيرة جانبًا بينما هو يغرس الفأس بشكل أعمق. صارت التربة رخوة بما يكفي الآن لغرس المجرفة. غرس «كونور» المجرفة في التراب، بينما أنَّت عضلات ذراعيه وظهره وهو يُفرِغ الدلو الأول مما يعرف أنه سيكون الأول من كثير. حدق في قاع الحفرة الضحلة، ونظر بترقب لسواد التربة، وتسرب الماء التدريجي في التراب، والذي علم أنه سيُنبئه عندما يقترب من هدفه.

نظر «كونور» إلى الكلب الذي جلس ثابتًا كالعادة، متابعًا كل حركة تصدر عن سيده.

- «من حق المرء أن يتحلى بالأمل، أليس كذلك؟»

ارتفعت الشمس عاليًا فوق الأفق اللانهائي، فشعر «كونور» بالحرارة المتزايدة على جلده، وأول أثر للعرق يتدفق بين لوحي كتفه لما أسفل ظهره وتحت حزامه. انحنى ورفع الفأس مرة أخرى:

- «من الأفضل أن ترتاح في مكان ما، ستكون معركة اليوم يا صديقي.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالنسبة لـ«كونور»، اختفى النهار مثل السراب في العيون التي لدغها العرق المالح. قضى ساعات داخل الحفرة وسط دلاء من التراب والصخور، تحت السطح ببضعة أقدام. واحد، اثنان، ثلاثة... في كل مرة كان يخرج وسط الظلام، وقد غزته الكآبة، ويرمش بعينيه مثل البومة، يتتبع الشمس المتلألئة عبر السماء، مراقبًا الظلال وهي تستطيل. أربعة عشر، خمسة عشر.. انتهت فقرة صياح الببغاوات بمنتصف النهار أثناء هجومهم وتحليقهم عبر السهول. ومع اقتراب الغسق، كان «كونور» محاطًا بضجيج الصراصير ونداء الببغاوات الساخرة التي تحلق أعلى شجرة ضخمة قريبة، أما الليل فسيكون مخصصًا للهجوم المضاد.حدَّق الكلب في سيده، المنشغل بالعمل في الأعماق تحت سطح الأرض الآن، وسط حفرة محفورة بدقة، إذ دعَّم جدران البئر بسقالات من فروع الشجر، المتشابكة والمربوطة بشكل دقيق بحبل لتقوي الجدران الترابية الهشة المتهالكة. انحنى «كونور»، فشعر بالألم وقد استهلكت قواه بتقيد حركة جسده الضخم بحدود البئر، فلم يتمكن من الانحناء بالكامل. وأجفل وهو يرفع دلوًا قماشيًّا مليئًا بالتربة الحمراء الموحلة، ويقوم بربطه بالحبال، ثم تسلق الأخشاب الداعمة إلى السطح ورفع الدلو، ورفع الحبل بيديه، فشعر بالألم الحارق يغزو سطح كفيه المتشققتين.أفرغ «كونور» التراب البارد على الغبار الساخن الذي لا يزال يحمل دفء أشعة الشمس، ثم انتصب واقفًا، واضعًا يديه على وركيه، وقد بلغ منه التعب مبلغه، ونظر لأسفل نحو الكلب، والذي يرقد الآن على جنبه مكشرًا عن أنيابه للذباب.

أخذ «كونور» يتنهد بعمق من الإرهاق، قبل أن يعود نازلًا إلى الحفرة. جثم أرضًا، وأخذ يلمس التربة بين أصابعه. كانت مبللة. لا شك في ذلك. لا يمكن أن يكون هدفه بعيدًا الآن. هذه الرطوبة دليل على هذا. تمتم لنفسه:

- «حان الوقت لإثبات من هو الذي يمسك مقاليد الأمور هنا!»

أمسك عمودًا طويلًا من الفولاذ كان مسنودًا على الحائط خلفه – يكاد يكون في طول «كونور» نفسه تقريبًا- ومسطّحًا عند أحد طرفيه بشكل يشبه الإزميل. رفعه فوق مستوى رأسه قبل أن يهوي به داخل الوحل، فلم تلبث الأرض أن تكشفت عن بعض ما بداخلها. تشقق وريد من الحجر الأحمر،

واندفع الماء للخارج مثل النافورة. رفع «كونور» العمود الفولاذي وضرب به مرة أخرى وهو يطلق زئيرًا احتفاليًا منتصرًا لا يلاقي جمهورًا باستثناء الكلب والحصان والمناظر الطبيعية القاحلة الفارغة من البشر. وتشتت ذهن «كونور» للحظة فلم يلحظ سرعة ارتفاع الماء، الذي كان قد وصل حتى ركبتيه بالفعل. في العادة لا ترتفع المياه أبدًا بهذه السرعة. أمسك بأدواته، وشرعت يداه تتخبطان تحت سطح الماء وهو غير قادر على رؤيتهما، حتى وصل إلى السلم، ورمي المجرفة والدلو قبل أن يخرج إلى السطح. لم يصل الفأس لمسافة بعيدة بما فيه الكفاية، وإنما اشتبك بفرع بارز، قبل أن يتدحرج إلى أسفل العمود وسط دوامات من الماء الأحمر. بوسعك ترك الفأس، يجب أن تتركه، ولكن كيف ستتمكن من العثور على فأس آخر هنا في هذا المكان البعيد عن أي شيء؟

أخذ «كونور» يطلق لعناته قبل أن يعود إلى أسفل البئر ملقيًا بنفسه في المياه لاسترداد الفأس، عندما عاد للسطح مرة أخرى، كانت عيناه تحرقانه من الماء والطمي، فمد «كونور» جسده، وأخذت أصابعه تتحسس مكان العارضة، ليس من العدل أن يحدث هذا في نهاية اليوم وهو منهك هكذا! أمسكت يده المرهقة بفرع وأخذ يرفع نفسه للأعلى. فجأة انخلع الفرع من الجدار، قبل أن يرتطم بجبهة «كونور» فيصيبه بالدوار، فسقط للخلف وهو يصارع يائسًا من أجل القبض بيده على شيء ما يحفظ توازنه، في حين أخذت المياه المتصاعدة تقوض السقالات، وأخذت الفروع تخدشه بمخالب حادة. والكلب ينبح بجنون حول الحفرة المنهارة، بينما كافح «كونور» لإبقاء رأسه فوق المياه المتدفقة. شاهد نجوم بيضاء تتفجر أمام عينيه من الضربة التي أصابت رأسه، وهو يحارب الضباب الرمادي الذي يهدد بالنزول فوقه. نظر لأعلى نحو دائرة السماء التي تطل عليه، تحفها حلقة من الفروع الملتوية، وبينما ينزف الدم من فروة رأسه المجروح، كان كل ما يراه هو تاج من الشوك. شعر بأن الماء ينظف عرق وغبار النهار عن جلده فيمحوه، بينما شعور مخدر يسيطر على جسده، فترك جسده. لقد اكتفى من القتال. سيستسلم.. أغلق عينيه متقبلًا ما لا مفر منه. عندما ارتفعت المياه إلى السطح وضعت الحل في متناول يده؛ صارت فتحة البئر الآن فوق رأسه مباشرة. وهنا بدأت غريزة البقاء لدى «كونور» في العمل. لم يتقبله الاستسلام، سواء كان ذلك للقدر أو للحظ أو لقوة أعلى، تصارع «كونور» مع هذا الحدث يوميًا، ولم يستسلم أبدًا. مد يده ليمسك الحافة ويسحب نفسه إلى بر الأمان، قبل أن ينهار على الأرض الصلبة. أخذ الكلب يلعق وجهه الملطخ بالدماء وهو يئن، فدفعه «كونور» بعيدًا:

- «شكرًا على كل المساعدة التي قدمتها هناك يا صديقي»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ضوء المساء، وقف «كونور» تحت دش الاستحمام المصنوع يدويًا في الحمام الضيق، ومن خزان حديدي معلق على حامل انسال تيار من المياه الصافية فوق جسده. خلع عن نفسه ملابسه الداخلية المبللة وسرعان ما تحول لون المياه التي دفئتها الشمس إلى اللون الأحمر وهي تُقشِر طبقات الغبار عن صدره وظهره، أخذ يفرك شعره، فارتجف كلما لامست أصابعه الجرح الغائر في فروة رأسه، وأزال الدم المتجلط من شعره، لكي لا يزعج منظره «إليزا». خلفه كانت هناك طاحونة، تصدر ضجيجًا بينما تضخ الماء من البئر العميق بالأسفل، نظر «كونور» عبر الفناء نحو منزلهم المتواضع، والذي بناه بنفس الأيدي التي تكافح الآن لحمل قطعة من الصابون ودفعها نحو إبطه، كان قد جلب كل أدوات البناء بنفسه، حمل الطوب الأحمر والألواح الحديدية من بلدة «هورشام»، وحفر الأساسات، وقام بإعداد الألواح الخشبية، وغطى الجدران بورق الحائط كذلك. تذكر ركوبه طوال الطريق إلى «أديلايد» لانتقاء موقد الحطب، كان يعمل في النهار وينام تحت النجوم ليلًا لبناء هذا المنزل، كل ذلك من أجل الأسرة التي كان يأمل أن تأتي. كان المنزل يواجه الشمال لالتقاط أشعة الشمس في أعماق الشتاء عندما تهب الرياح الباردة عبر السهول من الجنوب، وتحجبه عن شمس الصيف شرفة واسعة. كم مرة قصت «إليزا» على الأولاد عن اليوم الذي تراجع فيه والدهم إلى الوراء وقد وضع يديه على وركيه، لكي يُقَيِم العمل الذي قام به؟ كان يرتدي الزي الذي يرتديه يوم الأحد للكنيسة، وهو أفضل ما لديه من ملابس، وانطلق إلى المدينة ليخبر «إليزا» حبيبة طفولته بما فعله، وعندما رأت ما قام ببنائه من أجلها في وسط ذلك المكان القاحل، فهمت كم يهتم هذا الرجل الخجول القوي لأمرها، وبكت، فكان الأولاد يضحكون قائلين:

- «من الذي... أبي؟»

ألقى «كونور» نظرة نحو نافذة الخليج، حيث ظهر ظل «إليزا» على ستائر الدانتيل، والإضاءة الآتية من الخلف عبارة عن ضوء فانوس الكيروسين، وظهرت وهي تداعب خصلات الشعر المتساقطة حول صدغها بشرود. قام «كونور» بإغلاق الدش، وجفف نفسه، وسار بطول المسار الخرساني، فمر بجوار صف من الورود الصفراء والحمراء المُعتنى بها جيدًا، وقد تدلت أرجوحة مصنوعة من إطار مطاطي من شجرة عتيقة، بينما هبت نسمة من نسيم المساء، فتأرجحت مجموعة من ملابس الأولاد، المرصوصة بدقة على حبل الغسيل، كأنها مجموعة من الخفافيش؛ سراويل قصيرة، وتنانير، وقمصان، وجوارب، بعضها مقاسها صغير جدًا لدرجة تجعل من المستحيل تخيلهم يلائمون إنسانًا. رمى «كونور» ملابسه المبتلة في حوض غسيل نحاسي، ثم سحب بعض الملابس الجافة من خطاف بالقرب من الباب

المغطى بالأسلاك لمنع الحشرات في الجزء الخلفي من المنزل، وارتدى ملابسه ببطء متعمد، ثم تناول مشطًا من كوب مشروخ من موضوع على نضد صغير، ومرره عبر شعره، مرت لحظة من الهدوء حيث يفسح النهار للمساء طريقًا، فتهدلت كتفا «عراف الماء» وزفر بارتياح فيما يبدو له وكأنها أول مرة يفعلها اليوم.

تأرجح الباب الشبكي وأصدر صريرًا قبل أن ينغلق، ففكر في نفسه:

- «يبدو أن هذا المفصل يحتاج لبعض التزييت سأهتم بالأمر صباح الغد».

جلست «إليزا» على المنضدة، وقد انحنت منهمكة في مهمة ما، رفعت رأسها نحو «كونور» ومنحته ابتسامة جافة.. على الرغم من أنها لا تزال تتمتع بنفس البشرة الناعمة ونفس العينين الخضراوين الصافيتين كما كانت عندما وقع في حبها، فإن الخطوط الرمادية التي بدأت تغزو شعرها تنفي شبابها القريب وتشير إلى الهشاشة التي تزحف نحوها.. بدت «إليزا» وكأنها تختفي؛ تنطوي على نفسها.. أصبح الخط الحاد لأنفها الناعم والحفر الداكنة تحت خط فكها أكثر بروزًا كل يوم، بالماضي كانت تملأ فساتينها ذات الخصر الضيق بجسدها البض الناعم، الآن صارت تقوم بحياكة أجزاء جديدة في ملابسها لإخفاء جسدها الهزيل، وكلما حانت الفرصة لـ«كونور» لاحتضانها، كان يشعر بأنها هشة جدًا، كأنها حفنة من عظام الدجاج. لم ينته اليوم بالنسبة لها بعد، كانت تعمل بالفرشاة وقطعة قماش لتلميع مجموعة من أحذية المدارس حتى تلمع كالمرايا، وقد تلطخ مفاصل أصابعها كتل بنية صلبة.

- «ليزي»؟ هل كل شيء على ما يرام؟»

لم تنظر إلى الأعلى في محاولة لتجنب نظرته.

- «العشاء جاهز.»

نظر «كونور» نحو الطاولة حيث قبعت وجبة غير شهية تكفي شخصًا واحدًا؛ لسان الثور المضغوط البارد، والخردل المخلل، وبعض شرائح الخبز. بجانب الأطباق كانت هناك رزمة صغيرة ملفوفة بورق بني اللون، مفتوحة ولكن وجهها لأسفل، تحرك نحو الطاولة.

- «ما هذا يا «ليزي»؟ من أرسله؟»

قامت «إليزا» بدعك حذاء صغير قبل أن ترفعه أمام ضوء الفانوس، ويلين وجهها وهي تنظر إلى «كونور»:

- «بحق السماء! لقد مزَّق «آرثر» منطقة الأصابع بحذائه مرة أخرى.. ماذا يفعل بهم بحق السماء؟»

تابعت بشكل روتيني: «الأولاد جميعًا بأسِرتِهم. إنهم ينتظرون منك أن تقرأ لهم حكاية قبل النوم.»

- «أنا متعب للغاية يا «ليزي»».

- «يجب ألا تخيب ظنهم يا «جوشوا».. إنه جزؤهم المفضل من اليوم. لقد ظلوا مستيقظين خصيصًا بانتظارك.»

وافق «كونور» بإيماءة مستسلمة، وسحب جسمه المشبع بالماء عبر الصالة باتجاه باب غرفة النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس «كونور» ببطء وحذر عند نهاية واحد من الثلاثة أسِرة. ابتسم ثم التقط كتابًا صغيرًا ذا غلاف جلدي أزرق اللون من على طاولة السرير، فتحه وشرع بقراءة «ألف ليلة وليلة»، وهو الكتاب المفضل لدى الأولاد:

«اتصل الأمير «حسين» بالرجل وسأله لماذا كان البساط الذي يبيعه باهظ الثمن؟ فأجابه التاجر: «لا بد أنه مصنوع من خامة غير عادية.» أجابه التاجر، «أميري، ستتعاظم دهشتك عندما أخبرك أنه مسحور!»

انجرف صوت «كونور» المعسول الواثق عبر الغرفة:

- «من يجلس على هذا البساط السحري ويغمض عينيه يمكنه الانتقال عبر الهواء في لحظة إلى أي مكان يرغب فيه».

أغلق «كونور» الكتاب وأراح يده على تجويف المرتبة حيث من المفترض أن يرقد ابنه، فيما لمع ضوء القمر في النافذة وأضاء ثلاثة أسِرة فارغة، باردة ومرتبة، وقد افتقدت الوسائد البيضاء الرؤوس الصغيرة النائمة، بينما افتقدت الملاءات المرتبة بدقة الأجساد النائمة التي تفوح منها رائحة العرق.. كان بمفرده بالغرفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن تمالك «كونور» نفسه، خرج من غرفة النوم، أغلق الباب ثم سار وحيدًا عائدًا إلى منضدة المطبخ، جلست «إليزا»، وقد تقاطع ذراعاها، وصار قلبها يلمع من الألم مثل الأحذية التي اصطفت أمامها. استقر «كونور» على المقعد المواجه لها، لا يصاحبهما غير الطرد البني الصغير، وسنوات من الحزن الجاثم بينهما، وقد ظل عشاؤه كما هو في الطرف الآخر من المنضدة. كان «كونور» يقرأ للأسِرة الفارغة منذ أربع سنوات، منذ وصول أول برقية من الجيش لتخبرهم بأن «هنري» كان مفقودًا للأسف، وهناك اعتقاد بأنه مات. توسلت «ليزي» أن يقرأ له يوميًّا:

- «اقرأ له.. سأغمض عينيّ وأتخيله موجودًا هنا بأمان. هو فقط مفقود.. ليس ميتًا».

وافقها «كونور» لمواساتها، بدا أنه الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله للمساعدة. في غضون أسبوعين وصلت البرقية الثانية؛ «إدوارد» قد اختفى في نفس يوم اختفاء أخيه، لكن تلك الرسالة تأخرت لأنها ضاعت؛ أُرسِلت إلى عائلة أخرى تدعى «كونور» في «كوينزلاند»! تخيل «كونور» الارتياح الذي شعرت به الأُسرة الأخرى عندما أدركوا أن البرقية ليست لهم، ولكم رغب «كونور» أن يكون السيد «كونور» من «بريسبان». عندما رأت «ليزي» مدير مكتب البريد يصل إلى أمام المنزل ممسكًا بقطعة ثالثة من الورق الوردي في يده، ركضت خارج الباب الخلفي، وسحبت ذراع «كونور» وتوسلت إليه أن يختبئ أيضًا..

- «لا تدعه يُسلمها.. إذا لم نستلمها، فلن تكون حقيقية!»

كان الأولاد الثلاثة قد فُقِدوا في نفس اليوم!

كان «كونور» على يقين من أن قسوة الوصول المفكك للرسائل هي التي بدأت تفكك قوى «ليزي» العقلية! في كل مرة يمسك فيها الزوجان ببعضهما البعض على السرير، كانت «ليزي» تصرخ حتى صار صوتها أجشًا وصارت عيناها غير قادرتين على البكاء أكثر من هذا. أخذ جسده يرتجف دون قدرة منه على التحكم، بصعوبة يبتلع حزنه ويشعر به يرتد داخل صدره فيتسبب في كدمات في قفصه الصدري من الداخل، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه البرقية الثالثة كان قد أصيب بصدمة شديدة لدرجة منعته من الحزن كما ينبغي؛ نطق اسم «آرثر» باستسلام حزين مصدرًا صرخة واحدة عالية وانتظر طوفان العواطف ليهب، لكن ذلك الطوفان لم يأتِ، كأنما تم كيّ روحه نفسها من الداخل للخارج. في العام التالي عاشت «ليزي» في جحيم بلا نوم. كانت تقنع نفسها بـ»سأفترض أنهم لم يموتوا.. هذا هو ما تقوله الخطابات.. مفقودين، لم يقولوا ميتين!» وهو ما كانت تقول في أي وقت يخطئ فيه ويتحدث عن أي من الأولاد بصيغة الماضي. في البداية كان «كونور» يقوم بالقراءة في غرفة فارغة لمنح «ليزي» بعض السلام، لكن عندما حاول التخلي عن تلك العادة صرخت فيه واتهمته بأنه يريد قتل الأولاد. فأدرك أن رواية القصص بالنسبة لها قد تجاوزت فكرة الراحة وأصبحت الآن بمثابة قداسًا، بنفس الطريقة التي أصبح بها تلميع الأحذية من الطقوس. بعد فترة طويلة من استسلام «كونور» وفقدانه الأمل في أن أبناءهم لا يزالون على قيد الحياة، ظلت «ليزي» محافظة على إيمانها. في عقلها المضطرب كان فعل القراءة اعترافًا بإيمانها هذا. مد «كونور» يده، وشعر بخشخشة الغلاف الورقي والخيوط الخشنة والشكل الواضح لكون كتاب هناك داخل تلك

اللفافة. قلبها، ونظر إلى أسفل ورأى طرفها المفتوح وعلامة مألوفة للغاية للقوات الأسترالية الإمبراطورية... لا... كيف؟ لماذا الآن بعد مرور كل تلك الفترة من الوقت؟ أعاد وضعها على المنضدة، وحكى لها مغيرًا الموضوع:

- «حسنًا، سقطت في الماء، وجدته على بعد خمسة عشر قدمًا، الماء قليل الملوحة، لكن الضغط جيد... كان الضغط أقوى من اللازم في الواقع»

نظر «كونور» لأعلى ولمح الدموع تنهمر من عيني «إليزا» بينما هي تحدق في الطرد:

- «لم يمسحوا الوحل عنه حتى»

- «لقد مرت أربع سنوات يا ليزي»

لمعت عيناها.

- «أجل، ماهر للغاية، أحسنت عملًا. تستطيع أن تجد الماء، لكنك لا تستطيع أن تجد أطفالك! لقد أضعتهم»

ألقت قطعة القماش من يدها، ونهضت بعنف وهي تبكي دافعة الكرسي لأحد جوانب الغرفة، فانقلب متحطمًا بصوت تردد عبر المنزل الفارغ. حاول الإمساك بها لكنها هربت وسط هذا المنزل البائس المنعزل، حيث يقع أقرب الجيران على بعد أميال عديدة، وأخذت تنتحب متجهة صوب الملجأ الوحيد المتاح لها، انغلق باب غرفة نومهما بدوي عالٍ. شعر «جوشوا كونور» بموجة مألوفة من العجز تهاجمه، لقد مر وقت طويل منذ أن عرف كيف يقوم بتهدئة حزن «إليزا».. التقط الطرد من على المنضدة وفض الغلاف الورقي؛ كان بالداخل دفتر يوميات متهالك يغطيه الطين. قام «كونور» بطي الغطاء الجلدي بحذر شديد وحاول فصل الصفحات الهشة بالداخل عن بعضها. بالداخل تراصت مجموعة عشوائية من الرسائل المكتوبة بخط اليد والرسومات غير المكتملة، والرسوم الكاريكاتورية، والخرائط، ووسطهم كانت هناك صورة مجعدة تم التقاطها في ستوديو تصوير.. كانت الصورة تمثل ثلاثة شبان وسيمين في الزي الرسمي للقوات الأسترالية الإمبراطورية، وقد وضع كل منهم ذراعه بفخر على كتفي رفيقيه، وقد زينت ابتسامة كبيرة الشفاه. كان «آرت» و«هنري» و«إيد» هم فخر المقاطعة كلها؛ كان ثلاثتهم طوال القامة، وذوي عيون زرقاء، وكلهم يجيدون لعب كرة القدم والكريكيت، إذ كانوا الإخوة الثلاثة الوحيدون في أستراليا الذين سجلوا كل تلك الأهداف في نفس اليوم! هكذا تفاخروا، بدون محاولة إثبات أقوالهم، وعندما تحدى «آرت» ذات مرة، كان يرد:

- «حسنًا، لم أسمع عن أي شخص آخر، هل سمعت أنت؟»

كما لو كان هذا تأكيدًا كافيًا.. في عيني «ليزي»، مات أولادها وهم يبدون بمظهر مثالي، لكن «كونور» يفضل أن يتذكرهم بالبثور ويستمتع بتذكر كل عيوبهم. «آرثر»، أكبرهم، كان ليكون في الخامسة والعشرين الآن، ورث عناد والده وحس الشرف، بالإضافة لما ورثه عنه من الشعر البني، ومع نضج الابن أخذ «كونور» يتساءل عما إذا كان عناد هذا الصبي الشديد سيتحول مع الوقت إلى نوع المثابرة والقوة الذي يحتاجه المزارع بالمكان. ليس وكأن لهذا أي أهمية الآن، لكن «كونور» كان يتطلع إلى رؤية أي نوع من الرجال كان «آرت» سيصبح. أمَّا «هنري» فكان أصغر من «آرت» بعامين، وكان يشعر دومًا بأنه محبوس بين أخويه، لهذا كان دائمًا ما يحارب بضراوة من أجل الظفر بنصيبه من الاهتمام والحب. كان «هنري» أكثر صلابة ولديه بنية عضلية أقوى من «آرت» و«إدوارد»، وكان هو منقذهم في ملعب كرة قدم، فيندفع للدفاع عن أخويه إذا أصيب أحدهما بلكمة من كوع طائش أو قبضة من الخصم. لم يكن يعرف الخوف. لن ينسى «كونور» أبدًا اليوم الذي وجد فيه «هنري» -وكان وقتها يبغ من العمر حوالي الثانية عشر- يقف على سطح السقيفة يستعد للقفز نحو كومة من التبن. كانت قفزة من ارتفاع عشرين قدمًا مثلًا؛ أربعة أضعاف طوله على الأقل. صرخ «كونور»:

- «لا تكن أحمق.. سوف تكسر شيئًا في جسدك!»

فصرخ «هنري» وهو يقفز:

- «لا، لن يحدث.. لقد فعلتها بالفعل أربع مرات من قبل».

كان «كونور» يعلم أن ما يفعله غير منطقي، لكنه مرر أصابعه فوق الصورة، متخيلًا منظر بقعة الضوء على خدود أولاده وشعرهم الخشن. تعرف على اللمعان في عين «إدوارد»، الوغد الصغير الجريء، عندما جُنِد في السابعة عشر كذب بشأن عمره، فهددت «ليزي» وقتها بالكتابة للجيش والإبلاغ عنه لكنه تمكن من إقناعها بألا تفعل.

- «أمي، لا تتعبي نفسك بفعلها. بحلول الوقت الذي تكتبين لهم رسالة وترسيلها وتصل لهم، ثم يكتبون ردًا عليكِ، سأكون قد بلغت الثامنة عشرة على أي حال»

بالنسبة لـ«كونور»، لم يكن السن يعني شيئًا. سواء كانوا سبعة عشر عامًا أو سبعين، لا يزال «آرت» و«هنري» و«إيد» أولاده الجامحين الأذكياء المشاكسين، الذين كانوا سيتبعون خطاه ويعملون بهذه المزرعة. كانت هذه هي الخطة على أي حال، حتى قُتِلوا بالرصاص في مكان ما يدعى «جاليبولي»! اعتاد أن يشعر بفقدانهم كألم حاد يخترق أمعاءه، كان الألم أكثر

مما بوسعه أن يتحمل. أعاد «كونور» الصورة إلى دفتر اليوميات وقلب الصفحات حتى وصل إلى الصفحة الأولى، قرأ المكتوب:

«آرثر كونور: رحلتي الكبرى، ١٩١٥.»

لن ينسى «كونور» أبدًا كيف كان يلوح لهم، كمجموعة من الثيران في الربيع، كما لو كانوا سيذهبون في عطلة. عناق منضبط، تبادل القليل من الكلمات، ثم سرعان ما دفع الجنود «آرت»، و«هنري» و«إدوارد» بعضهم البعض وهم يتبادلون التربيت على الأكتاف، أثناء اعتلائهم لخيولهم، قبل أن ينطلقوا في سرعة حتى اختفوا بعيدًا عن الأنظار في الأفق، تاركين وراءهم سحابة من الغبار. كانت مداخلات دفتر المذكرات الأولى مفصلة ومعبرة. انزلق خطاب من بين الصفحات ومعه صورة صغيرة لفتاة جميلة ذات شعر بني طويل وعينين ضاحكتين وابتسامة مشرقة، إنها حبيبة «آرت» المدعوة «إيديث». في الصفحة التالية كانت هناك ورقة شجر مجففة... قلَّب «كونور» الصفحات حتى وصل لنهاية دفتر المذكرات، أصبحت المداخلات موجزة وسريعة، تحكي تحركاتهم، حتى وصل للصفحة الأخيرة كُتب فيها بتاريخ ٥ أغسطس: «صرت وحيدًا بلا رفيق. الجو حار وكأننا في الجحيم، وربما أسوأ.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

عكر الرعد الأرجواني صفاء السماء فوق الشواطئ، ثم لم تلبث لمحات من البرق أن ظهرت فكسرت حدة الظلام.. أم تراه ليس برقًا بل ومضات من نيران القذائف؟ رقد شاب جريح بين المئات –ربما الآلاف- من المقاتلين الملطخين بالدماء، بينما تناثر من حوله الطين والدماء بشكل مخيف، المعركة محتدمة؛ بصخب يصم الآذان.. كانت الأعصاب محطمة والجميع يرتجف. هل كان قصف الرعد، أم تراها قذائف الهاون؟ من المستحيل أن تعرف، وسط الأجساد التي سيطرت عليها تشنجات لا إرادية. كان وجهه ملطخًا بالدماء، والألم يسيطر على جسده، وسط نيران البنادق وتصادم السيوف والحراب قبل أن تشق طريقها داخل الأردية الخاكية والجلد. وتُصفر الطلقات وهي تنطلق لتقتحم الأجساد كما تشق الحجارة طريقها عندما تضرب سطح الماء، بينما الانفجارات مستمرة في كل صوب. اهتزت الأرض الموحلة من ارتطام قذائف المدفعية وهي تسقط من السماء، عند هذه اللحظة أغمض عينيه بقوة وضغط بقبضتيه على أذنيه لحجب الضوضاء، وبصوت غير مسموع، أخذ يتمتم:

- تانغو. تانغو.

بصوت أعلى:

- تانغو!

ارتفع صوت عالٍ، كأنما هناك حذاء يجاهد ليخرج نفسه من الطين، ودون أن يشعر بالمفاجأة، أحس الجندي بحركة الأرض. وبما أن من حوله لا يرونه، فقد شرع في القيام، ليعلو فوق كل تلك الفوضى ويصبح مرئيًا، بالأعلى كانت هناك سجادة تركية صغيرة مبللة بالطين، سار عبر ساحة المعركة المروعة، يمر فوق رؤوس الجنود بالأسفل. نظر إلى أسفل دون شعور، متفرسًا في مشهد الدمار الذي خيم عليه الصمت الآن، مر بجندي عثماني في سلة منطاد مراقبة، فلم يلقِ له بالًا.. هواء نظيف.. الصمت. أخذ يحدق في النجوم بينما اتخذ البساط طريقه وسط تيارات النسيم، فوق بحر هادئ يغطيه ضوء القمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

صرخ الكلب بيأس عند الباب الشبكي، وأخذ يخدش ويخربش في شبكة الذباب بمخالبه. بدأ «كونور» يستيقظ، شاعرًا بتيبس جسده من ليلة قضاها نائمًا على كرسي بذراعين. سقط دفتر مذكرات «آرت» من فوق ساقه على السجادة وهو يخطو متعثرًا نحو الباب، يراوده الشعور بأن هناك شيء رهيب قد حدث!

اندفع «كونور» عبر المنزل إلى المطبخ، كانت روائح وأصوات الصباح المعتادة – قعقعة القدور والمقالي؛ جلجلة الأطباق وأدوات المائدة التي تهبط على المنضدة الخشبية؛ طقطقة الأخشاب في الموقد؛ وقطع اللحم المشوية- غائبة. كانت الغرفة الصغيرة فارغة باردة، وقد خمد الجمر في الموقد واسوّد.

- «إليزا»! «ليزي»!

طافت بعقله ذكرى باهتة لخطوات «ليزي» الخفيفة على ألواح الأرضية وشفتاها الرقيقتان تقبلان جبهته وهو نائم على الكرسي. هل كانت حقيقية أم أنه تخيل كل هذا؟

فتح الباب فأعمته شمس الصباح الباكر للحظات أخذ الكلب ينبح وهو يخطو ذهابًا وإيابًا على طول المسار الخرساني، تاركًا أثار أقدام موحلة وراءه.. وعند رؤية سيده «كونور» يخطو للخارج، اتجه الكلب نحو الطاحونة والسد، ناظرًا إلى الوراء للتأكد من أن سيده يتبعه، فيما كان هناك شعور مقبض بأن مصيبة قد حدثت يسيطر على «كونور»!

- «ليزي»؟ «ليزي»!

أخذ يصرخ وهو يركض بسرعة عبر الفناء ويقفز من فوق سياج حديقة الورود المنخفض. لم يبال بالأشواك التي أخذت تنهش قميصه وجلده ممزقة إياهم، وبينما يعبر «كونور» الحاجز الترابي المحيط بالسد، لاحظ كومة مطوية بعناية من الملابس المكدسة فوق التراب.. وهنا شعر بقلبه يغرق!

لا، ليس الآن.. لا ينقصه هذا!

شعر بالتراب يتخلخل تحت حذائه، بينما تدور زرقة السماء فوق رأسه. أخذ عقل «كونور» يدور بشكل ميؤوس منه في كل التفسيرات الممكنة، ربما ذهبت للسباحة؟ للغسيل؟ ولكن في أعماق قلبه أدرك أنه يعرف الحقيقة.

لا! أين أنتِ يا «ليزي»؟

وصل «كونور» إلى حافة السد، وهناك رأى «ليزي» تطفو تحت السطح، وقد غلفت المياه المليئة بالصدأ جسدها بغلالة من ضوء بني شفاف. كانت مستلقية ووجهها لأسفل، وذراعيها ممدودتين، وشعرها الطويل منتشرًا حول جسدها ويحيط برأسها كأنه هالة؛ بينما انتفخت تنورتها لتطوق ساقيها المتباعدتين. مرت نسمة دافئة فحركت الماء في السد، موجات بالكاد محسوسة تكسر السطح وتتموج برفق حول جسم «إليزا» الذي انجرف مع المياه. كانت حركة المياه الهادئة عامرة بالسلام بشكل غريب، جعلت أصابعها تتمايل وكأنها تلوح مودعة إياه.

زمجر «كونور» وهو يُنزِل الجسر إلى الماء بسرعة، متجهًا نحو «إليزا» بينما أخذ الطين يعوق حذاءه.

كان الماء ضحلًا في البداية، ولكن مع كل خطوة يخطوها مسرعًا كانت أرضية السد تنخفض حتى وصل الماء الى صدره، وما إن وصل إليها حتى مد يده لينتشل يد «ليزي» الباردة، وقَلَبَها على ظهرها ساحبًا إياها نحوه.. أزاح الشعر عن وجهها وضغط بشفتيه على جبهتها باكيًا:

- يا إلهي! لا يا«ليزي»! أرجوكِ، لا! ماذا فعلتِ؟

وقف «كونور» في حزن صامت، يحتضن زوجته بينما الماء يصل إلى جذعه. إنه خطؤه. لقد أغفل عن حراستها للحظات، لكن تلك اللحظات كانت كافية، سقطت دموعه على المياه الداكنة بلون الشاي، ها قد حصدت الحرب ضحية أخرى لن تذكرها!

بدأت الشمس تصب جام غضبها على رأس «كونور»، قبل أن يتجه نحو حافة السد ويريح جسد «إليزا» المرتخي بين ذراعيه على الشاطئ الموحل، ضغط بوجنته فوق وجنتها وهو يهزها يمينًا ويسارًا.

حدق في وجهها الجميل للحظة، وقد صار لون عينيها الأخضر الشفاف قاتمًا الآن، وتحول لون شفتيها الناعمتين القرمزيتين إلى اللون الرمادي، بلطف وبكاء التقط العيدان وأوراق الشجر من شعرها.

جلس الكلب بجانبه، مر سرب من الببغاوات السوداء ذات الأجنحة القرمزية بالقرب وهو ينعق ويصرخ، مما أفزع سربًا من الدجاج بالأسفل يرعى ملتقطًا بذور الحشائش من بين التراب، نظر «كونور» إلى السماء التي لا تكتفي وأخذ يبكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«امنحني القوة يا الله»

هكذا تمتم الأب «ماكنتاير» بغضب بينه وبين نفسه، وهو يتململ غير مرتاح في ثيابه.

في أي يوم آخر، كان من الممكن أن تكون الحرارة الشديدة وحدها كافية لإغراق الكاهن في مزاج سيء. لكنه اليوم رأى شيئًا ضايقه للغاية من خلال النافذة المقوسة الموجودة على جانب كنيسته المتواضعة.

منذ نفيه إلى هذه الرعية المهجورة، ولا يوجد نقص في الأشياء التي تثير استياءه. في الحقيقة هناك الكثير منها، لكن لماذا اليوم، من بين كل الأيام؟ وسط هذه الحرارة الشديدة؟

أخذ يتساءل وهو يقوم بالتهوية على وجهه بالكتاب المقدس، لكن أوراق الكتاب المبارك أثبتت أنها غير فعالة على الإطلاق ضد الحرارة الجهنمية في صيف «مالي». أخذت قطرات العرق تنزلق على رأسه، فتتقاطر نازلة أسفل خيوط الشعر الملتصقة على فروة رأسه صانعة برك سباحة في طيات ياقة ردائه الشبيهة بالمناديل الورقية. شد ياقة ردائه الكهنوتي ليحك رقبته، شاعرًا بطفح جلدي حراري يقوم بأقصى مجهود ليجعل حالته المزاجية أسوأ!

على الرغم من أنه يبدو عليه الهزال كالتائبين النادمين، فـتحت ثقل ردائه الكهنوتي، حتى فخذيه الهزيلين وجدا طريقة للشجار والاحتكاك ببعضهما البعض، كان ضيق ساقيه من النسيج الخشن وضيقه من العرق قد وصلا إلى حد الإلهاء المطلق عما يدور، كان يفكر في أن الليلة سوف يمضيها في فقأ الالتهابات البيضاء المليئة بالصديد، ولكن في الوقت الحالي ليس أمامه خيار سوى البقاء ولعب دور قس البلدة، مما يعني التعامل مع الرجل الذي يقف في حفرة عميقة حتى خصره في الخارج.

بجانب الكنيسة الخشبية البيضاء الصغيرة كانت هناك مقبرة تُظللها شجرة عتيقة، وقد حُمِلَت فروعها بالفاكهة الوردية الممتلئة. وما بين الصلبان الخشبية البالية وشواهد القبور المنحوتة، أخذ «جوشوا كونور» يضرب الأرض بفأسه ثم يرفعه بإيقاع منتظم، مستخدمًا أدوات عمله في مهمة أكثر قتامة.

وقفت فرسه وعربته بجانب القبر؛ وعلى ظهر العربة، أسفل غطاء من القماش المشمع، كان هناك تابوت طويل مصنوع يدويًا. كان بوسع «ماكنتاير» أن يرى أن «كونور» هو من قام بنفسه بتجهيز الألواح الخشبية، وقام بتسوية الحواف، ولمعها كلها بزيت بذر الكتان، وصنع صليبًا بسيطًا لتثبيته على الغطاء.

نفرت عضلات «كونور» تحت قميصه الأزرق الفاتح وهو يضع فأسه أرضًا ويحمل مجرافه. فيما تشكلت هالات سوداء من العرق تحت إبطيه وهو يجمع

التربة الداكنة الحمراء في كومة منظمة تتأرجح عند حافة القبر. راقبه الأب «ماكنتاير» من نافذة الكنيسة بانفعال متزايد.. من يظن نفسه بحق الجحيم!

ارتاح عندما رأى «كونور» يصعد من القبر المحفور حديثًا ويتجه نحو الكنيسة، مجنبًا الكاهن عناء الاضطرار إلى الخروج لهذا الفرن بالخارج ومواجهته. سمع «ماكنتاير» صوت خطوات حذاء، قبل أن ينفتح باب كنيسة «ويثربورد»، مما منح الفرصة لهبة من الهواء الساخن أن تتسلل مقتحمة القاعة المفتوحة. أشار «ماكنتير» إلى الباب مجفلًا.

-سيد «كونور».. إذا لم يكن لديك مانع... الجو حار بما فيه الكفاية!

استدار «كونور» في إحراج وأغلق الباب قبل الدخول. رسم الكاهن على شفتيه الرفيعتين ابتسامة مصطنعة وهو يجز على أسنانه، وصوت اصطكاك أسنانه معًا يثير أعصابه أكثر فأكثر. اتخذ المظهر الخارجي للرجل المقدس؛ الأيدي المشدودة بإحكام أمام الصدر، وقد مال رأسه قليلًا إلى جانب واحد، وقد رسم ما يعتبره تعبيرًا عن المحبة والتفاهم على وجهه.

خطا «كونور» نحوه، وقد بدا زائغ النظرات.. وقف أمام الكاهن متململًا في مكانه، مثل صبي تم الإمساك به وهو يتسلل هاربًا من مدرسة الأحد.

- «سيد «كونور»... «جوشوا». لقد مررت بفترة عصيبة، مثل هذه الأشياء تحدث كاختبار لنا.»

هز رأسه.

- «ومع ذلك، لا يمكنك أن تأتي إلى هنا وتبدأ في الحفر في ساحة الكنيسة دون تصريح»

دار «ماكنتاير» بيده في إناء ماء المعمودية، ثم أخرج منديله ومسح عنقه.

- «افهمني يا بني، مع كامل احترامي، لكنني لا أستطيع دفن زوجتك إذا كانت قد سلبت حياتها بنفسها! الرب هو مانح الحياة وهو وحده من له الحق في أخذها. الملكوت هي وعده للمؤمنين.»

زم «كونور» شفتيه، وقد ثبتت يداه بشكل دفاعي على الوركين. أجاب ساخرًا:

- «لقد سقطت في السد وغرقت، أي أنه لا يوجد عبء على ضميرك.»

لقد شهد الكاهن ما يكفي من قصص الفشل البشري على مر السنين، ما يكفي لجعله يشك في قصة «كونور». إلى جانب ذلك، فإن إحدى المتع القليلة التي يسمح لنفسه بالانغماس فيها في حفرة الجحيم هذه هي الانخراط في

دائرة القيل والقال المحلية الخصبة للغاية. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا ليصبح السبب الحقيقي لموت «إليزا كونور» محور العديد من المحادثات التي تدور مع شاي الصباح وشاي بعد الظهر. عزم على التأكد من أن «جوشوا كونور» يعرف أنه لا يستطيع أن يتعامى عما حدث.

- «أعرف أن مقتل ثلاثة أبناء كان ابتلاءً صعبًا عليها.. على كلٍّ منكما. ولكن كما ينبئنا الكتاب المقدس، فإن الرب يرزقنا بمثل هذه التجارب لسبب ما. قامت العديد من العائلات في رعيتنا بتضحيات مماثلة للملك والبلد.»

تسللت جرادة تتلمس طريقها فوق منضدة المطالعة، فجذبت انتباه الأب «ماكنيتر» للحظات، وعندما التفت للخلف لمح الغضب المرتسم على وجه «كونور».

- «أبتاه، لقد مررنا بنصيبنا من الابتلاءات والمِحَن. أنت مدين لها بهذا على الأقل.»

شعر الأب «ماكنيتر» بالسخط البادي في لهجته، فرد ظهره، ووضع إنجيله على الجرادة المتسللة وضغط، واستمع إلى صوت انسحاق دروع جسدها والطبقة الناعمة في بطنها.

- «أنت جريء للغاية لتأتي هنا بتلك الطريقة وتملي طلباتك عليّ! أنت لم تدخل هذا المكان منذ أربع سنوات كاملة، ولم تقدم أي اعترافات.. لا حضور مواعظ.. لا شيء.. أنتم جميعًا خرجتم من معية الرب»

- «نعم، وعندما تحين ساعتي يمكنك تقديم رفاتي كطعام لخنازيرك، فلا أهتم، لكن هذه المرأة، «إليزا»، كنت تعرفها.. كانت تأتي هنا كل يوم أحد، لتستمع إلى موعظتك العظيمة. فلا تلعنها بسبب فشلي.»

لم يحاول إخفاء نبرة الغضب بصوته.

- «لقد حفرت القبر، وصنعت التابوت. كل ما عليك فعله هو أن تقول بعض الكلمات وترمي بعض التراب.»

على الرغم من غضبه، فإن الأب «ماكنتير» أدرك أن هذه المهمة لن تكون سهلة، فقرر تغيير أسلوبه. نظر إلى المقبرة حيث تقف فرسة «كونور» المربوطة في العربة. قال:

- «تلك العربة هناك، قم بطلائها وسوف تقدم خدمة مفيدة لمجتمعنا. كأضحية للرب، أنت تفهمني»

كان بوسع «ماكنيتر» أن يعرف أن الرسالة قد وصلت لـ«كونور». تضحية صعبة لن يقدر عليها وسيرفض، لكنه وجد أن «كونور» يبتسم بسخرية مجيبًا:

- «لقد أخذ الرب كل شيء آخر مني. بوسعه أن يأخذها هي الأخرى»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انعقد اتفاق غير منطوق بين الرجلين، التقى الاثنان عند قبر «ليزي» بوقت متأخر من اليوم.. فيما تجمعت مجموعة من السكان المحليين لمشاهدة الأب «ماكنيتر» يسارع عبر طقوس الدفن، وقد وقفت أخت «ليزي» الأكبر سنًا، والمدعوة «إيفي»، تصطف حولها مجموعة من الأصدقاء الذين يواسونها.

هرع الكاهن الذي توصل للتسوية ينهي واجبه الرسمي، بتعجل يكاد يكون غير لائق بالمناسبة، وهو يمسك مبخرته. تناثرت رائحة البخور القوية في الهواء بينما ابتعد المشيعون عن القبر.

لم يكن «كونور» جاهزًا بعد لمغادرة قبر «إليزا»، فأخذ يراقب سرب من الأطفال الصغار يرتدون أفضل ملابس لديهم – ملابس مدرسة يوم الأحد - غير عارفين لحسن الحظ بمدى قسوة تلك المناسبة.. وأخذوا يلعبون الغميضة بين شواهد القبور، بينما وقفت أمهاتهم معًا تتحدثن بهدوء في ظلال الشجرة الضخمة..

بالنسبة لصبيان صغيري السن مثلهم، فقد ارتدوا ملابس الحداد السوداء بوتيرة أسرع من اللازم.

صار آباؤهم الآن رجالًا ذوي وجوه صارمة عابسة، يرتدون زيًّا موحدًا، في صور باللونين الأبيض والأسود، وقد ظلت خسارتهم ضيفًا دائمًا في صورة شعور باهت لكن دائم من القلق.

صارت مدينة «راينبو» الآن مدينة الأرامل، والرجال المسنين، والأشباح الذين يرتدون معاطف ضخمة ولهم عيون ميتة وشعر صار رماديًا قبل الأوان. غاب مزاح وضحك الشباب الطائش، والخراب المتهور الناتج عن خيولهم، وحتى صفير الحكم في المباريات التي تقام بعد ظهر السبت. بدأت الوجوه تظهر في الجريدة المحلية محاطة بأكاليل الزهور، وهنا خيم الصمت على البلدة، بينما انسحب الفرح بعيدًا.

كافح رجل عجوز ليقوم على قدميه من أحد الكراسي المرتبة بجانب القبر لتحية جندي شاب مر وهو يعرج بجواره، مستندًا بالكامل على ذراع زوجته. أومأ المحارب القديم برأسه، معربًا عن عرفانه بالجميل، لكنه تفادى النظر إلى وجهه، خجلًا من التشوه الذي لم يتم إخفاءه إلا جزئيًا فقط بواسطة جهاز معدني صناعي غير مقنع.

أخذ «كونور» يشاهده أثناء مروره، ويتذكر كيف كان ذلك الشاب يبدو قبل الحرب. شعر بلمسة لطيفة على ذراعه. تتبعت «إديث»، الفتاة التي كانت

لتصبح زوجة ابنه، نظرته بينما يواصل المحارب القديم صراعه المؤلم عبر المقبرة.

- «كلما شعرت بقلبي ينفطر من الحزن، أفكر في ما كان يمكن أن يحدث، وكيف كان سيبدو «آرت» لو عاد إلينا في حال مثل هذا المسكين.. في بعض الأحيان أفكر أنه ربما من الأفضل أنه توفي وهو كامل الجسد.»

أغلقت «إديث» عينيها وتمتمت بصلاة، ثم انحنت لتضع مجموعة من الروزماري العطري على قبر «إليزا» على سبيل الذكرى..

ثم نظرت إلى «كونور»، وقد التمعت عيناها الزرقاوان المشرقتان بالدموع:

- «لقد صنعنا بعض الكعك والشاي للجميع. هل ستحضر؟»

- «شكرًا للطفك يا «إديث»، لكنني أعتقد أنني بحاجة للجلوس مع «ليزي» لبعض الوقت.»

ابتسمت بحزن.

- «هل سنراك قريبًا إذن؟»

أومأ «كونور» بلا تعبير واضح، فاتجهت «إديث» نحوه لتعانقه في عناق بدا له غريبًا محرجًا، ثم مشت ببطء إلى الطريق للانضمام إلى المشيعين الآخرين أثناء مغادرتهم لساحة الكنيسة. انحنى «كونور» بجوار قبر «إليزا»، محني الرأس، وتمتم بعد لحظات:

- «سأجدهم يا حبيبتي، سوف أعيدهم إلى الديار لكِ... أعدك.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عاد «كونور» للمنزل جلس في الغرفة المظلمة، حيث تمت تغطية الأثاث بالشراشف، وتم إغلاق الستائر. تألقت حبيبات الغبار في ضوء أشعة الشمس الشحيحة التي تسللت من خلال شقوق الستائر. ساعدته «إيفي» وأبناؤها في جمع وتغطية أثاث المنزل... منحها كل أشياء «إليزا» المفضلة؛ إناء الصيني المنفوش ذو اللونين الأزرق والأبيض، ومزهرية من الزجاج وردية اللون، وتمثال دقيق من الخزف لراعية ماشية مع كيوبيد الممسك بقوسه وسهامه، ومرآتها المفضلة، ومشط شعر من العاج.

انتصب واقفًا، التفت وأخذ ينظر في أنحاء الغرفة مرة أخيرة، ثم فتح الباب الشبكي ولوح مودعًا للمنزل الوحيد الذي عرفه لخمسة وعشرين عامًا. نظر «كونور» إلى الحفر على جانبي المسار الذي طالبت السيدات من الكنيسة بزراعته بأشجار الورود.. سوف تزرع «إديث» شجرة منها عند قبر «إليزا». يعرف «كونور» أن تلك الورود كانت من الأشياء الوحيدة الباقية التي اعتادت

أن تجعل زوجته تبتسم. أخذ الكلب يتشمم الأرض وينبش بأقدامه الأرض التي خلت من الورد.

- «كان هذا هو الشيء الوحيد المعقول لفعله يا صديقي. لن يدوموا لفترة طويلة هنا دون وجودي لأعتني بهم.»

ثم انحني وأخذ يداعب الكلب بعنف وراء أذنيه.

- «هيا يا صديقي. فلنجلب لك بعض العشاء.»

نظر الكلب إلى «كونور» مستفهمًا، فهو يعرف الروتين اليومي، والشمس كانت لا تزال عالية في السماء، أي أن الوقت لا يزال مبكرًا للغاية لتناول الطعام.. ولكن لأنه ليس من النوعية التي ترفض وجبة، فقد خطا ببطء خلف سيده إلى الجزء الخلفي من المنزل وهو يهز ذيله.

رمي «كونور» بعض البقايا من خروف كان قد ذبحه قبل بضعة أيام في وعاء طعام الكلب.. فقفز الكلب نحو تلك الوجبة غير المتوقعة بسعادة بادية، بينما اتخذ «كونور» طريقه إلى سقيفة صغيرة بالقرب من الخزان، وجلب بندقيته!

جلس على درجات العتبة الخلفية، وأخذ يعبئ بندقيته ببطء وتأنٍّ، ثم وقف وأخذ يتمشى إلى حيث كان الكلب يلعق الوعاء الذي صار نظيفًا من غير سوء. انحنى «كونور» وربت على رأسه لمرة أخيرة.

- «أنت صديق جيد... ما سأفعله بك يشبه ما فعلته بالورود نوعًا ما، لكن الفارق أنك لن تكون ذا نفع لأي شخص آخر غيري. لم تكن أبدًا جيدًا ككلب لرعاية الماشية. أنت تفهم، أليس كذلك؟ لا يوجد مكان لك حيث سأذهب.»

ثم وضع فوهة البندقية فوق رأس الكلب، نظر بعيدًا، وضغط الزناد!

سمع «كونور» صوت جسد الكلب وهو يسقط ليرتطم بالأرض. ولأنه كان مصدومًا للغاية للحزن على خسارة أخرى، فقد أسقط البندقية ومشى دون النظر إلى الوراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

ظهرت عربة مفتوحة تجرها الخيول عبر الأرض غير المستوية، متجهة نحو نقطة تفتيش عسكرية. جلس على متنها الرائد «حسن» والرقيب «جمال» في صمت غير مريح على مقعد واحد، وقد أخذا يهتزان ويرتطمان ببعضهما البعض بشكل مُربك كلما تحركت العربة، كان معهما رجل ثالث، وهو الملازم «جريفز»، جلس أمام «جمال» مباشرة، مرتديًا القبعة المميزة وزي قوات «الأنزاك» الخاكي، بينما ارتدى الرقيب «جمال» رداء رأس قماشي تقليدي، وقد نُقِشَت الأرقام العربية النحاسية للفوج ال ٤٧ على الشارة المعلقة على سترته. وقد أخذ يداعب حبات مسبحة من العقيق الأسود بيد، ويداعب شاربه الضخم باليد الأخرى، و طوال مدة الرحلة من خليج «كيليا»، لم يرفع عينيه البنيتين عن «جريفز». عند الحاجز، قام جندي بزيه الرسمي ورفع يده، مشيرًا إلى السائق للتوقف بينما كان الأتراك الاثنان يشاهدان، ترجل «جريفز» من العربة وقام بأداء التحية، بينما أخذ بطنه الضخم يضغط على أزرار ردائه الرسمي المذهبة.

رد الرجل عند الحاجز على التحية وقدم نفسه على أنه الرقيب «تاكر».

- «هذا هو الملازم «جريفز» أيها الرقيب وهو هنا لمرافقة الرائد «حسن» بيك لمقابلة الملازم العقيد «هيلتون» من لجنة مقابر الحرب.»

أظهرت طريقة «جريفز» في الحديث أصوله النيوزيلاندية؛ تعلم «حسن» تمييز اللهجات المختلفة. ناول «جريفز» مجموعة من الأوراق الرسمية إلى الرقيب، فيما ضيق الرقيب «تاكر» عينيه وأخذ يحدق في الركاب المصاحبين لـ«جريفز»..

- «أعرف من هو..»

سحب كتلة لزجة من البلغم من مؤخرة حلقه، قبل أن يبصقها نحو التراب. انتصب «جمال» في مقعده بغضب، لكن «حسن» وضع يده على ذراعه مهدئًا، وأخذ يتحدث باللغة التركية: - «لا حاجة لهذا، فقد هزمناهم مرة بالفعل.»

تفحص «تاكر» الأوراق، وعيناه الداكنتان تنتقلان بتحفظ بين المستند الموجود بين يديه والأتراك في العربة.

- «حسنًا، يبدو أن كل شيء مضبوط.»

بعد أن عاد «جريفز» إلى العربة، تبعه «تاكر» وجلس أمام «حسن». كافح «حسن» للحفاظ على هيئته العسكرية بينما هم يعبرون فوق الأراضي غير

المستوية، وثبت نظراته على نقطة معينة في المسافة اللانهائية الممتدة أمامهم، متجنبًا نظرات الرقيب «تاكر» الثابتة العدائية.

كان «جمال» أقل دبلوماسية، فأخذ يبادل الرقيب النظرات الساخطة، قبل أن يدمدم متذمرًا لـ«حسن» بالتركية حتى لا يفهمه أحد: - «إذن فقد صرنا نحتاج لمرافق في بلدنا الآن... هذا جنون، لماذا عدنا هنا؟»

لم تبدر عن «حسن» أي محاولة للإجابة بعد كل شيء، لقد حدث هذا منذ أربع سنوات، لم يعتقد أنه سيعود إلى هذا المكان الكريه الملعون. كل ما تبقى هنا هو الموت. حاول الملازم «جريفز» ذو الطباع اللطيفة تخفيف حدة التوتر المتصاعد بين رفاقه من الركاب؛ فتح علبة السجائر الفضية وقدم منها للجنود العثمانيين. رفع «جمال» أحد حاجبيه وأخذ اثنتين، قبل أن يضعهما في جيبه الأمامي دون أن يشكره مد «جريفز» عبوة السجائر إلى «حسن»، ومثل بيده إشعال وتدخين سيجارة قائلًا: - «سيجارة؟ هل ترغب بالتدخين يا سيدي؟»

وهنا مرت العربة من فوق حفرة، فحلقت السجائر بالهواء.

- «اللعنة. آسف يا سيدي.»

جاهد «جريفز» لجمع سجائره مرة أخرى بينما هم يدورون فوق أرضية العربة. تخلى عن جهوده عندما أدرك أن غالبية السجائر قد هبطت في حجر «حسن». أخذ «حسن» يتأمل الملازم ببرود دون أن ينتوي فعل شيء لمساعدته، فيما استمرت العربة في طريقها عبر الأرض غير المستوية فمروا على سلسلة من التلال، وعلى الرغم منه، فقد أُخِذَ «حسن» بجمال شاطئ «إيجة» الذي يمتد أمامهم، والجزر كثيفة الخضرة التي ظهرت على مبعدة، وأشعة الشمس التي انعكست على المياه الهادئة. نادرًا ما أتيحت له الفرصة لتقدير المنظر الطبيعي بالمكان خلال الأشهر العديدة التي قضوها مُحاصَرين على هذا الجرف البشع. جذبت بعض الصرخات وقعقعة المعدات انتباه «حسن» إلى وجهتهم؛ معسكر مؤقت على جانب التلال، حيث كان عمال القرية يقودون صفوفًا من الحمير إلى الخيام، فيما يقوم الجنود بتفريغ اللوازم والمعدات، ويقوم الكتبة بتسجيل الموجودين من الجنود الذين يمرون بهم، محملين بالمعاول والمجاريف والدلاء والأخشاب. تباطأت العربة، بينما قفز الرقيب «تاكر» أرضًا، و«حسن» يراقبه وهو يتخذ طريقه نحو ضابط يوجه كل هذا الصخب في المعسكر باحتراف، كأنه مدير حلبة سيرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المقدم «سيسيل هيلتون» طويل القامة، عريض الكتفين، أسمر البشرة، وفي الثلاثين من عمره فقط. كان يوجه العمال المحليين بلغة تركية ركيكة، قبل أن ينتقل بسرعة إلى الإنجليزية عندما يوجه الأوامر لرجاله..

لم يكن من المعتاد أن تجد مثل هذا الرجل الشاب في قيادة مثل هذه المأمورية المهمة، لكن مواهبه وذكاءه تسببا في ترقيته المبكرة. أشرف «هيلتون» على خلية النشاط على جانب التل، وأكد سلطته بلطف ولكن بحزم لضمان أن الفوضى المنظمة لا تنحدر إلى جنون مطلق. خطا عازمًا نحو منطقة مفتوحة، حيث انخرط اثنان من الجنود يغطيهما الطلاء في العمل؛ طلاء مئات من الصلبان الخشبية بالأبيض، وبطريق الخطأ تسببا في جعل نصف التل أبيض اللون هو الآخر.

لم يلحظ أي من الجندي «داوسون» ولا الجندي «توماس» اقتراب قائدهما.

- «ياللهول! «داوسون»! ألا يمكنك أن تكون أقل خرقًا؟ لن أفهم أبدًا كيف تمكنت من البقاء على قيد الحياة لأربع سنوات على الجبهة.»

وضع «داوسون» فرشاته جانبًا وتسمر مكانه.

- «في الحقيقة عشت مراهنًا على مظهري الجيد.»

سعل المقدم «هيلتون»، وقد تغضنت عيناه الزرقاوان عند الزوايا، بينما أخفى فمه ابتسامة تحت شاربه العسكري الأنيق.

- «أفهم من ذلك أنه لم يعمل أي منكما بطلاء المنازل بالديار؟»

ضحك «داوسون» قائلًا:

- «أعرف أنه من الصعب تصديق ذلك، ولكن لا يا سيدي، لم أرفع فرشاة الطلاء قط في حياتي حتى الآن. أفكر في أخذها عندما أعود إلى المنزل.»

- «عندما يجفون، أرسلهم إلى تل «بيبي ٧٠٠» في العربة.»

- «ما العدد الذي تريده يا سيدي؟»

- «كل ما لديك.»

اقترب الرقيب «تاكر» المنزعج من «هيلتون» وأدى له التحية.

- «لدينا صحبة يا سيدي... لقد جاء!»

أخذ «هيلتون» ينظر بينما العربة التي تجرها الخيول تتوقف. خيم صمت غير مريح على جنود الأنزاك الذين تجمعوا لتفقد الوافدين الجدد. وقف «حسن»، وعدل من وضع سيفه وحزامه وترجل من العربة، وهو ينفض السجائر عن حجره.

أخذ «تاكر» يتمتم بصوت خفيض وهو ينظر بسخط إلى «داوسون»: - «منذ أربع سنوات، لكانوا قد منحوني وسام «صليب فيكتوريا» لعين لو كنت قد

أطلقت النار على هذا النذل.»

على النقيض من استقبال الأنزاك الغاضب، فإن القرويين الأتراك تحلقوا حول «حسن»، وقد انحنوا رافعين القبعات لتحيته، مرعوبين لأنهم وجدوا أنفسهم بحضرة بطل حرب مشهور. أومأ «حسن» برأسه، على سبيل رد تحيتهم.

اقترب «هيلتون» من «حسن». حتى لو لم يكن الرائد التركي يرتدي أحذية سوداء مصقولة، وسيف مزين، أو يضع فوق صدره الكثير من الميداليات المثيرة للإعجاب، فإن كرامته وعربته الفاخرة كان من شأنهما أن تدلا على كونه رجلًا رفيع المستوى. وقف الملازم "جريفز» بجانب الرائد وأدى التحية.

- «أيها المقدم «هيلتون» هل لي أن أقدم الرائد «حسن بيك»؟» كان الرائد «بيك» هو قائد...»

قام «هيلتون» بمقاطعة «جريفز» مصححًا خطأه:

- «لا أيها الملازم، هو فقط يدعى الرائد «حسن»؛ لفظة «بيك» تعني «السيد»»

توردت وجنتا «جريفز» المستديرتان خجلًا، ولكن يبدو أنه لم يفهم تفسير «هيلتون»، فاستمر: - «صحيح.. نعم.. شكرًا لك يا سيدي.. إذن، كان السيد «بيك» هو المسئول عن الفوج التركي رقم ٤٧. وقد واجه أبناؤنا في معركة قوية في»لون باين» يا سيدي.»

- «نحن جميعًا نعرف من هو الرائد «حسن». شكرًا لك أيها الملازم.»

التفت «هيلتون» إلى «حسن»، قال بالتركية:

- «مرحبًا.. أهلًا وسهلًا بكم»

ابتسم «حسن» رافعًا حاجبيه، وقد بدا من الواضح أنه مأخوذ من التحية بلغته الأصلية: - «أهلًا بك.. هل تفهم اللغة التركية؟»

خيم صمت غير مريح لأنه أصبح واضحًا أن «هيلتون» قد استنفد حصيلته من اللغة التركية. ظلت نظرة «حسن» ثابتة، مما أجبر «هيلتون» على كسر الجمود بقوله: - «ماذا عن الإنجليزية؟»

فرد «حسن»:

- «أتحدث الفرنسية والألمانية واليونانية والإنجليزية قليلًا. ماذا تفضل؟»

تنحنح «هيلتون» مبتلعًا ريقه قبل أن يجيبه:

- «دعنا نلتزم بالإنجليزية الآن. كيف كانت رحلتك هنا؟»

تجاهل «حسن» السؤال، نظر عبر التلال والشواطئ المهجورة.

- «أرى أنكم قد سيطرتم أخيرًا على شبه الجزيرة.»

ابتسم «هيلتون»:

- «نعم. خسرنا المعركة، وفزنا في الحرب. أتحب تناول بعض الشاي؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس الرجلان على كراسي قماشية قابلة للطي داخل خيمة «هيلتون». لديهما القليل ليقولاه لبعضهما البعض بينما هما يحتسيان الشاي ويسحقان الذباب المتحلق من حولهما. وفوقهما كانت هناك خريطة كبيرة لشبه جزيرة «جاليبولي»، مثبتة إلى لوحة.

سعل «هيلتون «قبل أن يبدأ بالحديث بعملية:

- «لقد بدأنا في العمل في هذا المجال»

وأشار نحو الخريطة بالملعقة التي كان يقلب بها فنجان الشاي متابعًا: - «بدأنا البحث من القمة إلى تل ٩٧١. أفترض أنهم أطلعوك بالكامل في مكتب الحرب في القسطنطينية؟ سنكون ممتنين لمساعدتكم في تحديد أمواتنا.»

رفع «حسن» أحد حاجبيه:

- «أمواتكم؟»

- « لقد فقدنا عشرة آلاف أنزاكي هنا في «جاليبولي»، وما زلنا لا نعرف أين نصف هذا العدد.»

أفصحت نبرة صوت «هيلتون» عن غضبه وهو يتابع:

- «تم دفن البعض بشكل ملائم، ولكن فُقِدَت الكثير من القبور أو مُحيَت منذ أن نزحنا عن المكان»

صحح له «حسن»:

- «أنتم لم تنزحوا، وإنما انسحبتم.. إذن فقد صرتم الآن تبنون مقابركم على أرضنا؟»

- «عليّ واجب تكريمهم، وهذا ما سأفعله، بمساعدتكم أو بدونها.»

نظر «حسن» نحو «هيلتون» متفرسًا فيه ثم قال:

- «هل كنت هنا؟»

أجابه «هيلتون» بغلظة:

- «أول لواء خيول»

بدا التردد على «حسن»، وتراجع عن قراره قائلًا:

- «ما الذي تحتاجه مني؟»

سحب «هيلتون» نفسًا عميقًا قبل أن يعود إلى الخريطة، مستغلًا الوفاق الناتج عن الخبرة المشتركة: - «لقد تغيرت الأرض، لكنك تعرف هذه المنطقة أفضل من أي منا. آمل أن تتمكن من مساعدتنا في تحديد موقع الوحدات التي فقدناها.»

- «سأحتاج إلى حصان.»

أنهى «حسن» الشاي ووقف، قبل أن يتحرك نحو باب الخيمة. ثم توقف والتفت قائلًا: - «هل تعرف؟ لقد فقدنا سبعين ألف رجل هنا في «كاناكال».. بالنسبة لي هذا المكان مقبرة ضخمة.

وقبل أن يرد «هيلتون» عليه، التفت «حسن» وخرج إلى ضوء النهار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتطى «هيلتون» جوادًا وانطلق به على طول التلال، على رأس درب من الجنود الخيالة.. كان المنظر عبر مضيق «الدردنيل»، بوابة القسطنطينية والبحر الأسود، مثاليًا. التمعت الأمواج الهادئة كبريق كوكبة من قوارب الصيد الصغيرة المطلية بلون لامع، انطلقت في أعقاب باخرة بيضاء متجهة للمدينة.

كان «جريفز» خلف «هيلتون» وقد أخذ يستحث جواده على الهرولة ليصبح بجانب الرقيب «تاكر» والجنديين «داوسون» و«توماس»، ثم لوح بذراعه الأيسر بقوة، مشيرًا إلى المنظر البانورامي الرائع بالأسفل: - «لا أفهم ما الذي كنتم تشتكون منه يا رفاق.. المكان كالجنة هنا!»

أخذ كل من «توماس»، و«داوسون»، و«تاكر» يرمقونه في نفس اللحظة بنظرات قاتلة وهم مستمرين في طريقهم في وجوم.

أبطأ «هيلتون» من سرعة حصانه لفترة وجيزة، مما أتاح لـ«حسن» الفرصة للحاق به. أشار «حسن» إلى القمة: - «إذا كانت قواتكم قد أخذت طريقها عبر هذا التل، لكنتم أنجزتم مهمتكم.»

- «وإلى أي مدى وصلنا؟ هل اقتربنا؟»

أشار «حسن» إلى بقعة على بعد حوالي خمسين ياردة:

- « هناك»

هزَّ «هيلتون» رأسه في شك. استطرد «حسن»:

- «عندما هبطتم، كان هناك مائتي فرد منا فقط هنا، بينما كان هناك ألفين منكم.»

ثم توقف للحظة، قبل أن يكمل:

- «لكن كان لا يزال بانتظارنا المزيد من الخسارة.»

وبينما هم يتكلمون، أخذوا يدفعون خيولهم نحو قمة التل.. ثم توقفوا فجأة، لم يكن هناك صوت يُسمع..

في تناقض صارخ مع المنظر الرائع الذي قابلوه في طريقهم، كان المنظر بالأسفل أقرب للكابوس؛ كانت الأرض قاحلة تملأها الحفر والندوب الناتجة عن القذائف، التضاريس المحترقة من مخلفات الحرب كانت تصل للركبة، قذائف مستعملة، وحقائب باهتة مهترئة، وصناديق ذخيرة ممزقة، ومدافع صدئة، وشلال من الأسلاك الشائكة.

ولكن الجانب الأكثر تكديرًا وإزعاجًا في هذه اللوحة السريالية المروعة كان أكوامًا متشابكة لا نهاية لها من العظام المبيضة من أثر الشمس، وقد برزت من مجموعة من الأزياء العسكرية المهترئة البالية.

انجرف حضور الموت الجلي تجاههم فوق نسيم إيجة الدافئ، بينما حلقت مجموعة من الغربان مبتعدة.. التفت الرقيب «تاكر» إلى «جريفز» قائلًا: - «ها هي يا سيدي، جنتك التي كنت تسأل عنها.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

تأرجح الصبي على حافة تل من التراب شديد الانحدار، كان الطريق الذي يقود إلى أسفل خشنًا ومليئًا بالحفر، ويجري تحت العجلة الأمامية لدراجته الصدئة، وقد سقط شعره البني الطويل على جبينه، فأزاحه جانبًا.. ضاقت عيناه الزرقاوان، ثم نظر إلى المكان الذي ينتظر فيه أخويه على جانبي الطريق بالأسفل؛ حيث وقف «هنري» على اليسار، و«إيد» على اليمين، وبالأسفل عند قدميهما في أكوام أنيقة تناثرت كومة لزجة من روث الخيول.

كان «إيد» و«هنري» يصيحان:

- «هيا يا «آرت» توقف عن العبث، لقد حان الوقت! استعد... اجهز... انطلق!»

ابتسم الصبي وانطلق على حافة التل، مندفعًا أسفل التل في سرعة شديدة. ضج «إيد» و«هنري» بالضحك، مصوبين ذخيرتهم من الروث بدقة مميتة.

تزاديت سرعته بينما هو يطير فعليًا صوب أسفل التل، محاولًا المراوغة والهروب، لكن تصويبات أخويه التي أصابته كانت أكثر من التي أخطأته، فيما انطلقت صرخة الحرب المنتصرة:

- «وهووو.. ستة! نلت منه! لقد انتهى أمرك يا «آرت»»

أخذ الصبي الذي غطاه الروث من الرأس إلى أخمص القدمين يضحك، ويرفع يديه نحو السماء مستسلمًا. ارتطمت الدراجة بمنحدر متهالك.. افترق الصبي ودراجته، التي حلقت عبر الهواء. ففرد الصبي ذراعيه وساقيه، كأنه صليب وسط سماء زرقاء.. بينما دفعة جديدة من الروث تطير محلقة نحوه، شعر بخبطة قوية بينما بطنه يصطدم بمياه السد المعكرة فيما رن صوت ضحكات أخويه تحت الماء حتى.

كان الماء شديد العكارة لدرجة أنه لم يستطع رؤية أي شيء. أخذ يتحسس ما حوله؛ طين... هل هذا....؟ نعم، شعر وكأنه زجاجة... المزيد من الطين... ها هو... المقود.

ثم ظهر الصبي من تحت الماء، وقد رفع قبضته في نصر. سحب الدراجة معه، وهو يضحك بشدة لدرجة أنه كاد يختنق. أخذ «إيد» و«هنري» يدوران على الضفة الموحلة، وهما لا يتوقفان عن الضحك، والمياه تحتضن الشاطئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

جذب صوت الضجيج المتكرر والذي بدا واضحًا بذلك الوقت المبكر من الصباح انتباه الركاب على سطح السفينة.

زأر المحرك مرسلًا سلسلة من الاهتزازات عبر ركن «كونور» من الكابينة التي يتشاركها مع ثلاثة أشخاص آخرين. انخفضت السفينة وارتفعت، بينما اندفعت موجات المياه تصفع جوانبها أثناء مرور مقدمتها عبر المياه المتقلبة، فيما جلس «كونور» على سرير صغير، وانهمك في تصفح مذكرات «آرت».

التقط بعناية صورة أبناءه الثلاثة من بين صفحاتها البالية، ووضعها في جيب سترته. ضغط الكتاب بين راحتيه فشعر بملمس الغلاف الجلدي الآن دافئًا لينًا.. لقد أصبح «كونور» على معرفة بكل تجعيدة وكل ثنية أفضل مما يعرف يده.

بجانبه جلست حقيبة بنية صغيرة معبأة بدقة، فقد كان يفضل أن يسافر خفيفًا؛ إلى جانب الملابس التي يرتديها، لديه زوج من السراويل، وقميصان احتياطيان، وغيار داخلي واحد، وجوارب ومنديل.

أما متاعه الشخصية فكانت قليلة هي الأخرى؛ حقيبة جلدية تحتوي على مشط، وشفرة حلاقة، وفرشاة حلاقة. كان قد قام أيضًا بوضع قلادة «ليزي» الذهبية، والتي كان بداخلها خصلة من شعرها. في بداية الرحلة كانت تلك الخصلة لا تزال تحمل رائحتها الحبيبة، واعتاد «كونور» على فتح المشبك كل صباح ليأخذ نفسًا عميقًا حتى يشعر أنها لا تزال معه. أما الآن، بعد ستة أسابيع، كل ما يستطيع شمه هو رائحة ما يوجد أسفل سطح السفينة من ماء آسن وفحم.

وضع مذكرات «آرت» بعناية فوق ملابسه، بجانب كتاب أزرق صغير، وقد نُقِش فوق غلافه بحروف مذهبة مألوفة العنوان، «ألف ليلة وليلة». أغلق الحقيبة والقلادة.

سمع «كونور» على مبعدة النداء المنخفض الحزين من إنذار الضباب وهو يعلو بالنحيب، وسمع صوت نعيب الطيور البحرية الذي صار مألوفًا الآن بالنسبة له. لكن اليوم، قطع صوت آخر أصوات الحياة البحرية التي أصبح معتادًا عليها.. صوت منغم ولكنه بدا غريبًا ناشزًا.. ليس صوتًا موسيقيًا تمامًا، ولكن لا يزال به موسيقى من نوعٍ ما، ليس صوتًا... ربما مئات الأصوات.

تحرك نحو فتحة الكوة. لم يكن هناك غير القليل لرؤيته على هذا الجانب من السفينة. لمعت الأضواء الخافتة على طول الشاطئ البعيد، بينما ظهر ظل التلال واضحًا على خلفية من سماء الفجر المبكر.

كان مصدر الصوت غير واضح. قبض «كونور» على مقبض باب نحاسي رطب من ضباب البحر، وأداره، وخطا خارجًا لسطح السفينة، ثم نظر نحو مقدمة السفينة، حيث وقف زملاؤه من الركاب في مجموعة عند الدرابزين المعدني، وقد التمعت السماء وراءهم مع اقتراب شروق الشمس لتضيء المدينة الموجودة على مبعدة.

رأى «كونور» في الأفق موكبًا لا نهاية له من القباب والمآذن والأبراج الرفيعة المدببة التي تصل إلى السماء، وقد أحاطت أطلال الجدران المتآكلة بالتلال الحادة وامتدت بعيدًا عن الأنظار على طول سهل ضخم منخفض.

نظر «كونور» من سطح السفينة متسائلًا:

- «ما هذا الصوت؟»

- «لا يمكنني التحديد على وجه الدقة يا سيدي. لم أذهب إلى القسطنطينية من قبل. من يدري ما هم عليه؟ ربما يكونون مجرد وثنيين ملاعين، اغفر لي صراحتي»

انقضت النوارس صارخة، محاولة التقاط كل ما بوسعها من الأسماك التي تخبطت لافظة أنفاسها الأخيرة.. رست السفينة جهة اليسار نحو قناة أضيق، واتجهت صوب الرصيف.. وعلى كلا الشاطئين، تجمع عدد لا يُعد ولا يُحصى من السفن البحرية في كتلة لا يمكن اختراقها، تتمايل وتهدر معًا وسط الأمواج.

أصرت حبال الأشرعة والصواري بينما ألاف الأشرعة تتمايل في مهب الريح؛ هدرت المحركات، مطلقة رذاذًا من مياه البحر، وشق المركب طريقه وسط الطيور زاهية الألوان.. أومأ القباطنة وأعضاء الطاقم بينما قوارب صيد صغيرة تمر بخبرة بين السفن الضخمة، متجنبين التصادم بصعوبة..

بينما تقترب باخرته من الرصيف، رأى «كونور» المزيد والمزيد من الناس، أكثر مما رأى في مكان واحد من قبل. احتشدوا على طول الأرصفة، يركبون أو يترجلون عن القوارب، يقومون بتحميل وتفريغ البضائع، ينتقلون من مكان إلى آخر مثل حشد من النمل تجمع حول خنفساء ميتة. وراء سيرك الواجهة البحرية هذا كانت المدينة.

لا شيء مما رآه «كونور» في الستة وأربعين عامًا اللاتي عاشها في ريف أستراليا كان يمكن أن تعده لوتيرة أو فوضى الحياة في القسطنطينية الحديثة.

غطت مجموعة من المباني التلال شديدة الانحدار بطريقة لم يستطع «كونور» فهمها، لتخفي الآلاف من الأشخاص الذين غرقوا في ظلالهم.

وخلقت المساجد العتيقة المقببة، والقنوات المزدوجة، والقصور الضخمة، متاهة مرئية محيرة من الألوان.

شعر «كونور» بالتوتر يتزايد داخله.. ضم قبضتيه، ورفع كتفيه، وأخذ نفسًا طويلًا متمهلًا. ربما تم بناء المدينة على يد الإغريق والرومان والبيزنطيين، والبريطانيون هم المسئولون الآن، ولكنها منذ خمسمائة سنة وهي عثمانية.

بالنسبة إلى «جوشوا كونور»، فقد كانت وسوف تكون دائمًا من أراضي العدو.

أمسك «كونور» بالدرابزين لتثبيت نفسه بينما القارب يتقدم في جانب حوض السفن. ألقى البحارة بالحبال المهترئة الملطخة بالملح إلى الشاطئ حيث يربطها عمال الميناء حول مرابط الحبال النحاسية الضخمة، وأنشدت الأذرع بينما هم يكافحون من أجل تأمين السفينة ضد المد المتقلب، والمد والجذر في منطقة القرن الذهبي.

جذب وصول القارب مجموعة من الباعة المتجولين.. وتصاعدت آلاف الأصوات من عدد لا نهائي من الألسنة، غريبة وغير مفهومة.

دفع الحمالون بعضهم البعض، بينما انطلقت أيدي آخرين تخربش المنافسين للاستيلاء على الحقائب والصناديق التي يتم إنزالها من فوق سطح السفينة إلى الشاطئ، فيما صرخ الرجال داكني البشرة ذوو الحواجب الكثيفة وأخذوا يلوحون للركاب النازلين.. وبعدها كانت هذه الوحوش البشرية، المحملة بأحمال هائلة بشكل لا يصدق، تتجه في سرعة مقلقة نحو عربات تجرها الحمير، وعربات مغطاة مؤجرة بقيادة أزواج من الخيول المهندمة.

تراجع «كونور» للخلف، قابضًا على مقبض حقيبته الصغيرة بقوة وتصميم. كان الهواء دافئًا خانقًا، بينما ارتطمت الموجات بالرصيف، مرسلة دفقات من المياه المالحة في الهواء، لا تلبث أن تجف لتتحول لحبات من الملح على يد «كونور».

أغلق أحد قبضتيه، واستشعر الملح الناعم يتفتت في كفه مثل غبار «مالي». سار على الممشى، وقد ثبت قبعته الضخمة على رأسه، و قام بأقصى ما بوسعه لتجنب الأيدي الممدودة والصرخات من الحشد المتشاحن بالأسفل، الذي يتنافس على جذب المسافرين.

- سيدي، سيدي!

هنا يا سيدي!

مرحبًا بك في القسطنطينية يا سيدي! اسمي هو.....

تسلل من بين أرجلهم صبي ذو رأس مشعث، متفاديًا تقليد نفس المقاطع كما يفعل المنافسين.

ثبت نظراته على «كونور»، عارفًا أن الحمالين القدامى سيتقاتلون على المسافرين الأثرياء ذوي الملابس الفاخرة، أكثر مما سيهتمون لأمر الرجل الوحيد الطويل الذي ظهر على الرصيف متشبثًا بحذر بحقيبة واحدة بالية.

- «مرحبًا بك يا سيدي.. لديّ مكان نظيف جدًا، ورخيص جدًا، وبه ماء ساخن.»

لوح الصبي بصورة مجعدة لمبنى من طابقين تحت أنف «كونور»، الذي تجاهل توسلات الطفل، واندفع نحو الكتلة الإنسانية الموجودة أمامه.

قرَّب حقيبته من صدره واتخذ طريقه نحو مكتب بدائي تم إنشاءه على الرصيف، وقد بدا أن ذلك المكتب البدائي بمثابة مكتب الجمارك المحلي. أخذ مسئول تركي يرتدي زيًّا رسميًّا ونظارات شمس جواز سفره الممدود، وتفقده بنظرة سريعة وهو يداعب بيده الأخرى شاربه الضخم.

بجانبه مال ضابط بريطاني ملول على الجدار، غير مبالٍ بالفوضى التي تسود من حوله. قام المسئول التركي بختم جواز سفر «كونور» قبل أن يناوله له مرة أخرى، ثم أومأ إلى الأجنبي التالي في الطابور، لكن «كونور» وقف بثبات وحزم، وقد استند براحتيه على المكتب.

- «من أين يمكن استقلال القارب الذاهب إلى «جاليبولي»؟»

وراء ظهره، استمر الصبي الصغير في إلحاحه بلا هوادة:

- «سيدي! سيدي! سآخذك لأفضل فندق في القسطنطينية. آيا صوفيا، المسجد الأزرق، البازار الكبير. سيدي!»

فيما نظر المسئول التركي بشرود لـ«كونور»..

- «ماذا؟»

- «جاليبولي».. لا تقل أنك لا تعرف أين هو!»

تحرر الطفل من الحشد وأتي ليقف بجانب «كونور»، وأخذ يشد كمه، ورفع الصورة أمام وجه «كونور» متوسلًا:

- «هناك ملاءات نظيفة يا سيدي، وماء ساخن.. لا يوجد ألمان.»

نفد صبر «كونور».. شعر بغلالة من الغضب والإحباط تملأ الدنيا في عينيه.

- «ليس الآن! انصرف!»

استدار إلى المسئول الذي مد ذراعه ليلتقط جواز السفر التالي، وتوسل هو إليه:

- «هل تفهمني؟ «جاليبولي»!»

بدا عدم الفهم على وجه الرجل التركي عديم العاطفة، فنظر «كونور» إلى الجندي البريطاني إلى جانبه، مقاطعًا أحلام يقظته:

- «اعذرني.. هل يمكنك المساعدة؟ أريد الذهاب إلى «جاليبولي»»

حدق الجندي في «كونور» بشك:

- «لا، لن تذهب؛ لا أحد يذهب إلى هناك بدون تصريح، تحقق مع مكتب الحرب بمنطقة السلطان أحمد.»

- «أين؟»

- «في المدينة القديمة أعلى التل.»

ثم أشار إلى شارع دائري مرصوف بالحصى بنقرة خاملة من يده..

رفع الطفل صورته أمام «كونور» من جديد قائلًا:

- «السلطان أحمد.. فلنذهب»

ثم أمسك حقيبة «كونور» وانطلق نحو الحشد. شاهده الجندي وهو يختفي ثم علق:

- «لو كنت مكانك لكنت راقبت حقيبتي. أولئك الأوغاد الصغار مخادعون، كلهم.»

انتبه «كونور» فانطلق خلف متاعه وهو يصرخ:

- « أنت! عد!»

كان لا يزال يكافح دوار البحر الذي أصابه، أخذت الأرض تتحرك تحت قدمي «كونور»، جاهد لقمع مد متصاعد داخله من الذعر، بينما ذاب الصبي بعيدًا وسط الكتلة غير المنظمة من الناس الذين أخذوا يتدافعون ويدفعون بعضهم البعض على طول الأرصفة. لقد سرق كل ما يمتلكه «كونور» تقريبًا!

«كيف يمكنني أن أكون غبيًا لتلك الدرجة؟» هكذا فكر في سخط، ثم انزلقت أصابعه غريزيًا في جيبه الأمامي. وهنا شعر بالدفء والراحة.. الصورة.. لا يزال أولاده هناك. ثم تذكر. مذكرات «آرت» بالحقيبة! شعر «كونور» بالغثيان يتصاعد في معدته، تم دفعه للجانب عندما اندفعت مجموعة من الرجال ذوي

المظهر الملكي ويرتدون عمائم وأردية منتفخة بالقرب منه، تبعهم قطيع من الخدم والحمالين الذين يرتدون سراويل فضفاضة غريبة وأوشحة حريرية منقوشة تحلقت في أعقابهم. تعثر «كونور» وسقط إلى الوراء على درجة رخامية بالية تحولت إلى اللون الرمادي من مرور مئات الأقدام لمئات الأعوام فوقها.

مد يده فوجدها تلمس درج حجري شديد الانحدار خلفه، ثم مد قدمه وسرعان ما استعاد توازنه.. الآن وقد أصبح في مستوى أعلى من الجلبة والزحام المنتشرين بالشارع، أمكنه رؤية الصبي بالأعلى وهو ينطلق مسرعًا عبر الميدان المفتوح. كان يتجه نحو مبنى من طابقين، واجهته عبارة عن شبكة من الحجر الملون الذي بدا كقطع الحلوى المخططة باللون الأحمر والأبيض.. و رأى «كونور» حقيبته مرفوعة عاليًا، كأنها كأس، بينما كان الصبي يسير باتجاه أحد الأقواس الضخمة الثلاثة التي تشكل المدخل الكبير. اندفع «كونور» نازلًا درجات السلم درجتين في كل مرة، مر برجل عجوز جلس على درجة السلم السفلي وقد استقرت في يده علبة قمح. وعند قدميه أخذ سرب من الحمام الرمادي يهدل ويقرقر، وينقر الحبوب التي يرميها الرجل على الرصيف الحجري الرمادي. مرَّ «كونور» بجوارهم، وسرعان ما انطلقت الطيور في سحابة من الريش ترتفع نحو السماء. تعثر وسط الحشد وهو يتجه نحو فريسته، وقد ثبت عينيه على كتفي الصبي الضئيلين وشعره الأسود الكثيف.

أخذ الصبي يشق طريقه وسط الباعة الذين يبيعون أكواز الذرة المغطاة بالزبد، وغيرهم ممن حملوا صواني مليئة بحلقات خبز دائرية مكدسة على شكل أهرامات على قمة رؤوسهم. عندما وصل إلى المبنى، نظر الصبي إلى الخلف، وبمجرد رؤيته لـ« كونور» في أعقاله، حتى اندفع راكضًا للداخل، فصاح «كونور»:

- «أنت! ارجع إلى هنا!»

انطلق«كونور» بسرعة في الممر، لكن سرعته أخذت تتباطأ بينما عينيه تتكيفان مع الإضاءة الخافتة بالداخل، مرت سحابة دافئة ومسكِرة من فوقه، غمره شعور بذهول مؤقت، فتوقف في مكانه. كانت هناك روائح أكثر مما يستطيع استيعابها في وقت واحد –بدا كقطيع من الروائح الغريبة- تتجول في هذا الفضاء من حوله؛ مسكر، لاذع، كان العطر كثيفًا لدرجة أنه يكاد أن يشعر بمذاقه في حلقه. كانت هناك رائحة ترابية رطبة كرائحة التربة المقلبة حديثًا، بالإضافة لرائحة أخرى بدت خشبية مثل خشب الصنوبر المقطوع حديثًا، وروائح أخرى ثقيلة تشبه رائحة البخور المر، وحلاوة حفنة من زهور الياسمين مطحونة في راحة اليد للتو. تكدست أكياس مليئة بأقماع معبأة بعناية

بمساحيق ملونة -بعضها بلون القطيفة البرتقالية، أو التوت الأحمر، أو الزبد الأصفر، أو الطحلب الأخضر– تحف جانبي الممر الضيق. بالأعلى سمحت النوافذ بدخول أشعة الضوء التي منحها الغبار الذي يملأ الهواء من حولها شكلًا محددًا. أدرك «كونور» الصمت المفاجئ الذي خيم أعلى المكان. نظر إليه رجل شاب يرتدي رداءً أزرقَ طويلًا بحذر، وقد تجمد مكانه وهو يمسك بمغرفة مليئة بمسحوق أحمر كالدم فوق مجموعة من الموازين المعلقة من دعامة خشبية. توقف الناس في جميع الأركان عما كانوا يفعلونه وأخذوا يتفحصون هذا الدخيل الأجنبي.

اندفع «كونور» للأمام غير راغب في شيء قدر رغبته في الخروج من هذا المكان. شعر برأسه يدور، وقد صارت حواسه متوترة مثل أسلاك البيانو المشدودة بإحكام. نظر «كونور» عبر الممر الضبابي فرأى سترة اللص الصغير الحمراء المطرزة بينما هو مندفع كالسهم للأمام! عاد «كونور» للمطاردة، فيما التفتت الوجوه نحوه بصمت تراقبه وهو يمر. عيون سوداء، وعيون خضراء، وعيون لونها كلون العنبر.. بعضهم بشرتهم بنية مثل زوج أحذية عمال مصقولة، وآخرون بجلد شاحب وشفاف مثل الخزف؛ بعضهم بظهور عجوزة منحنية كقوس، وأيدي مشدودة تمسك بعصا المشي، والبعض الآخر بظهور مستقيمة في سترات عسكرية صوفية مذهبة، عيون تحيطها طبقة كثيفة من الكحل الأسود تطل من أسفل أغطية رأس مطرزة، وجوه مخبأة وراء حجاب شفاف، وهيئات مغطاة أسفل أردية تغطي الجسد كله تمر عبر السوق في مجموعات. على مسافة قريبة ظهر إطار باب يحيطه ضوء النهار، نظر الصبي إلى الوراء ورأى «كونور» فلوح بيده، أهي تحية النصر؟ شعر «كونور» بموجة من الغضب تتصاعد داخله مثل عصارة الصفراء.

- «هل يسخر مني؟ سأُريك أيها الوغد الصغير!»

خرج «كونور» في ضوء شمس الربيع الساطع ونظر أمامه للشارع شديد الانحدار المرصوف بالحصى. أضفت عليه المظلات المخططة مظهر معرض البلدة. ولكن هذا هو المكان الذي ينتهي فيه هذا المشهد المألوف.

انتصبت الكثير من الأكشاك في الشارع، مكدسة بمختلف الأشياء؛ صناديق خشبية مهلهلة محشوة بالطيور الصاخبة والأرانب الصارخة، والجرار النحاسية، والقدور، والأباريق، والأواني المعلقة من خطافات، والخضروات المجففة المعلقة مثل أكاليل، وشلات من الحرير بلون قوس قزح متكدسة في أكوام متأرجحة، وسلال من الزهور والفواكه مجهولة الهوية المجففة، وعربات يد مكدسة بالخضروات الممتلئة اللامعة، بالإضافة للناس الموجودين في كل مكان.. الكثير من الناس.

تباطأ الصبي وهو يسحب حقيبة «كونور» على طول الحصى مستمر في اندفاعه إلى الأمام وسط الحشد، بينما اندفع «كونور» من ورائه يزيح الناس ليفسح لنفسه مكانًا وسط التجار الذين يمسكون بكمه وهم يثرثرون بصوت عالٍ. ينفض كمه بقوة ليبعدهم عنه.

- «لا! ابتعدوا عني بحق المسيح!»

انزلق حذاؤه ذو النعل الجلدي على الحصى أثناء قيامه بصعود التل شديد الانحدار، وهو يشاهد حقيبته تختفي عند الزاوية. دار حول المنعطف، ثم ركض مباشرة إلى شارع عُلِق فيه الغسيل كزينة تتدلى في خطوط متعرجة كاحتفالية صاعدة التل. تفرعت من الجادة المركزية شبكة محيرة من الأزقة الصغيرة. لكن لا أثر للصبي اللعين!

نظر حوله يائسًا والتقطت عيناه أحد الموجودين في مقهى بالشارع، كان يقف برزانة، وقد أخذ ينظر إلى الأجنبي، استدار «كونور» إليه شارحًا بأقصى طاقته:

- «صبي؟ حقيبتي؟»

أخذ الرجل يهز كتفيه مرتبكًا، ورفع حاجبيه وطقطق بلسانه على سقف فمه: لا. حسنًا.. هذا هي النهاية إذن. توقف «كونور» مكانه، وقد وضع يديه على الوركين، غير متأكد مما يجب القيام به أو أين يذهب بعد ذلك، حتى أتاه صوت من خلفه:

- «إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟»

كان الصبي يلوح من مدخل أحد الممرات التي لا تعد ولا تحصى. إدراك حقيقة ما حدث غسل الغضب الذي كان يغمر «كونور» وسرعان ما بدأ غضبه ينحسر ببطء. ليس لصًا إذن. شعر بالارتياح وهو يخطو نحو الطفل وينتزع حقيبته بحزم من بين يديه قبل أن يستدير ويبدأ في السير على التل نزولًا.

-يا سيدي! هذا طريق خاطئ، الفندق بهذا الطريق.

نظر «كونور» إلى الصبي. كان يشعر بالإرهاق في أعمق أعماقه، ولم يعد به طاقة للجدال فاستسلم. سأل الصبي:

-«ما اسمك؟»

- «أنا؟ «أورهان» يا سيدي... اسمي هو؟»

- «أستميحك عذرًا؟»

- «اسمي يا سيدي؟»

- « آه... اسمي أنا، اسمي «جوشوا كونور»»

- «مرحبًا يا «جوشوا كونور» بيك... مرحبًا بك في مدينتي.»

- «إذن ، هل لديك فندق حقًا يا «أورهان»؟ به ماء ساخن؟ أنا بحاجة إلى الاستحمام حقًا.»

- «نعم يا سيدي «جوشوا كونور» بيك. أفضل فندق بالقسطنطينية على الإطلاق. تعال معي!»

قام «أورهان» بقيادة «كونور» عبر متاهة من الشوارع الصغيرة إلى أعلى التل؛ مرا بين المنازل الخشبية الطويلة ذات الطوابق العليا المتدلية فوق الشارع، كما لو كانت على أهبة الاستعداد للانقلاب في أي لحظة.

نظر «كونور» للأعلى إلى جزء السماء الفضي الذي ظهر من بين أسطح المنازل حيث تحلق طيور السنونو وتزقزق، و عندما دارا عند الزاوية مرا بصف من الحلاقين الذين نصبوا معداتهم في الشارع، وقد جلس رجال يرتدون ملابس فاخرة على كراسي بذراعين واضعين أردية بيضاء تحمي طية صدر ستراتهم من رغوة الحلاقة التي يضعها الحلاقون على ذقونهم. مرر واحد شفرة حلاقة حادة على طول حزام من الجلد الثقيل المشدود على ساق الكرسي بإحكام فبرزت عضلات ذراعه.

أما أعلى التل، كان هناك جدار غطته شعارات عثمانية مكتوبة على عجل، بالنسبة لـ«كونور»، كان معناها غامضًا، لكن الدمية المحترقة التي تمثل جنديًّا يرتدي الزي العسكري البريطاني، والمشنوقة على فرع شجرة كرمة قريبة، جعلت الرسالة واضحة.

الحكايات التي رواها قبطان القارب أثناء الرحلة للخارج كانت لا لبس فيها. كان هناك غضب متوتر يملأ القسطنطينية بسبب احتلال الحلفاء غير المرحب بهم في أعقاب الحرب العظمى. حاصرهم اليونانيون من الغرب، والروس من الشرق، وهاجمتهم القوات الإنجليزية والفرنسية في عاصمتهم بعنف، باختصار كان الأتراك على شفا ثورة أو حرب أهلية.

أمسك «أورهان» بكُم «كونور» وسحبه إلى أعلى زقاق آخر، ثم أشار إلى قصر كبير على قمة التل الواقع أمامهما.

- «هناك يا سيدي. فندقي!»

لابد أن المبنى الفخم قد شهد أيامًا أفضل بفترة ما. ظللت طريقهما بعض الأشجار الشاهقة – شجر كستناء، وشجر السرو، وبعض الأشجار العادية –

كانت بقايا تدل على أنها كانت ذات يوم في بدايتها حديقة مشذبة ومعتنى بها جيدًا.

أخفى طلاء وردي فاتح وطلاء آخر أبيض الشقوق العميقة في الخرسانة التي تغطي البناء بالطابق السفلي. لكن هذا القناع انزلق فوق مستوى الشارع. هنا، تلاشى الطلاء القديم وتقشر، ومزقت طبقة الجص شبكة معقدة من الشقوق والفجوات. وتسربت طبقة من الأعشاب الضارة من قراميد السقف المغطاة بالطحالب، بينما تساقطت فضلات الحمام فوق حواف قمم إطارات النوافذ. كان هناك شكل بيضاوي باهت عند المدخل لعلامة مكتوبة باللغتين العثمانية والإنجليزية: «أوتيل ترويا - فندق طروادة».

على الرغم من أن المبنى الآن يفتقر إلى المظهر الجذاب، فإن «كونور» لم يستطع أن يمنع تلك الموجة من الانبهار التي سيطرت عليه. نادرًا ما رأى أو دخل مثل هذا المبنى الفخم.

- «سيدي المحترم! مرحبًا بك هنا».

صعد «أورهان» على درجات السلم وأمسك الباب الأمامي مواربًا، مشيرًا إلى «كونور» للدخول.

فرفع «كونور» يده إلى رأسه، ومسح حبات العرق عن جبينه.. كانت «ليزي» - دائمًا «ليزي» - هي التي تعطيه القوة. لو كانت موجودة لكانت قد أدخلت ذراعها أسفل ذراعه، ورفعت رأسها عاليًا، وقادته عبر ذلك الباب. صحيح أنها كانت مجرد عروس من المدينة، ولكن بمجرد دخولها أي غرفة، فإنها تتحول لملكة تستدير الرؤوس لمشاهدتها وهي تمر. بينما يقف كونور» بالخلف في رزانة، صامتًا، تكون «ليزي» قد كونت بلاطها من المعجبين بالفعل، في حين كان هو يتلجلج ويتلعثم بالحديث، ويرتبك من الأحاديث الجانبية والتفاهات الاجتماعية، اعتادت «ليزي» على التباسط مع الغرباء، وهم كذلك تباسطوا معها. في غضون دقائق من مقابلة شخص ما، كانت تتكئ، وتُريح يدها بلطف على ساعده، وتدعوه إلى حوار جانبي كأنهم يعرفون بعضهم منذ زمن..

عندما تنتهي الأمسية ويصعدون مرة أخرى في العربات التي تجرها الدواب متخذين رحلة العودة الطويلة إلى المنزل، تكون «ليزي» قد كونت بالفعل حفنة من الأصدقاء الجدد. كان تبث الدفء من حولها بطريقة كانت غريبة على «كونور»، فهو رجل يجد مزيدًا من الراحة في العزلة والصمت، أكثر مما كان يجده في صحبة الآخرين.

وقف عند عتبة الفندق متسمرًا، شاعرًا بالفراغ بجانبه. لم تبتعد عن أفكاره أبدًا.. ولكن الآن فهو بحاجة إلى الشعور بيدها على يده، تستحثه بلطف للتقدم

إلى الأمام.

- « سيدي! لقد وصلنا!»

أغلق عينيه، وارتقى درجات السلم.

لو كنت فقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

غمر الصمت بهو فندق «طروادة».

استغرق الأمر أربع سنوات، ولكن الحرب تمكنت بهدوء ودون قصد من خنق هذا الفندق بنجاح. تدلت مفاتيح الغرف على خطافات خلف نضد الاستقبال مثل الشرانق؛ متربة، غافية، تنتظر مرور السبات الشتوي الطويل. الجدران التي كانت بيضاء في يوم من الأيام أصبحت الآن صفراء كالتبغ، وأما الستائر الدانتيل فصارت ملطخة وبدأت تهترئ. أطلت مجموعة من سائحين شركة «توماس كوك» وهم يلوحون من إحدى الصور المؤطرة خلف مكتب الاستقبال. بجانبها كانت هناك صورة راعي غنم عثماني بشارب ضخم، وأخرى لفرقة من الموسيقيين يلوحون بآلاتهم، كتذكار للأوقات السعيدة التي مرت بفندق «ترويا». غابت الروائح المألوفة للضيافة الشرقية؛ حبوب البن المحمص، وفطائر الباذنجان، وكولونيا الليمون التي يتم نثرها على أيدي الضيوف. الآثار الوحيدة للحياة التي ملأت هذه الغرف ذات يوم كانت البساط المهترئ الذي تم طيه عند قاعدة السلم. على الرغم من الأوقات القاتمة، إلا أن دفتر التسجيل في الفندق ظل مستلقيًا مفتوحًا في تفاؤل على مكتب الاستقبال، والقلم مستقر على محبرة. أزال إناء استقرت فيه بعض الورد الدمشقي الوردي اللون غبار التراب واليأس.

تسللت ضحكة من الطابق العلوي تبعها هتافًا بـ«صه.. صمتًا!».

خرجت امرأة مزينة بشكل غير لائق بشعر أشقر مستعار، وفستان سهرة أسود مطرز، وجوارب وحذاء من الجلد اللامع ذي الكعب العالي من المدخل، متجهة إلى رواق الطابق الأول. كانت «ناتاليا» ترتدي ملابس مبالغ فيها وغير ملائمة للصباح على الإطلاق، ناهيك عن عدم ملائمتها لما تقوم به من عمل. كانت تحمل أحد طرفي سجادة ملفوفة، تسببت دفعة من حاملة السجادة في الناحية الأخرى في اندفاعها لتخبط حجابها الحاجز ودفعها إلى الممر، وهي تترنح في حذائها ذي الكعب العالي.

- «انتظري. امنحيني لحظة..»

هتفت من خلال فم امتلأ بالشعر الأشقر، كانت تتحدث بلهجة تلميذة فرنسية بلكنة أوروبية شرقية.

- «من سيشتري قطعة القماش القديمة هذه التي نهشتها العثة على أية حال؟»

- «صمتًا..»

أتي الرد، أيضًا بالفرنسية، من داخل الغرفة.

- «إنها المفضلة لدى والدي. لا يمكننا السماح له بسماعنا.»

بينما كانت السجادة تشق طريقها إلى القاعة، انفتح الباب على اتساعه ليكشف عن مكتب صغير به مكتب من خشب البلوط وكرسي ضخم. على أحد طرفي المكتب كان هناك مجهر نحاسي تحيطه أكوام متأرجحة من الشرائح الزجاجية. أما جدران المكتب فكانت مبطنة بخزائن كتب نصف فارغة، وقد بدت الفجوات مثل لحظات منسية أو ذكريات مسروقة. لم يكن البساط أول شيء يتم حذفه من هذه المجموعة، وعلى الأرجح لن يكون الأخير.وقفت «عائشة» في المدخل مرتدية ثوبًا طويلًا أصفر اللون، ووشاحًا من القطن الخشن، بدت جميلة بشكل لافت للنظر. برقتها، والطريقة الرزينة التي ترفع بها رأسها عاليًا، ولغتها الفرنسية الراقية التي وشت بتربيتها المتميزة. بالرغم من هذا، كانت تعمل دون شكوى. أسقطت «ناتاليا» أحد طرفي السجادة، حريصة على القبض بيدها بقوة على الطرف الآخر. ضحكت «عائشة» وصاحت قائلة: - «تتصرفين كأنك بحار ثمِل، وتستمرين في توجيهي في الاتجاه الخاطئ!»

- «هل تتحدثين بهذه الطريقة مع جميع ضيوف فندقك؟»

سألت «ناتاليا». ردت المرأة التركية بابتسامة:

- «نعم.. هيا! ارفعيها.»

- «الكثير من العناء الذي لا يستحقه! لن أعطِ ولو قرشا مقابله»

شرحت «عائشة» بصوت خافت قائلة:

- «إنه من الحرير يا «ناتاليا»؛ من النوع الأعلى جودة من «بلوشستان»»

ابتسمت المرأة الروسية ابتسامة بذيئة وهي ترد:

- «هذا يذكرني بـرجل قابلته من «بلوشستان». كاد يقسمني إلى نصفين!»

هتفت «عائشة» متظاهرة بالحرج وهي تحاول إخماد ضحكها: - «لا أريد أن أسمع!»

- «»عائشة» هانم، هذا ليس زمان الحرير..

استطردت «ناتاليا»:

- «إنه زمن الخبز. هذا ما يصطف الجميع للحصول عليه.. لا يمكنك أكل السجاد الحريري.. الأفضل أن تحتفظي به.»

- «سآخذ ما يعطونني إياه. ليس لدي خيار.»

رمت «عائشة» بعينيها الزمرديتين على طول الممر وأخذت تستمع إلى قرعات خف والدها على ألواح الأرضية، ثم خيم الصمت.. الطريق أمان.

- «إنها أشياء يا «ناتاليا».. مجرد أشياء... الآن تقدمي لليسار»

ذهبت «ناتاليا» إلى اليمين.

- «لا، يسارك!»

أخذتا تضحكان بشدة وهما تتجهان نحو السلم وقد تعلقت السجادة بينهما. «ناتاليا» على درجات السلم، لا يمنعها من التعثر والسقوط إلى الوراء عبر درجات السلم غير وزن السجادة.

- «احذري! إذا التوى كاحلي، فقد أضطر إلى قضاء الأسبوع الباقي مستلقية على ظهري.»

نظرت المرأتان إلى بعضهما البعض من طرفي السجادة، كانتا من عالمين مختلفين، ولكن جمعتهما الظروف بنفس المكان. كانت الشابة التركية الحسناء تبيع متعلقات عائلتها، بينما الأرملة الروسية الأكبر سنًا التي ترتدي ملابس مبهرجة تقايض بالشيء الوحيد الذي تملكه. تتبادلان ابتسامة لطيفة ودودة متفهمة، قبل الانغماس في موجة من الضحك المتواصل. تمتمت «عائشة» من غير تفكير: - «على ظهرك. أوه، يالكِ من مسكينة.»

- «كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ.»

قالتها «ناتاليا» وهي تُسقط نهاية البساط التي تمسكها، قبل أن تجلس على درجات السلم لتستجمع نفسها. ارتفع صرير الباب الأمامي، فانتصبت المرأتان واقفتين، وهما تمدان أيديهما على ثيابهما لتفردانها. عدلت «ناتاليا» من وضع شعرها المستعار، ومرت بأصابعها بتلقائية من خلال الخصلات الجانبية.. دخل رجل جاد في أواخر الثلاثينيات من عمره، يرتدي طربوشًا قرمزي اللون وسترة، ويزين وجهه شارب ضخم. مر عبر البهو إلى نضد الاستقبال بثقة مالك المكان. تحدث باللغة التركية دون أن يرفع عينيه أو صوته: - «سمعت صراخكما من الشارع. ماذا لو كان هناك ضيوف يا عزيزتي؟»

أجابته «عائشة» وقد تعكر مزاجها المرح نوعًا ما:

- «أنا لا أرى أيهم، هل رأيت أنت أي ضيوف يا «عمر»؟ لقد طلبت من «ناتاليا» مساعدتي.»

تراجعت «ناتاليا» إلى الطابق العلوي، عالمة إلى أين تتجه هذه المحادثة.. قالت: - «لا بأس يا هانم.. ها قد وصل سيد المنزل، فلم تعودي بحاجة لمساعدتي»

كجزء من روتينه الصباحي، ألقي «عمر» نظرة على سجل النزلاء، ثم أغلقه، ثم تحقق من وجود المفاتيح. كان هناك واحد فقط غير موجود بمكانه، نفس الشيء كما هو الحال دائمًا.

- «تلك المرأة الروسية تجلب العار على هذه الأسرة!»

قالها بصوت عالٍ بما يكفي لتسمعه «ناتاليا» قبل أن تصل إلى غرفتها. صحيح أن «ناتاليا» لا تتحدث التركية بطلاقة، لكن «عائشة» كانت تعلم أنها ستتعرف على اللهجة المستهجنة التي استخدمها. قامت «عائشة» بمقاطعة «عمر» قبل أن تتاح له الفرصة في الاستمرار بحديثه السام: - «أنت تعلم أنه ليس لدينا الرفاهية للحكم على الآخرين. هي تجلب لنا المال. أحيانًا يكون الأمر بهذه البساطة.»

ثم أشارت إلى البساط المنطوي على السلم مكملة:

- «هل يمكنك مساعدتي في نقله؟»

لانت ملامح «عمر»، وقد بدا قلق حقيقي على محياه:

- «وماذا بعد السجاد يا «عائشة»؟ سنبيع الأسِرة؟ مفارش السرير؟ كيف تقترحين الدفع للدائنين عندما لا يتبقى شيء للبيع؟»

تأمل نظراتها وهو يخلع سترته ويضعها على خطاف.

- «ماذا بعد هذا يا «عائشة»؟»

هزت كتفيها وقد قلبت شفتيها معربة عن حيرتها. الأمر في يد الله. ليس لديها خطة حقيقية وهي تعرف ذلك. تحاول التظاهر بأنها قوية متماسكة أمام العالم، ولكن في اللحظات التي تكون فيها بمفردها، تكافح من أجل السيطرة على الشعور المتزايد بالقلق الذي رسخ نفسه في أعمق أعماق قلبها وروحها. قد يكون لدى الله خطة خفية لها، لكنها تتمنى أن يعطيها تلميحًا عم قد يكون هذا الشيء.

- «اتركي هذا لي..»

تنهد «عمر» وهو يضع البساط على كتفه، ويحمله عبر صالون الإفطار ونحو الفناء. وقفت «عائشة» وحدها في الردهة ونظرت إلى العين الزجاجية الشريرة المعلقة على الحائط، وقد سبح بؤبؤها الأسود في بركة من اللون

اللبني والأبيض اللؤلؤي. تتخيل للحظة نفسها تنجرف في مساحة شاسعة من الماء في منتصف الطريق بين أوروبا وآسيا. إنها تقاوم تيار الماء، في انتظار تحول المد لصالحها، لكن كل سكان إسطنبول يعرفون أن التيارات في البوسفور متقلبة وغادرة. شعرت فجأة بما بدا لها وكأنه رجال جيش السلطان يدخلون عاصفين عبر الباب الأمامي!

- «»أورهان»!»

وجدت نفسها تبتسم على الرغم منها. ابنها البالغ من العمر ١١ عامًا هو أحد الأشياء القليلة المتبقية في حياتها التي لا تزال تمنحها الفرح. إنه طفل وحيد، ولهذا فهو لغز بالنسبة لها، كيف يمكن لصبي واحد صغير أن يصنع كل هذا الضجيج.. لمعت عيناه بالإثارة الشديدة المحجوزة عادة لمناسبات مثل مشاهدة عرض للألعاب النارية؛ وهو حدث نادر هذه الأيام. ركض «أورهان» إلى والدته وهو بالكاد يستطيع أن يتنفس، ولف ذراعيه حول خصرها بينما يخبرها ما لديه من أنباء: - «ماما ماما. لقد وجدت أجنبيًا؛ إنجليزي!»

أمسكت «أورهان» بإحكام واستنشقت رائحة هواء البحر والتوابل المتصاعدة من شعره، وتخيلت الطريق الذي عاد للمنزل عبره، على طول رصيف الميناء في «إيمينونو» وعبر السوق المصري، يركض عبر التل بجانب رجال يدخنون خارج المقهى.

- «يا رجلي الصغير الذكي.»

هكذا ردت عليه، وقد انتقل حماسه إليها هي الأخرى. نظرت «عائشة» للأعلى بينما يعبر الظل الطويل المنحدر، ليسبق رجلًا طويلًا عريض الكتفين يتقدم عبر الباب المفتوح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلع «كونور» قبعته ومسح جبينه بساعده. كان يتصبب عرقًا ويلهث من صعود التل، ولا يزال يعاني من إحساس منهك بالنزوح.. كأنه لاجئ من نوع ما. تردد عندما تكيفت عيناه مع الضوء الخافت، وترك عينيه تجولان في مظاهر مجد فندق «طروادة» البائد. هذا المكان رأى أيامًا أفضل بالماضي، هذا واضح جدًا. لاحظ لوحة بالخط العربي معلقة على الحائط بجانب صورة لرجل له شارب ضخم، ويرتدي زيًّا رسميًّا، وطربوشًا، لكن لم يبد الفندق أجنبيًا لـ«كونور» كما كان يخشى، بل إنه يجرؤ على القول أنه يكاد يكون أوروبيًا. على الرغم من حقيقة أن توقعاته ترتكز على حكايات خيالية غريبة عن الحريم والحروب الصليبية وكهوف الثروات التي تفتح عند النطق بكلمة السر مثل كهف «علي بابا».. بالنسبة له، كانت القسطنطينية التي مر بها أقرب للصورة التي تخيل هذه المدينة عليها. لكنه ليس لديه نقطة مرجعية يقارن بها الفندق الحديث –

لكن العتيق والمتواضع نوعًا ما - الذي دخله للتو، ولا كان لديه نقطة مرجعية للمرأة الجميلة المذهلة التي وقفت أمامه.

بدا أن المرأة شعرت بترددده.

- «مرحبًا. أهلًا وسهلًا بك. أنا والدة «أورهان»، واسمي «عائشة» هانم.»

تملص الصبي مبتعدًا عنها. اقتحمت ابتسامتها الدافئة ضباب الحزن والقلق والخوف المحيطين بقلب «كونور»، كأنها كشاف ضوء. خطت «عائشة» تجاهه، وهي تفرد فستانها المحكم على جسدها بكفها، وأعادت خصلة شعر شاردة تحت حجابها، فشعر ذلك المزارع الأسترالي بأنه ضعيف للغاية أمامها لا يملك أي قوة.

- «نعم. آه، أحتاج إلى غرفة... قال ابنك أن...»

ابتسمت «عائشة» مقاطعة إياه:

- «هل أنت من إنجلترا؟»

- « أنا من أستراليا.»

- «أستراليا؟»

انتصبت «عائشة»، التي بدا أنها فوجئت بهذا التصريح، فتبخرت كياستها ولطفها كضباب في هواء الصباح.. مالت بذقنها بشكل عدائي ورفعت حاجبيها قائلة: - «أنا آسفة، لكن «أورهان» ارتكب خطأ. ليس لدينا غرف متاحة».

نظر «كونور» فيما وراءها، نحو مفاتيح الغرف المعلقة خلف مكتب الاستقبال، ثم حدق في «أورهان». بدت الحيرة على الصبي.. وضع «كونور» حقيبته على الأرض، ورفع صوته، وقد تزايد شعوره بالتعب والإحباط: - «لقد جرني ابنك لمسافة طويلة للغاية عبر هذه المدينة البائسة واعدًا إياي أن هناك غرفة..»

قبل أن تتاح له الفرصة لإنهاء الجملة، ظهر رجل مبتسم من الصالون المجاور ومر بجوار «عائشة».

- مرحبًا بك في فندق «طروادة» يا سيدي. حيث كان سيفضل البطل الأسطوري «أخيل» نفسه أن يقيم إذا كان قد زار القسطنطينية.

توقف عن ثرثرته، متوقعًا أن تتصاعد ضحكاتهم، وهو ما لم يحدث. أكمل «عمر»: - المكان مشغول، ولكنني متأكد من أننا يمكن أن نجد لك غرفة.

فتح دفتر تسجيل النزلاء، ومر بإصبعه حتى أسفل الصفحة.

- آه، نعم. أنت محظوظ. كان الصبي على حق. أفضل غرفنا شاغرة الآن. أتشرف باسم السيد...؟

- «كونور. جوشوا كونور»

- مرحبًا بكَ، أنا السيد «عمر». هل يمكنني الحصول على وثيقة سفرك من فضلك؟ سأُسجِل بياناتك على الفور، بينما الغرفة لا تزال متاحة.

ابتسم، والقلم متسمر فوق الدفتر. ناوله «كونور» جواز سفره، بينما انطلقت «عائشة» بسباب «عمر» بالتركية. خط الرجل بضع كلمات بالدفتر بسرعة وهو يرد عليها باللغة التركية بابتسامة مصطنعة.

ناول «كونور» جوازَ سفره ومفتاحًا.

- مرحبًا بك يا سيد «كونور»..

لم يكن لدى «كونور» أي فكرة عما قيل، لكنه شعر أنه ليس مرحبًا به إلى هذا الحد..

- غرفتك في الطابق العلوي على اليسار. يتم تقديم الإفطار في الساعة الثامنة صباحًا. هل ترغب في أن نجلب لك القهوة أو الشاي الآن؟

- شكرًا لك، لا..

هكذا رد عليه «كونور»، قبل أن يلتقط حقيبته ويتجه صوب درجات السلم، وقد وضع إحدى يديه على الدرابزين بينما هو يستدير، وقد تذكر ما سبق أن قاله له «أورهان» على الأرصفة.

- لقد ذكر ابنك وجود ماء ساخن وحمام.

تدلى فك «أورهان» لأسفل وشحب وجهه زيتوني اللون. لكونه والدًا لثلاثة أبناء معروفين أنهم يلجأون لإخفاء الحقيقة في بعض الأحيان، تعرف «كونور» على نظرة الخجل التي ارتسمت على وجه الصبي على الفور.

لم تكن أول مرة يدرك فيها «كونور» أن الطفل قد خدعه، لكنه كان مجهدًا للغاية ليجادل..

- لا بأس، سيكون الأمر تمامًا كما في المنزل.

لكن «عمر» لم يكن متسامحًا بنفس القدر. ضغط على الجزء الخلفي من رأس الصبي ونهر الصبي باللغة الإنجليزية، على ما يبدو عتابًا له على ما قاله لـ«كونور»: - الأمر مخزٍ! الكذب خصلة مخزية. أنت ابن أمك المدلل!

انزوى «أورهان» في زاوية اللوبي، والدموع تغرق عينيه. تدخل «كونور» سريعًا كرد فعل: - لا، الأمر لا يهم حقًا. على الأرجح أنا من أسأت فهمه.

ربما قاده «أورهان» لمطاردة مرحة هذا الصباح، لكنه يشعر بمودة غريبة تجاه هذا الطفل المثابر ذو العينين اللامعتين. ثنى الرجل التركي رأسه ورفع يده اليمنى نحو صدره قائلًا: - تقبل اعتذاري الصادق يا سيد «كونور»، نحن لا نتصرف بتلك الطريقة، أنت ضيفنا هنا ومن واجبنا أن نرحب بك.

قالها ثم أشار إلى حقيبة «كونور»، وربت على رأس «أورهان» بغلظة مرة أخرى، لكنه على الأقل غير الموضوع. استطرد: - سوف يساعدك «أورهان» في نقل حقيبتك، هذا واجبه.

حنى الصبي رأسه لأسفل شاعرًا بالعار، وقد ثبت عينيه على حذائه، قام «أورهان» بقيادة «كونور» لأعلى السلم إلى الغرفة وقد نضبت ثرثرته، وأما الحقيبة التي جرى بها الصبي عبر الشوارع كما لو كانت خفيفة مثل الريشة، فقد صارت الآن تبدو وكأنها محملة بالطوب. اقتربا من غرفة ٦ وأدخل «أورهان» المفتاح في القفل.

- هذه غرفتك.

أخذ «كونور» حقيبته من الصبي وشق طريقه إلى الغرفة قليلة الأثاث. استخرج عملة معدنية من جيبه ووضعها في يد «أورهان». حاول صبي بادي الندم إعادتها له مرة أخرى، ولكن «كونور» أومأ له مبتسمًا قبل أن يقول: - يبدو أنك تعرف مكان كل شيء هنا. هل يمكنك أن تأخذني إلى وزارة الحرب غدًا؟ سوف أدفع لك.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه «أورهان»، وسرعان ما استعادت عيناه لمعانهما المتحمس..

- نعم يمكنني.

أخذ «كونور» يراقب «أورهان» وهو يركض عبر القاعة ويختفي عند درجات السلم، قافزًا ثلاث درجات في كل مرة. أخذ «كونور» يتساءل في سره عما إذا كان بوسع المرء أن يُعتبر أبًا، حتى عندما لا يكون لديه أبناء باقون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضربت «عائشة» البساط بمنفضة السجاد الخوص في غضب، لتتفجر أكوام من الأوساخ المتراكمة عبر الزمن في غيوم الدخان من السجادة البلوشي المهترئة، والتي عُلِقَت على حبل الغسيل في فناء الفندق. زادت من ضرباتها في غضب عاجز، ودموع الإحباط تشق طريقها عبر الغبار الذي استقر على وجنتيها. بالنهاية، تراجعت لبضع خطوات للوراء مبتعدة عن البساط، وقد بدأ

غضبها ينزوي. وقفت وسط ما تبقى من حديقة رائعة يحيط بها جدار حجري أبدي. عندما كان هذا المبنى منزل طفولتها، اعتادت «عائشة» مساعدة «علي» البستاني، فتنزع الأعشاب الضارة وتزرع البذور التي تنمو مفجرة مهرجانًا من الألوان بعدما تكون قد نسيتهم تمامًا؛ الزنابق، والنرجس، والسوسن. تعلمت في هذه الحديقة لأول مرة أن المعجزات نادرًا ما تحدث دون أن تتسخ يد أحدهم في سبيل حدوثها!

ذهب الفناء طي النسيان بكل المقاييس، فظهرت خصل صغيرة من العشب بين أحجار البلاط، بينما نمت جذور الأشجار تحت قطع الحجارة لترفعها بشكل متقطع. بينما النافورة التي كانت تعمل يومًا بالماضي وتنبعث قرقرتها بمرح خلال فصول الصيف الحارة والمغبرة قد تباطأت إلى حد كبير، ولم تعد تفعل أكثر من تلطيخ حوضها الرخامي بخيوط من الصدأ. تكدست كراسي الخوص في زاوية بعيدة، كأنما تحاول الاختباء عن الأنظار.. كان لدى «عائشة» ذكريات أثيرة قديمة للحديقة في زمن ازدهارها، وقد اصطفت المناضد بترتيب، وقد وُضِعَت عليها المناديل ذات الأطراف الدانتيل وأكواب الخزف الرقيقة، بينما اتكأ الضيوف في ظل الأشجار البازخة.

لكن الجمال قد أفسح الطريق للضروريات.

رُبطت إلى الشجرة ماعز اسمها «شفق»، كناية عن الفجر الجديد، ويساعد «أورهان» في حلبها كل صباح. يتم تخزين بذور الطماطم على طول الجدار الخلفي، بينما تجد بذور الخيار طريقها بين الهندباء والخس اليوناني. في زمن السلطان «عبد الحميد الثاني» اعتاد والد «عائشة» على احتساء القهوة في كثير من الأحيان، وقراءة الصحيفة هنا في الصباح، قبل أن يتجه إلى العمل. هذا الصباح، جلس على الكرسي، يلقي بالبذور للدجاج الذي أخذ يرعى حول كاحليه. كان يرتدي سترةً باهتة من ثلاث قطع، وطربوشًا، وخُفًّا من الجلد، تأمل ابنته من تحت حاجبيه الكثيفين بريبة، وهي تأخذ نفسًا عميقًا وتستعد لإطلاق هجوم عنيف آخر على السجادة، يقوم هو بتدخين الغليون.

- «أعرف هذه السجادة من مكان ما. الباشا... الباشا...»

كافح لتذكر اسم الباشا المقصود، ثم قال بالنهاية:

- «هناك باشا أعطاها لي بسبب ابنه. عالجت ابنه.»

تسمرت «عائشة» مكانها:

- «النبلاء يواجهون نقصًا في مواردهم في الوقت الحاضر يا أبي»

- «لم أرها لسنوات.. أين وجدتها؟»

سألها «إبراهيم» وهو يمسك بدجاجة ويبدأ في انتزاع الريش من ذيلها بشرود، فيما أخذت الدجاجة تصرخ محاولة الإفلات وهي ترفرف بجناحيها، لكن «إبراهيم» أمسك بمخالبها وواصل نتف ريشها. ابتسمت «عائشة» بحزن وأخذت الطائر بلطف منه قائلة: - «لم نذبحها بعد يا أبي»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

جلس «كونور» على حافة سريره المزدوج يرتدي سروالًا وقميصًا داخليًا.. كانت هناك ألفة مريحة بخصوص تلك الغرفة، والتي بدت –تمامًا مثل بهو الفندق- أوروبية الطابع بشكل غير متوقع. كانت مزينة بعناية وذوق؛ إذ كان السرير من الخشب الثقيل، أما خزانة الملابس فكانت مغطاة بغطاء رقيق مطرز تعلوه صينية تقديم فضية صغيرة، تحمل إناءً ثقيلًا من الكريستال، وزجاجة من الويسكي الأسكتلندي الفاخر، كما كان هناك طاولات غرف النوم بسطح من الرخام ومقابض صغيرة أنيقة.

وأما الستائر فكانت مصنوعة من الدانتيل، وكانت المرتبة مكسوة بغطاء فراش من الصوف المطرز.. كان ليشعر بأنه في أي عاصمة عالمية، لولا تلك الأصوات التي انطلقت في تلك اللحظة في جميع أنحاء المدينة وتسللت عبر نافذته المفتوحة.. لم يكن صوتًا واحدًا هو من يشدو وإنما جموع، لا تلبث أن تلتقط أنفاسها لثوانٍ يتردد خلالها صدى بعضهم البعض.. بدت بالنسبة له أصواتًا غريبة غامضة؛ الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يشبهه بها هو دوي رنين جرس على مبعدة. فرش «كونور» خريطة رُسِمت باليد لمنطقة «الدردنيل» على السرير، كان قد نسخها من صحيفة في بلدة «رينبو»، وبالحبر الأسود تم رسم الأماكن الأجنبية التي أصبحت أسماءً مألوفة في أستراليا خلال الحرب، لأسوأ الأسباب: خليج «سوفلا»، و«جاليبولي»، و«بصقة الجحيم»، و«كريثيا»، و«لون باين». ظهرت الحروف «آ»، و«إ» و«ه»، كل حرف فيهم يرمز لابن من أبنائه الثلاثة؛ «آرت»، و«إيد»، و«هنري»، في مواقع مختلفة مع التواريخ مكتوبة بجانبها، حيث حاول «كونور» تتبع حركات أبنائه خلال الأشهر الأربعة التي قضوها في «جاليبولي»، كما كانت مذكرات «آرت» مفتوحة وأخذ «كونور» يقرأ منها، ويحقق ويقارن مع الخريطة.

ارتفعت دقات خفيفة على الباب، فارتدى «كونور» قميصه في عجالة، وبدأ إغلاق الأزرار بسرعة. فتح الباب متوقعًا رؤية الصبي مبتسمًا على الجانب الآخر. لكنه بدلًا من ذلك وجد «عائشة»، وكانت تكافح للحفاظ على توازن حوض نحاسي به ماء ساخن بمنشفة. جعل البخار وجهها يتورد بينما انحدرت قطرات من العرق على جبهتها لتبلل حاجبيها.

- «من فضلك، اسمحي لي..»

قالها «كونور» وهو يمد يده متناولًا الحوض بشكل غريزي وكانت «عائشة» تلهث بشدة من المجهود، ولكنها رفضت مساعدته.

- « إنه ساخن للغاية. كن حذرًا من فضلك.»

مرت بحرص من ورائه وأودعت الحوض فوق خزانة الأدراج، فيما شعر «كونور» بالأسف على الإزعاج الذي تسبب فيه بالأسفل.

- «لم تكن هناك حاجة لكل هذا حقًا.»

- «ابني ليس كذابًا!»

أوضحت «عائشة» بحزم، قبل أن تكمل:

- «لقد وعدك بماء ساخن.. وها هو وعده»

ابتسم «كونور»، وقد شعر بالارتباك نوعًا ما من تصرفها.

- «يبدو أنه فتى ذكي ومغامر».

ردت عليه ولهجتها بدأت تلين قليلًا:

- «نعم، هو كذلك.. أليس لديك أبناء أيضًا؟»

أجاب «كونور» بحدة فاجأته هو نفسه:

- «بلى.. ثلاثة.»

ثم تراجع إلى النافذة وقد شعر فجأة بعدم الراحة لوجوده مع «عائشة» لكونها تركية ربما، امرأة، وأم، وجميلة، ومتطفلة، وجريئة، ولأنها في غرفته. سألها بينما أصوات الأذان تصله عن بعد: - «ما هذا الضجيج؟»

سألته مبتسمة:

- «أهذه هي مرتك الأولى في القسطنطينية يا سيد «كونور»؟»

سأل متشككًا:

- «ماذا يبيعون؟»

أجابته وهي تضحك:

- «لا يبيعون شيئًا، إنه نداء للصلاة سيد «كونور..»

ثم تابعت:

- «الحمام بالأسفل في نهاية الردهة إذا أردت الاستحمام».

ثم جالت بعينيها على الكتب والأوراق على السرير، ولاحظت المجلد الأزرق الخاص بألف ليلة وليلة: - «أخشى أن دليلك للمنطقة عتيق للغاية نوعًا ما»

- «لست هنا للتنزه.»

ثم حل صمت غير مريح على المكان، لم تلبث «عائشة» أن حطمته بانسحابها سريعًا من المكان.. وبينما هي خارجة، قالت دون أن تنظر لأعلى نحوه: - «يجب أن تجد الوقت لزيارة المسجد الأزرق على الأقل، حتى في مدينتي البائسة هذه، فهو مكان جميل للتفكير في الله»

قد يكون «كونور» في حاجة ماسة إلى التدخل الإلهي، لكن ليس لديه لا الوقت ولا الميل للبحث عن الله على هذه الشواطئ، همهم: - «لم آتِ بحثًا عنه هو الآخر.. أنا في طريقي إلى «جاليبولي»»

توقفت «عائشة» في مدخل الغرفة، وقد ضاقت عيناها اللوزيتين. لكن بدا أن تلك الكلمة قد جعلها تتصلب: - «تقصد «كناكل» يا سيد «كونور». هنا نسميها «كناكل» لا يوجد شيء هناك غير الأشباح.»

ثم استجمعت نفسها ورحلت، وقالت دون أن تستدير: - «لن يستطع ابني مساعدتك غدًا للأسف لأني أحتاجه هنا.»

شاهد «كونور» «عائشة» وهي تخطو نحو السلم، وقد رفعت رأسها عاليًا وتأرجح ذراعاها على جانبيها. وبينما هو يغلق الباب، راوده شعور بعدم الارتياح، مرتبك من برودة المرأة التركية وازدرائها العلني له، بدا أنه إذا كان يحتاج إلى البقاء في القسطنطينية لأي فترة، فقد يضطر إلى البحث عن فندق آخر.

نزع «كونور» قميصه والقميص الداخلي، وغمر راحتيه في حوض المياه، بينما تصاعد البخار ليبلل وجنتيه. أدرك أنه قد مرت عليه أسابيع منذ أن كان لديه مياه ساخنة للاغتسال، واستمتع باللحظة الحالية. رفع يديه ببطء لأعلى، وشعر بموجة من الحرارة على جفنيه وشفتيه. دعك جبينه حتى وصل إلى منبت الشعر، وجانبي أنفه، وداخل أذنيه ومؤخرة عنقه، وتفاجأ عندما وجد حبيبات من الرمال الحمراء من المنزل لا تزال مختبئة في أماكن كاد يقسم أنها كانت نظيفة. سيظل دائمًا يحمل علامة تدل على المكان الذي أتى منه، مترسخة في جسده، ولا مجال للهروب منها. بحلول الوقت الذي استيقظ فيه «كونور» من نومه كان ماء الحوض -الذي تجمع فوقه معجون رغوة صابونة زيت الزيتون والأوساخ على جانبيه- قد برد تمامًا. إذ كان قد سقط نائمًا ووجهه على خريطته، لتحفر كل تفصيلة فيها نفسها في ذهنه. سمع صوت نداء صلاة المساء، حادًا وأكثر إلحاحًا هذه المرة، مخرجًا إياه من سبات عميق: - «أين هو؟ أي وقت هذا؟ أين هم، أين أبناؤه؟»

استجمع المزارع شتات نفسه على جانب سريره، بينما عقله يشق طريقه ببطء من خلال ضباب النوم المخيم عليه، ليستوعب رحلته على طول خط سكك حديدية نائية، ثم وسط بحر مضطرب، وعبر متاهة بلدة القسطنطينية.

دلته نظرة عبر النافذة أن المدينة تتجه إلى نهاية اليوم بسرعة، وأنها الآن ما بعد الظهيرة. تشمم «كونور» نفسه، وتأكد من أنه يحتاج إلى حمام، فهو يحتاج إلى أن يكون في أفضل حالاته غدًا، تناول منشفته وحقيبة مواد الاستحمام الجلدية المسطحة، وخطا خارجًا نحو الردهة، مغلقًا باب غرفته بحذر من خلفه، فالمرأ لا يضمن شيئًا مع أولئك العرب! اتخذ طريقه عبر الممر سيئ الإضاءة، باحثًا عن علامة تشير لمكان وجود الحمام، ثم استدار عند أحد الأركان ورأى رجلًا تركيًا له مظهر مميز يجلس على دكة خشبية بجانب باب مغلق، وقد تكدست عدة مناشف حمام بجانبه. أومأ العجوز لـ«كونور» مبتسمًا، ليفهمه بأدب أنه يجب أن ينتظر دوره. رد «كونور» الإيماءة بمثلها وجلس متصلبًا وقد وضع منشفته على حجره. لم يتعين عليه الانتظار لفترة طويلة قبل أن يرتفع صرير مقبض الباب من داخل الغرفة ويظهر رجل تركي خجول، هرع الرجل مبتعدًا، وأحكم من وضع طربوشه على رأسه وزرر معطفه، ومن ورائه ظهرت امرأة، جعلت فك «كونور» يتدلى ذهولًا. لم يسبق له أن رأى امرأة ترتدي، أو تتعرى مثل هذا؛ ربما في ليلة زفافه، وبالتأكيد ليس منذ ذلك الحين. رغب في أن يركز نظرته على الأرض، ولكن عيناه خانتاه وأخذتا تثبان لأعلى.

ارتدت المرأة رداءً من الحرير الأحمر على ملابس داخلية من الدانتيل، وكانت تضع شعرًا مستعارًا أسود طويلًا يتدلى على كتفيها على شكل قلب، وعلى الرغم من انزعاجه الشديد، أخذ «كونور» يختلس لمحات سريعة من شفتيها الحمراوين اللامعتين، وخصرها الممتلئ بالمنحنيات. قام العاشق المتحمس الجالس بجانب «كونور» من مجلسه ليقوم بتحية المرأة بإيماءة رسمية، وقال لها شيئًا بالتركية، لم يلتقط «كونور» منه إلا اسمها.. «ناتاليا». ابتسمت المرأة، ثم فتحت الباب وقادت الرجل إلى غرفتها، لمح «كونور» غرفة نوم.. على الدولاب كانت هناك مجموعة من حاملي الشعر المستعار، كل واحدة تحمل باروكة ذات لون وتصفيفة شعر مختلفين، بينما تناثرت الشمعدانات النحاسية الأنيقة وموقد «سماور» الذي يستخدم لإعداد الشاي على دولاب صغير أمام أيقونة فضية للقديس «جورج» وهو يطعن تنينًا. لاحظت «ناتاليا» نظرة «كونور» بابتسامة مغوية. حارب الرغبة في السماح لعينيه بالتجول فوق جسدها، وشعر بوجهه يتورد خجلًا. بدا أنها تفاجأت، ولكن سعيدة، سعيدة من ماذا، لم يستطع «كونور» أن يفهم. انتقلت عيناها إلى منشفة «كونور» وعدة الحلاقة وبدا عليها الفهم.. ابتسمت وقالت باللغة الإنجليزية بلهجة ثقيلة:

- «قضى عشرين دقيقة يشكو من برود زوجته، ثم انتهى بعد خمس دقائق، هل ستقوم بالاستحمام ثم تعود؟»

أدرك «كونور» المأزق الذي ألقى نفسه فيه، وبدلًا من العودة لغرفتها، مالت «ناتاليا» على إطار الباب، وقد ارتسمت ابتسامة على وجهها. شاعرًا بالخجل، لم يتمكن «كونور» من تحملها لفترة أطول، وقف وهرول مبتعدًا، وهو يُحني حافة قبعة وهمية ويعتذر، على الرغم من أنه لم يكن متأكدًا مم يعتذر بالضبط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

تدفق ضوء الصباح الباكر على أسطح المنازل المغطاة بالقرميد، بينما تردد صدى صرخات النوارس والصقور من خلال الشوارع المرصوفة بالحصى. وقف «كونور» على العتبة الرخامية لفندق «ترويا»، يشاهد المدينة وهي تستيقظ من سباتها، فيما تصارع رجلان للسيطرة على عربة يدوية تمتلئ بالخبز الطازج الذي خرج للتو من الفرن ولا يزال البخار يتصاعد منه، بينما هما يحاولان النزول بها في الشارع شديد الانحدار، وفي الجانب الآخر، انفجرت نافورة حجرية حُفِرَت عليها أكاليل وعناقيد عنب مطلقة دفقات من مياه رائقة من حنفية نحاسية مزخرفة. قاوم «كونور» الرغبة في عبور الشارع وغمر يديه في الحوض لتذوق ماء النافورة الذي تحلقت حوله النساء، تزقزقن مثل العصافير أثناء انحنائهن لملء دلائهن بالماء لعائلاتهن، ثم انطلقن في طريقهن، وقد تفرقن عبر الشوارع، وكل امرأة منهن تحمل دلوين عند طرف عصاة متوازنة على أكتافهن. وأمامه تقدم طفل صغير – ليس أكبر من العاشرة، وعلى الأرجح أصغر منها - وهو يحمل على رأسه صينية من نفس الخبز المستدير كالحلقات، والذي رآه «كونور» على الأرصفة أمس. توقف الصبي، ناظرًا نحو «كونور» في ترقب، ثم أبطأ من سرعته هاتفًا: - «سمييييييط!»

حركت رائحة الخبز الطازج التروس الساكنة داخل معدة «كونور» فسأل: - «كم سعره؟»

نظر الصبي صامتًا نحو «كونور»، وقد بدا عليه الارتباك، ليكرر «كونور» رافعًا صوته معتقدًا أن الصبي لم يسمعه: - «سيميت! كم سعره؟ الخبز؟ المال؟ كم؟»

ابتسم الصبي في عدم فهم، وقد بدا عليه الحرج. ليهتف كونور» في حنق: - «بحق السماء! ماذا يظنني أقول له؟»

- «سيدي، «كونور» بيك»

كان صوت «أورهان» الذي ظهر عند الزاوية، من الفناء الموجود في الجزء الخلفي من المنزل.

- ««كونور» بيك.. هذا سميط.. نوع من الخبز. أتريد منه؟»

- « نعم. أشعر وكأنني أتضور جوعًا».

- «تتضور؟ ما الذي تعنيه تلك الكلمة؟»

- «جائع.. أريد هذا الشيء، تقول أن اسمه سيميت؟»

- «ليس سيميت، بل سميط..»

- «نعم، نعم. كم سعره؟»

- «سأدفع الآن، وتدفع لي لاحقًا.»

غاب «أورهان» في الفندق وسرعان ما ظهر مرة أخرى وهو يحمل عملة معدنية. أعطاها لبائع السميط وأخذ اثنتين من الصف المرصوص بعناية - والمتوازن بشكل لم يستطع «كونور» أن يصدقه - على رأس الصبي البائع.

- «هاك يا «كونور» بيك.. تفضل.»

أخذ منه «كونور» حلقة الخبز، كانت لا تزال دافئة ومغطاة ببذور السمسم الذهبي. قضم منها قطعة، كان قلبها ناعمًا ومُحلى نوعًا ما.

- «لذيذة»

- «هل أعجبك يا «كونور» بيك؟»

- «نعم.. لذيذ للغاية.. شكرًا لك.»

ثم جلس كل من «كونور» و«أورهان» في صمت على درجة السلم العلوية يتناولان السميط.

- «أخبرتني والدتك الليلة الماضية أنك لا تستطيع أن تأخذني إلى وزارة الحرب. هل تستطيع أن تريني الطريق الذي يجب أن أسير فيه للوصول إلى هناك على الأقل؟»

نظر «أورهان» للوراء نحو بهو الفندق قائلًا:

- «هل قالت أمي ذلك؟ لا، كل شيء على ما يرام الآن.. أستطيع أن أذهب معك.. هناك الكثير من الطرق للوصول إلى «طوب قابي».. سوف تضل الطريق.. سآخذك إلى هناك أفضل»

- «جيد.. ليس لدينا وقت لنضيعه.. دعنا نذهب.»

- «سترى كم أنا دليل جيد، تعال! «

نفض «كونور» بذور السمسم عن صدره وحجره، وعدل من وضع قبعته على رأسه واتخذ طريقه نازلًا درجات سلم الفندق في أثر «أورهان». الآن وقد حظي ببعض الراحة، ها هو سينطلق خلف هدفه مرة أخرى، بعد أن أدرك بالضبط ما يجب عليه فعله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دارا حول ما بدا لـ«كونور» كأنه المنعطف المائة، فلم يعد لديه أي فكرة على الإطلاق عن أين هو. كان لديه دائمًا حس جيد للاتجاهات، أو شعور غريزي بالاتجاه الصحيح. في الديار، كان بوسعه أن يتنقل هنا وهناك مهتديًا بالشمس والنجوم، ولكن هنا في نصف الكرة المقابل شعر بالارتباك والتشتت. في الوقت الحالي، لم يعد قادرًا على تحديد الشمال حتى، ولا حتى يستطيع معرفة طريق العودة إلى الفندق الذي تركوه قبل دقائق فقط. بدا له كأن تلك الشبكة المعقدة من الأزقة والدروب الضيقة التي ترتفع ثم تنخفض، وتدور حول تلك التلال، مصنوعة فقط لتضليل المسافرين.

كان «أورهان» محقًا بأن «كونور» كان ليفقد طريقه في هذه المتاهة بشكل لا رجعة فيه دون مساعدته. في مكان قريب، سمع «كونور» أصواتًا عالية غاضبة تتبادل الحديث، وأصوات العديد من الأقدام التي تركض على الحصى. نظر أسفل التل على طول شارع ضيق في اتجاه تلك الضجة، ولمح بعض الغوغاء الغاضبين يهرعون قادمين عبر شارع مجاور. كانوا على بعد مسافة، ولكن غضبهم كان باديًا. توقف الرجال وصرخوا في شيء بعيد عن مجال نظر «كونور». تشابكت أذرع البعض واندفعوا بقوة معًا، فقط لتدفعهم للوراء قوة لا تظهر لـ«كونور» من زاويته.

- «انتظر يا «أورهان». ماذا يحدث هناك؟»

قالها، ثم بدأ «كونور» يتحرك أسفل الشارع الجانبي، وقد ثار فضوله لمعرفة ما يجري، لكن «أورهان» أمسك بكُم قميص «كونور» قائلًا: - «لا يا «كونور» بيك. من الأفضل أن تبقى هنا. هؤلاء الرجال غاضبون جدًا.»

- «لماذا؟ ماذا يمكن أن يجعلهم غاضبين لتلك الدرجة؟»

- «السلطان.. البريطانيون.. اليونانيون.. الحرب.. كل شيء.»

قرر «كونور» بحكمة تغيير طريقه، والابتعاد عن الشغب قائلًا: - «فلنستمر في طريقنا إذن.. تبدو هذه أفضل فكرة.»

- «نعم يا سيدي.. سنذهب إلى «طوب قابي» من هنا.»

سار الثنائي في صمت، بينما أصوات الصدام تخفت مع ابتعادهما. قطب «أورهان» حاجبيه قائلًا: - ««كونور» بيك، العثمانيون طيبون للغاية، فلا تقلق. أنت أسترالي، لست بريطانيًا.. البريطانيون والأستراليون ليسوا نفس الشيء.»

توقف «كونور» مكانه وهو يقول:

- «لا، ليس دائمًا، على ما أفترض.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر «كونور» مع «أورهان» بين صف من المنازل الخشبية المكونة من ثلاثة طوابق، والمطلية بألوان صارخة، وقد مالت طوابقها العليا نحو الشارع كمجموعة من الجيران الفضوليين تطل من نوافذها. لمح «كونور»، فوق الأسقف الموجودة على يساره، جدارًا حجريًا عتيقًا. رأى أمامه جدارًا طويلًا آخر شُيد من نفس أعمدة الطوب ذات اللون الأحمر المخطط بالأبيض، بنفس الطراز الغريب الذي يشبه الحلوى، مثل التي لاحظها في اليوم السابق في سوق التوابل.أشار «أورهان» نحو منطقة تقع وراءها: - «هناك! «كونور» بيك! ها هو قصر «طوب قابي»»

- «ماذا عن مكتب الحرب؟»

- «نعم، هنا في الداخل.»

خرجا إلى ساحة واسعة، فرأى «كونور» بوابة قديمة ومحصنة عند قمتها، فيما يحرس مدخل قصر «طوب قابي» أكشاك حراسة، يملأها جنود يرتدون زي الجيش البريطاني. بدت المعدات العسكرية الحديثة – البنادق، والذخيرة، وجرابات الطلقات، والسترات الخاكية، والمركبات المدرعة – متنافرة مع المدخل العثماني الرخامي الأبيض، والذي تناثرت فيه مجموعة مع اللافتات الخضراء كالزمرد، والمنقوش عليها بخط مذهب بعض الكلمات العربية.. اقترب «كونور» من الحارس البريطاني. كان أحمر الشعر، والبشرة، وقد تقشر بعض الجلد عن أنفه، بدا منظره غير مناسب لصيف البحر الأبيض المتوسط الحار على الإطلاق. ظهر على وجه الجندي لمحة من عدم الرضا لدى مرأى رفيق «كونور» الصغير.

- «هل يمكنني مساعدتك يا سيدي؟»

- «أريد أن أذهب إلى «جاليبولي»، وأخبروني أنني بحاجة إلى تصريح.»

سخر منه الجندي:

- «لا أظنك ستتمكن من فعلها.»

ناول «كونور» الخفير جواز سفره.

- «أين أذهب؟»

- «ربما تنجح في الذهاب.. أعتقد.. لكنه لن يذهب إلى أي مكان..»

للحظة، لم يكن «كونور» متأكدًا من الذي يتحدث الجندي عنه. وضع الحارس يدًا رافضة على كتف «أورهان.»

- «هذه مشكلة»

لم يبد على «أورهان» الانزعاج من تصرف الجندي.. قال: -سأنتظرك هنا يا «كونور» بيك.

-لا، لقد ساعدتني بما فيه الكافية. شكرًا لك. عد أنت للمنزل. واشكر والدتك لتركك تأتي.

لكن «أورهان» تمسك بموقفه، فتعجب «كونور» من إصراره، حتى تذكر مسألة دفع ثمن الخبز الذي يدينه بها، فأخذ يبحث في جيبه حتى عثر على عملة معدنية فأعطاها له، وابتسم «أورهان»، لكنه لم يتحرك.

- «سأنتظر. تحتاج إلى دليل للعودة إلى الفندق.»

- «هممم.. اتفقنا، لكنني قد أضطر للبقاء هنا بعض الوقت»

- «سأنتظرك»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خطا «كونور» من خلال بوابة «طوب قابي» المقوسة ليجد نفسه في فناء واسع. وقف واضعًا يديه على الوركين، وقام ببعض الحسابات داخل رأسه.. كان المكان ضخمًا بما يكفي ليحتوي عشرين منزلًا بحجم منزل عائلته، وربما أكثر. في منتصف الفناء انتشرت رقعة من العشب الذي غزته غابة من الأشجار الغريبة، بينما هرع الضباط المبتدئون والكتبة بصخب على طول المسارات التي قسمت الفناء الأمامي.. بالرغم من أنها كانت مقر الإقامة الإمبراطوري بالماضي - لكن السلطان يفضل الآن العيش مع زوجاته ومحظياته في قصر «دولماباخش» المبني على الطراز الأوروبي والمطل على مضيق البوسفور – وصارت هذه المتاهة من الغرف وصالونات وغرف الاستقبال تعمل الآن كمكتب حرب مرتجل. اقترب حارس بريطاني شاب، وقد ارتفعت قرعات حذائه الجلدي على أرضية الممر.

-هل يمكنني المساعدة يا سيدي؟

-آه.. نعم، أنا من أستراليا...

بادره «كونور» بالإجابة، فقاطعه الحارس:

-من المستعمرات؟

-حتى تحتاجون لنا، ووقتها نصبح جميعًا أبناء إمبراطورية واحدة. والآن، أريد أن أذهب إلى «جاليبولي». من الذي يجب أن أذهب له؟

توردت وجنتا الحارس الشاب، قبل أن يجيبه بغلظة:

-أنت بحاجة إلى تصريح يا سيدي، مكتب تصريح السفر بالأسفل هناك. واحد، اثنان... الباب الثامن على يمينك.

ثم أشار لـ«كونور» نحو شرفة تمتلئ بالأعمدة والأبواب الخشبية الصغيرة. تقلصت يد «كونور» في توتر وهو يتبع أعمدة الرخام، حتى اختفت خلف جناح من الجص الأبيض الذي ذكره بكعكة حفلات الزفاف الضخمة، وكانت هناك لافتة على باب مفتوح تقول «السفر». هز «كونور» رأسه في اعتذار وهو يدلف للحجرة، ولكنه وجد أمامه غرفة صغيرة قبيحة بلا نوافذ لا يمكن أن تكون إلا مجرد مخزن عثماني. في مركزها كان هناك مكتب خشبي بسيط يئن تحت تل من الملفات. دارت مروحة معدنية سوداء على المنضدة، تداعب الأوراق الطليقة، والتي تعتبر الدليل الوحيد على أن هناك شخص ما قد يعود لهذا المكان.

على لوحة الاسم نُقِش: «ملازم سينكلير براينت». وعلى جانب من المكتب انتصب كرسي دوار عليه وسادة مطرز عليها علم الفوج وأسد. ابتسم «كونور» لفكرة أن شخص يُريح ظهره على رمز الشركة. أمَا على الجدار عُلِق لوحان خشبيان ذكراه على الفور بالمدرسة الابتدائية في بلدة «بيرشيب»، الموجودة على حافة منطقة «مالي»، وقد تزاحم أربعة وعشرون طفلًا من جميع الأعمار في الفصل الدراسي المصنوع من الخشب – الأصغر سنًا بالمقدمة، بينما الأكبر سنًا في الخلف – والسيد «ديرك» الأصلع، الذي اعتاد أن يجعل الطلاب المشاغبين ينحنون وقد وضعوا أيديهم على مقعده الخالي بينما هو يجلدهم على مؤخرة سيقانهم!

في اليوم الذي أصبح يومه الأخير في المدرسة، أمسك «كونور» ذو الاثني عشر عامًا بالسوط فجأة أثناء الضربة الثالثة، قبل أن يسحبه في غلظة من قبضة معلمه، ثم قطعه إلى أربع قطع قبل أن يضربه كف «ديرك» المفتوح على الفك، كانت الضربة التالية لكمة قوية ارتطمت بأنفه ليتفجر الفصل الدراسي باللون الأحمر أمام عيني الصبي. يتذكر «كونور» عودة والده إلى المنزل بعد التحدث مع معلمه وعدم القدرة على الاحتفاظ بسكينه في يده اليمنى أثناء العشاء. جلس «كونور» على حافة كرسي ووضع قبعته على المقعد الموجود بجانبه، ثم مال إلى الأمام، وقد وضع مرفقيه على ركبتيه، وترك المروحة تبرد شعره الذي بلله العرق. سمع لثلاث مرات خطوات على الرصيف الرخامي في الخارج ووقف لتحية الملازم، فقط لرؤية ظل يرتدي الزي الخاكي يمر عبر المدخل. ظهر «براينت» عندما سمع الخطوات للمرة الرابعة، وكان رجلًا طويل القامة ونحيل في أواخر العشرينات من عمره، بوجنتين غائرتين وأنف معقوف. وازن صينية عليها إبريق شاي ووعاء الحليب في يد، وحمل عصا المشي في اليد الأخرى.

-أنا آسف بشدة. لم يكن لدي أي فكرة أن هناك من ينتظر..

قالها وهو يضع الصينية على المكتب ويمد يدًا نحيلة ملطخة بالحبر نحو «كونور».

-أنا الملازم «سينكلير براينت»... أتحب تناول بعض الشاي؟

-لا، شكرًا لك..

رد «كونور» بانعدام صبر، ثم أكمل:

-أريد أن أذهب إلى «جاليبولي» غدًا.

رد «براينت» معترضًا:

-لماذا؟ ليس هناك ما يمكن رؤيته.. هل قاتلت هناك؟

-أبنائي فعلوا، أبنائي الثلاثة..

شرح «كونور»، واستطرد:

-إنهم لا يزالون هناك.

-آه.

لم يكن لدى «براينت» فكرة عم يقوله غير هذا، ثم أضاف: -أنت تدرك أين هي، صحيح؟

أومأ «كونور». قال «براينت»:

-لسوء الحظ لا أستطيع مساعدتك. ليس لدي السلطة لإصدار تصاريح للمدنيين. فقط الأفراد العسكريين، أنت تفهم تلك الأمور..

تراجع «كونور» في كرسيه وسحب من هواء الغرفة الراكد وهو يصر على أسنانه..

-لماذا أهدروا وقتي بإرسالي لك بحق السماء؟

هز «براينت» كتفيه مجيبًا:

-لست متأكدًا. ربما كانوا يحاولون المساعدة فقط.

- يالها من مساعدة! هل يمكن أن تخبرني على الأقل من أحتاج إلى التحدث إليه؟

-لست متأكدًا من أن هناك أي شخص يمكنه مساعدتك..

فسر «براينت»، ثم استطرد:

-إنه طلب غير عادي. فريد من نوعه.

-يجب أن يكون هناك شخص ما، من هو رئيسك؟

سأله «كونور، وقد تصاعد مزيج من الغضب والإحباط في صوته. أذعن «براينت» مع نظرات «كونور» الفولاذية، فكتب اسمًا على قطعة من الورق وناولها له من فوق المكتب.

-أقترح عليك أن ترى الكابتن «بريندلي».. قد يكون قادرًا على مساعدتك.

لكن لم يبد صوته مقنعًا للغاية، أضاف:

-في الناحية الأخرى من المكان..

استطاع «كونور» أن يشعر أنه قد كدر يوم «براينت» وأن الملازم يتوق للتخلص منه. انتصب «كونور» واقفًا وأمسك قبعته وأشار نحو عصا سير «براينت». قال: -اعتقدت أنك قد تفهم أفضل من البعض.

-لن أفهم أبدًا يا سيد «كونور».

قالها «براينت» بكآبة باردة، فوقف «كونور»، وسحب قبعته تاركًا «براينت» مع الشاي الذي أعده، وملفاته. كان قد وصل لمنتصف الطريق عبر الفناء الواسع، وهو يطلق السباب سرًا، عندما توقف أدرك فجأة أن شمس منتصف النهار كانت تصب جام غضبها على قبعته وكتفيه، كأنها صفعة قوية على الظهر من شخص وسط الزحام. في حين أن الجميع من حوله بدوا وكأنهم ينشدون بعض الظل، بدا أن «كونور» ينشد الشعور بالدفء على وجهه. أغلق عينيه وفتح كفيه، وهو يحاول استعادة توازنه النفسي والعاطفي والجسدي لأول مرة منذ وصوله. مر موكب من الجنود البريطانيين والفرنسيين والأتراك بالقرب منه، وكان معظمهم مشغولين بمهام الحكم لدرجة منعتهم من النظر نحوه لمرة ثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تراجع الكابتن «تشارلز بريندلي» في كرسي مكتبه، متأملًا السقف المزخرف. منذ أن علم أن الحرفيين المسلمين يتركون عيبًا متعمدًا في كل ما ينشئون -لأن الله فقط هو الكامل بلا عيب- كان يبحث عن ضربة فرشاة خاطئة أو قطعة بلاط في غير محلها في القبة المعقدة أعلاه. لقد مرت عليه ثلاثة أشهر، لكنه مصمم على العثور على العيب. ظهر مساعد «بريندرلي» في المدخل وقد وقف رجل آخر مدني وراءه.

-سيدي، السيد «كونور» يرغب في مقابلتك، هو من أستراليا.

شعر «بريندرلي» بالفضول، فخفض نظرته عن القبة، وقاد «كونور» لغرفة استقبال الأمراء الفاخرة التي هي الآن مكتبه. لم يملأ المكتب وزوج خزائن الإيداع إلا القليل من هذه المساحة الواسعة، فلم يتمكنوا من إخفاء الديكور المتميز العتيق. تخيل «بريندلي» نفسه كلطخة خاكية على خلفية من تلك النقوش المذهبة، والأقواس المتطابقة، والبلاط الأزرق والأبيض القادمة من «إزنيك»، فيما امتدت سجادة خضراء اللون تحت قدمي «كونور» تقوده إلى مكتب الكابتن. كان «بريندلي» مراقبًا عسكريًّا لشبه جزيرة «جاليبولي» خلال الحرب، ويقوم بالمحاربة في معاركه مستخدمًا ختمًا أزرق على جزيرة «إيمبروس» اليونانية.

داخل خيمة سداسية، تمت تسميتها ب «الخيمة الكبرى»، لأن ما يحدث في الداخل كان عبارة عن سيرك، اعتاد أن يفتش البريد الذي يغادر الخنادق. كانت وظيفته هي استئصال أي معلومات حساسة من رسائل الجنود، بوضع خط أسود سميك على أي شيء قد يفشي مواقع الخطوط الأمامية، فيكشف عن تفاصيل عن عمليات هجومية، وكذلك كان يحذف أي وصف دقيق أكثر من اللازم لما يمر بهم باعتباره صادمًا للأخلاق، فآخر شيء يحتاجه الجيش كان تثبيط المواطنين العاديين عن التجنيد. بالنسبة للرجال الذين كتبوا الكثير من الرسائل، اعتاد «بريندلي» على متابعة ما يحدث في حياة أسرهم في الوطن. إذا حدث وقام بتوصيل البريد إلى شبه الجزيرة، أو صادف رجالًا في أجازة في مدينة «مودروس» اليونانية، كان يمنع نفسه بالكاد عن السؤال عن زوجاتهم بالاسم، أو الاستفسار عما إذا كان قد سمعوا من شقيقهم في فرنسا، أو إذا كانوا قد قرروا الاسم الذي سيطلقونه على طفلهم الذي وُلِد للتو. في كثير من الأحيان كان يقرأ الرسالة الأخيرة التي أرسلها جندي ما إلى المنزل، غير مدرك لكونه قد مات بالفعل. آخر رسالة تتلقاها أسرهم من أب أو ابن مفقود تكون عبارة عن قطعة ورق صغيرة ليس بها غير عبارات مبتورة، مطوية في مظروف مختوم بعلامة الرقابة الزرقاء. «بريندلي» فقط هو من رأى ما في قلوبهم بينما هم يذهبون طي النسيان، وعند الضرورة، يسلط سيف الرقابة على آخر أمنياتهم ورغباتهم، فيقتلهم من جديد.. لم يكن «بريندلي» منيعًا للجمال الذي يولد في بعض الأوقات من رحم الكارثة. إذا وجد أنه يحتاج إلى تذكرة، فإنه يقوم بفتح صفحات كتاب «الإلياذة» لـ«هوميروس». في الرسائل، كما في الحياة، كان «بريندلي» في العموم عمليًا وغير عاطفي. لكن رغم ذلك، كان هناك سطر ما يظهر من حين لآخر، فيقفز من مكانه في الصفحة ويتسبب بمدى صدقه وشاعريته في حزنه. وعكس تصرفه المعتاد، كان يترك الخطاب يستمر بطريقه إلى المرسل إليه المقصود. فمن هو ليعبث ويتدخل بشيء مثالي لتلك الدرجة، سواء كان مخلوقًا بيد الله أو مكتوبًا بيد بشر؟

مع اقتراب «كونور»، نهض «بريندلي» مبتسمًا، ومال فوق المكتب ليصافحه.

- «تشارلز بريندلي».. أنت بعيد عن الديار للغاية يا سيد.....

- «جوشوا كونور»، وأنت كذلك..

-بالتأكيد.

بدا «بريندلي» مستمتعًا بصراحة الرجل العجوز وقدم له كرسيًا.

-كيف يمكنني أن أخدمك؟

اتخذ الرجلان مجلسيهما على كرسيين على جانبي المكتب. قال «كونور» مختصرًا الطريق، لأنه لم يكن في مزاج لأي ثرثرة بلا نتيجة: -أريد أن أذهب إلى «جاليبولي»، للعثور على أبنائي، الذين لم يعودوا للديار.

داعب «بريندلي» شاربه الضخم بأصابعه للحظات، متمهلًا في اختيار كلماته.

-لا تزال «الدردنيل» منطقة عسكرية حساسة للغاية، كما ولابد أنك تعرف..

ثم عدل من وضع سترته مكملًا:

-يؤسفني أن أخبرك يا سيد «كونور» أننا لا نصدر تصاريح السفر إلى «جاليبولي» للمدنيين.

وبينما هو يتحدث خطا صبي تركي ممن يقومون بتقديم الشاي فوق البساط ووضع كوبين من الشاي ووعاء سكر على المكتب، سأل «بريندلي» «كونور»: -هل ترغب في احتساء بعض الشاي؟ ليس مطحونًا بما يكفي على ما أخشى.

حام الصبي للحظات بالمكان فصرفه «بريندلي»، ثم انتظر حتى خرج الصبي قبل أن يستطرد: -لا تنخدع يا سيد «كونور»، فهذا المكان لا يزال تابعًا للعدو، قد نكون مسيطرين على المدينة، لكن سيحتاج الأمر وقتًا طويلًا قبل أن نعيد النظام إلى كل تلك الفوضى.

مد «كونور» يده لجيب سترته ووضع صورة على سطح المكتب. تحدث ببطء وحزم: - «آرثر»، و«هنري» و«إدوارد كونور». من «رينبو»، «فيكتوريا»، جنوب غرب تل «سوان». ثلاثتهم كانوا في الكتيبة السابعة من القوات الأسترالية الإمبراطورية، جُنِدوا معًا في ٧ يوليو ١٩١٤، معتقدين أنهم كانوا يتجهون لمحاربة قبائل الهون في أوروبا. كلنا اعتقدنا ذلك. لكن بدلًا من ذلك، ذهبوا إلى «جاليبولي». قُتِلوا جميعًا في معركة «لون باين» في نفس اليوم -السادس من أغسطس- بعد عام...

قاطعه «بريندلي»:

-أنا آسف حقًا.. تعمل لجنة مقابر الحرب الإمبراطورية على شبه الجزيرة بينما نحن نتحدث.. هناك مهمة شاقة في انتظارهم، لكن عندما يجدون أبناءك، فأنا متأكد من أنهم سوف.. أعدك أننا سوف نخطرك.

مد «بريندلي» يده إلى الصورة ، منتويًا حفظها في الملف الموجود أمامه. لكن «كونور» مال عبر المكتب بسرعة البرق، مثبتًا الصورة بإحكام على المكتب بيده قائلًا بإصرار: -لقد انتظرت لأربع سنوات بالفعل.. لا استطيع الانتظار أكثر.

رد «بريندلي» عليه:

-يجب أن تفهم، هؤلاء الرجال في «جاليبولي» خبراء..

كان ينوي بث الطمأنينة فيه، لكن أمكنه أن يرى أن عبارته وقعت على آذان صماء.

-أنوي العثور على أبنائي بنفسي.. كل ما أحتاجه منك قطعة من الورق وختم يقول أنه يمكنني الذهاب إلى هناك.

لم يسع «بريندلي» إلا الإعجاب بإخلاص هذا الرجل لأبنائه، لكن رده كان صريحًا قاطعًا: -لا أستطيع يا سيد «كونور»، حتى إذا رغبت في هذا. اللوائح لا تسمح بذلك.

-يمكنني العثور عليهم!

قالها «كونور»، مثبتًا الكابتن مكانه بـنظرات كالصقر..

-أوه، حقًا؟

هكذا أجابه «بريندلي»، وقد بدأ صبره يتبخر بسرعة.

-كيف تتخيل أنك ستفعل ذلك؟ جنبًا إلى جنب أبنائك الثلاثة هناك ستون ألفًا من أبناء الامبراطورية هناك.

أشار بإصبعه المشذب لما خلف كتف «كونور». كان الجدار الخلفي بأكمله مخصصًا لدولاب بدائي يتكون من عدة رفوف تحتوي على كومة هائلة من سجلات الخدمة والتقارير الميدانية، مرتبة حسب الدولة. استقرت طبقة خفيفة من الغبار على الملفات العليا في كل كومة. توقع «بريندلي» أن «كونور» سيدرك مدى صعوبة وضخامة المهمة عندما يقرأ اللافتات التي كُتِب عليها: المملكة المتحدة، والهند البريطانية، والأراضي المكتشفة حديثًا، وأستراليا، ونيوزيلندا، وفرنسا.

قال «بريندلي» في انتصار:

-هل تعرف ما الذي اعتاد الجيش أن يفعله بملفات القتلى بعد حرب القرم، وحرب الخرطوم، وحرب البوير؟ كانت هناك شركة من يوركشاير تسمى «طومسون وأبناؤه» تأتي ويرمون القرعة في قادوس و تحويلهم إلى دم وعظام. يجب أن تشاهد الحدائق في سيباستوبول.. أكثر أحواض زهور خصبة ستراها بحياتك على الإطلاق.. هذه هي الحرب الأولى التي اهتم بها أي شخص!

لم يبد أي نوع من التأثر على «كونور»، وكأنه لم يسمع قال: -يجب أن يتم دفن أولادي بالديار بجانب والدتهم.

التقط «بريندلي» صورة الأولاد وتفرس فيها للحظة. تحدث بهدوء وهو يعيد الصورة إلى «كونور»: -شبان وسيمون. هذه هي الصورة الأخيرة التي يجب أن تتذكرهم عليها.

ثم وقف «بريندلي»؛ قاصدًا انتهاء لقاءهما:

-عد إلى بيتك يا سيد «كونور».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

سار «كونور» غاضبًا بجوار مجموعة من شجر الحور الأبيض التي تصدر صفيرًا عبر الشارع مثل عاصفة ثلجية تهب في أواخر الربيع، بينما انطلق «أورهان» من خلفه يحاول اللحاق به. أومأ «كونور» برأسه إلى الصبي لكنه لم يقل شيئًا، فقد كان لا يزال محبطًا من الحديث المخيب للآمال الذي أجراه مع «بريندلي». سمع «كونور» صوت الصراع الدائر على مقربة بعد فوات الأوان. بعدما دار هو و«أورهان» عند الزاوية، فوجئا بنفسيهما وقد ذابا وسط كتلة من المتظاهرين الغاضبين. صرخ الرجال في اتحاد تام وقد شدوا قبضاتهم ورفعوها نحو السماء، مبتعدين عن «طوب قابي»..كان «كونور» متدافعًا ومدفوعًا، من كل زاوية ممكنة، فلم يكن لديه خيار سوى الذهاب في نفس اتجاه الغوغاء. فبدأ في الشعور بالذعر! كان الحشد يتدفق إلى ميدان ضخم - لابد وأن عرضه يزيد عن أربعمائة قدم وطوله لا يقل عن ألف قدم - تتوسطه مسلة ضخمة تبدو وكأنها نقطة تجمع.

التفتت نحوه مجموعة من الحواجب المعقودة والأفواه الباصقة، شاعرين – وها هم قد رأوه فتأكدوا – من وجود أجنبي غير مرغوب فيه وسطهم. حان دور «كونور» ليصبح العدو؛ صارت ضربات الكوع في جانبه أكثر حدة ومتعمدة ولم تعد غير مقصودة كما كانت بالسابق. شعر برائحة الحشد تغلفه، رائحة العرق الحامض العفن، رائحة الخوف والغضب! واجهه رجل، مشيرًا بإصبعه نحو صدر «كونور»، وقد احتقن وجهه بالغضب العاجز، وأخذ يجعجع ويصرخ، بكلمات غريبة تمامًا على أذني «كونور»، لكن ليس هناك مجال للشك في معناها.. وفي اللحظة التي عرف «كونور» أنه يواجه فيها خطرًا جسيمًا، شعر بيد صغيرة على معصمه تشده.

- «كونور» بيك! من هنا!

رفع «أورهان» قبعة «كونور» الأجنبية المميزة عن رأسه ودفعها تحت سترته، وبأعجوبة لا يستطيعها سوى طفل مثله، تمكن «أورهان» من العثور على ثغرة وسط الغوغاء الهائجين، فقاد «كونور» نحو حافة الحشد. وجد نفسه مضغوطًا نحو جدار رخامي طويل تخللته نوافذ مقوسة. اصطدم بالجدار بقوة قبل أن يشعر بنفسه يتم سحبه بطول الجدار، وقد أخذ وركه يرتطم بشكل مؤلم بالحافة الحجرية الصلبة للجدار، تمامًا كما ارتطم كتفه بالحواجز المشبكة المعدنية التي تملأ كل قوس. أمسك «أورهان» بـ«كونور» بإحكام، جاذبًا إياه للأمام نحو مدخل ضخم مغطى بالنقوش، ثم اندفع من خلاله، ساحبًا «كونور» من ورائه. في الفناء الواقع وراء البوابة، وقع بصر «كونور» على أجمل مبنى رآه بحياته على الإطلاق؛ كانت هناك مجموعة من القباب

الضخمة تتبع سربًا من الأهلة الدقيقة التي بدت كأنما هي تتسابق عبر سماء الربيع الزرقاء، كما ارتقت ستة أبراج مدببة نحيفة بشكل لا يُصَدّق وطويلة للغاية نحو عنان السماء. أخذ يحدق في واحد منهم، وبدأ رأسه في الدوران. استحثه «أورهان» بقوله: -من هذا الطريق يا «كونور» بيك! المكان هنا غير آمن. تعال!

دون حماس، ترك «كونور» «أورهان» يقوده إلى رواق مفتوح مخفي على طول أحد جوانب المنصة العالية التي ينتصب فوقها المسجد، وبرزت عشرات من الصنابير الصغيرة المصنوعة من النحاس الأصفر في صف طويل من الأساسات الرخامية. وجلست مجموعة من الرجال على كراسي منخفضة أمام المياه الجارية، يغسلون أقدامهم الحافية في هدوء، يغترفون من الماء في أيديهم قبل أن ينثروها على رؤوسهم ووجوههم.

-هل هذا حمام عام؟

ضحك «أورهان»:

-ليس حمامًا يا «كونور» بيك.. إنه مكان الوضوء للصلاة.

ثم أخذ كرسيًا فارغًا ونزع خفيه:

-تعال! توضأ أنت أيضًا.

-لماذا قد أفعل ذلك؟

-من أجل دخول المسجد يا «كونور» بيك.. يجب عليك الوضوء.

تردد «كونور» وأحجم عن المشاركة، فبدأت وجوه الرجال الذين يتوضأون تدور تجاهه. واندفع الماء بصوت عالٍ من الأنابيب ليملأ قناة منحوتة في الأرضية الرخامية، فجلس «كونور» متعجبًا من مثل هذه الوفرة من الماء التي تتدفق دون طائل، يالها من خسارة. خلع حذاءه في استياء، ثم نزع جواربه، وغطس قدميه في شلال المياه الباردة المتدفقة من الصنبور.

-الرأس والوجه يا «كونور» بيك!

ضم يديه سويًا ليغترف بعضًا من الماء المتساقط. مقلدًا «أورهان»، سكبها فوق رأسه ومسح وجهه، شاعرًا بالبرودة الجليدية تتساقط على رقبته وصدره. لعق شفتيه، فوجد الماء حلو المذاق، طازج، وبارد. ليس مثل الماء الذي كان يستخرجه للسطح من الآبار بالوطن على الإطلاق. هذه مياه جبلية، مياه نبع تأتي عن طريق ذوبان الثلوج والأمطار الشتوية. طعمها به قبس من روح الغابات وألواح الثلج الباردة. كان فيها كل شيء غير موجود في المياه التي اعتاد عليها بالديار.. تدلت ستائرٍ قماشية ثقيلة تسد المدخل إلى

المسجد. تحرك «أورهان» للأمام، ممسكًا بالستائر جانبًا ليمر«كونور» عبرها. أحنى هذا الأخير رأسه أثناء دخوله، وبينما تتكيف عيناه مع المساحة المظلمة أمامه، لاحظ غياب شيء ما.. الكراسي.. المقاعد.. كانت تلك المساحة الهائلة خالية تمامًا من الأثاث! لا يوجد مكان للجلوس بخلاف السجاد الذي يغطي الأرض بالكامل. ثم نظر «كونور» لأعلى، حيث كانت هناك قبة أذهلته؛ كان جلال وجمال تلك القبة المكسوة بالبلاط الأزرق التي تطفو فوق رأسه يفوق أي شيء قد رآه «كونور» طيلة حياته أو تخيله حتى. يمكنه أن يفترض هذا هو المسجد الأزرق الذي توسلت إليه «عائشة» أن يزوره. بدا البلاط المطلي اللامع عامرًا بالحياة، وأما الضوء فبدا واضحًا للغاية، بينما بدت القبة عالية لدرجة أنها تكاد تختفي وسط السماوات، في أحد الزوايا، انتصبت عدة أبراج غريبة المنظر، افترض «كونور» أنها شيء أقرب إلى المنبر. وفي مواجهته تراصت صفوف من الرجال على الأرض، يقومون بحركات منظمة من رفع أيديهم ثم الانحناء، ثم السجود، ووجوههم لأسفل.

كان «أورهان» يراقبه، قبل أن يسأله: -ألديك مكان مثل هذا بوطنك؟

تسمر «كونور» مكانه، غير قادر على نطق أي كلمات، ثم أجاب بحلق جاف: -نعم، ولكن هذا أكبر قليلًا.

استدار وسحب الستارة عند المدخل جانبًا.

-هيا. لنذهب.

خرج «أورهان» و«كونور» من المدخل الجانبي للمسجد، بعيدًا عن الشغب. كان لا يزال بإمكانهما سماع صيحات وزئير الغوغاء الغاضبة التي لم تتفرق بعد. استمر الزوج الغريب يمشي في صمت. كان «كونور» لا يزال يحاول استيعاب ما رآه، لكنه فهم أن «أورهان» غير قادر على الصمت لفترة طويلة، وسرعان ما ملأ الصبي السكون بثرثرته الإرشادية: -بناه السلطان «أحمد».

-أستمحيك عذرًا؟

-ذلك المسجد.. لقد بناه السلطان «أحمد». كان رجلًا عظيمًا. عمر المسجد ثلاثمائة عام.. أي أنه قديم جدًا.

-نعم، ثلاثمائة عام تجعله قديمًا جدًا.

كان «كونور» مشتت الذهن ولم يكن رائق البال لثرثرة «أورهان»، سارا عبر ساحة مفتوحة شاسعة باتجاه مبنى أثري آخر. ولكن على عكس الجمال المهيب للمسجد الذي زاراه للتو، فإن هذا المبنى لديه هيبة مادية تشع منه، كأنه سجن أو قلعة. كانت هناك دعامات وردية ثقيلة تدعُم القبة الرمادية الضخمة. استمرت جولة «كونور» غير المرغوب فيها، في الحين الذي بدا فيه

أن «أورهان» قد بدأ يتحمس للقيام بجولة سياحية.. أخذ يشير إلى الصرح بيده بطريقة مسرحية قائلًا: -وهذا هو «آيا صوفيا». كان كنيسة للمسيحيين مثلك، لكنه الآن مسجد.. هذا المبنى أقدم من الآخر.. بناه الإمبراطور «قسطنطين»، وهذا الإمبراطور هو السبب وراء تسمية المدينة بـ»القسطنطينة».

على الرغم منه، فإن «كونور» شعر بالفضول: -كم عمر «آيا صوفيا» إذن؟

-ألف سنة وخمسمائة عام.

-تقصد خمسمائة سنة؟

-لا.. أكثر من خمسمائة سنة.. لا أعرف كيف تقال بالإنجليزية.

ثم أخذ يكتب الأرقام في الهواء بإصبعه.

-واحد، خمسة، صفر، صفر..

-ألف وخمسمائة سنة؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.

-نعم يا «كونور» بيك. هذا هو العدد.

لكونه قادمًا من أرض استعمرها البريطانيون منذ أكثر من مائة عام، فإن الزمن الذي يتحدث عنه الصبي لا يكاد يمكنه تصوره أو تصديقه، لا شيء مما مر به «كونور» في أي وقت مضى في وطنه كان كفيلًا بإعداده لمثل هذه المدينة القديمة والمهمة. قام «أورهان» بقيادة «كونور» أسفل التل بعيدًا عن منطقة السلطان «أحمد» ومن خلال حي من المنازل ذات الشرفات الخشبية، حريصين على وضع أكبر مسافة ممكنة بينهما وبين الغوغاء. بين صفوف المنازل رأى «كونور» انعكاس أشعة الشمس قبالة الماء، وقد اصطفت مجموعة من قوارب الصيد المطلية بألوان صارخة على طول ساحل بحر «مرمرة»، وقد أخذت تتمايل مع الأمواج، بينما الصيادين على متنهم ينحنون فوق شباك الصيد، فيفكون تشابكها ويصلحونها استعدادًا لليلة المقبلة. وعلى مبعدة امتد رصيف مثل إصبع في القناة. التمعت خيوط الصيد المعلقة من قضبان رقيقة كأنها عنكبوت أسفل دش من المطر. تصاعد من كشك إلى يسارهما صخب مفاجئ لجرس وصيحات عالية من بائع متجول: -دندووووورمة! دندووووورمة!

نظر «كونور» فلمح رجلًا يرتدي طربوشًا وصديري ناعم مطرز بحواف ذهبية، وهو يقلب في شيء ما في حوض بملعقة خشبية ضخمة، وبين الحين والآخر يدق مجموعة من الأجراس المعلقة في الكشك الذي يضمه. كان رجلًا بدينًا للغاية؛ له عينان متألقتان غابتا وسط تضاريس وجه ضخم كثمرة اليقطين.

-ما الذي يفعله هذا الرجل يا «أورهان»؟

-يبيع داندورما يا «كونور» بيك، أو آيس كريم.

-آيس كريم حقيقي؟ هل تحب الآيس كريم؟

نظر «أورهان» إلى «كونور» في عدم تصديق قبل أن يجيبه: -نعم، أنا أحب الآيس كريم.. الجميع يحب الآيس كريم.. هل تحب أنت الآيس كريم؟

حاول «كونور» أن يتذكر عدد المرات التي جرب فيها تلك الحلوى المثلجة؛ لا تزيد عن خمس مرات في أحسن الأحوال، ففي أزقة «مالي» الخلفية الحارة نتنة الرائحة، كان الآيس كريم رفاهية نادرة.

-نعم أحبه، هل يمكننا أن نتناول بعضه؟

-نعم، سأحب أن أتناول بعض الآيس كريم. أنا جائع قليلًا... أو كما تقول أنت أتضور جوعًا.

-نعم، بالضبط.

ثم ضحك «كونور» وناول الصبي حفنة من العملات المعدنية: -هل هذا يكفي؟

-نعم، بالطبع. هذا أكثر من اللازم في الواقع.

هكذا أجابه «أورهان» وهو يعيد له معظم المال.

-هذا المال يكفي لاثنين من الآيس كريم. انتظرني للحظات.

راقب «كونور» الصبي وهو يتفاوض مع البائع، إيماءات، ثم أكتاف تهتز، ثم سرعان ما عاد الصبي باثنين من الوافل الطازج الساخن، الممتلئ بكمية ضخمة من الآيس كريم اللزج. ناول «أورهان» أحدهما إلى رفيقه وقد ارتسمت نظرة من الرضا العميق في عينيه.

-لم يرض أن يمنحه لي بسعر جيد، لكنني جعلته يعطينا كمية داندورما إضافية.

أثناء سيرهما، تأمل «كونور» وجبته الضخمة، وتساءل في سره عن كيفية استعمالها دون التسبب في اتساخ السترة الوحيدة التي معه. ابتسم وهو يشاهد الفرحة التي أضاءت وجه الصبي، حيث التمعت عينا «أورهان» السوداوين، وقد تغطت وجنتيه المستديرتين وذقنه بالآيس كريم الذائب، فلم يستطع «كونور» أن يمنع نفسه من تذكر كيف كان يحس بالسعادة لرؤية استمتاع أبنائه بمثل تلك الملذات البسيطة؛ وهو الوقت الذي سبق دخولهم لعالم الرجال مما غير حياتهم بالكامل.

لكن تلك الذكرى لوثتها مسحة من الندم. تمنى لو كان قد قدر تلك الأوقات أكثر. الآن شعر «كونور» بإحباط في محاولته لتقدير تلك الذكريات، لجلب أولاده – أو بقاياهم - للديار. ضم شفتيه بإرهاق.. لم يكن من النوعية التي تبالي بما يقول الآخرون أنه يستطيع أن يفعله أو لا يستطيع، وهي الخصلة التي كانت تؤذيه في بعض الأحيان، لن يبدأ في تغيير تلك الخصلة الآن، فقط لأنه بعيد عن المنزل، في إقليم غير مألوف. يحتاج «كونور» إلى وقت للتفكير، لن يكون موضوع العثور على جثث أبنائه سهلًا كما كان يتصور. استعاد صورة الضابط البريطاني البارد وهو يسخر منه من الجهة الأخرى من مكتبه قائلًا: -عد إلى المنزل يا سيد «كونور».

ففكر في نفسه وقد تزايد تصميمه «اللعنة عليّ لو فعلتها!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

تسلق «كونور» التل باتجاه فندق «طروادة» بينما «أورهان» يدور من حوله كطائر سنونو، وهو لا يتوقف عن الثرثرة بين كل لعقة من الآيس كريم الخاص به والأخرى.. عند الاقتراب من مدخل الفندق، لاحظ «كونور» أن صوت «أورهان» انقطع وسار الفتى من خلفه، فتذكر «كونور» كلب رعاية الغنم عندما يتصرف بطريقة مشابهة عند الشعور بالخطر.

بينما هما يدلفان للداخل، ظهرت «عائشة» يعتلي ملامحها الغضب وقد وضعت يدها في وسطها. راقب «كونور» تبادل سريع حاد لبعض الكلمات باللغة التركية بين الاثنين، لا يحتاج إلى التحدث باللغة التركية لمعرفة أن الصبي قد فعل شيئًا خطأ ويحاول الآن الإفلات. بدت «عائشة» ثائرة للغاية، وعندما أظهر «أورهان» العملات المعدنية التي تم دفعها له، استدارت ناظرة نحو «كونور» مباشرة.. قالت:

-سيد «كونور»، ظننت أنني أخبرتك أن ابني كان وراءه بعض العمل للقيام به هنا في الفندق، وأنه لا يستطيع مساعدتك.

- لكن «أورهان» قال أنكِ غيرتِ رأيك وأنه يستطيع....

نظر «كونور» إلى الصبي، والذي وجه عيناه بكل قواه نحو ألواح الأرضية في خجل، بينما هو يدير الآيس كريم بأصابعه فيسيل على حذائه. قال «كونور»:

-أنا آسف.

هتفت «عائشة» بحدة:

-إنه في الحادية عشرة من عمره.. ماذا سيقول غير هذا؟ ظننت أن لديك أولاد.

ثم التفتت لـ«أورهان» وتحدثت إليه بالإنجليزية. عرف «كونور» أنها فعلت هذا ليفهم هو الآخر ما تقوله ويشعر بوخز كلماتها:

-والآن، أعد للسيد «كونور» أمواله.

تضرع إليها الصبي:

-لكنني سأقوم بالأعمال المنزلية الآن. كل ما تريدين مني فعله..

تضرع إليها الصبي، لكنها ظلت مصممة:

-أعدها له مرة أخرى!

-لكن يا ماما، لقد حصلت عليها من أجلك..

تذمر لمرة أخيرة وهو يقدم لها المال، محاولًا تقبيلها من خلال فمه المغطى بنكهة الفستق، فنبحت «عائشة» بغضب في وجهه لآخر مرة باللغة التركية قبل أن تنطلق عاصفة نحو الطابق العلوي. مع دموع العار في عينيه، ناول «أورهان» المال مرة أخرى إلى «كونور»، الذي كان لا يزال منذهلًا من غضبة «عائشة». لا يستطيع أن يفهم ما فعله ليتسبب في غضبها بذلك الشكل، أو لماذا بحق السماء هي عصبية لتلك الدرجة.

- لا، يمكنك الاحتفاظ بها، سيكون هذا سرنا ولكن هذه هي المرة الثانية التي تكذب فيها عليّ. لا تفعل ذلك مرة أخرى. لا أستطيع أن أكون صديقًا لرجل يكذب عليّ.

ثم ربت على كتف «أورهان»، وسرعان ما اختفى الصبي في الصالون، ليبتعد عن والدته بمسافة كافية. في وقت لاحق، في غرفته، انتشر ضوء منبعث من فانوس يضاء بالكيروسين ناشرًا هالة من التوهج الدافئ على المكتب الصغير، حيث انحنى «كونور» فوق خريطة بحر «مرمرة» و«الدردنيل». كانت مهمته ضخمة لدرجة متعبة، لأن وجهته تقع على بعد حوالي مائة وخمسين ميلًا عن مكانه لو تنقل برًا، والأسوأ أنه لا توجد طريقة واضحة للوصول إلى هناك، وعلى الرغم من أنه بوسعه دائمًا اتخاذ طريق البحر، فإن ذلك سيكون مستحيلًا دون الانتقال على متن سفينة بريطانية.. انتصب واقفًا، ثم استدار وبدأ في التحرك، وهو يدير خياراته المتاحة في عقله، لكن تصاعدت من الطابق السفلي بعض الأصوات المزعجة التي قاطعت أفكاره.. فخطا «كونور» إلى الرواق في فضول، وسمع أصداء الموسيقى تتردد على طول الرواق. نزل بهدوء على درجات السلم، غير راغب في التطفل؛ ترددت نغمات احترافية من البيانو مع الكثير من الضحكات، مما حسن من حالته المزاجية. في منتصف الطريق أسفل درجات السلم لمح نافذة ضخمة مفتوحة تطل على الصالون.. كانت الفتحة مغطاة بشاشة خشبية داكنة مزينة بشكل متقن، وكانت منحوتة بطريقة مكنت «كونور» من رؤية ما يدور داخل الغرفة من خلال شبكتها، في الأغلب دون أن يلاحظه الأشخاص الموجودون في الغرفة أدناه.

في منتصف الأرضية المبلطة بالأسفل، كانت «ناتاليا» تضع إحدى يديها على خصر «أورهان»، وقد مدت الأخرى لتمسك بيده، وقادته عبر أرجاء الغرفة، تدور وتتمايل في محاكاة ساخرة لرقصة بإحدى الحفلات الساهرة. كانت المرأة الروسية ترتدي ثوبًا نسائيًّا متعدد الطبقات ومنتفخًا كأنه طبقة الكريمة التي تعلو الكعكة، وقد ثبتت شعرها الكستنائي إلى الخلف ببساطة في صورة كعكة يعلوها تاج. رفعت قدميها عاليًا بشكل مضحك من حين لآخر، وقد أخذت

ترفع ذراعها لأعلى ثم تنزل به لأسفل في احتراف من اعتادت مثل تلك الرقصات. بدا أن «عائشة» قد تصالحت مع ابنها؛ جلست عند البيانو، تدق المفاتيح بطريقة مسرحية وقد التفتت برأسها نحو الزوجين الراقصين لمتابعة دورانهما الكوميدي حول الغرفة.

لم يسع «كونور» إلا أن يجد بصره منجذبًا إلى خصرها الرقيق، وجسدها الأنثوي المتناسق وهي تميل إلى الأمام بينما يديها تدقان مفاتيح البيانو. كانت اللياقة تتطلب منه أن يتجنب تثبيت عينيه على «عائشة» عندما يتقابلان في قاعة استقبال الفندق أو في الصالون، ولكنه هنا وجد نفسه في وضع يسمح له بتقدير جمالها بالكامل. بدا وجهها من تلك الزاوية الجانبية جذابًا، وقد انحدر أنفها مستقيمًا رقيقًا، ليلتحم بشفاه ممتلئة افترقتا الآن وهي تضحك، وقد تراجع رأسها إلى الوراء لدى مرأى ابنها والمرأة الروسية يرقصان بهذه الثقة. شكل حاجباها الداكنان قوسًا صغيرًا يظلل عينين لوزيتين الشكل، الخضراوين مثل أوراق الربيع الساقطة حديثًا.

كانت عادة ما تضم شعرها الأسود مثل خشب الأبنوس بإحكام في صورة كعكة، لكنه الآن تدلى بحريته مثل حجاب حريري فوق كتفيها. تذكر «كونور» فترة من الزمن كانت مثل تلك الأصوات الفرحة تتردد عبر منزله.. لن ينسى أبدًا السيرك الذي تلا قرار «ليزي» أن الوقت قد حان لتدريس الأولاد كيف يرقصون. كان أولادهما الثلاثة قد طلبوا من صديقات مرافقتهم لحفل كنيسة بلدة «رينبو» الاجتماعي، والمشكلة الوحيدة، كما أشارت «ليزي» لأبنائها المتحمسين، كانت أنهم يجب أن يرقصوا بسلاسة لكي يحظوا بإعجاب رفيقاتهم.. لم يبد أيّ من «آرت» و«هنري» و«إدوارد» أي اهتمام بتعلم شيء اعتبروه شديد الأنثوية بالنسبة لذوقهم.. ولكن لأن «ليزي» أصرت على الموضوع، ولأن الحفل الراقص على بعد أسابيع قليلة فقط، فقد أخذت «ليزي» على عاتقها مهمة تعليمهم.

كان العائق الأول الواضح هو غياب الموسيقى، فكان «كونور» يقف على مضض ليقوم بدور قائد الأوركسترا، وهو يخبط بحذائه على الأرض ليحافظ على الإيقاع بدقات كعب حذائه. العقبة الثانية كانت النقص في شريكات الرقص، مما تسبب في صراع مرح بين الأولاد الثلاثة للتوصل إلى اتفاق حول من سيرقص مع «ليزي»، ومن من الولدين الباقيين كان عليه أن يلعب دور السيدة، على الرغم من اعتراضاته على القيام بهذه المهمة، فقد وقعت على عاتق «إيد»، لأنه كان أصغرهم، وكان دائمًا من ينتهي به الأمر خاسرًا الرهان.

كان «كونور» يغرق في الضحك بينما هو يشاهد أبناءه يدورون حول الغرفة ويتعثرون كمهر حديث الولادة يحاول التعرف على كيفية استخدام أقدامه.. كان الأولاد أحيانًا يتصرفون بخرق عن عمد، مما كان يؤدي لإثارة جنون

«ليزي»، وهو الأمر الذي جعل «كونور» ينفجر في موجة لا يمكنه السيطرة عليها من الضحك، لدرجة أنه لم يعد بإمكانه الحفاظ على وزن الموسيقى. لكن بفضل ثبات«ليزي» وتصميمها وصبرها الهادئ ، دخل الأولاد قاعة كنيسة بلدة «رينبو»، وقد وضعوا أذرعهم بفخر في أذرع شريكاتهم الشابات الجميلات، فقد صار بوسعهم الرقص بشكل جيد بعد مجهودات والدتهم المستمرة المحمومة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعاد صوت ضحكات «عائشة» و«ناتاليا» وحديثهما بلغة أخرى «كونور» إلى الحاضر، وأغرقه المنظر المنزلي الحميمي الدائر أمامه في دوامة من الحزن. أدرك «كونور» أن «ناتاليا» قد ثبتت نظراتها على الستار الذي يخفيه، وأنها على الأرجح لمحت وجود شخص ما! تراجع للوراء على الفور وصعد درجات السلم بهدوء، خوفًا من افتضاح أمره والإذلال الذي سيلحقه عندما يجدونه بهذا الوضع، وقد شعر بأشد الخجل لأن تلك المرأة الروسية قد اكتشفت وجوده. عاد إلى غرفته وأغلق الباب بهدوء، على أمل أن تُبقي وجوده سرًا بداخلها عوضًا عن مشاركته مع «عائشة»، ثم فطن لأنه أمل ضعيف نظرًا لكون المرأتان صديقتين، لكن فكرة أن «عائشة» قد تظنه مختلًا من النوعية التي تتسلل عبر الطرقات ليتجسس على لحظات عائلية خاصة، تلك الفكرة ملأته بتوتر عصبي. وجد قلقه هذا محيرًا قليلًا، فلا يوجد سبب حقيقي ليشعر بالقلق إزاء ما تعتقده المرأة التركية بخصوصه. لا يستطيع أن يفسر بحق سبب شعوره بأنه مقهور لأنه عرض نفسه لخطر الافتضاح بانغماسه في استرقاق النظر غير المناسب هذا. لكنه لم يستطع أن ينظر بعيدًا.

تقدم نحو دورق الويسكي الاسكتلندي الموضوع على قمة النضد الخشبي، وصب لنفسه كمية كبيرة منه، ودون إعادة الدورق إلى الصينية ألقى بالشراب في فمه مرة واحدة! لم يكن «كونور» من النوعية التي تشرب الكحوليات كثيرًا بالديار، ولهذا شعر بالمشروب ينساب داخله حارقًا، فلسع حلقه وجعله يجفل، قبل أن ينتشر بوهج دافئ عبر أمعائه. دون تفكير، سكب لنفسه كأسًا ثانيًا وسار إلى باب غرفته، بعد اليوم الشاق الذي مر به يأمل أن يساعد تناول مشروب قوي وبعض الهواء النقي على شحذ أفكاره. شق «كونور» طريقه إلى زوج من الأبواب الفرنسية في نهاية الردهة التي تفتح على شرفة صغيرة تطل على الحديقة وأفق المدينة. أنارت هالات صغيرة الضوء الشوارع، بينما توهجت النوافذ بسبب ضوء المصابيح، بينما تستعد القسطنطينية للسهر كاشفة عن سحرها الليلي. بعثت رائحة الخشب المشتعل للتدفئة على الراحة بشكل غريب، بينما طنّت مخلوقات الليل مصدرة أزيزًا وسط هواء الربيع المليء بالحيوية، ورددت الأزقة الضيقة صدى أنين الدواب التي تجر العربات المحملة بالمنتجات المنزلية، بينما رن أذان

الصلاة من المسجد الكبير على التل، متناغمًا وموسيقيًا، ولكن أيضًا بائس بشكل غريب. «كونور» ليس لديه أي انجذاب للرب الذي يروج له الأب «ماكنتاير» وأمثاله، وهو ما بدا لـ«كونور» ككيان أعلى عازم على إلحاق معاناة وخسارة لا داعي لهما على رعاياه، كوسيلة للتكفير عن الذنب والخنوع على مدى الحياة. تمامًا كما لا يعرف الكثير عن الرب الذي يعبدونه هنا ويدعونه «الله»، ولكن بالنظر لمطالبه من أتباعه - الاغتسال القهري والحضور في كنيسة المسلمين لخمس مرات في اليوم – فمن الواضح أنه ليس أكثر عقلانية من رب المسيحيين!

بدت الترانيم الحزينة التي رنت من المساجد في جميع أنحاء المدينة لـ«كونور» مثل صرخات رجال يسعون بشدة إلى شيء ما.. هل يسمع الله مناشاداتهم هذه؟ كان «كونور» يشك في ذلك! أخذ آخر رشفة من الويسكي الخاص به واستدار للعودة للداخل، لكنه شعر بها قبل أن يراها؛ سمع رنين أساور الذهب الخالص الخاصة بها، وشم رائحة حلوة غريبة، تشبه خليطًا من القرفة وقشر الليمون. استندت «ناتاليا» على إطار الباب، وقد استقرت إحدى يديها على خصرها المتناسق الذي أشعل نارًا داخله، بينما التوت شفتاها الممتلئتان اللامعتان تحت طبقة من أحمره الشفاه، في ابتسامة عريضة مغرية، وارتسمت نظرة جذابة مغوية في عينيها الزرقاوين اللتين أحاطت بهما طبقة كثيفة من الكحل..

وكما حدث مع لقائهما المحرج السابق خارج غرفتها، لم يعرف «كونور» أين يجب أن ينظر.. انتفخ ثديا «ناتاليا» الناعمين الوافرين فوق خط مشدها الساتان، بينما ظهرت بشرتها بيضاء خالية من العيوب بطريقة لم يرها «كونور» من قبل على الإطلاق.. لم تحاول إخفاء نفسها بالعباءة الشفافة التي لفتها على كتفيها وثبتتها بشكل فضفاض عند قاعدة رقبتها بشريط أسود من الحرير. تحرك «كونور» ليتخطاها هاربًا نحو الرواق، لكن «ناتاليا» منعته، ممسكة بيده برفق بين يديها! كانت لها أصابع ناعمة ونضرة، بدت كأصابع الأطفال بجوار أصابع «كونور» الخشنة المليئة بالشقوق؛ شعر بلمستها رقيقة مثل عصفور يحل على فرع شجرة بلوط. وصل الأئمة في جميع أنحاء المدينة إلى ذروة ترانيمهم واحدًا تلو الآخر، ليساعدوا الرجال على الاقتراب خطوة أخرى أقرب لله، فسحب «كونور» نفسًا راغبًا، محتاجًا، متضاربًا مشوشًا. لكن في نفس الوقت غير راغب، غير محتاج، يحارب الرغبة التي يشعر أنها خاطئة بشدة، محاولًا الانصياع للقلق الذي يصرخ فيه للتراجع عن هذا التصرف غير المرغوب فيه. لكن رائحتها غامرة، مسكرة.. ولمستها ناعمة ودافئة واعدة بالخلاص.. الخلاص والارتياح. شك «كونور» في أنه يحتاج لهذين الآن أكثر من أي وقت مضى..

أخذت «ناتاليا» يد «كونور» الخشنة في يدها و جذبته إلى غرفتها. كان الضوء شحيحًا، وقد ألقى وشاحًا قرمزيًا ملفوفًا حول المصباح بوهج أحمر على وجهيهما. بينما يسترخي «كونور» في دفء الغرفة، استقرت عيناه على الأشياء التي لمحها من خلال المدخل في لقائهما الأخير - آخر بقايا من حياة «ناتاليا» السابقة المختلفة وهي تصرخ في عذاب صامت. على الخزانة تراصت مجموعة من الشعر المستعار؛ تخيلهم «كونور» على أنهم وسائل تنكر، أماكن يمكن لـ«ناتاليا» أن تختبئ فيها لفترة قصيرة وتصبح من تريد أن تكونه. أما «كونور» فليس لديه سوى هذا الجلد المخدوش الذي يغطيه فقط. وقفت «ناتاليا» بالقرب منه، وسحبت الخيط الساتان لأعلى، وسرعان ما سقط ثوبها الشفاف على الأرض! استعدت كل عضلة في جسد «كونور» للفرار، ولكن عيناه كذلك ثبتتا على ثدييها، الذين أخذا يرتفعان وينخفضان مع دقات قلبها المتسارعة. أمسك نفسه قبل أن يضيع فيها تمامًا:

-لا... آسف، لا أستطيع.

بحثت «ناتاليا» عن أزرار قميصه بأصابع خبيرة.. مالت نحوه، وأخذت تُقبِّل رقبته وصدره، بينما هو مأخوذ برائحة القرفة المتصاعدة من شعرها. همست بشيء ما باللغة الروسية في أذنه، وقد بدا صوتها ساحرًا، ثم دفعت يديها داخل قميصه ودارت بأظافرها على ظهره مداعبة. تحدثت «ناتاليا» بلغة إنجليزية ركيكة:

-كل شيء على ما يرام.. أنت رجل وحيد.. وأنا يمكنني أن أنهي وحدتك هذه، فدعني أفعل هذا..

أغلق «كونور» عينيه مستسلمًا، وسرعان ما وجدت يدا «ناتاليا» طريقهما. حاول أن يتكلم ولكنه لم يستطع. بدأت في تدليك جسده، بلطف في البداية، وهي تراقب وجهه. شعر بنفسه يُستثار، و في نفس الوقت رفض ضعفه. توسل إليها:

-لا أرجوكِ.. لا يجب أن أفعل هذا..

-بلى، هذا أفضل شيء لمواجهة الحزن..

هكذا أجابته، قبل أن تهمس في أذنيه بهدوء بالروسية، همست ببضع كلمات حطمت كل ما كان بداخله من مقاومة. صارت أنفاس «كونور» أقصر وأسرع، كأنه يستنجد بقوة خفية. حدق في صف الشعر المستعار المرصوص خلفها. ثم في لحظة مذلة وجيزة تصلب. وضعت أذنها على صدره العاري، كما لو كانت تستمع إلى دقات قلبه. شاعرًا بالخزي والارتباك، ارتدى «كونور» حزامه

وقميصه وسار مترنحًا نحو الباب، راغبًا في اللجوء لملاذ الغرفة الخاصة به. قالت «ناتاليا»:

-ابق..

لكن عبثًا، سارع «كونور» بالمرور بجوارها، قبل أن يعود إلى الرواق.. ولكنه فوجئ برؤية «عائشة» واقفة على بعد أمتار فقط، تُطفئ مصباحًا.. كما لو أن الأمور لم تتوتر معها بما فيه الكفاية، شعر بحرارة العار تلفح عنقه ووجنتيه! نظرت «عائشة» نحوه دون أن تتمكن من منع نفسها من المفاجأة.. من الواضح أنها كانت تعتبره أفضل من هذا. راقبها «كونور» وهي تستجمع شتات نفسها، وتومئ برأسها بشكل رسمي وتندفع مبتعدة. لف حول الزاوية إلى غرفته؛ شاعرًا بالخجل والارتباك، بالإضافة للشعور بالذنب، وكذلك شاعرًا بحيوية أكثر مما شعر به منذ سنوات. كانت «ليزي» هي المرأة الوحيدة التي لمسته بذلك المكان من جسده، ولم تلمسه بهذه الطريقة أبدًا. عندما كانا معًا كانت تستلقي بهدوء ورتابة. بالنسبة لـ«كونور»، كان اتحادهما بالفراش دائما مشوهًا بسبب شعور «ليزي» الخفي بالواجب. لا شيء كان متهورًا أو حرًا بالنسبة لأي منهما.. وبعد أخبار الأولاد، لم يلمس أي منهما الآخر إلا بصعوبة. حاول مرة أو مرتين أن يقترب منها، لكن «ليزي» لم تستطع تحمل تلك الحميمية. كان الأمر كما لو أنها شعرت أن ممارستهما للحب سيكون بطريقة ما اعتداء على ذكرى أولادهما الوسيمين الذين صنعوهم معًا. عندما ماتوا تم تجريدها من الأمومة، وتوقفت عن كونها زوجة أيضًا، لذلك فقد مرت أربع سنوات منذ أن شعر «كونور» ببشرة امرأة على وجهه، وهو ما جعله يشعر بالذنب بشكل مزدوج. لأنه هكذا غير مخلص لذكرى زوجته - والأسوأ من ذلك، أن ذلك اللقاء أيقظ فيه شوقًا كامنًا في أعماقه.

خلع «كونور» ملابسه وارتمى على المرتبة. على الرغم من استنزافه عاطفيًا وجسديًا، إلا أن نومه طيلة الليل كان متقطعًا.. ما كان يميزه لنصف عمره؛ عائلته، يتبخر منه مثل سد في حالة جفاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

كانت ستائر الصالون مفتوحة، ولكن ضوء الصباح المبهج لم يتمكن من تحسين مزاج «كونور». جلس محرجًا ومنهكًا على طاولة صغيرة لشخص واحد، محاولًا تجنب نظرات «عائشة» المستهجنة بينما هي تتحدث إلى رجل تركي ذي شعر فضي يرتدي بدلة ويجلس على بعد عدة طاولات منه. كانا هما الشخصان الوحيدان هنا لتناول وجبة الإفطار. تذكر «كونور» أداء «عمر» صباح وصوله إلى القسطنطينية، عندما أشار الى قائمة وهمية من النزلاء بحثًا عن غرفة شاغرة؛ لا مجال لإخفاء حقيقة أن الأمور في فندق «طروادة» هادئة بشدة. كان «كونور» قد حزم متاعه، مخططًا لإيجاد فندق آخر، خاصة بعد لقاء الليلة الماضية، إذ لا يبدو أن هناك فائدة من الانتظار لأكثر من هذا في القسطنطينية. ولكنه ليس متأكدًا لأي مدى يمكنه أن يصل دون تصريح للذهاب إلى «جاليبولي». دارت كل تلك الأفكار داخل عقله المشوش بينما ثبت عينيه على الثريا الكريستالية القبيحة المعلقة في السقف، وبعد البلورات المفقودة منها. فجأة وجد «عائشة» تقف أمامه تحمل صينية. بادرها بالقول: -بخصوص الليلة الماضية....

لم يكن متأكدًا لماذا شعر أنه يحتاج إلى شرح موقفه. قال: -لم أفعل في حياتي أي شيء من هذا القبيل.

-أنا لست زوجتك. أخبرها هي بهذا الكلام..

هكذا ردت «عائشة» على الفور، قبل أن تكمل:

-ها هي وجبة الإفطار الخاصة بك.

ثم وضعت الطبق أمامه وانسحبت نحو المطبخ.

بالأمس تناول «كونور» سميطًا في الشارع مع «أورهان»، وكانت تلك هي أول وجبة إفطار تركية له، وأمكنه بالفعل رؤية أنه لا يشبه الإفطار الذي اعتاد عليه بالديار على الإطلاق، بل إنه لم يستطع التعرف على أسماء بعض المكونات من الأصل. ما هي تلك الكريات السوداء ذات السطح المتجعد، وما هذه المادة البيضاء الناعمة التي تتفتت تحت الشوكة؟ كانت ذات مذاق مالح ورائحة مثل الصوف الرطب. استطاع تمييز الطماطم والخيار، ولكنه نحاهما جانبًا بالطبق، متسائلًا في داخله عما إذا كان قد نزل في وقت الغداء عن طريق الخطأ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهرت «عائشة» تحمل قهوة تركية على صينية بينما كان «كونور» يضع إحدى حبات الزيتون الأسود بفمه. من مدخل المطبخ راقبته وهو يبصقها مرة أخرى

في يده ويضعها مرة أخرى خلسة في طبقه. وبينما كان يفعل هذا، جلس والدها على الكرسي بجانبه! تسمرت مكانها للحظة، مستمتعة بعدم الراحة البادية على «كونور» عندما بدأ «إبراهيم» في الدردشة معه بصوت هامس، وقد وضع يده على فمه. وبينما هي تقترب من المنضدة، سمعت «إبراهيم» يتحدث بجدية باللغة الفرنسية، ولم تستطع أن تمنع نفسها الابتسام.

- أنا سعيد لأنك هنا يا أستاذ.. ابن السلطان «محمد الثاني» لديه بواسير ملتهبة بشكل لم أر مثله من قبل.

-ماذا يقول؟ من هو أصلًا؟

سأل «كونور» عائشة، فأجابته:

-هذا والدي «إبراهيم».. إنه يعتقد أنك فرنسي.

قالتها ثم قامت بتقبيل جبين والدها ووضعت فنجانًا صغيرًا وصحنًا أمامه، بينما واصل هو التحدث إلى «كونور» باللغة الفرنسية بطلاقة: -لقد تدلى الشرج بطريقة جعلته أشبه بعنقود من العنب، مما يجعل مرور البراز هو الأكثر إيلامًا لسموه. لابد أن السبب هو كل ذلك الطعام الفاخر الذي يتناولونه.

تسمرت «عائشة» لثوانٍ، قبل أن تبدأ في الترجمة: -يقول أنه يأمل أنك تستمتع بإفطارك. لاحظ أنك لا تأكل.

مال «إبراهيم» نحوه مكملًا:

-هل تفكر في مساعدتي في علاجه؟ سيكون شرفًا كبيرًا.

ابتسم «كونور» الذي لم يفهم كلمة واحدة مما قاله، وهو يومئ برأسه في امتنان.

-أنا مستمتع به للغاية. لذيذ جدًا. شكرًا لكم.

ابتسمت «عائشة»، بينما قرر «كونور» استغلال تحسن مزاجها الخاطف هذا: -معذرة، أتساءل عما لو كان لديكِ بيضة دجاج مسلوقة؟

اختفت الابتسامة من على وجه «عائشة»، ثم التقطت طبق الإفطار المرفوض وعادت إلى المطبخ قبل أن تقول شيئًا تندم عليه فيما بعد.. رمت «عائشة» بطبق الطعام على طاولة المطبخ بخشونة، وهي تكاد تبكي. ليس لدى ذلك الأسترالي المتعجرف أي فكرة عن مدى غلو وصعوبة العثور على طعام طازج في المدينة منذ الحرب، أو كيف يتم الحصول عليه عن طريق الإقناع والتوسل بوعد شرف لدفع الأسعار المتضخمة فيما بعد. قاومت الرغبة في الإسراع بالعودة مرة أخرى للصالون وإخبار «كونور» كم هو محظوظ

لكي يحظي بطبق جبن من الأصل. لو لم يكن بائعها مريضًا سابقًا ممتنًا لخدمات «إبراهيم» -ويعيش على مشارف المدينة- فلم يكن ليصبح لديهم جبن من الأساس.

منذ أن بدأ الاحتلال، كأنما لإضافة الإهانة لمصابهم، قام البريطانيون –الذين ينتمي لهم – بمنع وصول أي منتجات من القرى النائية، لإطعام قواتهم. قفز «أورهان»، الذي جلس عند الطرف الآخر من طاولة المطبخ مع «عمر»، للاستيلاء على بعض جبن القرية.

-لم ننتهِ بعد يا «أورهان»! بعد الانتهاء من هذه السورة الأخيرة يمكنك تناول الطعام..

خاطبه «عمر» بحزم وهو يدفع المصحف المفتوح باتجاه الصبي.

-أنتِ لم تعلميه أي شيء يا «عائشة».

-لا أستطيع تحمل تلك الغرفة بعد الآن، كانت بالماضي تمتلئ بالضحك والسعادة! الحياة التي وعد بها والدك عبارة عن سراب يا «عائشة». لا يمكنك التظاهر بأنك بأوروبا بعد الآن.

-عم تتحدث؟ هذا المبنى يقع في أوروبا.

ابتسم «عمر» في تعاطف.

-نحن نتمسك بحافة قارة لا تريدنا، هل أنتِ متأكدة أنك قد عاصرتِ الحرب التي مررنا بها؟

لم تكن «عائشة» في مزاج لتلقي محاضرة، ففتحت الباب الذي يقود إلى الفناء قائلة: - «أورهان»، اذهب وأحضر لي بيضة واحدة من فضلك يابني.

انطلق «أورهان» في رحلته، وقد اختلس قطعة من الجبن قبل أن ينطلق في طريقه. قبل أن تتخذ «عائشة» طريقها لتخرج هي الأخرى، أمسك «عمر» ذراعها بلطف بين أصابعه ليجعلها تستدير نحوه.. قال: -أنتِ امرأة تركية يا «عائشة». امرأة تركية ذكية وجميلة.. وقد حان الوقت لتتصرفي كواحدة.. تعرفين ما هو متوقع منكِ. يجب أن تفعلي الشيء الصحيح الآن، حتى ولو من أجل «أورهان» فقط.

ابتسمت بشفتين مضمومتين، عارفة في أعماق قلبها أن كلامه صحيح. قبل أن تتمكن من الرد، عاد «أورهان» ببيضة منتصرًا.

-انظري! يحاولون، لكنهم لا يستطيعون إخفاءهم مني!

بادلته «عائشة «بعناق قوي مقابل البيضة..

-شكرًا لك يا صيادي الشجاع..

ثم ملأت قدرًا بالماء من جرة موضوعة على الأرض في الزاوية، قبل أن تضعها على الموقد. تُخفِض البيضة بأصابعها وتنتظر، مستمعة لتكرر أورهان للآية الكريمة: -الحمد لله رب العالمين....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عادت «عائشة» إلى الصالون بالبيضة المسلوقة، ملفوفة بقطعة قماش للحفاظ عليها ساخنة، كان «إبراهيم» لا يزال مستغرقًا في محادثة جدية مع «كونور». ليس لدى الأسترالي أي فكرة عما وافق عليه، وعندما ظهرت «عائشة»، ظهر عليه الارتياح بشكل واضح.

-أوه، شكرًا لكِ. أنا آسف، لم أقصد أن أزعجك بتلك الدرجة. الأمر فقط أنني عادة ما أتناول البيض... بالديار.

وضعت البيضة وملعقة أمامه دون حديث.

-أنت ضيفنا..

قطع «إبراهيم» ثرثرته للحظات ليسأل «عائشة» باللغة التركية: -أين زوجته؟

-لا أعرف يا أبي.

-اسأليه إذن!

استحثها بقوله، بينما كان «كونور» يقشر الجزء العلوي من بيضته مبتسمًا، وقد شعر بكل شيء من حوله مبهمًا بالنسبة له.

-لا، يمكنك أن تسأله أنت إذا كنت مهتمًا لتلك الدرجة. ولكن عليك أن تتعلم اللغة الإنجليزية أولًا، لأنه لا يتحدث أي لغة أخرى.

ظهرت نظرة مرتبكة في عيني «إبراهيم «، سألها:

-الإنجليزية؟ أليس هذا السيد الطبيب «إميل»؟

-نعم، ليس هو، وهو ليس طبيبًا..

هكذا شرحت له بلطف قبل أن تنظر إلى «كونور» سائلة إياه: -زوجتك؟ إنه يسأل أين هي.

كان «كونور» يحتسي من القهوة الثقيلة فأجفل. بدا الفنجان الرقيق كأنه من أدوات بيت دمية بين أنامله الضخمة.

-لقد ماتت!

فجأة صارت تصرفات هذا الرجل الغامض منطقية لـ«عائشة»؛ مظهره الجاد دومًا، الشخصية الشائكة. كيف لم تتمكن من التعرف على حزن الفقد؟ ثم أتاها الوحي في نفس اللحظة، وهمست: -وأبناؤك أيضًا؟

لم يرد «كونور»، ولكن النظرة على وجهه كانت أبلغ من أي رد، كانت نظرات من تم اختراق دروعه وتجريده من أسلحته..

همس «إبراهيم»:

-أرى هذا في عينيه..

وصار بوسعها هي الأخرى قراءة نفس الشيء بعيني الرجل الأسترالي الصامت.

لقد رأت «عائشة» ما يكفي من الآباء والأمهات الذين فقدوا أبناءهم في السنوات الأربع الماضية لمعرفة أن الرجال والنساء يحزنون بشكل مختلف. الرجال يجب أن يتصرفوا، يواصلوا التحرك، يبقون سابقين الحزن بخطوات، وإلا سينقض عليهم كقطيع من الصقور إذا ظلوا مكانهم، يحاولون بلا حول ولا قوة إعادة النظام إلى الحياة، مدركين بعد فوات الأوان أنه عندما يموت الطفل، فإن عالم الوالدين ينقلب رأسًا على عقب دون رجعة! عرفت أنها إذا فقدت «أورهان» فإن بحر حياتها سيجرفها دون وجهة إلى الأبد. بالماضي كانت «عائشة»، ابنة «إبراهيم»، أما الآن فهي «عائشة»، أم «أورهان». ابنها يحدد هويتها، فلابد أن الأمر نفسه بالنسبة لـ«كونور»، والآن، حتى في الموت، أبناؤه هم من يعطون معنى لحياته، بغض النظر عن كم يبدو هذا غير مجدٍ أو مضلل أو غير عقلاني. قررت رفع راية السلام بينهما: -بدون إذن رسمي لا يمكنك الذهاب إلى «جاليبولي»، لن يسمحوا لك بالنزول عن متن المركب، يجب أن تأخذ العبارة إلى بلدة «تشاناك»، ثم تبحث عن صياد – تدفع له بما فيه الكفاية ليبحر بك عبر المضيق، لن يكون بحاجة للتصاريح البريطانية.

لمحت «عائشة» غلالة داكنة من الإحباط والغضب تنزل ببطء عن وجه «كونور». لقد منحته طريقًا يسير فيه إلى الأمام، حتى لو كان ضعيفًا. قدمت له الأمل بشكل طبيعي كما لو كانت قدمت له مصباحًا في غرفة مظلمة. أومأ «كونور» في امتنان، وقد لانت ملامح وجهه. لأول مرة منذ وصوله إلى فندق «طروادة»، لم ينظر «كونور» إلى «عائشة» كما لو كانت عدوًا، وقد سرها ذلك، فقادت «عائشة» والدها من ذراعه إلى الفناء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث عشر

صدمته الرائحة الكريهة كلكمة في الوجه. تبعد بلدة «رينبو» أكثر من مئة ميل من البحر، وقد كانت حياة «كونور» بأكملها حتى مجيئه إلى القسطنطينية حياة قائمة على الأرض فقط. يعرف رائحة القرف والأوساخ، والحجر والنار، كما يعرف كل شيء، ولكن على الرغم من الأسابيع الطويلة على متن القارب ليصل هنا، لا تزال روائح البحر غريبة تمامًا بالنسبة له. خلال الرحلة، اعتاد على رذاذ البحار المنعش ذي الرائحة القوية، والعضة الكاوية الناتجة عن جفاف الملح على القماش الساخن. لكن الأرصفة في مرفأ «إيمينونو» كانت تزدحم برجال البحر الذين يعملون بلا انقطاع، تاركين وراءهم أحشاء الأسماك الكريهة تتعفن في الشمس، والأعشاب البحرية مرمية في المياه الضحلة الراكدة. لن يعتاد أبدًا على هذه الروائح الكريهة المالحة. على مقربة منه، وقف «أورهان» مع مجموعة من البحارة، يومئ بحدة. ولأنه كان يعرف أنه لا فائدة من محاولة فهم ما يقال لأن اللغة غامضة تمامًا، توقف «كونور» عن متابعة الحديث.. بدا الحوار لأذنه كجعجعة فارغة بلا معنى.. حتى اعتماده على حاسته العاطفية لم يجده نفعًا.. تبدو المحادثة بلغتهم وكأنها على وشك الانتهاء بشجار عنيف، ثم تجد المتحدثين يغرقون في موجة من الضحك.. غريبة هي لغتهم هذه..

-هؤلاء الرجال لديهم عبارة ذاهبة إلى «تشاناك». ليست المسافة بعيدة بين القسطنطينية و «تشاناك»؛ حوالي ثماني أو تسع ساعات.

-ماذا عن «جاليبولي»؟ هل يمكنهم أن يأخذوني إلى خليج «أنزاك» هذا؟

-هذا الرجل هنا -يشير «أورهان» إلى شاب ودود ذي وجه مغطى بالبثور- يدعى «ميشين آبي»، لديه أخ في «تشاناك» يعمل كصياد ولديه قارب. إذا أعطيته عشرة شلنات سيأخذك إلى «سد البحر»، ثم إلى خليج «أنزاك».

صافح «كونور» البحار الشاب، فابتسم الفتى ورفع قبعته على سبيل التحية، قبل أن يلتفت لينضم إلى زملائه.

-سيعثر عليك عندما يصل القارب إلى «تشاناك» وسيأخذك إلى أخيه، والآن فلنجلب تذكرة.

وفي كل مكان من حولهم، اندفع الحمالون والركاب يمرون بجوار الباعة المتجولين الصارخين الذين يعرضون بضاعتهم، و على الرغم من أن «كونور» لم يعد غارقًا بنفس شعور الكلستروفوبيا (الخوف من الأماكن المغلقة) والتوتر الذين شهدهما عند وصوله إلى القسطنطينية، فقد شعر بالارتباك من

زحام الناس وحركتهم والنشاط الذي يحيط به.. اندفع «أورهان» نحو الحشد متجهًا صوب كشك صغير حيث تفاوض على شراء تذكرة لعبارة «تشاناك».

- «كونور» بيك! «كونور» بيك! هنا! هذا هو القارب الخاص بك هنا!

رفع «أورهان» يده مشيرًا نحو عبّارة ركاب تتمايل مع مد وجزر التيارات المتقلبة للقرن الذهبي، وقد تصاعد دخانها في صورة دفقة من سحب بيضاء من البخار اندفعت مقتحمة هواء الصباح. انطلق البحارة في ملابسهم البيضاء المميزة، وقد وضعوا قبعاتهم برشاقة فوق رؤوسهم، عبر السفينة الضخمة الطافية، يربطون ويفكون الحبال، ويقومون بتفريغ وتحميل الإمدادات والأمتعة من كومة متأرجحة منتصبة على رصيف الميناء، وتأمين الألواح الخشبية للسماح لطابور الركاب على متن السفينة بالنزول.

-هنا يا «كونور» بيك. ها هي تذكرتك..

ناول «أورهان» «كونور» تذكرة مرور مكتوبة بخط اليد بابتسامة عريضة. علم «كونور» أنه بدون مساعدة «أورهان» فإنه كان من المستحيل أن يتمكن من التفاوض لشق طريقه إلى «جاليبولي»، ناهيك عن معرفة كيفية الوصول إلى خليج «أنزاك». التفت إلى الصبي وهو يمد يده إلى جيبه لإخراج بعض العملات.

-شكرًا لك يا «أورهان»..

قالها وهو يمد كفه ببعض العملات التي أخذت ترن لكن «أورهان» رفض عرض«كونور»:

-لا.. لا نقود. أنا أساعدك، وأنت تساعدني.

-كيف يمكنني مساعدتك يا «أورهان»؟

-من حسن الحظ أنك أتيت إلى فندقي وأنك ذاهب إلى «شنق قلعة».

أخرج «أورهان «شيئًا من جيبه وسلمه لـ«كونور»، ضاغطًا إياه في راحة يده. كانت صورة لرجل تركي وسيم يرتدي الزي العسكري يجلس متأملًا على كرسي، وقد وقفت إلى جانبه امرأة جميلة برقبة طويلة تشبه البجع، وعينان براقتان، وقد وضعت يدها على كتفه. شعر «كونور» بصدمة مفاجِئة عندما تعرف على المرأة؛ كانت «عائشة»، بينما جلس صبي صغير على ركبة الرجل، وكان «أورهان».

- «كونور» بيك.. لو سمحت.. ستجد بابا في «شنق قلعة».. انتهت الحرب لكنه لم يعد إلى المنزل. أخبره أنه يجب أن يعود إلى المنزل الآن. «آنيم» - والدتي - بحاجة إليه.

بينما يسقط البنس من يد «كونور»، سقط كذلك قلبه حزنًا على «أورهان»، قاوم الرغبة في أخذ الصبي بين ذراعيه، فهو يعرف أفضل من أي شخص آخر أنه بعد أربع سنوات، لن يعود والد «أورهان» إلى المنزل، لكنه لا يستطيع أن يترك وجهه يكشف عن ذلك.

-هذا والدك؟ من هو الرجل في الفندق إذن؟

جمع الصبي كمية من البلغم من مؤخرة حلقه، قبل أن يبصقها على الأرض تعبيرًا عن اشمئزازه.

- «عمر» بيك هو عمي؛ شقيق بابا.

قام آخر الركاب بالتسجيل على العبارة بينما انطلقت الأبواق إيذانًا بالرحيل، ليتردد صداها عبر أسوار المدينة القديمة. شعر «كونور» بالارتباك، لكنه التقط الصورة وأسرع يصعد على متن السفينة، ثم ألقى نظرة خاطفة على الصبي ورفع يده مودعًا بحزن.. لوح له «أورهان» بحماسة، وقد بدت يده مثل راية ترفرف في مهب الريح، هتف:

-اعثر عليه، اسأله متى سيعود إلى المنزل؟

ولم يعرف «كونور» بما يرد عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لبعض الوقت بعد أن ابتعدت العبارة عن «القرن الذهبي»، وبدأت رحلتها عبر بحر «مرمرة» باتجاه «الدردنيل»، أخذ «كونور» يفكر بعمق. ألقي ما كشفه «أورهان» له ضوء جديد كليًا على الوقت الذي قضاه في فندق «طروادة». فجأة بدا له العداء الكامن الذي أبدته «عائشة» تجاهه منذ الوقت الذي حاول فيه تسجيل نزوله بالفندق أمر منطقي. إذا كان زوجها قد مات وهو يقاتل الأستراليين في «جاليبولي»، إذن ففي كل مرة تنظر فيها إلى «كونور»، كانت تشاهد وجه قتلة زوجها! كم كانت تغضب تلك المرأة التركية شديدة الكبرياء لاضطرارها لإطعامه وتركه ينام تحت سقفها، والأسوأ من ذلك، تراه مع ابنها! لا يسعه إلا أن يتساءل لماذا لم تخبر «أورهان» الحقيقة، ربما لا تزال تحمل بعض الأمل البائس في عودة والد «أورهان» يومًا ما. دل غضبها «كونور» على أنها ليست في حالة إنكار؛ ليس تمامًا، من الممكن أنها تريد أن يتلاشى زوجها من حياتهم تدريجيًا بدلاً من أن يتم انتزاعه منها فجأة، ولأن حزن «كونور» كان شديدًا، فقد عمى حواسه ففشل في تمييز أنه عندما ينظر إلى «عائشة»، فإنه كان ينظر إلى ضحية أخرى شربت من نفس ينبوع الحزن. ما أخطأ «كونور» وشعر أنه عداء تجاهه كان في الواقع غضب «عائشة» من عشوائية ووحشية الحياة!

«عائشة» أرملة، والرجل في الفندق شقيق زوجها، شعر «كونور» بالحيرة؛ لا ينبغي أن يغير ما عرفه هذا أي شيء. ومع ذلك لسبب غير مفهوم شعر أنه غيّر كل شيء.. استلقت الصورة في يده، لمحة لماضٍ بعيد أكثر سعادة.. التقط دفتر مذكرات «آرت» من حقيبته، ووضع الصورة بالداخل، ثم وضع قبعته وحقيبته بحرص على رف الأمتعة فوق مقعده، ووضع المذكرات بعناية على المقعد بجانبه. خارج نوافذ العبّارة المغطاة بالضباب أمكنه رؤية التلال المتدحرجة المكسوة بالغابات والتي انتصبت بشكل درامي من بحر «مرمرة» الداكن. كان لصعود وهبوط العبارة بهدوء وهي تمر عبر الأمواج تأثيرًا مهدئًا، كأنها تهدهده ليخلد للنوم، وسرعان ما مال رأسه على الحائط خلفه ليغيب في نوم عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

الأمر يبدأ كشعور؛ ينتصب الشعر الموجود عند مؤخرة العنق.. تشعر بأطراف الأعصاب توخزك.. هناك خطأ ما! الصمت هو الذي جعلهم غير مرتاحين. كانت «مالي» هادئة للغاية لدرجة أنها تؤذي آذان سكان المدينة. كان هدوؤها المقلق الثقيل منتشرًا للغاية لدرجة أنه بدا كما لو كان له صوت أزيز يضغط على طبلة الأذن. كانت كل الأصوات التي تطن باستمرار في المدينة غائبة. لا مبان، ولا جدران، ولا حارات تضم نشاز لا نهاية له من أصوات المحركات والثرثرة التي لا تنتهي.

هنا في وسط ذلك المكان القاحل الخالي من البشر، تمتص السهول التي لا نهاية لها كل صوت. لكن أولئك الذين يعيشون هنا يمكنهم سماع صوت ألسنة الصحراء، زقزقة الحشرات، ونعيق الطيور، وتنقل الزواحف وانزلاقها عبر الشجيرات الجافة وفوق الرمال الحمراء. الآن، رغم ذلك لا يسمعون شيئًا. كأنما العالم يحبس أنفاسه.. ثم سمعوها؛ هدير حارق آتٍ من بعيد. شيء ما قادم.. شيء شرير! وقف الأولاد بمنتصف الميدان، غير متأكدين إلى أين يذهبون أو ماذا يفعلون، غير متأكدين مما يقترب. «آرت» كان معه بندقية عيار ٠.٢٢ متدلية فوق كتفه، بينما حمل أخواه فيما بينهما دعامة تراصت عليها أجساد الأرانب التي اصطادوها.. هناك! هتف «آرت»، وقد التقطت عيناه اللتان تتفقدان المساحة حولهم شيئًا ما. أشار في الاتجاه الذي يقصده؛ بدا الأمر كما لو أن الأفق يتفكك. قبل لحظات فقط كان هناك خط حاد يفصل بين الأرض الحمراء والسماء الزرقاء، أما الآن فالفارق بينهما صار غير واضح. ظهرت سحب من الضباب الكثيف لما بدا وكأنه دخان من حريق بعض الشجيرات، ولكن لونه أحمر مثل دم الثور، وتدفق عبر السهل. كان الدخان ينتقل بسرعة شديدة، ويتضخم من خط مرسوم على طول الأفق متحولًا لجدار يمحو كل شيء في طريقه. عوى «آرت»: -اركضا!

في منتصف المسافة، عانقت مجموعة صغيرة من أشجار «مالي» الأرض.. انطلق الأولاد نحوها بسرعة شديدة.. صحيح أن الأغصان المتشابكة وأوراق الشجر المتناثرة لن توفر الكثير من الحماية، ولكن لكونهم بعيدين عن الوطن فهذا أفضل ما يمكن أن ينشدوه.. صحيح أنهم لا يزالون بعيدين، لكنهم قد ينجحون في الوصول. نظر «آرت» إلى الوراء، فرأى جدار الغبار يقترب منهم بسرعة غير معقولة، وأخذ يقترب من الفتيان الراكضين مع كل خطوة، فكر: -قد نصل إلى هناك إذا كنا محظوظين.

سمع صوت صراخ مفاجئ آتٍ من الخلف: - «آرت»!

نظر إلى الوراء.. كان «إيد» قد تعثر واستلقى يتلوى في التراب وقد أمسك كاحله. التفت «آرت» وعاد راكضًا نحوه، و«هنري» في أعقابه.. وصلا إلى أخيهما بينما العاصفة تبتلع ثلاثتهم. جذب «آرت» أخويه إلى صدره، يحاول عبثًا حماية وجهيهما من سيل الغبار والحصى الذي يمزقهم أفقيًا، مدفوعًا برياح أشد من أي شيء اختبره طيلة حياته. ظهر شكل يلوح في الأفق من خلال الضباب، من خلال عينين ضاقتا لحمايتهما من الغبار، تمكن «آرت» من التعرف على هيئة والده على ظهر فرسه، وقد توقف إلى جانب المكان الذي ربض فيه هو وأخواه في قلب العاصفة الهائجة. ترجل «كونور» إلى الأرض وربت على ردف مهرته، فركضت تلك الأخيرة للمسافة القصيرة الفاصلة بينهم. حمل لفة من الصوف السميك تحت ذراعه، مجاهدًا للحفاظ على مكانها دون أن تقع بسبب تلك العاصفة، ثم فكها وفردها على نفسه والأولاد مثل خيمة مستخدمًا بندقية «آرت» كدعامة لتثبيتها. تجمع الأولاد الثلاثة وأبوهم تحت البطانية بينما الغبار الأحمر كالدم يستنفد طاقتهم.. زأرت ريح صارخة.

نظر «كونور» إلى «آرت» قائلًا:

-جيد أنك لم تترك أخويك خلفك يابني.

ثم لمح نظرة الخوف في عيني «إيد»، فقال: -ما هي الكلمة السحرية التي تجعل السجاد يطير يا «إيد»؟

للحظة نسي «إيد» أين هم، ابتسم مجيبًا: - «تونجا».

لم يستطع «آرت» منع نفسه من الضحك وهو يقول مصححًا: -بل «تانجو» أيها الأحمق..

لف «كونور» ذراعيه حول أولاده وهو يهمس: -هذا صحيح.. «تانجو».. هذا هو اسم بساط الأمير «حسين» السحري.

عوت العاصفة بالخارج كصراخ مخلوقات «البانشي» الأسطورية. لكن «آرت»، و«هنري» و«إيد» آمنين. يمكنهم شم رائحة جلد والدهم الحبيب وشعره. لا شيء يمكن أن يمسهم طالما هو هنا.

-أغلقوا أعينكم يا أولاد، دعونا نخرج من هنا.. أمسكوا بعضكم بعضًا جيدًا.. أستطيع أن أراك وأنت تسترق النظر يا «إيد»! الأمر يعمل فقط إذا كانت عيناك مغلقتين تمامًا. أنت لا تريدنا أن نسقط ياصاح، أليس كذلك؟ الآن، كلنا معًا... بصوت واحد. «تانجو»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس عشر

هتف الجندي»داوسون» وهو يتأمل جمجمة بشرية بين يديه، متفقدًا الفك السفلي المتدلي: - يا إلهي، كنت ستكره رؤية هذا الرجل وهو حي.. تأمل فك هذا الرجل الغريب، كأنه بقرة!

كان الملازم العقيد «هيلتون» يعمل لفترة طويلة في شبه الجزيرة هذه وشهد الكثير من المذابح فصار فاقد الصبر لا يتحمل أي طيش عندما يتعلق الأمر بكرامة الذين سقطوا. نبح في وجه «داوسون»: -أيها الجندي! أظهر قليلًا من الاحترام للأموات وإلا سأقدم فيك تقريرًا!

وضع «داوسون» الجمجمة جانبًا في خجل قائلًا: -آسف يا سيدي.. على الأرجح كان رجلًا وسيمًا.

استدار «هيلتون» وسار نحو قمة تل منخفضة، وهو يغادر رأى من زاوية عينه «داوسون» يحييه بذراع مخلوعة. قرر أن يتجاهل الأمر. من مكانه بالقمة، استطلع «هيلتون» الجنود أثناء قيامهم بالعمل بالأسفل، وقد انتشروا عبر أخدود ضحل بحجم ملعب كرة الراجبي، ويتحركون بشكل منهجي من جانب إلى الآخر أثناء قيامهم بنخس الأرض بقضبان تنظيف البنادق، يبحثون عن التربة سهلة التفتيت والتي تنبههم لوجود الجثث المتحللة تحت سطحها. كانت التربة رخوة بمعظم الأماكن؛ أخذ الرجال يحفرون إلى جانب التل، يستخرجون العظام الملطخة بمعادن الأرض، وبعضها لا يزال ملفوفًا في زي جيش متحلل أخذ يتفكك بينما يرفع الجنود تلك البقايا من الأرض. صارت البقايا التي رقدت فوق سطح الأرض منذ انتهاء النزاع بيضاء من تأثير شمس بحر «إيجة». رقدت البقايا في كتل متشابكة محاطة ببقايا الحرب؛ الأحذية ذات الجلود المتشققة المتقشرة، والمقاصف المكسرة والمتهدمة، وأغلفة الذخيرة، وخراطيش البندقية، وقد ملأها الصدأ وعبأها بالتراب.

أبعد من ذلك على طول التلال، جلس رجل على كرسي قماشي قابل للطي، وقد انحنى فوق لوحة رسم كبيرة استقرت على حجره، وأمسك بقلم رفيع من الفحم برقة بين الإبهام والسبابة، وقد أخذ ينقل عينيه بين الأخدود الموجود بالأسفل والرسم الذي يتشكل على صفحته البيضاء البكر. مشى «هيلتون» نحوه، وانحنى فوق اللوحة يتأمل تعبير الفنان الانطباعي المثالي للمشهد الكئيب الموجود أمامهم.

صارت الخطوط البيضاء الصغيرة التي تغطي جانب التلال علامات متتابعة، وصار الجنود المتربون المنهكون الذين يعملون بينها أبطالًا من الأساطير، وقد برزت عضلاتهم. راقب «هيلتون» المنظر مندهشًا من المعجزة التي حولت

هذا المشهد الجحيمي إلى كل هذا الجمال. التفت «هيلتون» فرأى «حسن» يتسلق التل تجاهه، لقد مر شهر منذ أن عاد الأتراك عكس رغبتهم إلى «شنق قلعة»، وقد وصل الرجلان إلى اتفاق سلمي بناء على احترام متبادل متزايد.

-مرحبًا يا «هيلتون» بيك.

-مرحبًا يا «حسن» بيك.

أسفل المنحدر، كان الرقيب «تاكر» يتحرك فوق التربة، حيا «هيلتون» ورفع حامل ذراع أحمر وأرجواني.

-واحد منا! الكتيبة السادسة يا سيدي.

-هل عثرت على شارة باسمه؟

- ليس بعد.

-استمر بالبحث.

نظر «هيلتون» إلى رفيقه التركي:

-أنت لم تخبرني أبدًا ماذا كنت تعمل قبل الحرب.

ابتسم «حسن» بحزن قبل أن يجيبه:

-هذه هي تركيا.. ليس هناك فترة يمكن أن تدعوها «قبل الحرب».

وقف الرجلان في صمت للحظة، ثم سمع «هيلتون» نداءً من الأخدود بالأسفل. كان الجندي «داوسون»، وقد وقف ينظر في اتجاه الشاطئ من خلال منظار مقرب.

-هل نتوقع صحبة يا سيدي؟

خطا «هيلتون» لأسفل لينضم إلى «داوسون»، الذي ناوله المنظار وهو يشير إلى بقعة بعيدة بالأسفل على موجات سوداء تتلوى نحو الرمال. اقترب قارب صيد صغير من الشاطئ، يجدف فيه رجل واحد بينما وقف رجل آخر عند مقدمة السفينة، كان الرجل الواقف عند مقدمة القارب طويل القامة، عريض الكتفين، يرتدي ملابس غير مناسبة؛ بنطال أنيق، وسترة بدلة، وربطة عنق، وقبعة عريضة، وكان يحمل في يده حقيبة بنية صغيرة. ترجل «كونور» من عند مقدمة السفينة، كان الشاطئ على بعد أقدام قليلة.. لكن كان الماء أعمق مما توقعه. خاضه بأقدامه الحافية ليجد نفسه يخطو فوق الحصى الزلق، بينما أخذت الأمواج تتسلق نحو سرواله الذي كان قد رفعه فوق ركبتيه. كانت محاولة الحفاظ على سرواله جافًا مستحيلة.. أمسك بحذائه

والجوارب فوق رأسه بيد، وحمل حقيبته باليد الأخرى. خاض عبر المياه بجوار هياكل السفن المحطمة، وصناديق الأخشاب المكسرة المجوفة، وشعر بقطع معدنية وأشياء حادة تشق باطن قدميه بمجرد وصوله إلى الشاطئ، وضع «كونور» أمتعته ونظر لأعلى. في الأفق فوقه كان هناك جرف ضخم متآكل، مثقوب بالحفر حيث دمرت القذائف أجزاءً كبيرة من الأرض، والندوب العميقة حيث قام الرجال بتقطيع الممرات والخنادق التي تتعرج حتى القمة.

لا يستأهل الشاطئ الحديث عنه -يبلغ طوله بضع مئات من الياردات فقط – وكان وجه الجرف قريبًا جدًا لدرجة جعلت رأس «كونور» يدور كلما نظر لأعلى نحو الجرف.

أغلق عينيه ليستعيد توازنه، لكن أصوات الحرب التي تخيلها تدخلت؛ صدع البنادق وطلقات المدافع، وصوت الرصاصات وهي تئز منطلقة عبر الهواء، والانفجارات، والأصوات المكتومة لارتطام الطلقات بالأهداف، والصرخات المروعة للرجال الذين يصارعون الموت، ارتجف «كونور»، وفتح عينيه. كان كل شيء هادئًا باستثناء صوت هدير الماء على الشاطئ الحجري، وصوت حوافر الخيول الواضح، ظهر أربعة رجال يرتدون الزي العسكري على ظهور الخيل، يسيرون على طول الشاطئ تجاهه، ولاحظ «كونور» أن أحد الرجال كان يرتدي الزي العثماني. أوقف الرجل الطويل الذي يقود المجموعة حصانه وترجل عنه، وتقدم بثقة زائدة، إن لم يكن بشكل أخرق، نحو «كونور»، كان حذاؤه الأسود الطويل مصقولًا لدرجة جعلته يتألق كالمرآة، لكنه أخذ ينزلق ويغرق بين قطع الحصى الرطب. كانت شفتا الرجل مضمومتين في صورة خط رفيع بادي الجدية، بينما اكتسبت وجنتاه لونًا أحمر من الغضب. دون أن تختل خطوته أصدر أوامره للرجال الذين يرافقونه: -لا تدعوا هذا القارب يذهب إلى أي مكان!

في حين أوقف الرجال الصياد، الذي أدار قاربه، ورفع الشراع، مستعدًا للعودة إلى «شنق»، تقدم الرجل الطويل نحو «كونور».

-أنا الملازم العقيد «سيسيل هيلتون». من أنت بحق السماء؟

دون أن ينظر إليه، توجه «كونور» بحديثه للجندي: -هل هذا هو المكان الذي هبطت القوات فيه؟

بدا على «هيلتون» أنه لا يصدق ما يحدث أمامه.

-أستميحك عذرًا؟

-تبًا! أي أحمق ينزل بقوات جيش هنا؟

-سألتك من أنت يا سيدي!

- «جوشوا كونور» من بلدة «رينبو»، على بعد مئات الأميال جنوب غرب تل «سوان».

-وبالتأكيد قالوا لك هذه منطقة محظورة؟

-ربما ذكر شخص ما هذا...

هز «كونور» رأسه، في محاولة لهضم المهمة البطولية التي واجهت أبناءه عندما هبطوا هنا في عام ١٩١٥، بينما في الوطن ظلت الصحف تخبرهم أنهم منتصرون.

-اسمك سيد «كونور»، أليس كذلك؟ أنا في حيرة. لقد ظهرت هنا فجأة، لماذا؟ للقيام بجولة؟ للحج؟ نحن نحاول العمل هنا، وتحديد أسماء عشرة آلاف من الرجال الموتى.

نظر «كونور» إلى الأخاديد في الجرف فوقهم، حيث ظهرت أجساد صغيرة تعمل بين مجموعة ضخمة من الصلبان البيضاء.

-عظيم.. لأنني أبحث عن ثلاثة فقط.

أمكنه أن يرى تغير موقف «هيلتون» فور إدراكه مدى خسارة «كونور»: -أبناؤك؟

أومأ «كونور» إيجابًا. أخذ «هيلتون» يشرح بلطف: -هناك ثمانية أميال مربعة من الخنادق المنهارة، وحُفر القنابل، والأسلاك الشائكة هنا، والكثير من القذائف غير المنفجرة الكافية لتفجيرنا جميعًا لتنقلنا للنعيم. ببساطة لا تستطيع البقاء هنا.

أخرج «كونور» من جيب معطفه خريطته لـشبه جزيرة، ضغط بإصبعه على الورقة المجعدة.

-نعم، أعلم أنه صعب.. لكني أعرف مكان مقتل أبنائي.. هنا في معركة «لون باين».. في حوالي ٧ أغسطس.

أتى رد «هيلتون» الحازم والواضح:

-أنت لا تفهم ماذا تطلب.. كانت تلك المعارك -في أوائل أغسطس -بعض أكثر معارك تلك الحملة دموية وشدة.. العثور على أبنائك بين آلاف الجثث في «لون باين» مهمة مستحيلة.

اعتدل «هيلتون» مكملًا:

-استرح يا سيد «كونور»، هدفي هو التعرف على كل رجل هناك بمن فيهم أبناؤك، لكن لا يمكنك البقاء. أيها الرقيب! رافق السيد «كونور» أثناء عودته إلى قاربه!

-لا تتعب نفسك!

طوي «كونور» خريطته بغضب وأعادها إلى جيبه مكملًا: -شكرًا لمساعدتك.

عندما استدار «كونور» للمغادرة، خطا الجندي التركي تجاهه ممسكًا بشيء في يده الممدودة. أدرك «كونور» مصدومًا أنها صورة لأولاده. كان الرجل التركي يحدق بها.

-أبناؤك..

همهم الرجل بلغة إنجليزية ثقيلة، وهو يرفع عينيه لتلاقيا نظرات «كونور».

-سقطت من جيبك..

هذا الرجل هو العدو، وكل شيء يتعلق به جعل أعصاب «كونور» على حافة الهاوية؛ الزي العثماني الكريه، وشاربه الثقيل المصفف بعناية، وبشرته داكنة اللون وعيناه السوداوان مثل القار. وفكرة أنه يحمل بين يديه صورة أبناء «كونور» - الأبناء الذين تم استئصالهم من الحياة بالرصاص التركي في هذه المنطقة الملعونة - فقط تجعل الأمر أسوأ. انتزع «كونور» الصورة من يد الرجل بلا كلام واندفع بغضب نازلًا نحو الشاطئ حيث ينتظر الصياد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خيم الغسق على بحر «إيجة» برفق مثل قطعة من الحرير. كان هذا أحد الأشياء المتعلقة بهذه الأرض التي بدأ «هيلتون» يقدِرها. جلس على كرسي المخيم ويداه متشابكتان خلف رأسه، ورجلاه ممدودتان ومستقرتان على جذع شجرة، وشاهد السماء وهي تتوهج بلون وردي كالخوخ بجمال غير معقول، بينما طفت القمم الأرجوانية البعيدة في جزيرة «إمبروس» فوق بحر بنفسجي. كل شيء لا يزال هادئًا بشكل مستحيل، لا يسمع حتى هبة رياح واحدة.. من خلفه أتى ضجيج وثرثرة الجنود وهم يستعدون للمساء، فيقومون بإشعال النيران وتدفئة وجبات الجيش للعشاء. سمع خطوات الأقدام، وصوت الأحذية الثقيلة على الحصى. نظر «هيلتون» ليجده «تاكر»: -سيدي، هناك شيء قد ترغب في رؤيته.

وقف»هيلتون» على قدميه على مضض وتبع الرقيب إلى حافة الجرف. نظر من خلال المنظار المقرب نحو الشاطئ بالأسفل. ومضت شعلة صغيرة من النيران على الشاطئ المليء بالحصى... جلس على ركبتيه، ورأى شخصًا يرفع فأسًا للسماء.. كان ذلك الأب الأسترالي «كونور». اندهش «هيلتون»،

شعر بمزيج غير متجانس من الغضب والإعجاب.. يبدو أنه لا سبيل لإقناع ذلك الأحمق العنيد.

-اللعنة!

-هل تريدني أن أعتقله يا سيدي؟

-ثم ماذا؟ لا، خذ بعض الطعام إليه، وبطانية.

استدار «هيلتون» وعاد إلى المخيم مكملًا: -سوف نتصرف معه غدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

تناثر الماء هنا وهناك بينما مجموعة من الجنود العراة يستحمون في البحر، تساقطت قطرات ضئيلة لامعة من المياه على السواعد والجبهات التي لفحتها أشعة الشمس، في تناقض صارخ مع جذوعهم الشاحبة. تمايل «جريفز» على ظهره مثل البرميل وسط المياه، وقد بدا جسده البدين هدفًا سهلًا لـ«تاكر» و«داوسون»، الذين أخذا يلقيان بقطع صغيرة من الحجارة عبر الأمواج نحو جسده الممتلئ.

-الطلقات في الطريق!

أطلق «تاكر» أحد صواريخه الحجرية المسطحة، مع اتجاه موجات المياه.. ارتطم بهدفه؛ وهو معدة «جريفز».

-تهذبوا يا رفاق!

احتج الملازم النيوزيلندي، وقد وقف على قدميه، وأخذ ذراعاه يرفرفان بشكل عاجز على جانبيه. كان الإغراء عظيمًا.. تم قصف «جريفز» بوابل من الحصى والأصداف والأعشاب البحرية المجففة من الشاطئ، ليصطدم معظمهم بالمياه نفسها. جلس «حسن» بعيدًا عن حافة الماء بهدوء يراقب جنود الأنزاك وهم يقفزون وسط الأمواج. نظر بنصف عين نحو رقيبه «جمال» الذي غرق في عمله عند قاعدة الجرف، يقوم بالتهوية بهدوء فوق كومة صغيرة من الجمر المتوهج. أخذ «جمال» يفتش في الفوضى المحيطة به، حتى أخرج أسطوانة نحاسية مغطاة بالزخارف وقام بفكها، كان هناك مقبض ذو مفصلات قابل للخلع مخبأ بالداخل، فأزاله ووضعه جانبًا، وملأ نصف الاسطوانة بحبوب قهوة بنية لامعة قبل أن يعيد الغطاء مرة أخرى، ويعيد تثبيت المقبض على الغطاء.

أدار «جمال» المقبض بقوة وهو يومئ برأسه عندما رأى أن المهمة قد انتهت وفتح المطحنة لتقييم محتوياتها. حمل النصف السفلي المفتوح من الأسطوانة نحو أنفه مبتسمًا بارتياح، وأخذ يقيس بدقة الكمية الصحيحة من القهوة، قبل أن يضعها في وعاء نحاسي صغير يحتوي على كمية قليلة من الماء جلبها من المقصف، مع ملعقة صغيرة من السكر الثمين. وضع الإناء على الجمر حتى بدأت القهوة تكوِّن رغوة سميكة تمتلئ بالفقاقيع، قبل أن يصبها في فنجان قهوة أنيق ومذهب. تفقد «جمال» القهوة ورفع حاجبين راضيين عن نتاج عمله، ثم حمل الفنجان الهش في يده الضخمة التي تشبه القفاز، قبل أن ينطلق عبر الشاطئ باتجاه المكان الذي يجلس فيه «حسن»:

-ها هي القهوة يا سيدي.

رفع «حسن» رأسه قائلًا:

-حسنًا، شكرًا لك أيها رقيب.

ثبتت عينا «جمال» على القهوة، حريصًا على ألا يسكب ولو قطرة على الصحن الذي يحمل الفنجان، وهو يسلمه إلى قائده.

-بالهناء والشفاء يا سيدي.

رد «حسن» بالرد المعتاد:

-سلمت يداك.

أخذ رشفة من المشروب الساخن، مستشعرًا حلاوته المرة وهو ينزلق عبر حلقه. تنهد «حسن»، وأغلق عينيه للحظة. فيما وقف شخص منعزل أعلى الشاطئ، بينما غابت ساقه في المياه الضحلة، وقد شمّر سرواله فوق ركبتيه. أخذ كل من «حسن» و«جمال» يشاهدان «كونور» وهو ينحني ويلتقط حفنة من الحصى والرمل يمررها بين يديه.

-هل كل الأستراليين بهذا العناد؟

نظر «حسن» إلى الأعلى متتبعًا مجال رؤية «جمال».

-إنها مسألة اعتزاز وطني بالنسبة لهم.. سوف يناسبك الجو هناك للغاية.

من خلفهما كانا يسمعان صوت الحوافر على شاطئ. استدار الرجلان التركيان لمشاهدة «هيلتون» وهو يركل فرسه في الخليج يقودها إلى حيث جلس الرجال.

-ألا تسبح؟

ليجيبه حسن بسخرية:

-لدينا حمامات لذلك.

-أيها الرقيب!

نادى»هيلتون» على «تاكر»، الذي اقترب وهو عارٍ تمامًا، وبدا رفيعًا للغاية وقبيح المنظر.

-فلنقسم الرجال.. سآخذ «نيك»، وخذ أنت نصف دزينة من الرجال حتى منطقة «كوينز بوست»..

لفت «تاكر» الانتباه بنقر كعب قدمه بالأرض بقوة، وقد رفع يده إلى جبهته.

- علم سيدي!

-لا تقم بتحيتي هكذا أيها الرقيب.

أمسك «تاكر» بمنشفة وغطي نفسه وسار بتؤدة أسفل الشاطئ لإيقاظ القوات.

- «جوردون»، و«ماك»، و«لييس»، و«لاري» و«لين»! نحن لسنا في نزهة على شاطئ «بوندي»! أسرعوا!

نظر «حسن» مرة أخرى إلى «كونور»، الذي جلس القرفصاء الآن بالقرب من الماء، وقد تغطت ذقنه برغوة كثيفة، وحمل مرآة صغيرة في يد وشفرة في اليد الأخرى.

-ماذا ستفعل مع ذلك المزارع؟

تتبع «هيلتون» نظرته، قبل أن يجفل مجيبًا: -فليبق هنا بعيدًا عنا حتى تأتي سفينة الإمداد.

-ربما يمكننا مساعدته.

-أنت تعرف جيدًا أنه لا توجد فرصة للعثور على أبنائه.

-لقد أخبرنا باليوم الذي قُتِلوا فيه، وأنا أعرف المنطقة.

-كلانا نعرف المنطقة.. نصف فوجي لا يزال هناك، لكنني لا أستطيع إعلان أي عظام هي عظام من. لماذا نقول كل شيء لمزارع من «مالي» لا يستطيع الالتزام بالقواعد؟

-لأنه الأب الوحيد الذي جاء للبحث!

كشر «هيلتون» عن أنيابه وقد ظهر عليه الاستياء.. كلاهما يعرف أن الرائد محق؛ المكان الذي يختارونه للحفر اليوم لا يمثل أهمية كبيرة، ولن يحدث فرقًا في مخطط الأشياء. تراجع «هيلتون» وصرخ في «تاكر» ومجموعة الجنود المتنافرة، التي كانت تجفف نفسها الآن على الشاطئ.

-أيها الرقيب! هناك تغيير بالخطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقرت خرطوشة مستخدمة دافئة في راحة يد «كونور»، واحدة من الخراطيش التي لا تعد ولا تحصى التي تتدفق ذهابًا وإيابًا في الأمواج الهادئة التي تضرب الشاطئ. وقف «هيلتون» أمامه، وقد وضع يديه أمام صدره بضيق..

-هناك سفينة إمدادات عائدة إلى القسطنطينية خلال يومين، يمكنك البقاء معنا حتى ذلك الحين.

لقد رضخ «هيلتون» لرغبة المزارع، لكن نبرة صوته أوضحت أنه ليس سعيدًا جدًا لهذا احتج «كونور» قائلاً: -يومان فقط فترة غير كافية!

-يومان، سنتان؛ مهما كان ما تبحث عنه، لن تجده.

أجابه «كونور»:

-يمكنني العثور على أشياء لا يستطيع الآخرون إيجادها..

-هل بوسعك أن ترى ما تحت الأرض؟

-في بعض الأحيان نعم.. أنقب عن الماء، أنا جيد في ذلك.

استدار «هيلتون» وبدأ بالسير على الشاطئ تجاه رجاله.

-ما نبحث عنه هنا ليس ماء... أمامك يومين.

نظر «كونور» إلى الجرف، وقد ظهر بصيص أمل في عينيه. تمتم: -سنرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سار صف من الجنود على طول درب الماعز، صاعدين أعلى أخدود بين مجموعة من الشجيرات الهشة والأعشاب. قلبت حوافر الخيول كتلًا من التراب الجاف، كاشفة عن خراطيش الرصاص، وبعض العبوات الغريبة المصنوعة من القصدير، وبقايا العظام. على رأس الصف كان «هيلتون»، الذي ركب بجانب الرائد «حسن»، بينما خطا «جمال» بجواده وحده خلفهم، يشدُّ على مقاليد حصانه ويركل جانبه ليمنعه من الشرود أو التوقف ليقضم جذور العشب. تبعهم صف من عشر رجال من «الأنزاك» يقودهم «تاكر»، بينما ركب كلًا من «توماس» و«كونور» وراءه، و«داوسون» في أثرهم عند المؤخرة.. عندما وصلوا إلى قمة التلال مروا بجوار نصب مروع لمَصَاب الحملة؛ وكان عبارة عن كومة من مئات الجماجم البشرية المكدسة بإتقان كأنها مجموعة من التفاح تراصت على حامل فواكه. بجانب الكومة كانت صفوف مرتبة من عظام الحوض، والكتف، وعظام الفخذ، وعظام الذراع، والزند؛ حلم طالب الطب. برزت من تلك المجموعة البشعة لافتة خشبية خشنة مكتوبة باللغة العربية. التفت «توماس» إلى «كونور»: -لا تقلق يا رفيق.. هؤلاء من المسلمين.. ليسوا أمواتنا.

ثبت «كونور» نظراته على «حسن» و«هيلتون»، وقد ضايقه البساطة التي يتحدثان بها سويًا كأنهما صديقان حميمان. على حد علمه، الأتراك هم العدو! لم يرفع «تاكر» عينيه عن الضابط العثماني اللعين للحظة. المرة الأولى

والأخيرة التي صافح فيها رجلًا تركيًّا كانت هنا في «جاليبولي»، في «جونستون جولي».. سيظل ذلك اليوم - ٢٤ مايو ١٩١٥ - يعيش داخله مثل قطعة شظايا لا يمكن استخراجها من الجسد. قبل خمسة أيام، شن الأتراك هجومًا مضادًا كارثيًا على خط «أنزاك». كانت الجثث التركية مكدسة في منطقة خاوية من البشر، في كومة مرتفعة للغاية لدرجة أنه تعين على الأتراك التوقف عن التقدم. كانت بندقيته عيار ٠.٣٠٣ ساخنة جدًا من إطلاق النيران لدرجة أنه اضطر أن يلف يده بقميص داخلي حتى يقوم بتثبيت الخراطيش أو نزعها. في اليوم التالي اتفق الطرفان على هدنة لاستعادة الموتى الذين كانوا يرقدون بين عيدان الزعتر البري ونبات الآس لمدة شهر تقريبًا، منتفخة، متعفنة، وقد بدأت في التحلل بالفعل تحت شمس الربيع.

كانت سماء يوم الهدنة رمادية كالحة غائمة على نحو غير معتاد. دقت صفارة الساعة ٧.٠٠ صباحًا وقام الرجال من كلا الجانبين بدس رؤوسهم مؤقتًا فوق أكياس الرمل. وسرعان ما كانت الأرض الواقعة بين خطوطهم تعج بالضباط ومجموعات من الجنود ينقلون الموتى على نقالات، وقد غطوا وجوههم في محاولة عبثية لإخفاء الرائحة النتنة. كان «تاكر» يقطع شارات الهوية من الجثث ويقوم بتسجيل أسمائهم، قبل أن يتم إسقاط الجثث في قبور جماعية ضحلة. كان كثيرًا ما كان بإمكانه أن يتذكر ملامح وجه القتيل عندما يقرأ الاسم المحفور على البطاقة. كان اليوم هادئًا بشكل مخيف. وتلك هي المرة الوحيدة التي يتذكر فيها شبه الجزيرة وهي هادئة لتلك الدرجة لأي فترة من الزمن. عندما لم يستطع النوم في مخبأه، اعتاد أن يلعب لعبة، وهي أن يحسب الفترة الزمنية الفاصلة بين الطلقات النارية أو قذائف الهاون أو المدفعية. أي نوع من الذخيرة يتم إطلاقها في أي مكان على طول الخط -طالما يمكنك سماعه– محسوبة، في انحراف غريب لا يحدث إلا بالحرب كان يرقد مستيقظًا على أمل سماع رصاصة، دون أن يفكر في أين سينتهي المطاف بالرصاصة، أو داخل جسد من. في يوم الهدنة، كان الضباط يخطون ذهابًا وإيابًا على الخط في محاولة لوقف أي صداقة مع العدو.

تمكن «تاكر» من استبدال عبوة مربى معدنية بثمرة من البرقوق الأخضر، باستخدام إشارات اليد. كان مسرورًا للغاية بها لدرجة أنه نسي نفسه للحظة وصافح الشاب التركي باليد مبتسمًا. بينما كانت أيديهما تتصافح استدار التركي وبدأ في التمتمة باللغة التركية لواحد من المسعفين الأستراليين بجانبه. لطالما كان «تاكر» ورفاقه مرتابين بعض الشيء في «جون جيمس»، الذي تحدث التركية قليلاً وارتدى وسام عثماني على صدره كتذكار كئيب. وقد استهجن الأتراك هذا الأمر أيضًا، وصرخوا فيه بأنه قاتل دموي واتهموه بسرقة الوسام من بطل ميت. كان «جيمس» ساخطًا، موضحًا بلغة تركية ركيكة أنه

قد حصل على وسام السلطان لقتاله إلى جانب الأتراك ضد الروس منذ بضع سنوات.

كانت مشاهدة «جيمس» والأتراك يتصافحون ويقومون بتقبيل الوجنتين تجعل «تاكر» يدرك كم يمكن أن تكون المصافحة تصرف غير دقيق عكس ما يدور داخل الشخص، وتعهد بألا يزعج نفسه بمصافحة أحد أبدًا بعد هذا.. عندما جاءت الساعة الرابعة مساءً في ذلك اليوم، تسلّقوا جميعًا عائدين إلى خنادقهم ليبدأوا في قتل بعضهم البعض مرة أخرى.

اقتحم «كونور» أحلام يقظة «تاكر».

-من هذا التركي؟ ماذا يفعل هنا؟

استدار «تاكر» وتحدث بصوت خافت:

-هذا «حسن القاتل» رآنا أثناء الهبوط، وعمل على أن يمحونا بالكامل! قضى ذلك الكلب علي نصف كتيبتي، بما في ذلك أخي. ليس بالمستبعد أن يكون قد قتل أبناءك بالتأكيد.

وفي لحظة كان «كونور» قد حفز حصانه على التحرك بركلة سريعة في خاصره. وبمجرد أن أقلع الحصان، مد «توماس» يده وأمسك بلجامه بقبضته، وقبض على كليهما؛ الحصان وراكبه. من الواضح أنه استوعب جوهر المحادثة.

-توقف، إلى أين تذهب؟ لا جدوى من ذلك، فكلنا صرنا أصدقاء الآن. أقدم وجبة الإفطار للرائد كل صباح.

وعن طريق رسم توضيحي، صنع «توماس» كرة من البصاق وأطلقها نحو الأرض بجانب «كونور».

شاهد «تاكر» «كونور» يستقر ولكن أمكنه رؤية كم كان الأب الأسترالي مشحونًا عاطفيًا، صار للعدو الآن وجه، هدف يفرغ فيه سنوات الغضب والحزن المكبوتين. ومثل القنابل المصنوعة من عبوات المربى الصفيح التي اعتاد «تاكر» وشقيقه رميها عند الخطوط التركية، بدا أن «كونور» نفسه قد أمسى قنبلة قابلة للانفجار في أي لحظة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

دار طابور من الفرسان حول حافة فوهة منجم هائلة وأعلى التلال المجاورة. هتف «تاكر» من فوق كتفه، دون أن يخاطب أحدهم على وجه الخصوص:

-كنت هنا على عكس رغبتي عندما حدث ذلك الانفجار!

توقفت المجموعة عند القمة، بالقرب من شجرة صنوبر تركية وليدة. انتصبت الشجرة الهزيلة بارتفاع أربعة أقدام، بينما تدلت أطرافها المتعطشة مرتخية، في حين ارتمت معظم إبرها حول قاعدة جذعها. قال «تاكر»:

-أيها السادة... هذه هي «لون باين»، أو «شجرة الصنوبر الوحيدة».

سأل «داوسون» الساذج:

-ليست الأصلية؟

-تم تفجير الأصلية في منتصف الطريق إلى «بريسبان» خلال المعركة.

هكذا أجابه «تاكر» وهو يفرغ قربته عند قاعدة الشجرة.

-هذه أشبه بابن لـ«لون باين» الأصلية..

علق «حسن» بهدوء:

-نسمي هذا المكان «كانلي سرت»، أو «التل الدامي».. كانت هناك غابة كاملة هنا من قبل.

كافحوا جميعًا لتخيلها وهم ينظرون إلى هضبة قاتمة من الأسلاك الشائكة المتشابكة وأكياس الرمل التي تم تفريغها، والخنادق المنهارة، وشظايا العظام المحطمة المتناثرة في كل مكان عبر المناظر الطبيعية كأنها حفنة من جوز الهند المبشور على قطعة من الكعك. ترجل «هيلتون» ولاحظ أنه لا توجد شجيرة أو كتلة من العشب تنمو لتصل إلى قمة سرواله حتى..

أكمل «حسن»:

-كانت هناك مسلة بدائية على مبعدة، صنعها الأتراك الناجون من «لون باين» من الخرسانة وقذائف المدفعية المستعملة. نصب تذكاري لأصدقائهم الذين يرقدون في المقابر الجماعية على أطراف ساحة المعركة.

سأله «هيلتون»:

-هل تتذكر الكثير من التفاصيل؟

-لسوء الحظ، لن ينسى أي شخص قاتَلَ هنا التفاصيل..

هكذا رد «حسن» عليه، دون مزيد من التفسير. انتصب في مجلسه على جواده، ونظر نحو سلسلة من الخنادق التي تحيطها أكياس الرمل المتعفنة والمتآكلة بفعل فيضانات مفاجئة خلال فصل الشتاء. قال لـ«هيلتون»:

-كان هذا هو خط المواجهة الخاص بنا هنا..

ثم ركل بكعبيه أضلع جواده وهرول باتجاه المكان. فاندفع «جمال» بجواده إلى جواره، وقد بدا مضطربًا ومشوشًا. من الواضح أن هذا ليس مكانًا يرغب في زيارته مرة أخرى. أكد له «حسن» مبتسمًا:

-لا يمكن أن يكون الأمر أسوأ من المرة السابقة..

-لا. لكن القشرة التي تتكون على الجرح ستظل تنزف إذا عبثت فيها.

هكذا أجابه «كونور» وهو يراقب الرجلين التركيين ويحارب الموجة الصاعدة داخله من الاستياء. كان غضبه، الموجه أصلاً إلى الوحش الغامض المسمى «الأتراك»، يتركز الآن بشدة على رجل بدأ بالفعل يفكر فيه على أنه «القاتل»! صار للعدو وجهًا.. وكلما ابتسم «حسن»، كلما توجهت رصاصة أخرى لتصيب قلب ذكرى أولاد «كونور». في الأوقات الأخرى التي كان فيها أكثر عقلانية، كان بوسع «كونور» التمييز بين الحرب والقتل. ولكن منذ وصولهم إلى شبه الجزيرة الملعونة هذه، قلت هذه اللحظات كثيرًا وتباعدت، وصار يشعر أكثر فأكثر وكأنه يتجول في بئر مظلم في مكان ما، يبحث بكل قوته عن حبل زلق ليتشبث به. وقف «هيلتون» بجانب حصان «كونور»، وشاهد التعبير المتجهم المرتسم على وجه المزارع، وقرأ أفكاره بدقة. تأرجح مرة أخرى على سرجه، وهمس بصوت منخفض:

- من الغريب التفكير فيه على أنه شيء آخر غير العدو، يتطلب الأمر القليل من التعود عليه.

لكن «كونور» لا يستطيع أن يتخيل أن يعتاد عليه، أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعطى «هيلتون» الأمر للبدء في الخنادق التركية، وشق طريقهم عبر تلك الأرض الخالية من البشر. انجرفت المجموعة تجاه «حسن» و«جمال»، اللذين كانا يقفان بالفعل على أكياس الرمل فوق الخنادق التي حملت الكثير من الذكريات المؤلمة. سقط «حسن» في الخندق وهبط على نحو أخرق. أمسك بقطعة خشب ممزقة برزت من جدار الخندق ليستعيد توازنه. سمع صوتًا مشابهًا لصوت بساط ملفوف يهبط خلفه، تبعه بسرعة صوت سباب «جمال». نفض الرقيب الغبار عن نفسه، بينما سار الرجلان التركيان معًا. عند نقطة معينة انهار الخندق جزئيًا وتوجب أن يزحفوا أسفل بعض الأخشاب

الساقطة. كان القرويون المحليون ورعاة الماعز قد استولوا على كل شيء ذي قيمة بالمكان منذ فترة طويلة، لاستخدامه في إعادة بناء وتوسيع منازلهم. بالكاد تعرف الرجلان على المكان الذي كان بمثابة مأواهم وعقابهم لستة أشهر لا تطاق. نظر «جمال» نحو الشمس، التي صارت الآن عالية فوقهم، وتمتم لـ«حسن»:

-أعطني لحظة أو اثنتين..

أخذ يتجول في خندق اتصالات مجاور ووضع زيه الرسمي على الأرض الصلبة. استدار لمواجهة الجنوب الشرقي، وبدأ في أداء صلاته.استعد «جمال» للاستماع إلى إلهه لأول مرة منذ شهور، فرفع يديه إلى جانب رأسه، وكفيه إلى الأمام، بينما الإبهام خلف أذنيه. وضع يده اليمنى فوق اليسرى أمامه، ونظر إلى الأسفل مخرجًا زفيرًا قويًا، قبل الانحناء نصفيًا. أسرع «جمال» عبر الركعات، المحفورة بداخل عقله منذ الصبا؛ فركع وانحنى حتى شعر بصوف زيه الرسمي الخشن على جبهته وأنفه. بين أصدقائه يطلق على نفسه اسم «مسلم محطم» لا يصلي إلا بشكل متقطع، ولكن حينما يفعلها، فهو يفعلها بشغف وحب. تلا دعاءً شخصيًا للموتى من رجاله وقد ضم يديه أمام صدره؛ فيما يجعله أقرب لمحادثة مع الله أكثر مما هي دعاء. فاجأ نفسه عندما شعر برذاذ من الدموع الدافئة يسيل في راحة يده. مسح وجهه ووقف ونفض سترته. وجد «حسن» ينظر إلى أكياس الرمل بطريقة لم يكن ليجرؤ أبدًا عليها عندما احتلوا هذه الخطوط الدفاعية آخر مرة. انتشر «تاكر» مع نصف دزينة من الجنود الأنزاك من أعلى الخندق وهم يقومون بتمشيط أولي للقنابل اليدوية وقذائف الهاون غير المنفجرة.. تحركوا بسرعة وبشكل منهجي. قاموا بدق خط من الأوتاد في أرض صلبة تبعد عشرين ياردة من الخندق، ومرروا حبلًا أبيض بينهم.

أطلق «تاكر» صافرة –أن كل شيء على ما يرام والطريق آمن– وسرعان ما انضمت إليهم بقية المجموعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انقسم رجال «هيلتون» إلى فرق صغيرة. بعد ثلاثة أشهر أصبحت مهمتهم المروعة معتادة بالنسبة للكثيرين منهم. يفحصون العظام المتناثرة والأكوام عديمة الشكل، كما لو كانوا يقومون بانتقاء الخضار في السوق. انتشروا عبر المناظر الطبيعية التي شوهتها مخلفات الحرب، حاملين أكياس الخيش، وشارات الأسماء، والدفاتر، والمجارف، يمررون السجائر فيما بينهم ويثرثرون. كانوا يتجادلون كل يوم حول قوانين كرة القدم، ويتراهنون على أي شيء، ويتحاكون بالتفصيل عن المغامرات النسائية التي يقومون بها خلال ليالي الأجازات. لا أحد يجرؤ على الحديث عن العائلات - بعض الرجال لم

يعودوا إلى الديار منذ أن تم تجنيدهم - ولم يذكروا أبدًا الحرب! ما هي الفائدة؟ كلهم كانوا في خضم الحرب اللعينة. ياللجحيم، وما زالوا فيها بشكلٍ ما! يعرفون ماذا حدث ويعرفون لماذا ما يفعلونه الآن مهم. لو كانت رفاتهم هي التي ترقد على الأرض الآن، لأرادوا أن يقوم أحدهم بجمعها ودفنها بشكل لائق.

«المشكلة أنه من المستحيل الاهتمام بكل هذا العدد، هذا هو كل شيء..»

سمع «هيلتون» هذه الجملة ذات مرة من أحد الجنود يقولها لرفيقه، وكان»هيلتون» مدركًا تمامًا لما يعنيه. بعد ستة أشهر من القتال في «جاليبولي»، وسنتين آخرين على الجبهة الغربية، توقع «هيلتون» أن يتعوّد حتى على الموت، وتتبلد حواسه وعواطفه.. على الأقل لم يعد هناك ما يتعاملون معه الآن إلا الهياكل العظمية التي ابيضّت عظامها، وليس الأجسام المنفوخة بالذباب التي كانت تنتفخ وتنفجر مثل أكياس الغداء الورقية التي تُترك في الشمس. ذكّرته رائحة الجثث برائحة جثث الأغنام الملقاة في المراعي أثناء الجفاف، يطن من حولها صوت الذباب غير المرئي، بينما يتموج جلدها الشمعي فوق الديدان التي تتغذى بالأسفل. في الأيام الحارة كان يعطي الأوامر فيقوم الرجال بإطلاق رصاصة واحدة في بطون الموتى لتحرير الغازات العفنة قبل أن تنفجر الجثث. ما بدأ كضرورة كئيبة محتومة سرعان ما تحول إلى رياضة. كان هناك دائمًا من يتراهن على من سيتمكن من إطلاق الرصاص لأبعد مسافة، أو من ستتسبب رصاصته في انفجار أقوى عندما ترتطم بالجثة. «يمكن أن تُبرز المعركة أفضل ما في الرجال، لكن الانتظار كان له تأثير عكسي بالكامل!»، هكذا كتب لزوجته في منتصف صيف عام ١٩١٥. حام «داوسون» حول مجموعة من العظام. كان الدليل الوحيد على جنسيتهم هو أحذيتهم الجلدية المهترئة التي أطلت منها بواقي عظام أصابع القدم، فكان الأمر أشبه بلعبة «ميكانو» بشعة.

-لا يمكنك أن تعطينا عظام يد من التي معك، أليس كذلك؟

سأل «توماس».

-لدي مجموعة كاملة تقريبًا هنا.

-يد يسرى أم يمنى؟

-لن ندقق في الاختيار.

التقط «توماس» عظمة طويلة رفيعة - عظمة كوع – ورمى بها عبر الأرض إلى «داوسون» وهو يومئ برأسه.

- لا فائدة من دفن نصف رجل.

اقترب الرجلان من حفرة قذيفة ضحلة، وقد تجمعت بركة من الماء النتن في القاع، وبوجوه مقطبة تفحصوا ثياب الجيش المبللة والعظام الذين برزوا من المياه.. أوه، ياللسماء!

شكى «داوسون»، وهو يحاول إغلاق أنفه عن الرائحة النتنة.

-حساء من بقايا «الأنزاك».

-دورك..

قالها «توماس» وهو يدفع «داوسون» نحو الحفرة، ويرمي له حقيبة ومجرفة ذات يد قصيرة.. انحنى «داوسون» وأخذ يعبث داخل المياه بيده.

-لا يزال لديه شعر، لابد وأن المياه قد جرفت جثته من قبره أثناء فصل الشتاء.

أخرج يده من البركة وهي تحمل زرًا نحاسيًا صغيرًا نُقِشَت عليه خريطة أستراليا والتاج الإمبراطوري بشكل لا لبس فيه.

-أعتقد أن هذه هي الإجابة..

هكذا أجاب «داوسون»، وبدأ في رفع البقايا البشعة بطرف المجرفة.

-افتح الكيس..

-أتساءل عما إذا كان يعرف السباحة؟

سأل «توماس»، وقد شقت ابتسامته الوجه من الأذن إلى الأذن. نظر لأعلى، لتخترقه نظرات «كونور» الرافضة، الذي يراقب من الخط التركي... ذبلت ابتسامة «توماس» وخفض رأسه.. يبدو أن هذا العجوز لا يمتلك الكثير من روح الفكاهة داخله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج «حسن» من الخندق ومشى على طول أكياس الرمل كما لو كانت سور قلعة. حافظ «هيلتون» على مسافة بينهما، وقام بتدوين الملاحظات بينما «حسن» يتحدث، شرح لـ«هيلتون»:

-كنا هنا، كان رجالك هناك. ثم أشار عبر الهضبة مكملًا: -كان لدينا مدفع رشاش هنا. استمر وهو يلوح بيده بحدة:

– ومدفع آخر هنا، وواحد هناك.. كنا قريبين بما فيه الكفاية لرؤيتك - عيون زرقاء كثيرة –ما شاء الله- أن يكون لديك عيون زرقاء في تركيا يجعلك محظوظًا جدًا... في كل مكان، باستثناء هنا.

سمع الشباب الأنزاكيون صوت «حسن» يتردد عبر ساحة المعركة. توقف واحد وراء الآخر عن العمل واقتربوا من الخندق لسماعه بشكل أفضل. أخذ نفسًا لتهدئة نفسه وفتح الزر العلوي من سترته الرسمية. أغلق عينيه أمام جمهوره ذوي العيون الزرقاء وابتسم ابتسامة رفيعة، قبل المتابعة:

- بنينا سقفًا فوق الخندق، أمرتهم بقطع أشجار الصنوبر على التلال، ورصهم جنبًا إلى جنب، هكذا....

وأتبع جملته بأن شرح عمليًا كيف يتم تجهيز الجذوع الخام.

-كان الغرض من السقف حمايتنا من نيران القذائف. بدلًا من ذلك، صنعنا فخًا لأنفسنا.

وقف «جمال» في الخندق، نظر إلى أسفل الخط واستمع باهتمام.. بالماضي، عندما كانت الأخشاب في مكانها، كان الخندق مظلمًا تمامًا.. اخترقت أشعة الشمس الكآبة من خلال الفجوات بين ألواح الصنوبر. عندما هاجم الأنزاك في تلك الأيام الأولى من أغسطس، توقع «جمال» أن يتخطوا السطح وحتى الخط الثاني من الخنادق. عندما سمع خطوات الرجال الثقيلة ذهابًا وإيابًا على طول السقف، عرف أنه ارتكب خطأً تكتيكيًّا فظيعًا. عندما رأى الرجال فوهات البنادق والحراب تبرز من الفجوات في الأخشاب شعروا بالهلع. لم يكن هناك أي أمل في الانتصار على الإطلاق!

لم يرض الأنزاك بتسديد طعناتهم وإطلاق النار بلا رحمة في النفق الداكن، فبدأوا تمزيق الأخشاب مثل الكلاب المسعورة. عندما صارت الفجوات واسعة بما فيه الكفاية، انتزعوا حرابهم من أطراف بنادقهم وبدون تردد، نزلوا لأسفل وسط الظلام. قال «حسن» بهدوء:

-لقد دخلتم من جانبين؛ هنا وهنا، ثم من أعلى.. كانت الضربات بالحراب والأيدي والأسنان.. كان الظلام شديدًا وقريبًا لدرجة أننا لم نكن نرى دائمًا من الذي ضربنا. مزقنا بعضنا البعض كالمجانين.

شهد «جمال» أشرس أنواع القتال وأكثرها وحشية بحياته في هذا النفق. قام الرجال من كلا الجانبين بخدش وجوه بعضهم البعض، ومنهم من قاموا بقضم أجزاء من الآذان والأنوف، وجذبوا الشعر بالقبضة وصوبوا الحراب إلى أجساد بعضهم البعض بخشونة.. رأى أستراليًا يسحب صبيًّا تركيًّا من وجهه ويُقحِم إبهامه في محجر عينيه! عندما خرجت أصابع الأسترالي كانت تقطر بسائل لزج بلون مربى الفراولة. صوب أسترالي آخر حربته بيده اليمنى بينما حاول بيده الأخرى إبقاء أحشائه داخل جسده! في نهاية المطاف، انزلقت أحشاؤه من بين أصابعه وهبطت على أرضية الخندق فانتهى الأمر بالرجل وهو يطأها

بقدميه صارخًا. شق «جمال» في النهاية طريقه للخارج نحو ضوء الشمس مغطى بالدم، غير متأكد مما إذا كانت دماءه من الأصل أم أم لا.

استطرد حسن:

-هوجمنا لثلاثة أيام وقمنا بهجوم مضاد.. توقفنا فقط لأننا لم نعد نتمكن من التقدم فوق الجثث!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

خيم هدوء غريب على المكان.. ظهر فجأة من بين سحب الدخان الرمادي الكثيف ثلاثة أجساد.. عيونهم بيضاء لامعة، وقد كشروا عن أنيابهم.. كانوا ثلاثة شبان، طويلي القامة عريضي الأكتاف. زأرت أحذيتهم الثقيلة على ألواح الأخشاب الخشنة، بينما شقت السنون الفولاذ المسننة بكعوب أحذيتهم الفجوات الموجودة في الألواح. الحراب توخزهم وتطعنهم وهم يقفزون ويتعثرون على طول خط الخندق..صوت طلقات!

قريبة.. قريبة جدًا..

اخترقت الرصاصة كم سترة هنري، ولكنها انحرفت بأعجوبة عن جسده. بالأمام كانت هناك فتحة في السقف الخشبي.. لم يتردد «هنري»، سحب الحربة من نهاية بندقيته، ونزل لأسفل مباشرة واختفي.

صرخات! صرخات بشعة.

تبعه كلًا من «آرت» و«إيد» في الظلام.. ظلام ملموس له رائحة الدم.. لا يستطيعون الرؤية، لكن الأصوات! أصوات همهمات متألمة وأشياء تتمزق، وصراخ كمن يتم سلخهم أحياء! تكيفت العيون مع الضوء الخافت، بينما تساقط التراب متسللًا من خلال الشقوق، واخترقت حبيبات الرمال الحادة تحت الجفون، لتتدفق الدموع على الوجنات المتسخة. تسللت خيوط رفيعة من الضوء تخترق الظلام المهيمن على المكان لتكشف عن جحيم لا يقل عن الجحيم الذي تخيله الشاعر الإيطالي «دانتي أليجري» في ملحمته الشهيرة «الكوميديا الإلهية»! تحولت الأيدي إلى مناجل، تنزع اللحم عن العظام، وتمزق قطع فروة الرأس النازفة، والتي لا تزال ملتصقة بخصلات الشعر. كان «هنري» في خضم كل هذا، بينما لمع سلاحه وهو يشق الهواء كمنجل. غرز «إيد» أسنانه في وجنة جندي تركي شاب، بينما هو يشد هذا الأخير من شعره. وأما «هنري» فمنع السكين الذي شق طريقه نحو شقيقه الأصغر، فدفع حربته بسهولة في حلق المهاجم، لتشق العمود الفقري بينما هي تقطع قصبة الرجل التركي الهوائية، ليختلط الدم مع فقاعات الهواء في رغوة بشعة. وقف «آرت» وظهره للحائط، وقد تراجع للزاوية، بلا مكان يذهب إليه. وضع جندي عثماني يديه الخشنتين حول حلقه، فتفجرت كوكبة من النجوم أمام عينيه، ولم يعد يستطيع التنفس. مد يديه أمامه، وأخذ يخدش وجه الرجل بيأس. تعثر إبهام «آرت» بمحجر العين فدفع للداخل. شعر ببعض المقاومة، ثم خرجت مقلة العين! تعثر التركي، وقد تدلت عينه على خده من العصب. أخذ «آرت» يتنفس بانفعال، وقد أعماه الدم والغضب، ومد يده للأمام، وأمسكها وسحبها بقوة! ركض أولاد «كونور» الثلاثة من العالم السفلي

المروع نحو النور. اندفعوا خارجين للسطح، وقد تغطوا من رؤوسهم إلى أخمص الأقدام بالدم، يتسلقون فوق كومة من الجثث؛ وقد شكلت الأطراف المتشابكة والمقطوعة سلمًا مروعًا.

ضوء.

هواء.

فجأة، بدأ الأتراك هجومهم المضاد!

اندفعت موجة من جنود العدو نحوهم.. البندقية!

أمسكها «آرت»، وسددها، وبدأ إطلاق النار.

-تراجعا! عودا إلى الخنادق!

عوى في مزيج من الغضب والاستجداء.. يجب أن يبعد أخويه عن هنا.

-تراجعا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

لم يكن هناك أي شرف في هذا.

بينما استمر «حسن» بحديثه، لم يلحظ أحد أن «كونور» تجول عبر أرض قاحلة تجاه خط الأنزاك. شعر بكلمات الرائد كطوفان يغمر حواسه فيغطيها. ثبت عينيه على الخريطة التي حملها أمامه، بينما قدماه تستشعران طريقهما على الأرض غير المستوية. خطا بهدوء على حاجز الحبل ونحو المنطقة الممنوعة التي لم يتم تمشيطها وتطهيرها من القذائف والألغام بعد. قام بطوي الخريطة ثم وضعها بجيب سترته. بدلًا من ذلك أخذ يقرأ الأرض، فقام بمسح الموجودات، يستشعر أدنى تموج أو أقل اهتزاز في الأرض. مع قضبانه الحساسة، بدت المياه الجوفية وكأنها موجة تظهر في عقله الباطن، تنحسر وتتدفق بشكل أسرع وأسرع حتى تتقاطع القضبان. اليوم شعر وكأنه عصب مكشوف. صار هو نفسه القضيب، وصارت غرائزه قلقًا عديم الشكل يحلق في الهواء متحولًا لرجفة متقطعة كلما مشى للأمام. تحول إلى اليسار، ثم يمينًا، وتسارعت أنفاسه. بدأ التحرك كأنما هو في حالة من نشوة في دوائر متناقصة الحجم، وأخذ يقترب من مصدر الاهتزاز. خلف «كونور»، استمر «حسن» بالحديث، وقد بدا مرتجفًا بشكل واضح، وصارت عيناه غير ثابتتين:
-لا أتمنى أن أرى مثل تلك الأيام مرة أخرى لبقية حياتي.. كان صراخ المصابين يشق أسماعنا في الليل، يبكون طالبين أمهاتهم، ويتوسلون ليظفروا برشفة من المياه. كانوا يتوسلون لنا أن نطلق عليهم الرصاص لنريحهم. قام قناصاتنا بإطلاق النار عليهم لنتمكن من النوم بهدوء!

تفرس «هيلتون» في وجوه رجاله الذين صاروا جميعًا الآن على مقربة من «حسن»، ولاحظ غياب «كونور»! ربما يكون قد شعر مثله أن هذا أكثر مما يستطيع أن يتحمل سماعه. لاحظ «تاكر» نظرات «هيلتون»، فخفض حافة قبعته مشيرًا نحو «كونور» ورفع حاجبيه.. دار «هيلتون» بقلق، ورأى المزارع على مبعدة وهو يخطو خطوتين صغيرتين إلى الأمام، ثم خطوة أخرى إلى اليمين، قبل أن يتوقف وقد مد يديه أمامه.

-ماذا يفعل هناك بحق الشيطان؟

سأل «هيلتون» بانفعال، فأجابه «تاكر» مازحًا: -لست متأكدًا يا سيدي، أتراه يقوم برقصة الموت؟ هل تريد مني أن أحضره يا سيدي؟

-لا، سأذهب أنا لأحضره.

هكذا أجابه بحدة.. شعر بالغضب من نفسه لأنه تجاهل غريزته وسمح لـ«كونور» بمرافقتهم، فواضح أن هذا الرجل غير متوقع التصرفات على

الإطلاق. عبر «هيلتون» حاجز الحبل وتتبع بعناية أقدام «كونور» في تلك الأرض القاحلة. وبينما هو يفعل ذلك، أدرك مذهولًا أن المزارع قد تتبع نمطًا معقدًا ومتعمدًا، وليست مجرد خطوات شاردة لأب مدفوع بالحزن. كان «كونور» متسمرًا مكانه الآن، وقد انغلقت عيناه، بينما أخذ قلبه يدق عاليًا داخل أذنيه. شعر بأصابعه توخزه، بينما هناك أشواك من السخونة الشديدة توخز بشرته. شم رائحة نبات الأوكاليبتوس، وسمع صرير طاحونة هواء. شعر بيد على كتفه، ففتح عينيه. قدم له «هيلتون» قربته.

-يمكن أن تكون الأرضية قشرة رقيقة للغاية يا سيد «كونور». عد لأن المكان عندك خطير للغاية.

-إنهم هنا!

أجابه «كونور» بصوت أجش.

-نعم، ما زلنا نبحث لكننا...

-لا، إنهم هنا!

قاطعه «كونور» وهو ينظر مباشرة نحو الأرض ويضع علامة فوق التراب بكعب حذائه، وحفرها أربع مرات - الشمال والجنوب والشرق والغرب.

-أحتاج إلى جاروف!

خطا بعزم عائدًا للحبل، تاركًا «هيلتون» في تلك الأرض القاحلة، غير متأكد مما شهده ولا فكرة عما يصدق. شيء واحد مؤكد، وهو أن «كونور» سيقوم بالحفر بمساعدتهم أو بدونها. صرخ «هيلتون»: -لا يا سيد «كونور». نحن نقوم بكل أعمال الحفر هنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعاد «داوسون» التربة مكانها بطرف جاروفه، كاشفًا عن خط عاجي اللون مليء بالفتحات بشكل لا لبس فيه. كان يحفر الأرض تحت علامة «كونور» وبالكاد حفر لقدم أسفل سطح الأرض. ترك الجاروف يسقط بجانب الحفرة الضحلة وجثا على يديه وركبتيه لتنظيف التراب من حول العظم. وجه نظرة غاضبة نحو «تاكر»، الذي وقف بالأعلى يشرف على الموضوع، وقد نظر نحوه كأنه عالم آثار يراقب بعثة أثرية. قال الرقيب: -هناك الكثير من العظام المماثلة هنا! يمكن أن تكون عظام أي شخص.

كافح لتبدو لهجته مقنعة. هذا هو بالضبط المكان الذي قال المزارع أنهم يجب أن يحفروا فيه.

-ساعده يا «توماس»، لكن كن حذرًا بحق الجحيم!

سأل «توماس»:

-أكثر حذرًا من المعتاد؟

-أكثر بكثير!

أخذ «توماس» يتفحص العظام، رافعًا أجزاءً بسيطة من التربة السطحية بالجاروف، حتى اصطدم طرف الجاروف المعدني بقطع من النسيج المتحلل والمزيد من العظام. كان «هيلتون» و«كونور» على بعد عشرين قدمًا. تم تمشيط وفحص المنطقة، وتم تعديل خط الحبل بحيث تقع العلامة التي تركها «كونور» وآثار أقدامه داخل منطقة الأمان.. دفع «كونور» الحجارة بطرف حذائه ثم توقف فجأة. كما لو كان قد شعر بتغير في التربة عند الحفرة، نظر إلى الأعلى، لكن «تاكر» ابتسم وهز رأسه، هو لا يريد أن يعطي ذلك المزارع أملاً كاذبًا، يعرف «تاكر» أن والده نفسه لم يكن ليقوم برحلة مماثلة للعثور عليه. كان «هيلتون» يشارك «تاكر» شكوكه. كأنهم يطاردون أوزة برية، هكذا فكر بينه وبين نفسه. كان يعمل مهندسًا بالأصل، ولهذا كان عالمه محكومًا بالصيغ الرياضية وقوانين الفيزياء التي تمنع الجسور من الانهيار، وترفع القباب عاليًا، وبمجال الحرب، تقوم بإطلاق مقذوفات صغيرة من أنبوب معدني ضيق بسرعة كافية لاختراق الجلد! لذلك لم يعرف ماذا يفعل بـ«كونور» أو موهبته الغريبة. العثور على الماء بهذه الطريقة سخيف بما فيه الكفاية، لكن محاولة العثور على جثث الموتى، لا يتحدى المنطق فحسب، بل إن «هيلتون» وجد صعوبة في التفكير في الموضوع على أنه هبة من الله حتى.. يأمل أنه من خلال التساهل الذي قدموه لـ«كونور»، يمكن لذلك الأب العنيد أن يدرك أن هذا البحث غير مجدٍ. ابتسم للمزارع ابتسامة متعالية. بالأعلى عند الفتحة، ربت «تاكر» على كتف «داوسون»..

-ما هذا، هناك؟

بحث «داوسون» بين قطع التربة الرخوة وشظايا العظام، لتستقر أصابعه على جسم دائري مسطح. إذا كان زرًا أو عملة معدنية سيعرفون على الأقل جنسية الجندي..

ضغط «داوسون» على الشيء بين إبهامه والسبابة، وكسر طبقة الطين الجاف المتجمعة فوقه. بصق عليه ومسح القرص في كمه..

-تبًا!

ناول شارة هوية جندي ينتمي للقوات الأسترالية الإمبراطورية إلى «تاكر». شعر الرقيب أنه يعرف ما سيكون مكتوبًا على الشارة من قبل أن يقرأها. تسمر مكانه.. سعيد أن شيئًا ما في العالم لا يزال قادرًا على إثارة ذهوله

ودهشته. شاهد «هيلتون» «تاكر» وهو يسير نحوه، وقبضته مشدودة حول شيء ما؛ نظرة فاحصة لفم الرقيب دلته أنه ولابد شيئًا مهمًا.

-مستحيل!

وجد «هيلتون» نفسه يهتف لاهثًا:

-مستحيل!

ضغط «تاكر» الشارة في كف الملازم. نظر «هيلتون» إلى الأسفل في شك وقرأ الاسم. بعدما تأكد مما كان «كونور» يعرفه بالفعل، خاطبه «هيلتون» بوقار: -إنه ابنك؛ إنه «إدوارد»!

ظل «كونور» صامتًا؛ لا يوجد ما يقال. ثبتت عيناه على «داوسون» و«توماس»، اللذان كانا يرفعان بعناية قطعًا من النسيج والعظام المفككة ليضعوها في حقيبة من الخيش. كانت فكرة رؤية جثة ابنه المنهوبة أكثر مما يستطيع «كونور» أن يتحمل، لكن فكرة عدم مشاهدة استخراج رفاته كانت أسوأ لسبب غير مفهوم!

حذره «هيلتون»:

-لو كنت مكانك لم فعلتها.

لكن كان الأوان قد فات. ترنح «كونور» باتجاه قبر ابنه الضحل. نظر من فوق كتف «داوسون» الذي لم يكن منتبهًا لوجوده، وقد رفع جمجمة «إدوارد» من التربة ومسحها بكمه. في مواجهة البقايا العظمية لما كان ذات يوم وجه ابنه الوسيم، نظر إلى مقلتي العينين الفارغتين اللتين احتوتا ذات يوم عينيه الشقيتين، وبدأ يرتجف، وسقط على ركبتيه أرضًا.. بينما «داوسون» يمسح الطين اللزج الملتصق بالجمجمة، ظهر سبب الوفاة؛ طلقة واحدة في جبهته. تبادل «داوسون» و«توماس» نظرات متفهمة. ظهر «تاكر» بجوار «كونور» وأمسك بذراعه يسنده. هز «داوسون» رأسه محذرًا «تاكر» من أن يقول أي شيء، لكن الرقيب كان ينحني بالفعل عند أذن الأب المكلوم قائلًا: -الأوغاد أعدموا ابنك..

ثم همس بصوت أجش وهو يشير إلى «حسن»: -لقد أعطى الأمر بألا يأخذوا سجناء.

نظر «كونور» إلى القائد التركي، الذي كان يراقب البحث عن أبناء «كونور» باهتمام شديد من مسافة لا بأس بها. ارتسم الغضب في عينا «كونور»، وقد بدا قلبه على شفا الإنفجار، بينما اندفع الدم في العروق وأخذ يطن في أذنيه! بالكاد استطاع التفكير. استدار «كونور» وبدأ في التحرك نحو «حسن» وقد

انقبضت قبضتاه بقوة. تزايدت سرعة خطوات المزارع وغضبه بينما هو يندفع نحو قاتل ابنه.

-أوقفوه!

صرخ «هيلتون»، لكن الجنود الموجودون من حوله بدوا بطيئو الاستجابة بشكل متعمد، وأحجموا عن وقف هجوم «كونور».

-قلت أوقفوه! حالًا!

اندفع الجنود الأستراليون إلى التحرك بناءً على أمر قائدهم، لكنهم تحركوا متأخرًا للغاية. حاول «توماس» عرقلته، لكن «كونور» صده بكفه. ظهر جندي صلب المظهر ليسد الطريق بين «كونور» و«حسن». لكن «كونور» تمكن من الإفلات منه، قبل أن يقوم «كونور» بمد قبضته ليضرب الرجل في الترقوة، ليُسقِطه على ظهره. وقف «حسن» راسخًا مكانه كجبل، متعمدًا الحفاظ على ثباته، بينما «كونور» ينزل متجهًا نحوه. أطلق الأب الأسترالي خوارًا حزينًا، كأنه ثور في مسلخ، واندفع نحو الرائد. وبينما هو يفعل ذلك، أتت قبضة من العدم لتضربه في جانب فكه! ثم شقت لكمة ثانية طريقها تحت ضلوعه بقوة دفعت الهواء خارج فمه. رقد في التراب على جنبه، يلهث لالتقاط أنفاسه، بينما ظهر حذاء أسود ثقيل فدفن نفسه في معدته بخشونة.. كان «كونور» مأخوذًا، وقد أخذ يتنفس التراب منهكًا، ومن بين جزيئات التراب لمح جسد «جمال» الضخم منحنيًا فوقه؛ خط دفاع «حسن» الأخير. أخذ الرقيب – الذي جحظت عيناه - يلهث من كل ذلك الجهد، ووضع حذاءه على صدر «كونور»، واستند عليه بكل ثقله.

-لقد ذبحت كل أبنائي، أطفالي الجميلين!

صرخ «كونور» في «حسن». اعترف «حسن»: -ربما أكون قد فعلت يا سيد «كونور»، لكنكم أنتم من أرسلتموهم لغزونا!

قبل أن يتمكن «كونور» من الرد، كان «هيلتون» وباقي الأستراليون يفرقون بينهما. أصدر «هيلتون» أوامره لـ«تاكر»: -خذه بعيدًا وضعه تحت الحراسة.

قام رجاله بسند «كونور» حتى وقف، ثم رافقوه إلى معسكرهم. التفت «هيلتون» مذعورًا إلى «حسن»، متوقعًا بالفعل التداعيات الدبلوماسية وطوفان التقارير الذي سيحدث جراء تلك الواقعة. قال له: -أنا في أشد الأسف.

لكن «حسن» رد عليه بلهجة هادئة، وكأنما لم تزعجه ثورة «كونور» على الإطلاق: -لديه ولدان آخران.. يجب أن نستمر في البحث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل العشرون

وقف حارس خارج خيمة على شكل جرس، وقد مالت بندقيته على ساقه، بينما انهمك هو في لف سيجارة، لم يلبث أن قام بإشعالها بعدما كوّر يده ليحمي الشعلة من نسيم المساء الدافئ الذي هب من ناحية البحر. تدلى مصباح من العمود الموجود بمنتصف الخيمة، فجعلها تتوهج مثل فانوس ورقي. فيما جلس رجل داخلها بصلابة على نقالة، ملقيًا بظله الضخم على قماش الخيمة، لم يتحرك «كونور» تقريبًا منذ أن تم احتجازه. كان لا يزال مصدومًا، وقد بدا ساكنًا ظاهريًا، على عكس العواصف التي قامت داخل عقله.. مثلما كانت الينابيع الارتوازية تنادي عليه من تحت التراب، عرف أن الأولاد سيساعدونه في العثور عليهم. الرباط القوي الذي يجمع بينهم كان أثقل من الماء، وقد جذبه كما تنجذب برادة الحديد إلى المغناطيس.. كان متأكدًا من أنه سيعثر عليهم.

تسبب العثور على «إدوارد» في تنفيض التراب عن بئر من الحزن والغضب الأعمى كان مدفونًا بداخله، لأنه كان هناك قبس من الأمل يتلوى داخله أنهم لا زالوا أحياء! كل تلك الكدمات والأسنان التي سقطت هي ثمن زهيد دفعه عن طيب خاطر مقابل الحصول على رفات ابنه.. على الرغم من أنه يعتقد أنه يجب عليه الآن أن يشعر ببعض السلام الداخلي، فقد كان لا يزال شعورًا ملحًا داخله بأن مهمته لم تنته! ليس بعد. سمع صوت خطوات الأقدام وصوت البندقية تهتز بينما الحارس يؤدي التحية. دفع «هيلتون» باب الخيمة جانبًا ودخل.

-وجدنا «هنري» أيضًا.

أعلن «هيلتون» الخبر بهدوء، ليجيبه «كونور»: -راقد جوار «إيد».

ولم يكن سؤالًا، فسأله «هيلتون»:

-كيف عرفت بحق السماء أنهما هناك؟

فأجاب «كونور» على سؤاله بسؤال:

-إذن لم تجدوا «آرثر» بعد؟

صار صوته مجرد همهمة منخفضة، وقد حنى رأسه: -لا، قمنا بتمشيط المنطقة جيدًا، لكننا لم...

-مستحيل أن يترك «آرت» أخويه!

أكد له «كونور»، قبل أن يرفع رأسه مكملًا: -يجب أن يكون هناك!

ولكن بينما هو يقول ذلك، عرف بطريقة ما أنه مخطئ، وأن «آرت» ليس هناك، وأنه مفقود!

- سنواصل البحث، لكننا سنمنح «إدوارد» و«هنري» دفنًا لائقًا غدًا..

لكن عرض «هيلتون» قوبل بالرفض:

-لقد وعدت والدتهم بأن أجدهم وأعود بهم للمنزل.

انحنى «هيلتون» على فخذيه، وخفض صوته: -هذا منزلهم الآن يا سيد «كونور»؛ لم تعد أرض العدو. هم بين أصدقائهم، وربما أقرب لهم مما كانوا بأي وقت مضى. اتركهم هنا وسيظلون دائمًا قرب أصدقائهم. أما لو عدت بهم، سيصبحون مجرد شخصين ميتين تم دفنهم في ركن مقبرة ما.

تخيل «كونور» منظر ساحة كنيسة بلدة «رينبو»، ووجد أنه من الصعب المجادلة.

-أرادت أمهم «ليزي» أن يتم دفنهم في أرض الكنيسة بالوطن..

-ماذا تحتاج لتعتبر تلك المنطقة مقدسة كالكنيسة؟ بعض الماء المقدس؟

تضرع له «هيلتون»، ثم أكمل:

-دعنا ندفنهم هنا حيث يعني دفنهم شيئًا ما.

وافقه «كونور» بإيماءة مستسلمة. عرف أن «هيلتون» محق، لكن فكرة التخلي عن ابنيه هنا على تلال تركية مقفرة جعلت قلبه يتألم. بينما «هيلتون» يدفع باب الخيمة القماشي جانبًا ليغادر، استدار وقال: -لقد فقدنا أكثر من ألفي رجل في تلك الأيام الأربعة في معركة «لون باين»، بينما خسر الأتراك سبعة... ومثلهم لم نأخذ الكثير من الأسرى..

-إذن فقد سامحتهم؟

تسمر «هيلتون» لثوان، قبل أن يجيب بتؤدة: -لا أعرف ما إذا كنت قد سامحت أيًا منا!

ثم خرج وسط ظلام الليل.

أما بداخل الخيمة، فقد التقط «كونور» صورة أولاده من بين صفحات مذكرات «آرت» وحملها في الضوء. كان ذلك الوغد المدعو «بريندلي» على حق، هذا بالضبط هو الشكل الذي يريد أن يتذكرهم به. يعلم أنه يفترض به أن يجد بعض العزاء لكونه تمكن من تحديد مكان اثنين من أولاده، فهذا أكثر مما يمكن لأي شخص أن يتوقع منطقيًا، كأنها معجزة. لكن فكرة إعدام «إدوارد»

لن تتركه بحاله بعد الآن. ليس بوسعه إلا أن يتخيل ولده جريحًا ينزف، وقد انتفخ لسانه ظمأً للحصول على بعض الماء، في انتظار حاملي النقالة بترقب. لكن بدلاً من ذلك، تتحرك عصابة من الأتراك عبر الميدان، فتجمع الأحذية والأسلحة وتتخلص من الجرحى. تخيل «كونور» الابتسامة الترحيبية التي ارتسمت على وجه ابنه عندما سمع الخطوات المقتربة، ثم نظرة الارتباك والرعب بينما البندقية ترتفع نحوه! تفاقم الغضب داخل «كونور» مرة أخرى وهو يتجه نحو الباب. وقف الحارس على بعد خمسة أقدام، وقد رفع بندقيته.

-لا شيء لتقوم به هنا يا سيد «كونور»..

أومأ «كونور» برأسه وتراجع للخلف مجيبًا: -أنت محق يا بني. لا شيء على الإطلاق.

ثم استلقي على سرير المخيم، وبدأ سهرة طويلة بلا نوم، امتدت حتى الصباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف كاهن يوناني يرتدي عباءة سوداء فضفاضة والقبعة المميزة للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وقد بدا بوقفته تلك كأنه جذع شجرة متفحمة على منحدر التل. بجانبه وقف راهب مبتدئ يحمل صليبًا ذهبيًا على عصا ويؤرجح مبخرة ذهابًا وإيابًا، بينما تصاعدت من قبتها النحاسية المثقوبة أعمدة رفيعة من دخان البخور.. تنشق «كونور» الرائحة النفاذة التي كان لها تأثيرًا غريبًا مخدرًا. وقف أمام مجموعة صغيرة من الأنزاك، بقيادة «هيلتون» و«تاكر»، وقد تجمعوا حول قبرين تم حفرهما حديثًا. احترامًا للمناسبة، ارتدى الرجال أرديتهم وقبعاتهم الرسمية، بعضها مزين بشارة لواء سلاح الخيالة الخفيف.

وقفوا بهدوء، يرفعون أعينهم من حين لآخر من فوق أحذيتهم، ليلقوا بنظرة خاطفة إلى الصلبان البيضاء، قبل العودة بنظراتهم لأسفل مرة أخرى. بينما تدفئ الشمس ظهورهم ويستمعون، غير فاهمين للقداس اليوناني، وقر جلال وجدية تلك المناسبة في نفوس الجنود الأستراليين.

من السهل أن تغيب عن بالهم القيمة الإنسانية لمساعيهم في شبه الجزيرة المعزولة الكئيبة هذه.. صحيح أنهم عملوا طوال اليوم وسط التراب، يستخرجون رفات زملائهم الجنود؛ يقومون بتصنيف وتعبئة ونقل رفات الأموات بعربات يدوية، لكنهم لم يدفنوا أي شخص من معارفهم أبدًا، أو وقفوا بجانب قبر ميت في وجود شخص أحبه أكثر من أي شيء آخر في العالم. لم يروا أبدًا خطوط الحزن الرمادية العميقة التي شقت طريقها فوق تلك الوجوه. صار من العسير تمييز هذا الرجل - الذي سافر نصف العالم تقريبًا ليجد أبناءه - عن آبائهم هم أنفسهم؛ كان من الممكن أن تكون أجسادهم هم

هي تلك الملقاة في التربة الرطبة، من المحتمل أن يكون آباؤهم هم من يقفون وقد أمسكوا بقبعاتهم في أيديهم، مرتجفي الفم، يمسحون الدموع من أعينهم بظهر أيديهم الخشنة.

هذا يوم لن ينسوه أبدًا؛ لن ينسوه عندما يغادروا هذا الشاطئ ليعودوا إلى عائلاتهم المحبة في بلادهم الجنوبية الشاسعة؛ لن ينسوه عندما تصيبهم الشيخوخة ويشاهدون أحفادهم يكبرون ليدخلوا عالم البالغين. اليوم فهموا حقًا لماذا هم هنا، وقد شعروا بأنه شرف لهم! انطلق الكاهن يهتف من بين شعرات لحيته السوداء الطويلة بينما هو يبارك الأرض عن طريق غمس غصن من نبات إكليل الجبل في وعاء من الماء المقدس، قبل أن يرميه فوق التربة التي تم تقليبها حديثًا. لقد عاش اليونانيون والأتراك معًا على هذا الساحل لقرون.. المسيحيون والمسلمون يتعبدون جنبًا إلى جنب، يصطادون من نفس البحار، ويجرفون نفس التربة، ويتحدثون نفس اللغات. كانت القسطنطينية في الأيدي العثمانية منذ عام ١٤٥٣ لكن اليونانيين ما زالوا يعتبرونها جزءًا من اليونان. نصف سكان المدينة من الهيلينيين.. يروون مرارًا وتكرارًا حكايات الإسكندر، وحكايات «أجاممنون» و«أوديسيوس» وهما ينهبان بلدة طروادة كما لو كانت تلك الأحداث تنتمي للتاريخ الحديث. من بين جميع جيران تركيا، عرف اليونانيون بشكل أفضل من الباقين كيف يكون الأمر أن تقف بجانب إمبراطورية تنزلق ببطء من بين الأصابع. لقد شاهدوا الأعشاب تنمو بين أرصفة أثينا، وتحولها من رحم الديموقراطية المفعمة بالحيوية لتصبح راكدة سياسيًا. أصبحت اليونان مجرد مادة تُدَرَس في الجامعات، لا ثقافة حية تتنفس. لكن الأمل في أن يكون ساحل بحر إيجة هذا يونانيًا مرة أخرى لا يزال يتوهج داخل قلوبهم مثل الجمر الذي يتوهج داخل المبخرة. توقف الكاهن فجأة، ثم أومأ لـ«كونور» بطريقة رسمية، وناوله غصن إكليل الجبل، بينما هو يتحرك مبتعدًا. قبل اليوم لم يكن «كونور» قد سمع عن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. لم يكن متأكدًا من أهمية أي دين تتبعه، أو ما إذا كنت تؤمن بإنجاب العذراء لطفلها بلا دنس. كانت تفاصيل العقيدة الدينية غامضة له. بالتأكيد لا يستطيع تخيل أهمية مثل هذه التفاصيل التافهة على علاقة شخص ما بالله.

على الرغم من أن «كونور» لا يعرف كلمة من اليونانية أو اللاتينية، فقد كان متأكدًا من أن الله يتحدث بكليهما. كان رب «كونور» رب «مالي»؛ إله من العهد القديم، إله صحراوي خشن. إنه عنيف، وانتقامي، وغير مبالٍ بالحياة. إنه إله العصر، إله الأوقات التي سقطت فيها مبادئ يسوع بقلب الخد الآخر لمن يسيء إليك، وحب جارك. رسم «هيلتون» الصليب على صدره ثم أشار لرجاله لينسحبوا، تاركين «كونور» واقفًا بين جثمان ولديه. الآن فقط مع رحيل الجميع يمكنه قراءة الكلمات المرسومة على الصلبان: «إتش كي

كونور # ٧١٨، القوات الأسترالية الإمبراطورية، مات بعمر ١٩ عامًا و ١١ شهرًا، فليرحمه الرب» والآخر: «إي آر كونور # ٧١٩ ، القوات الأسترالية الإمبراطورية، مات بعمر ١٨ سنة و ٤ أشهر، فليرحمه الرب»

سحب «كونور» كتاب «ألف ليلة وليلة» ذي الغلاف الأزرق المألوف من سترته وجلس القرفصاء بين التلال. تنفس بعمق، وشرع في القراءة...

«والتفت السلطان إلى أميره الشاب وقال: «لقد سافرت بعيدًا إلى ممالك لا يمكن تخيلها. بعد كل مغامراتك هذه، حملك البساط السحري على الرياح الأربع إلى الديار.»

تقطع صوته عندما أدرك أن كلمة «الديار» لم تعد تعني أي شيء بالنسبة له. تمالك نفسه، عازمًا على أن ينهي طقوسه.

«جمع السلطان كل عازفي وراقصي البلاط في احتفال كبير بعودة ابنه سالمًا.»

أغلق «كونور» الكتاب ومسح عينيه بظهر يده وجلس. حتى عندما تغرب الشمس، نازفة ضوءًا أحمر كالدم يغطي الأفق، ظلت عينا «كونور» ثابتتين على القبرين. في كل الأحوال لن يعود إلى «جاليبولي». قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يقضيها بجانب ابنيه. لذلك ظل يحدق بشدة لينحفر منظر القبرين في عقله، الصلبان البيضاء المطلية حديثًا، والحروف الأنيقة، وأغلفة القذائف التي برزت من التربة. صورة مجسمة يأخذها معه للمنزل. عرف أن قرار دفن الولدين هنا هو الصحيح بالنسبة لهما، لكن فكرة تركهما هنا جعلته يشعر كما لو كان سيفقدهما مرة أخرى، هذه المرة إلى الأبد!

أغلق عينيه ووضع راحتيه على التربة الباردة.

لقد عثرت على ابنينا يا«ليزي»! إنهما آمنان الآن. ولكن لا مجال للهروب من الحقيقة الرهيبة بكون «آرت» لا يزال مفقودًا. فتح «كونور» عينيه وحدق في البحر المظلم الموجود على مبعدة.. أقسم لشبح زوجته: -سأجد «آرت».. سأجده لكِ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الواحد والعشرون

تقدم «جمال» عبر معسكر الأنزاك.

كان لصوص المقابر –كما يسميهم هو– قد تحركوا للتو، وكان الطاهي قد أوقد النار، وقد شارفت المياه على الغليان. تدلى وعاء أسود من العصيدة من حامل ثلاثي القوائم فوق النيران؛ مما يعني أن «جمال» سيقدم كمية ضخمة من الحساء بالعشاء اليوم. كان قد جاء للتو من «شنق»، وقد حمل بضعة أرغفة طازجة من «السميط» تحت ذراعه. بينما هو يقترب من خيمة «حسن» سمع التمتمة الإيقاعية الخافتة لركعة الصلاة الأخيرة. تخيل منظر «حسن» وهو يقف في الضوء الخافت. سوف ينظر نحو كتفه الأيمن كأنما يرمق الملاك الذي يقوم بتسجيل أعماله الصالحة، ثم ينظر لليسار كأنما يرمق الملاك الذي يقوم بتدوين سيئاته.. فتح «جمال» الورقة الملفوقة تحت ذراعه، ثم أخذ قضمة من السميط، وانتظر في صمت. ضحك من نفسه، لابد وأن الحبر سينفد من الملاك الموجود على يسار «جمال» من كثرة ما فعله بالليلة الماضية.

- أحضر هذا الطعام هنا، لا تظن أنني لا أستطيع أن أشم رائحته!

أتاه صوت «حسن» من الداخل.. خطا «جمال» داخل الخيمة بينما كان «حسن» يطوي سجادة صلاته، قبل أن يجلس على سريره ويبدأ في ارتداء حذائه. أومأ لـ«جمال» نحو كرسي ليجلس. قال «جمال» وهو يناوله قطعة من الورق: -ها هو التلغراف الخاص بك.. أهدرت يومًا كاملًا وأنا أقف في الطابور، وأحتسي قهوة مقرفة!

-بل وقضيت ليلة كاملة أيضًا..

أضاف «حسن» في تفهم، ثم أكمل:

-عرفت أن هناك بيت دعارة بالقرب من مكتب البريد.

-هكذا سمعت.

هكذا أجابه «جمال» متظاهرًا بالبراءة، ثم صارت لهجته جادة وهو يكمل: -لقد استولى اليونانيون على «إزمير» هكذا سمعت في المدينة. جلس البريطانيون في سفنهم يشاهدونهم وهم يفعلون ما يشاءون.. علينا أن نفعل شيئًا، الناس ينتظرون منك أن تظهر سلطتك!

-ما هي سلطتي؟ ليس لدي أي سلطة، البريطانيون هم من يملكون كل شيء في يدهم، هم من بوسعهم أن يقرروا مقدار ما يظل معنا من بلدنا.

ثم ولى «حسن» انتباهه إلى البرقية، معلنًا انتهاء المناقشة. شاهد «جمال» في إحباط قائده وصديقه يقرأ البرقية، ولا يملك أن يظل صامتًا، فهتف: -لماذا تهتم بأمر هذا المزارع؟ إنه يريد قتلك!

نهض «حسن» وخرج من باب خيمته قبل أن ينهي «جمال» حديثه. خطا القائد التركي عبر المخيم واتجه بخطوات سريعة للخيمة على الجانب البعيد. الخيمة التي وقف عند بابها حارس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «كونور» يستعد للمغادرة. استلقت صورة فوتوغرافية على حقيبته المفتوحة، لكنها لم تكن صورة أبنائه الثلاثة. ابتسم «أورهان» الطفل عبر تلك الصورة العتيقة ذات الألوان الباهتة. كان والده وسيمًا، ومن خلفه وقفت «عائشة» بملامحها الرقيقة وشعرها الكثيف داكن اللون.. بدت حزينة – وكأنها في حداد على ما لم تفقده بعد - ولكن لا تزال جميلة بشكل لا يصدق بعد حرب حصدت ملايين الأرواح، تساءل «كونور» عن عدد الصور المماثلة التي ولابد قد انتشرت في جميع أنحاء العالم؛ شواهد صامتة لعائلات تحطمت بشكل لا يمكن إصلاحه، صور سيتم قطعها في يأس، أو تتبادلها الأيدي حتى تتآكل أو تُنسى في الأدراج حتى تتلاشى. كم من أولاد مثل «أورهان» لن يكون لديهم قبر يزورونه، وإنما مجرد صورة مثل هذه ليبكوا أمامها؟ سمع صوت الأحذية الثقيلة تخطو فوق الأرض بالخارج، وسرعان ما دفع الصورة بين صفحات دفتر مذكرات «آرت»، وأغلق الحقيبة. ظهر «حسن» عند مدخل الخيمة، وعلى الفور تراجع «كونور» إلى الوراء.

-معذرة على اقتحامي فجأة يا سيد «كونور».

-ماذا؟

اتخذ «كونور» مسلكًا دفاعيًّا، غير متأكد من سبب ظهور التركي في خيمته، وتوقع الأسوأ منه. فوجئ بالتركي يسأله باهتمام: -ما هو اسم ابنك الأكبر الأخير؟

- «كونور»، مثلي.

كان منزعجًا.. شرح له «حسن» ببطء:

-ليس لدينا اسم عائلة في تركيا.. ما هو اسمه الأول؟

أجابه «كونور»:

-اسمه المسيحي هو «آرثر».

تجاهل «حسن» التلميح الديني.. لقد شهد أكثر من حصته العادلة من الاضطهاد الديني والثقافي في غضون ثلاثين عامًا كجندي، بالتأكيد أكثر من أن ينزعج من مثل هذا التمييز. سأل: -وكيف تتهجى هذا الاسم؟

-ألف.. راء.. ثاء.. راء.. «آرثر».

تابع «حسن» الهجاء، وقارنه بشيء مكتوب على الورقة التي كانت بين يديه. نظر لأعلى، وقد ارتسمت نظرة خيبة أمل على وجهه وقال: -آسف لإزعاجك. اعتقدت أن... فليحفظك الله في رحلتك..

ثم التفت «حسن» منتويًا الانصراف، لكن «كونور» أوقفه وهو يقول: -أنا آسف، بخصوص هياجي بالأمس.

-هناك قول فارسي كلماته هي:»فلتعمر أكثر من أطفالك». يبدو الأمر وكأنه نعمة، لكنه أسوأ لعنة يمكن للمرء أن يتمناها لرجل.. لن ترغب في حدوث ذلك حتى لعدوك.

هكذا رد عليه «حسن» قبل أن يدفع باب الخيمة جانبًا، ولكن قبل أن يخرج من الخيمة سأله «كونور»: -لماذا سألتني عن «آرثر»؟

بدا على «حسن» عدم الارتياح وهو يُظهر البرقية، والتي احتوت على قائمة بالعربية العثمانية. شرح: -لقد طلبت هذه القائمة من القسطنطينية. هناك اسم هنا به نفس اسم عائلتك، لكن الاسم الأول –الاسم المسيحي- لرجل آخر، أنا آسف لم أقصد إثارة آمالك بلا داعي.

- ما هي هذه القائمة؟ من هو الرجل الآخر؟

يجب أن يعرف «كونور».

-هناك ثلاثة أحرف أولى، ولا واحد منهم «أ» التي يبدأ بها «آرثر»؛ هم "راء»، و«فاء»، و«راء».

- «راء»، و«فاء»، و«راء»....

أخذ «كونور» يتلاعب بالحروف التي سمعها. بالتأكيد لا. هذا أكثر مما يستطيع أن يطمع فيه..

- «راء»، و«فاء»، و«راء».... آرثر! هذا هو.. «آرثر»! هذا هو ابني! يجب أن يكون هو! هذا اسمه.. أخبرني ما هي هذه القائمة؟

تسمر «حسن» مكانه في صمت ناظرًا مباشرة إلى «كونور»، واختار كلماته بتأني: -إذا كان هذا هو ابنك... وأكرر، إذا.... فقد أخذناه كأسير. لم يمت هنا!

صدم ذلك الخبر «كونور» كأنه قد تعرض لضربة شمس قوية.. أخذ يلهث، صوته بالكاد مسموع: -يااللهول.. ماذا تقول؟

-لقد غادر «شنق قلعة» على قيد الحياة.

صُدِم «كونور» لدرجة أنه لم يستطع التحدث. شق «حسن» طريقه عبر باب الخيمة، وترك الأب للتفكير في كل الاحتمالات الممكنة وحده. استند «كونور» على عمود الخيمة، وقد شعر بعالمه ينقلب رأسًا على عقب خلال ثوانٍ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

تغلغلت زقزقة الناي وعويله في كل زاوية بفندق «طروادة»، تتنافس مع الأصوات الحزينة المتصاعدة من أوتار آلات الكيمنتشي والعود.جلست مجموعة من الموسيقيين الجادين على كراسي بالية من الخشب، مرتبة على المنصة الصغيرة الكائنة في زاوية الصالون. كانوا يرتدون سترات من القطيفة المطرزة، وقد التفت الأحزمة الموشاة بالذهب حول خصورهم، بينما اعتلت الطرابيش الحمراء رؤوسهم، وقد أخذت شراشيبها تتأرجح مع أنغام الموسيقى. كانت كل من «عائشة» و«ناتاليا» قد قامتا بتنظيف كل ركن من أركان الغرفة، وغسل وتهوية الستائر الدانتيل العتيقة، حتى صارت أقرب إلى لونها الأبيض الأصلي أكثر مما كانت عليه لسنوات عديدة. كان قد مضى وقت طويل جدًا منذ أن استضاف الفندق مثل هذا التجمع الكبير. تسلل صوت الموسيقى والثرثرة إلى الشارع المظلم من خلال النوافذ المفتوحة، وبالمقابل يتسلل نسيم عذب وناعم داخل الغرفة، حاملاً معه رائحة حبوب اللقاح ورائحة أزهار شجر الأرجوان الحلوة.

كان هناك سرير نهاري منخفض من الخشب مفرودًا مقابل أحد الجدران كما لو كان قطعة من الساتان الناعم. التمعت زخارف البساط الزرقاء والقرمزية والمنسوجة بدقة، بحيث تنطوى وتنتفخ فوق المنصة كما لو كانت من الساتان. تكدست الوسائد المنفوخة والمصنوعة من قماش الكليم الزاهي الألوان في شكل هرم، بينما أحاطت ستائر ذهبية رثة بالسرير النهاري.. في وسط تلك اللوحة جلس «أورهان» متألقًا، وقد ارتدى بدلة بيضاء من الساتان، ولف وشاحًا أحمر عريضًا بشكل مائل حول صدره، وقد أمسك بصولجان فضى، واتكأ على الوسائد كما الملوك. على الرغم من هيبة موقعه بمركز هذا التجمع الكبير للعائلة والأصدقاء والجيران، فقد أخذ الصبي يتململ في انزعاج. تغيرت وتيرة الموسيقى؛ تحركت أصابع العازف على أوتار القانون بسرعة مستحيلة، بينما تسارعت ضربات الرجل الذي يدق على الطبلة براحة يده.. دارت «عائشة» مع الموسيقى مبتسمة، بينما والدها «إبراهيم» يقودها حول حلبة الرقص. أخذت تتحرك ببراعة، رأسها مرفوعة عاليًا، وقدماها تتحركان برشاقة مع الإيقاع، آثار من عدة ساعات قضتها بين ذراعي زوجها منذ زمن. تبعتها عيون كثيرة بينما هي تدور كعصفور حول الغرفة، وفستانها الشيفون يحلق بخفة حول جسدها النحيل، وطياته الناعمة تتطاير حول ساقيها، بينما تراجعت أطرافه لأعلى كاشفة عن كاحلين رقيقين. تدلى حول عنقها عقد مزدوج من اللؤلؤ؛ كل ما تبقى من مجموعة أمها الفخمة من المجوهرات. كلما أخرجته «عائشة» من مكانه بالصندوق المخملي وشعرت بملمس الحبوب اللؤلؤية كريمية اللون كالساتان، كلما تذكرت الماضي وهي

تساعد والدتها في غلق مكبس العقد حول رقبتها بينما هي و«إبراهيم» يستعدان لحفل راقص ضخم.

علا صوت الموسيقى بشكل تدريجي، ثم انتهت..

انحنى «إبراهيم» بشكل رسمي ومد ذراعه إلى ابنته يقودها إلى حيث جلس ابنها. وقف طابور من الناس ينتظرون تحية «أورهان»، ويمطرونه بالهدايا التي يضعها على السرير النهاري بجانبه. وضع رجل عجوز يده على قلبه وأومأ برأسه بحكمة، قال: -فليحمِك الرب أيها الشاب الصغير ولتنمُ بمشيئة الله.

مالت «عائشة» نحو ابنها ووضعت يدها تحت ذقنه.

-انظر إلى رجلي الصغير.. أنت نسخة مصغرة من «تورغوت»؛ جريء ووسيم مثل والدك.

على الجانب الآخر من المنصة، يؤكد «عمر» دوره كرب البيت، وقد أدخل يده في جيب سترته، بينما استقرت الأخرى بكبرياء على حافة السرير النهاري. بينما يتقدم الضيوف أمام ابن أخيه، قام «عمر» بتحيتهم وهو يومئ برأسه بقوة، متقبلًا أمنياتهم الطيبة وحضورهم في هذا التجمع العائلي المهم.. وبين التحيات، قام بمحادثة سرية مع الإمام الذي وقف بجانبه.

-بالطبع لم يقدم أخي غير المسئول أي شيء بالنسبة للختان، لذا فإن الأمر وقع على عاتقي كالعادة.

هز الإمام رأسه متعاطفًا.

-الله يرى الخير بداخلكم.. حتى في هذا الوقت من الفتنة، فربما يكون في هذا ثوابًا لك. ثم نظر إلى «عائشة» وهي تقف بفخر بجانب ابنها، قبل أن يهمس: -لماذا لا تلبس ثياب الحداد؟

-ما زالت تتظاهر بأنه على قيد الحياة. فليرحمه الله.

استمر الإمام في هز رأسه، وقال:

-الصبي يحتاج لأب، خاصة الآن وقد صار رجلًا يحتاج التوجيه ويحتاج لمعرفة الحقيقة.

-لقد أوضحت لها أنني على استعداد لاتخاذها زوجة ثانية لي، وتصبح سيدة هذا المنزل.. وافقتني «فاطمة» على هذا، وبمقدوري تحمل التكلفة..

-سيكون هذا أفضل تصرف.. الصبي من دمك بعد كل شيء..

رفع «عمر» حاجبيه، ناظرًا باتجاه والد «عائشة»، تابع الإمام بصره قائلًا: -لقد تلاشت ثروة «إبراهيم» باشا مثلما تلاشى عقله، وهذا المكان يئن تحت وطأة الدين.. إن شاء الله سوف تقتنع بحجتك قريبًا..

وضع الإمام يده على ساعد «عمر» وأنهى كلماته بقوله: -سوف يهدي الله «عائشة».. إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فوجئ «كونور» بموجة من الترقب والانفعال لدى مرأى منظر الفندق الوردي على التل. منذ أن عرف أن هناك احتمالية لكون «آرثر» قد نجا، وهو يشعر كما لو كان يستطيع المشي على المياه من أوروبا إلى آسيا. لكن هذه الرفرفة العصبية في أمعائه هي شيء آخر، شيء لا يستطيع تفسيره، لا يستطيع أن يتذكر متى شعر لآخر مرة بهذة الإثارة الطفولية. كانت الشمس في طريقها للغروب ملقية بهالة من الضوء الجذاب حول أوتيل «طروادة»، مخفية الطلاء المتقشر وقطع الجص التي بدأت تتفكك. باستثناء بعض المنعطفات الخاطئة التي أخذها، فقد ساعده السكان المحليون الذين أشاروا إليه في الاتجاه الصحيح، وفي النهاية تمكن من العثور على طريقه إلى أعلى التل من خلال متاهة من الممرات والأزقة. لم يفكر حتى في كيفية العثور على الفندق أثناء رحلة عودته الطويلة إلى القسطنطينية؛ فكر أنه ولابد سيصادف «أورهان» وهو ينتظر عند الرصيف، متحينًا الفرصة لاصطياد الوافدين الجدد وقيادتهم للفندق.

لم يدرك أن الصبي قد ضبط توقيت وجوده بالرصيف بالمرة السابقة ليتزامن مع وصول السفن القادمة من الخارج، الذي استدعاه البوق المنتظر الذي يشير إلى وصولهم إلى رصيف الميناء. تمثل سفينة الإمداد العسكرية البريطانية بالمقارنة، فضلات ضئيلة لحاملي الأمتعة الذين سيحاولون تفادي وصولها، لذلك اضطر لإيجاد طريقه بنفسه عبر سوق التوابل إلى الفندق. لكنه تردد الآن، غير متأكد من كيفية استقبالهم له بعد زيارته الأخيرة. لكن هذا المكان هو الوحيد الذي يعرفه في هذه المدينة الأجنبية، تمالك نفسه وتسلق درجات سلم المدخل. وقف «كونور» عند مدخل الصالون، مأخوذًا من جمال وجاذبية «عائشة»؛ كانت تضحك بصوت عالٍ فاجأه، بينما هي تتبادل الحديث مع امرأة شابة من نفس عمرها. كان شعرها مرفوعًا عن وجهها في تصفيفة أنيقة، وقد ثبتته مكانه بمشبك مرصع بالجواهر، مظهرًا عظمتي وجنتيها البارزتين وعينيها الخضراوين اللتين لمعتا مثل الأحجار الكريمة. عندما أدرك «كونور» أنه قد اقتحم حفلًا خاصًا، تراجع خارجًا من الغرفة، ولكن «أورهان» لمحه من مجلسه على عرشه المؤقت. بالكاد تمكن الصبي من تمالك نفسه،

فلوّح بيديه في الهواء في إثارة وأومأ إلى «كونور» من الناحية الأخرى من الغرفة، هاتفًا: - «كونور» بيك! أنا رجل الآن! تعال، انضم إلينا!

وبينما «كونور» يقترب منه، مال «أورهان» نحوه وهمس بانفعال: -هل وجدت أبي؟

-آسف يا بني، لم أعثر عليه.

انتبهت «عائشة» بتلك اللحظة لحضور «كونور»، فاعتذرت لرفيقتها، وسارت عبر الغرفة متجهة نحوه. وأما «عمر»، فقد لاحظ وصول الأسترالي بحذر، وقرأ وجهه مثل كتاب مفتوح: لم يحب الطريقة التي أخذ يحدق «كونور» بها في «عائشة»، وبالتأكيد لم تعجبه الطريقة التي بادلته بها النظر. شعر «كونور» بالخجل من نظرات إعجابه العلنية للمرأة التركية، فحول نظراته عنها وهي تقترب، وقد ارتسم على وجهه تعبير محرج..

-آسف لتطفلي.. هل هو عيد ميلاده؟

ابتسمت «عائشة» مجيبة:

-لا، بل طهوره.

بدت الحيرة على «كونور».. قامت «عائشة» بتحريك أصابع يدها كأنها تقص شيئًا، فقلد «كونور» إيماءاتها، وقد رفع حاجبيه متساءلًا.. أومأت «عائشة» برأسها قائلة: -نعم.

-قصة شعر خاصة؟

هزت «عائشة» رأسها نفيًا، وأشارت من طرف خفي لأسفل. بدا الحرج على «كونور» وقد أدرك مقصدها؛ ختان.

-آه.. بالطبع. أوه، ياللجحيم.. إنه مناسبة خاصة.

ردت «عائشة» في حيرة:

-لا، إنه احتفال.

بدا محرجًا وعلى غير طبيعته. قال بخجل:

-لقد مررت برحلة طويلة، وأحتاج إلى الاغتسال.. هل أطمع بأن يكون لديكم غرفة لي؟

-قد يكون لدينا غرفة.

أومأ برأسه ممتنًا:

-شكرًا لكِ. ليلة سعيدة، «أورهان». تهانيّ على.. إحم...

ظهر «أورهان» فجأة قائلًا بحماس:

-هل تريد أن ترى الندبة المتخلفة عنها؟

-شكرًا يا عزيزي، لكن لا.

جاهدت «عائشة» لإخفاء ابتسامتها أثناء مرافقة «كونور» في البهو لتجلب له مفتاح الغرفة.. سألته: -هل وجدت «شنق قلعة»؟

منذ مغادرة شبه الجزيرة و«كونور» يشعر بنفسه متأرجحًا بين الفرح الشديد، والقنوط التام.. من ناحية لم يكن يريد السماح لنفسه أن يصدق ما يبدو مستحيلًا، من ناحية أخرى لا يستطيع محاربة الرغبة في الخضوع للأمل، عارفًا أنه سيقلب السماء والأرض رأسًا على عقب للعثور على ابنه. كانت الرغبة في مشاركة ما لديه من أخبار مع هذه المرأة غامرة.

-لدي أخبار -ربما أخبار جيدة- لكنني لست متأكدًا بعد مما أصنعه بها...

ظهر «عمر» فجأة بين «كونور» و«عائشة»، وقد بدا الغضب في عينيه، بينما التوى فمه في خط رفيع، مقاطعًا حديثهما. نظر إلى «عائشة» وقال شيئًا بالتركية، ثم التفت لـ«كونور» بابتسامة مصطنعة: -مرحبًا بك مجددًا في «إسطنبول» يا سيد «كونور». أهلًا وسهلًا بك دائمًا.

غمغم «كونور» برد بصوت خافت، ثم استأذن منهما معتذرًا. ارتقى درجات السلم، ثم فتح الباب الموجود في الممر الضيق وخطا داخلًا نفس الغرفة التي أقام فيها من قبل. فتح الستائر وأزاح مزلاج النافذة، ثم مال للخارج ليسمع أصوات المدينة التي ميزها بنوع من الألفة؛ صيحات بائعي الشوارع، وخطوات حوافر الخيول على الحصى، وهتافات النوارس الحزينة التي اعتلت أسقف بعض البيوت.. وضع حقيبته الصغيرة البالية على المكتب وفتحها، والتقط مذكرات «آرت» الثمينة الموضوعة بعناية بين ملابسه المطوية بدقة. نزع حذاءه وقميصه، ثم رقد على السرير، وقد وضع المذكرات على صدره. كان يوم مولد «آرت» حارًا بشكل غير طبيعي، وقد هبت رياح شمالية من الصحراء لتعصف بفروع الأشجار، ومسببة زوابع تتنقل عبر هواء «مالي».

قطع «كونور» يومها شرفة المنزل جيئة وذهابًا، منتظرًا، يسير في عجز بينما هو يسمع صرخات «ليزي». أكثر من مرة اتجه نحو غرفة النوم منتويًا الدخول، راغبًا في المساعدة، راغبًا في إيقاف آلامها. لكنه في كل مرة كان يوقف نفسه، حتى أخيرًا مع انطلاق صرخة قوية تجمد الدم بالعروق، عرف أن ابنه قد وُلد! خرجت أخت «ليزي» «آيفي» من الغرفة حاملة «آرت» الرضيع، الذي كان ملفوفا بإحكام في ملاءة قطنية، وقد انقبض كفاه

الصغيران بقوة لدرجة أن لونهما صار أبيض، بينما انكمش وجهه الضئيل وهو يصرخ بكل قوته. ناولت «كونور» ابنه، وفي تلك اللحظة عرف الخوف، والرهبة، والحب في مزيج قوي غامر لا يمكن تصوره، كان شعورًا عميقا، مستهلِكًا، ومرعبًا بالكامل هذا الشعور لم يذهب أبدًا، وعندما فقد هو و«ليزي» أولادهما، ظن أن قلبه سيتوقف. ولكن الآن هناك أمل.

أغلق عينيه وترك هذا الأمل يهدهده حتى غاب في النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

سطعت أشعة الشمس القوية على وجهي الرجلين، بينما تحركت شفرات الطاحونة بضعف في ضوء النهار الساطع. في مكان ما بالأسفل من حيث يعملون على منصة غير مستقرة تحت الأشرعة الضخمة لطاحونة الهواء، امتدت الأرض الشاسعة قاحلة ومسطحة وبلا علامة مميزة، وجميلة بشكل لا يصدق. كان حجم هذه الأرض –التي اعتلت تربتها الحمراء سماء صافية كأنها قبة– شاسعة، وفي نفس الوقت مجهدة؛ تجعل منتجات البشر تبدو ضعيفة وغير ملموسة بالمقارنة. عمل الرجلان في صمت، وقد انخرطا بالكامل في المهمة التي يقومان بها. دار «آرت» بمفتاح الربط لتأمين التراس الذي يثبت الترس في مكانه، بينما وجه «كونور» أسنان الترس لتكون بمحاذاة الترس الأصغر. تأرجحت الأجزاء المعدنية الثقيلة، وعمود خشبي متهالك على مسافة ضخمة من الأرض. الكثير من الأشياء السيئة يمكن أن تحدث.. نظر «كونور» إلى «آرت»..

-هل يناسبك ذلك؟

ابتسم ابنه مجيبًا:

-نعم، أعتقد أنه يمكنني التعامل معها الآن يا أبي.

مع عودة الترس في مكانه، استأنف قضيب المضخة حركته الدائمة، مدفوعًا صعودًا وهبوطًا بحركة شفرات الطاحونة، أثناء دورانهم مع نسيم الصباح. وضع «كونور» و«آرت» أدواتهما أرضًا وجلسا على حافة المنصة، وقد تدلت سيقانهما جنبًا إلى جنب.. كان «كونور» يرتدي سروال العمل البالي، بينما ارتدى «آرت» بنطاله العسكري الجديد، بينما التفت قطعة من الصوف حول ساقه، من عند كاحله إلى أسفل ركبته. في مكان ما في تلك المسافة اللا نهائية، تنتهي ملكية «كونور» وتبدأ ملكية جاره..

رفع ذراعه مشيرًا نحو الأفق قائلًا: -أفكر بشراء بيت «كلايف»، بما أنه سيرحل.. هكذا سيصبح ملكنا مساحة شاسعة من الأراضي، وهكذا لن تكون هناك أي مشاحنات بين ثلاثتكم من بعدي.

ضحك «آرت»:

-نحن نتشاحن الآن وأنت لا تزال موجودًا.. على الأرجح ستظل أنت حيًا بعدنا جميعًا على أية حال.

جاء صوت من بعيد بالأسفل؛ كان «هنري» متشوقًا للخروج.

-تعالى يا «آرت»! لن يجديك جلوسك عندك نفعًا!

سحب «آرت» نفسًا عميقا والتفت إلى والده.

-أظن أن الوقت قد حان للرحيل.. أعتقد.

ظل «كونور» صامتًا.. نعم.. حان الوقت.

نزل هو وابنه الأكبر على إطار طاحونة الهواء، وقفزا إلى الأرض بالأسفل باستسلام نهائي. صافح «كونور» أيدي أولاده، ثم ربت على أكتافهم بقوة. بدا كل من «إد» و«هنري» متعجلون للتحرك، بينما بدا «آرت» أقلهم تعجلًا للرحيل. تحرك ثلاثتهم نحو الأفق في سرعة شديدة، ولوحوا له لآخر مرة بينما هم في طريقهم للاختفاء. راقبهم «كونور» حتى لم يعد يرى إلا ضباب الغبار المتخلف عنهم.

هناك الكثير من الكلام الذي لم يُقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون

-النجدة! ساعدنا يا سيد «كونور» من فضلك!

وقفت «عائشة» في الردهة، تطرق باب حجرة «كونور».. كانت لا تزال ترتدي ملابس الحفل، لكن شعرها صار أشعث، وقد جحظت عيناها وارتسم فيهما الرعب. وضعت أذنها على الباب علها تسمع أي حركة، لكنها لم تسمع شيئًا، فأخذت تقرع مرة أخرى.

-يا سيد «كونور»! لو سمحت!

ثم سمعت صوت المفتاح يدور من الداخل وانفتح الباب، ليظهر «كونور» في سروال وقميص داخلي، ويجاهد لدفع ذراعيه في أكمام قميصه. بدا مشوشًا و مرتبكًا، كأنه نسي أين هو.

-ظننت أنني كنت أحلم. ماذا حدث؟

-ساعدني أرجوك! والدي!

توسلت له «عائشة»، قبل أن تقوده من يده عبر الممر منخفض الإضاءة إلى الأبواب الفرنسية التي تقود إلى الشرفة. هناك وجدا «إبراهيم» واقفًا يتمايل على حافة السقف القرميدي المائل وهو يرتدي بدلة العشاء، وهو يسب بالتركية أعداء وهميين في الشارع الذي يقع أسفله بطابقين! كان الشيء الوحيد الذي يمنعه من السقوط برأسه على الأحجار المرصوفة هو قبضته الضعيفة على أنبوب صدئ. لوح بقبضته بقوة وهو يصرخ، يترنح و يتأرجح فوق الشارع: -ماذا فعلتم ببلدي أيها البدناء المدللون القذرون ذوو قروح الزهري؟

اتكأت «عائشة» على الدرابزين في يأس، وأخذت تتوسل لـ«إبراهيم» باللغة التركية وهي تمد ذراعيها تجاهه، وقد فشلت مناشدات ابنته في الوصول إلى عقله من خلال ضباب الهذيان المحيط به.. كان مغلقًا عينيه، وقد عاد برأسه للوراء..

التفتت «عائشة» إلى «كونور»:

-إنه قوي للغاية. أتوسل إليه، لكنه منخرط في أوهامه.

هي مسألة وقت فقط قبل أن يفقد والدها توازنه ويسقط. راقبت «كونور» وهو يقوم بتقييم خطورة الموقف، قبل أن يحرك ساقيه فوق حاجز الشرفة، ويخطو بحذر على السطح المكسو بالبلاط الذي غزته الطحالب. أثناء نقله وزنه من قدم للأخرى، انزلق حذاؤه فجأة، ليتسبب على الفور بخلع قطعتين من البلاط اللتين انطلقتا تتزلجان على السقف شديد الانحدار، قبل أن تهويا

بكل سرعتهما إلى الشارع في الأسفل مع صوت تحطم مفزع. أمسكت «عائشة» بذراع «كونور» هاتفة: -كن حذرًا! لا تثر ذعره!

عندما نظر إليها، بدا على «كونور» الضيق قليلًا بسبب عدم اهتمامها الواضح بسلامته هو من الأصل. بدأ شق طريقه بحذر نحو المكان الذي تأرجح فيه «إبراهيم»، على بعد شعرة من الكارثة، بينما الرجل العجوز يواصل الصراخ والشجب: -ماذا فعلت بمدينتنا؟ ماذا فعلت بشعبك؟

-ماذا يقول؟

هتف «كونور» يسأل «عائشة»، بينما هو مستمر في تقدمه نحو الرجل العجوز.

-إنه يبكي على كل ما فقدناه.

استمر والدها في النحيب:

-يا خليفة المؤمنين، يا إمبراطور العثمانيين! تقلدوا سيف آل «عثمان» واستعيدوا ثرواتنا!

عندما وصل «كونور» إلى «إبراهيم»، تناول برفق - ولكن بحزم - ذراع هذا الأخير، وقال له بهدوء: -لم لا نجلس هنا لبعض الوقت؟

دار «إبراهيم» برأسه ونظر بعمق في عينيه، غير فاهم.

راقبت «عائشة» بذعر، بينما «كونور» يتخذ مجلسه بحذر فوق البلاط، ويشير إلى «إبراهيم» للانضمام إليه. ألقى الرجل العجوز نظرة نحو جميع أنحاء المدينة وتنهد. ثنى ركبتيه واسترشد بـ«كونور»،وبالنهاية تتبعه وأراح يديه على السطح، ثم نزل ببطء ليتخذ مجلسه بجانب الأسترالي. بمجرد أن استقر مكانه، تحدث «إبراهيم»: -نعم.. نعم.. جيد.. دعنا نشاهد العرض معًا...

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يفعل فيها «إبراهيم» هذا، فتمتلئ لياليه بالأوهام الجنونية. ملأت أبهة وروعة البلاط العثماني الشوارع في عين عقله، بمسيرات فخمة منتصرة.

-كم هذا رائع...

نظر «إبراهيم» إلى «كونور» وابنته، وقد امتلأت عيناه بالدموع.

-لن نرى مثل هذا مرة أخرى.

بعد تمكنهما من إقناعه بالعودة مرة أخرى إلى الشرفة والمنزل، ساعد «كونور» «عائشة» في مرافقة «إبراهيم» إلى غرفته. وبينما هي تقوم بوضع

والدها في الفراش، انتظر «كونور» في الخارج جالسًا على درجة السلم العلوية. أخبر نفسه أنها قد تحتاج إلى مساعدته مرة أخرى. أثناء استماعه إلى الهمهمات الخافتة المتسللة من خلف الباب الخشبي الثقيل، أخذ يتساءل عن ذلك الانجذاب المتنامي الذي يشعر به داخله تجاه تلك المرأة. عندما تزوج من «ليزي» كان زواجهما ارتباطًا مدى الحياة.

كان متأكدًا من أنه لن يشعر بهذه الطريقة أبدًا تجاه أي امرأة أخرى. لكنه لا يستطيع منع نفسه من الشعور أنه قد تم التخلي عنه، أن «ليزي» اختارت أن تتركه. والآن، تسببت القوة الهادئة، وتصميم هذه المرأة التركية، وعزمها، وحبها العميق وولاؤها لابنها ووالدها، كل هذا تسبب في إزالة التراب عن شيء مدفون منذ زمن طويل في العقل الباطن لـ«كونور». انفتح الباب بهدوء وخرجت «عائشة» إلى الردهة.. نظرت إلى «كونور» معتذرة: - كان لديه عقلًا رائعًا ذات يوم. كان والدي طبيبًا في بلاط السلطان.

ثم صمتت، وقد تاهت وسط ذكريات زمن فات. تبادلا نظرات صامتة مليئة بالمشاعر، وشعر «كونور» بقلبه يتواثب داخل صدره.

-أشكرك على مساعدتك يا سيد «كونور».

-لا داعي للألقاب.. يمكنك أن تدعوني «جوشوا»..

-شكرًا لك إذن يا «جوشوا»..

-ثم استدارت لتغادر.

-انتظري، لدي شيء خاص بكِ.

سار «كونور» عبر الردهة. فتح باب غرفته، وتفقد الغرفة بعينيه سريعًا، ولمح دفتر يوميات «آرت» على شرشف السرير حيث انزلق من فوق صدره عندما أيقظته «عائشة». انفتح دفتر اليوميات على الصفحة التي وضع فيها الصورة التي قدمها له «أورهان» قبل مغادرته إلى «شنق».. حينما عاد، كانت «عائشة» قد جلست على مقعد عند أعلى درجة من السلم، وقد مالت بضجر على الدرابزين الخشبي. ناولها «كونور» الصورة.

-كان «أورهان» قد طلب مني البحث عن زوجك في «جاليبولي».

ابتسمت «عائشة» بحزن، وأخذت تحدق فيها عن كثب.

-لطالما كرهت هذه الصورة.. كان «تورغوت» موسيقيًا موهوبًا، لم يكن يصلح كجندي أبدًا.. ماذا ظنوا أنه سيفعل على الجبهة، هل ظنوه سيعزف لهم حتى الموت؟

-متى تزوجتما؟

-منذ عشر سنوات.. رتبت والدتي أن أتزوج من شخص آخر، لكن والدي عارضها -ثم أخذت تضحك- قال والدي لها: لماذا نريد لابنتنا أن تعيش حياة بائسة مثلنا؟ ووافقته هي على هذا..

ثم أخذت «عائشة» تنظر إلى مبعدة.. استطردت مبتسمة باستسلام: -ليس من السهل الزواج بسبب الحب هنا. ربما كانت أمي على حق.. كان «تورغوت» مجنونًا. أخذت الفواتير غير المدفوعة تتراكم حتى السقف، بينما هو يعزف الموسيقى طول الوقت، ويقيم الحفلات، ويجالس الأصدقاء الكسالى.. أوه، ولكن كم أفتقد تلك الفوضى.

جلس «كونور» على درجة من درجات السلم، وقد مال ظهره القوي على الحائط، وثنى ساقيه وأراح ساقيه على الدرابزين. قال: -أتمنى لو كانت والدتي قد رتبت لي زواجي.

-ألم تحب زوجتك؟

-لقد عشقت «ليزي»، لكنني كنت سيئًا جدًا في المغازلة. أخرق جدًا. استغرق الأمر وقتًا طويلًا للغاية.

تذكر محاولاته المحرجة في جذب انتباه «ليزي»، التي كانت من أجمل فتيات المقاطعة، لم يكن لديها نقص في الخطاب والمعجبين.. لا يمكنه أن يفهم بالكامل لماذا اختارته هو بالذات.

-كل ما كنت أقوله كان يصدمها، وكان لساني يلتصق بسقف فمي فلا يعود بوسعي الحديث. أعتقد أنها تزوجتني فقط بسبب نفاد صبرها.

-لكنها كانت سعيدة؟

-جدًا، حتى فُقِد أولادنا.. في السنة الأولى، كانت تتوجه كل أسبوع إلى المدينة –على بعد عشرين ميلًا- وتنتظر القطار، احتياطيًا في حال ظهروا. الآن بعدما وجدت اثنين من أبنائنا ستكون أكثر سلامًا بقبرها.. من الجيد معرفة أين هم لم يعودوا ضائعين أو مجهولين بعد الآن.

أخيرًا أتيحت لـ«كونور» الفرصة لمشاركة أخباره المثيرة: -كما قيل لي أن ابني الأكبر قد تم أسره...

-إذن هو على قيد الحياة؟

-ليس لديّ فكرة.. لا يبدو أن أي شخص آخر يعتقد ذلك.

-لكن لديك أمل؟

-في المكان الذي أتيت منه، الأمل ضرورة. «مالي» بلد صعب، معظمها مجرد صحراء.

أجابها «كونور» ضاحكًا، قبل أن يستطرد:

-اعتادت زوجتي مناداتي بـ»ثور مالي الخاص بي».. وحش أبله ضخم، مستحيل أن يتحرك. أصدق الأشياء عندما أراها فقط.

نهضت «عائشة»على قدميها معلقة:

-إذن فهي أخبار جيدة.

ثم التفتت لتعود مرة أخرى لغرفة والدها.

-ليلة سعيدة، يا سيد ثور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست عند طرف سرير «إبراهيم»، وهي تحمل الصورة الفوتوغرافية في يدها. نظرت «عائشة» إلى زوجها وابنها وبكت، لتتسلل الدموع متدفقة فوق وجنتيها، قبل أن تتجمع في برك صغيرة داكنة على ثوبها الشيفون. ارتجف جسد والدها واستمر في الهمهمة، وقد استمرت رؤاه في مطاردته حتى أثناء نومه. تعرف أنها لم يعد لديها أي خيار. تمالكت نفسها، وأخذت تمسح عينيها بظهر يدها. وقفت، وتحركت نحو رأس سرير والدها، وانحنت لتقبله بخفة على جبهته. همست له «عائشة» بصوت خافت: -أتفهم لماذا تفضل أن تعيش في الماضي يا أبي.. ولكن لسوء الحظ، فهذا ترف لم أعد أستطيع تحمله. سامحني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والعشرون

تململ «حسن» بفراغ صبر في الكرسي الخشبي الصلب الذي جلس عليه.. تم تزيين غرفة الجلوس في قصر «طوب قابي» على نحو أخرق بطراز روكوكو الأوروبي شديد البهرجة، من وقت سعى فيه السلاطين العثمانيون إلى محاكاة الموضات الفرنسية والإيطالية وقتها. لعدة قرون شعر الحكام الأتراك بأنهم مجبرون على إثبات حسن نيتهم من خلال تفوقهم على نظرائهم من نفس القارة. في السنوات الأولى من الإمبراطورية، مع الثروات التي لا تحصى والتي تدفقت إلى المدينة عبر طريق الحرير وطرق التوابل، كانت فخامة البلاط العثماني بلا مثيل. ولكن بمجرد أن بدأت قوة أوروبا الغربية بالبروز، أصبح مواكبة الجيران نشاطًا باهظ الثمن للغاية.

في الوقت الحاضر، يبدو أن السلاطين يقضون معظم وقتهم في إحباط أمناء الصناديق والوزراء من خلال استنزاف الخزائن العامة. لم يفهم «حسن» أبدًا مدى ارتباط الحكام الأتراك بكونهم أوروبيون، في حين أنهم كانوا في الواقع - وما زالوا - أكثر من ذلك بكثير. في نهاية المطاف، كان غرورهم هو سبب تدمير وسقوط الإمبراطورية.. وها هو اليوم، يرتدي أرقى سترة لديه، وسروالًا مهندمًا، وأحذية لامعة تصل إلى الركبة، وسيف يخشخش كلما لامس ساق الكرسي كلما تململ في مجلسه، بينما استلقت قبعة أسطوانية من الصوف على ركبته. وأما على صدره الأيسر فقد ارتدى ميدالية حرب لقدامى المحاربين في «جاليبولي»؛ هلال فضي فوق نجمة حمراء من المينا. أطلق الألمان الذين حارب معهم عليها لقب الهلال الحديدي، تيمنًا باسم ميدالية الشرف الخاصة بهم، الصليب الحديدي. إن إجبار الأوروبيين على الاعتقاد بأنهم اخترعوا كل شيء يحير «حسن». وفوقها تتدلى ميدالية رائعة بنجمة ذات سبعة رؤوس ومركز مطلي بالمينا مزين بالخط العربي. إنه «وسام العثمانية»، وهو أحد أرفع درجات التكريم في الإمبراطورية العثمانية، لكن أهميته اليوم صارت أقل من الضباط الفرنسيين والبريطانيين ذوي الرتب المتدنية، والذين يدخلون ويخرجون وينظرون إلى «حسن» بعين الريبة، كان السلطان «محمد» الخامس، الرجل الذي كان صدر سترته يتأوه تحت وطأة الميداليات التي حصل عليها، قد منح «حسن» «وسام عثمانية»، فعلق الميدالية على سترته، وقبله على خديه، وتوجه إلى الفراش. بعد أسبوع توفي السلطان، قبل أشهر معدودة من انتهاء الحرب.

تخيل «حسن» أن السلطان «محمد» قد مات بقلب مكسور، غير قادر على تحمل السقوط الوشيك للإمبراطورية. بعد نصف ساعة من الانتظار، أصبح «حسن» صعب المراس. كانت الأمور ستختلف لو كان «جمال» هنا، وهو بالضبط السبب الذي جعل «حسن» يفضل المجيء بمفرده. صحيح أن رقيبه

الأول لديه العديد من الصفات الرائعة، ولكن الدبلوماسية والصبر ليستا من ضمنهم. ابتسم لتخيله منظر «جمال» وهو يزفر غاصبًا ويصيح من أجله كأنه ثور هائج في سوق فخار.. لكن مع تزايد إحباطه، بدأ «حسن» يتمنى لو كان قد أحضره.

صرف الهتاف الذي تسرب من الشارع انتباهه للحظات.. كان مسيحيو القسطنطينية -نصف سكان المدينة من اليونانيين والروس- يهتفون للجنود البريطانيين. تخيل اليونانيون على وجه الخصوص أن هذه هي بداية تحرير المدينة التي كانت ذات يوم عاصمة بيزنطة اليونانية. تبدأ وتنتهي الأحاديث الساخنة في المقاهي يونانية الطراز المتناثرة عبر القسطنطينية بـ: «ماذا يتوقعون؟ لقد أسس هذه المدينة الملك اليوناني «بيزاس»، ومن اسمه تمت تسميتها «بيزنطة».. كانت كلها يونانية..» نزل أبناء وطن «حسن» إلى الشوارع للاحتجاج. كيف يجرؤ البريطانيون على حل برلمانهم؟ كيف يمكن أن يكون السلطان «محمد» السادس متحمسًا للسماح بذلك؟

ماذا حدث للرجل الذي يملك سيف الله؟

كان لدى أسلافه ألقاب تشريفية مثل «الفاتح»، أو «المحارب»، أو» الصاعقة». أما «محمد» هذا فيبدو أن لديه قلب أمين مكتبة أو محاسب، لا يصلح لهذا المنصب! بعد صلاة الجمعة، بعدما حظي أتراك المدينة الذين أصيبوا بخيبة أمل بالوقت لاستيعاب أحداث الأسبوع وتزايدت خيبة أملهم، سمع «حسن» بالصدفة الألقاب التي صاغوها لمحمد: «سحابة الرعد»، أو «الألعوبة»، أو «القلوق».

حتى في الأوقات العصيبة، لم يفقد مواطنوه حس دعابتهم وشعورهم بمدى سخافة الوضع.. كما أنهم لم يفقدوا ولعهم بالمسرح. تمت تدلية شارات سوداء من القماش من مآذن المسجد الأزرق حدادًا على وفاة شباب الوطنيين شنقًا على يد البريطانيين، لمحاولة تهريب أسلحة لخارج المدينة. ربما يشير النسيج المتلوي مع النسيم تسريع موت الديمقراطية في تركيا. تزايد اليأس في حلق «حسن» كالحمض ولم يعد يستطيع الجلوس أكثر من ذلك. دخلت مجموعة من الضباط الفرنسيين الغرفة واحتلوا المقاعد المتبقية. نظروا إليه من أعلى رأسه حتى أخمص القدم بابتسامات متعجرفة، وهم يهمسون لبعضهم البعض من وراء أيديهم المرفوعة، وقد أخذوا يضحكون مثل تلاميذ المدارس. وعندما انفتح باب مجاور وتم إدخالهم، كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر «حسن».

أخذ يصرخ من خلال الباب المفتوح:

-لديّ موعد مع الأميرال. لكم من الوقت سأتحمل هذا التجاهل؟

سمع «حسن» صوت غلق باب بعيد، تبعه قعقعة أحذية تقترب بسرعة على الرخام. ظهر الكابتن «بريندلي» عند الباب أمام «حسن»، وتحدث معه بلهجة رسمية بدون أي لمحة من الإخلاص: -أعتذر أيها الرائد.. حقًا.. لكن الأميرال سيضطر إلى إعادة جدولة اجتماعه معك. أخشى أنه قد طرأ شيء عاجل تسبب في هذا التغيير، ربما الثلاثاء المقبل؟ هل هذا يناسبك؟

-نعم، إذا كان بإمكان الأميرال أيضًا إعادة جدولة اجتماعه مع أولئك اليونانيين!

بصقها «حسن» بسخرية.

-وربما يطلب منهم تمزيق الأناضول بعد أسبوع!

رد «بريندلي» بعجز:

-أيها الرائد، نحن نحاول ببساطة استعادة النظام هنا، وصديقك «مصطفى كمال» ورفاقه من الرعاع القوميين لا يساعدون!

شقت إهانته طريقها داخل روح «حسن» بسلاسة وسرعة. فكر «حسن» أن يذهب على الفور إلى مواطنيه الشباب الذين تتأرجح أجسادهم على جدران القصر، بعد أن شُنِقوا لجرأتهم على تحدي تقسيم وطنهم وتسليم مختلف أجزائه لمن يعرض أعلى سعر. ولكن بدلاً من الغضب، فإنه شعر بموجة مفاجئة من الاشمئزاز من نفسه. أدرك أنه قد تم التلاعب به. تحطم أي أمل كان يحمله في أن تعاونه في «شنق قلعة» سيجعل البريطانيين أكثر استجابة للمصالح والتطلعات التركية.

-إذا لم نساعد أنفسنا، فمن سيفعل؟

كان يسأل نفسه بقدر ما يسأل «بريندلي».

ضم «بريندلي» يديه معًا؛ راحة يد على راحة الأخرى أمام صدره، وقد انحنى رأسه وعيناه مغمضتان متظاهرًا بشعوره بالشفقة.

-اسمحوا لنا بالتعامل مع اليونانيين من خلال القنوات الدبلوماسية أيها الرائد. يمكنك أن تطمئن إلى أنه ليس لدينا نية لإعادة هذه المدينة الرائعة لهم.

-وبقية بلدي؟

هكذا زأر «حسن» وقد شعر بالغضب، فرد عليه:

-اهدأ أيها الرائد، دعونا لا نخوض حربًا أخرى.

كانت نبرته المتظاهرة بالأدب أكثر مما يستطيع «حسن» أن يتحمل، فصرخ: -إنها نفس الحرب اللعينة! لم تنتهِ بعد!

اصطدم مقبض سيف «حسن» بعارضة الباب وهو يخرج ثائرًا من الغرفة. سار متعجلًا عبر الممر الطويل، محاولًا وضع مسافة بينه وبين «بريندلي» بقدر ما يستطيع، قبل أن يفعل شيئًا يندم عليه فيما بعد. على الأقل هو يعرف الآن موقفه، ويعرف ما يجب أن يفعله. بالخارج، كان «كونور» يسير باتجاه مكتب «بريندلي» تحت الشرفة ذات الأعمدة، عندما رأى «حسن» آتيًا تجاهه بقبضة مشدودة بإحكام حول مقبض سيفه. ابتسم «كونور» ومد يده.

-مرحبًا أيها الرائد «حسن». أيمكنك أن تخبرني....

رمقه التركي بنظرة قاتلة.

-لا، لا أستطيع أن أقول لك أي شيء. لقد توقفت عن مساعدة أي شخص..

ثم مر بجواره من غير توقف. راقبه «كونور» بحيرة وهو يبتعد.. ولسببٍ ما فكر في صقر يحلق فوق تيار من المياه، حتى يختفي في شمس الظهيرة المتلألئة. يمكنه أن يقسم أن الرجلين قد غادرا «جاليبولي» وهما على وفاق. لا شيء يبدو واضحًا لـ«كونور» في هذا البلد. عندما استدار، وجد الكابتن «بريندلي» واقفًا أمامه وقد بدا على محياه الغضب، وقد كشر كأنما امتلأ فمه بكمية من الزجاج المكسور.

-آه، سيد «كونور».. مرحبًا بعودتك.. هل جواز سفرك معك؟

التقط «كونور» وثيقة سفره من داخل معطفه وأخرجها، ليتفقدها «بريندلي» بسرعة، قبل أن يضعها في جيب سترته.

-شكرًا لك.

قبل أن يتمكن «كونور» من الاعتراض، سار «بريندلي» مبتعدًا.

-من هنا.. الآن.

كانت نبرة «بريندلي» تنذر بالسوء. كل ما يمكن أن يفعله «كونور» هو أن يتبع خطوات الضابط حتى يتعب أو ينحسر ما به من غضب بما يكفي لشرح ما يجري بحق الجحيم. كان «كونور» موجودًا هنا لمعرفة ما يمكنه بشأن معسكرات الإعتقال التركية التي ذكرها «حسن». هو متأكد من أن البريطانيين يجب أن يكون لديهم خريطة - أسماء الناجين، أو قوائم بالرجال المسجلين في مجموعات الصليب الأحمر لأسرى الحرب، أو شيء من هذا القبيل. لكن كلما زادت المسافة التي سارها «بريندلي» في متاهة المكاتب والمخازن، كلما تزايد قلق «كونور».. تسلقا مجموعة ضيقة من السلالم الحجرية، ووقف«كونور» مؤقتًا فوق أعلى درجة للنظر من خلال شاشة

خشبية إلى فناء صغير بالأسفل. قام الحراس بتحصين بوابة خشبية بصناديق وأسلاك شائكة، ووقفوا وقد أعدوا حرابهم. بدا لـ«كونور» أن هذا مبالغة.

-لا يمكنك أبدا أن تكون حريصًا أكثر من اللازم..

سمع صوت «بريندلي» دون أن يلتفت نحوه. مر القبطان عبر غرفة جلس فيها أربعة ضباط صغار يتحدثون ويدخنون، بينما يدفع رجل خامس مفاتيح آلة كاتبة بإصبعه السبابة، وأخذ يلعن ورقة الكربون العالقة في الأسطوانة. انتبهوا وأدوا التحية، بينما «بريندلي» يمر ويلوح بيده يرد التحية. عندما اقترب «كونور» من «بريندلي»، استدار الضابط يواجهه قائلًا: -لقد أُمرت على وجه التحديد بعدم الذهاب إلى «جاليبولي»!

-حسنًا، أنا لست من ضمن رجال جيشك.

استمر «بريندلي» باقتضاب وهو مستمر بسيره:

-وبالنسبة لهذا الرجل... الرجل الذي هاجمته -نعم، سمعنا كل شيء عنه- إنه بطل حرب تركي. كان هناك بناءً على دعوتنا، لمساعدة حملتنا التي أرسلناها هناك. السبب الوحيد لعدم وجودك في السجن الآن هو أنه رفض تقديم شكوى.. ومما سمعته، كان له كل الحق في تقديم واحدة! لم يكن لدى «كونور» أي نية للاعتذار لـ«بريندلي». كان يشعر أن هذا خلاف شخصي بين الرجلين. لم يكن له علاقة بما تفعله الحكومة أو الجيش. ولم يكن مستعدًا لأن يمنح «بريندلي» الرضا الذي سينتج لو قدم له تفسيرًا ما. كانا يمران بتلك اللحظة بمدخل مزدوج مفتوح، ومن فوق كتف «بريندلي»، لمح «كونور» بالداخل طاولة مغطاة بالمخططات والخرائط الملفوفة. توقف فجأة.

- قال لي إن ابني قد أُسِر. أرني أين هي معسكرات الاعتقال وسأخرج من حياتك بالكامل ولن تتعرض للإزعاج مني ثانية!

وعد «كونور». لم يبدو اقتراحًا غير معقول. قال «بريندلي» بصراحة: -لقد تمت إعادة جميع أسرى الحرب إلى أوطانهم.. إذا لم يعد إلى الديار طيلة هذا الوقت، فالحقيقة المحزنة هي أنه قد مات!

-إذن أنت تخبرني أنه لم يكن هناك أي شخص من العائدين مريض جدًا، أو مصاب بجروح بالغة لدرجة أن....

قاطعه «بريندلي» وهو يخلع قبعته بعنف ويلقيها فوق ساقه بإحباط: -لا ، ليس هناك أي شخص بهذه المواصفات يا سيد «كونور»!

لكن أمكنه أن يرى أن الأسترالي لم يتأثر. أمسك «كونور» من ذراعه، ودفعه نحو الغرفة المجاورة التي تحتوي على الخرائط. وجد «كونور» نفسه يحدق

في خريطة ضخمة مرسومة باليد وتحتل جدارًا كاملاً تقريبًا. استلقت أمامه خريطة الإمبراطورية العثمانية في أوجها. كانت شديدة الضخامة ومفصلة بشكل رائع بخط الذهب، بطريقة تدل على أنها لا يمكن أن تُصنَعَ إلا لوصي عازم على إثارة رهبة كبار الزوار في مجاله. أحاطت الحروف العربية التي تُشبه الأفعى حدود الخريطة، فبدت في عيني «كونور» أنيقة ولا يمكن اختراقها بالكامل. لكن يبدو أن البيروقراطية البريطانية شديدة الحماس قد نالت شيئًا منها، فقد كانت هناك بعض العلامات الصغيرة ترافقها الترجمات الإنجليزية على جانب الخريطة ومع كل اسم كانت هناك صفات المكان.

قرأ «كونور»، «مقر آل عثمان، سلطان السلاطين، وخان الخانات، وحاكم الحكام، وأمير المؤمنين، وخليفة رسول رب الكون، وحامي المدن المقدسة مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس، وإمبراطور القسطنطينية ومدن دمشق والقاهرة وبغداد، وقبرص، ورودس، والبحر الأسود، واليونان، وألبانيا وتونس وجورجيا وتركستان، وغيرها الكثير من البلدان والحصون والقلاع.»

اقترب «بريندلي» من الخريطة وتحدث بدون النظر إلى «كونور»: -كان لدى العثمانيون واحدة من أكبر الإمبراطوريات على الإطلاق –أشار لنقطة في الخريطة- من أبواب فيينا إلى مكة، ومن الدار البيضاء هنا إلى طهران، ولكن في الوقت الحالي ستجد صعوبة في العثور على مكان أكثر خطورة على وجه الأرض يا سيد «كونور». اندفعت عينا «كونور» عبر الحائط.. حتى لعينيه غير المدربتين بدت أكثر بكثير من مجرد خريطة. البحار الزرقاء اللامعة، والأراضي الخضراء المورقة، ورمال الصحراء الذهبية ، كل تلك الأشياء أكدت عظمة الخالق، في حين أن المدن المحصنة بقبابها ومآذنها العظيمة تُظهر سيطرة السلطان على أعظم إبداعات الإنسان.. جمعت الإمبراطورية العثمانية الكنوز الأرضية والسماوية، وصار السلطان هو الحاكم وخليفة الله.

بجانب كل قلعة أو مدينة جالت مجموعة من الخطوط الذهبية التي تشكل أسماءهم العربية، بالإضافة إلى العلامة الصغيرة التي تشير إلى اسمهم باللغة الإنجليزية. لمح «كونور» اسم القسطنطينية، ثم وجد بسرعة بغداد ودمشق وحلب والقدس. اتضح له أن إعادة تسمية المواقع هي الخطوة الأولى للسيطرة عليهم. واصل «بريندلي» درسه في السياسة المحلية بينما عريف من الجيش يصل ويؤدي التحية، قبل أن يناول «بريندلي» مظروفًا بنيًا ضخمًا.. يريد البلاشفة البحر الأسود، بينما يريد الفرنسيون والإيطاليون بحر «إيجة».. انتقل إلى وسط الخريطة، وأشار بسبابته المشذبة بعناية مكملًا: - وهنا في الأناضول حيث كانت معسكرات الاعتقال موجودة بالصدفة، حول اليونانيين المكان إلى حمام دموي تصل فيه الدماء للخصر، مما يجعل «جاليبولي» تبدو

وكأنها مباراة راجبي. أين وسط كل هذا تريد منا أن نبدأ في البحث عن ابنك المفقود؟

أثار ذكر» بريندیلي» لمعسكرات الاعتقال انتباه «كونور»، الذي تقدم للأمام وبدأ يمر بسبابته في شكل دائرة فوق منطقة الأناضول الوسطى، قائلًا: -إذن فأنت تقول أن معسكرات الاعتقال كانت في هذه المنطقة هنا؟ هل سيكون لدى الأتراك سجلات؟ يمكننا أن نسأل.

وهنا فقد «بريندلي» أعصابه وأخذ يصرخ فيه:

-لقد انتهت المعسكرات! انتهت كلها. لقد رحل ابنك، وأنت كذلك سترحل!

ثم دفع المغلف الكبير في يد «كونور» مكملًا:

هذه تذكرتك لباخرة إلى «بريندیزي» يوم الخميس صباحًا، كهدية من الحكومة البريطانية.. احرص على أن تكون على متنها!

وبعد أن قام بالسيطرة على نفسه، أضاف «بريندلي» بلهجة جوفاء: -حظًا سعيدًا.

دعا العريف الذي كان يقف في المدخل:

-أنت! اصطحب السيد «كونور» إلى البوابة، وقم بتعيين حارس للفندق الذي يقيم فيه. تأكد من ألا تفوته الباخرة يوم الخميس!

-أمرك يا سيدي!

-وإذا وضع قدمه خارج منطقة السلطان أحمد اعتقلوه!

تقدم العريف إلى «كونور»، وأمسكه من ذراعه، وبينما هما يمران بجوار «بريندلي»، وضع الضابط كفه على صدر «كونور» ومال نحوه بحيث كادت حواف قبعاتهما تتلامسان. قال «بريندلي»: -فلنفترض مجرد افتراض أن ابنك «آرثر»-بمعجزة ما– لا يزال على قيد الحياة، هل فكرت أن تسأل نفسك لماذا اختار عدم العودة إلى الديار؟

بعد لحظة من الصمت، هز «كونور» كتفيه ليحرر نفسه من قبضة العريف واندفع خارجًا، وشعر «بريندلي» بوخز من الندم للحظة. لم يكن «بريندلي» رجلًا قاسيًا، لكنه يعلم أنه قد أظهر أسوأ جانب فيه بسبب عناد «كونور» وتفاؤله الدائم، وفي الأوقات الصعبة، تكون السمات الشخصية مثل هذه تساهلات مثيرة للسخط. الحقيقة هي أن «كونور» في أسوأ جحيم بالفعل، بإجباره على مغادرة القسطنطينية دون معرفة مصير ابنه «آرت»، وهذه

الحقيقة كانت في الواقع أسوأ بكثير من أي شيء يمكن أن يقوله «بريندیلي» له!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والعشرون

- «لا تنس.. بوقت مبكر من صباح الخميس.»

قالها العريف وهو يصطحب «كونور» نحو البوابة الرئيسية لمكتب الحرب، ثم أضاف محذرًا:

-إنه عنيد.. وهو جاد فيما قاله.

أسقط«كونور» كتفيه، وقد شعر بنفسه مهزومًا متضائلًا. كان يعرف أنه عندما يعتلي متن العبارة، فإن عويل بوقها وهي تغادر الميناء سيشير إلى نهاية أي أمل قد يكون لديه للعثور على ابنه المفقود. كانت فكرة العودة إلى المنزل دون أن يعرف ما حدث لـ«آرت» قد بدأت بالفعل في سلبه كل ما بداخله من قوة. وبينما يتم طرده للشارع، لاحظ «كونور» أن الحشد قد بدأ بالتفرق. كان غضبهم لا يزال واضحًا، بينما مجموعات صغيرة من الرجال تشق طريقها إلى أسفل التل باتجاه سور المدينة، وهم يلوحون بأذرعهم ويتجادلون بعجز فيما بينهم. سحب «كونور» قبعته لأسفل على جبينه، ودفع يديه إلى جيبي معطفه، وثبت نظراته على الطريق الحجري تحت قدميه، بينما هو يتخذ طريقه من «طوب قابي». لا يمكن لرجل ببنية «كونور»، أو ملابسه، أن يمتزج ببساطة وسط الزحام هنا. لم يشعر أبدًا من قبل بكونه أجنبيًا دخيلًا أو عرضة للخطر كما شعر هنا. أخذ «كونور» يلعن نفسه لعدم إحضاره «أورهان» لمساعدته في العثور على طريق عودته إلى «طروادة».

لمح من بعيد قبعة الرائد «حسن» الصوفية المألوفة تشق طريقها من خلال حشد الطرابيش والقبعات المصنوعة من الكروشيه. بدا له هذا التركي هو الشخص الوحيد –من بين جميع أبناء وطنه وحلفائه المفترضين - على استعداد لمساعدته. ربما- بعيدًا عن مكتب الحرب وعيون البريطانيين المتلصصة – يمكنه أن يقنع الرائد بإخباره بالمزيد. هناك شيء واحد مؤكد، وهو أن «كونور» ليس لديه ما يخسره! تحرك «حسن» وسط الحشد بسهولة بينما يخطو الأتراك جانبًا له، وأحيانًا يأخذون يده ويقومون بتقبيلها، أو تبادل التحيات المنغمة التي هي جزء أساسي من الحياة العامة في القسطنطينية:

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

خلال إحدى جولاتهم الطويلة حول المدينة، حاول «أورهان» ترجمة بعض هذه التحيات لـ«كونور»، وحاول شرح بروتوكولات استخدامها؛ على الرجل الذي يركب حصانًا أن يقوم بتحية الرجل الذي يسير على قدميه، لكن على الرجل الذي يسير أن يحيي الرجل الجالس. إذا كانوا فِي مجموعات، تقوم المجموعة

الأصغر بتحية المجموعة الأكبر. لو دخلت منزلًا، يجب أن تلقي التحية أيضًا. هذا مذكور في القرآن.. وعندما تقابل شخصًا قام بحلاقة شعره أو ذقنه، فأنت تعطيه البركة بأن تتمنى أن يبقى تأثيرها لساعات. إذا أعطاك شخص ما طعامًا، فسيتمنى لك وجبة طيبة، فترد عليه بأن يسلم الله يديه.

فجأة بدا لـ«كونور» أن تحيته المعتادة «مرحبًا. كيف حالك؟» و«جيد، وكيف حالك أنت؟» بدت له غير مناسبة تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحرك «حسن» بخفة على مبعدة أسفل الشارع، يمر تحت مظلات المتاجر التي تحد الرصيف. أخذ يلعن وهو يطأ القذارة المجتمعة في المزراب الذي يستخدم لجمع مياه الأمطار، بما في ذلك جسد كلب ميت متعفن، وعبر إلى الجانب الآخر. كان البريطانيون والفرنسيون يخوضون منافسة حول من المسئول عن الخدمات البلدية في القسطنطينية؛ الصرف الصحي ومكافحة الحرائق والشرطة. في أثناء ذلك كانت القمامة تسد الشوارع في أكوام نتنة الرائحة تغزو كل شيء، بينما الحرائق تجتاح أحياء خشبية بأكملها فلا تنتهي حتى تنهش كل شيء بطريقها. نصف السكان يرون المسيحيين كمخلصين. لكن التاريخ يُظهِر أن الإرادة تستمر فقط حتى يبدأ الأطفال في الموت من الكوليرا أو يحترِقون في أسرتهم. مر «حسن» بجدار وقرأ السؤال المكتوب عليه بالتركية: «أين هم؟»، وأسفل السؤال تراصت أسماء مجموعة من السياسيين البارزين وضباط الجيش ومحرري الصحف، كلهم معروفون بولاءاتهم القومية. سمع «حسن» أن الكثيرين منهم قد تم نفيهم إلى مالطا، بينما اختفى البعض الآخر ببساطة. هناك شائعات مستمرة عن جنود البريطانيين، الذين يطرقون الأبواب في منتصف الليل ليأخذوا هؤلاء الرجال بعيدًا. والأسوأ من ذلك، هناك همسات بأن مستشاري السلطان يقومون بتجميع قوائم «المحرضين» – يقومون ببيع مواطنيهم للحفاظ على الوضع الراهن. لن يحلم «حسن» أبدًا بفعل شيء مثل هذا، ولكنه لا يزال يشعر بأنه قبل بتسوية مذلة، التعاون السلمي والمناقشة المعقولة لم تجعل الأتراك أقرب إلى تأمين بلدهم. أخطأ الحلفاء في فهم هذا التعاون كضعف وتعاملوا بقسوة مع التطلعات التركية للأمة.. لذا فقد فات وقت التسوية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انحرف «حسن» بشكل حاد إلى زقاق ضيق، ووصل «كونور» إلى المنعطف في الوقت المناسب لرؤية التركي يختفي أسفل مجموعة من الدرجات التي تنزل لأسفل لتؤدي إلى باب القبو. طرق «حسن» عليه بمفاصل أصابعه وتسلل للداخل. اندفع «كونور» عبر الطريق ووقف على قمة الدرج، يوازن

بين خياراته، وفجأة شعر بذراع عضلية حول رقبته، وأداة حادة تضغط على جانبه. تعرف على صوت «جمال» الخشن يتردد في أذنه مهددًا:

-إذن فقد جاءتني الفرصة لقتلك بعد كل شيء!

-أريد التحدث إلى «حسن» بيك. أعلم أنه هنا.

دون أن ينبس ببنت شفة، دفع «جمال» «كونور» لأسفل السلم، ودفعه نحو الباب الخشبي. قرع ثلاثة مرات بمقبض سكينه، وسمع «كونور» صوت انفتاح القفل. دفع «جمال» «كونور» خلال الباب نصف المفتوح، ليسقط شاب تركي على الجانب الآخر من الباب على مؤخرته. زمجر «جمال» في وجهه باللغة التركية. وجد «كونور» نفسه في قبو صغير بلا نوافذ، ذي سقف حجري مقبب. تناثرت الطاولات والكراسي بالغرفة، حيث جلس الرجال في مجموعات، يقرؤون الجرائد ويشربون القهوة.

تحلق دخان السجائر في هواء الغرفة معدومة التهوية وطفا مثل الضباب فوق الطاولات، وفاجأ ظهور «كونور» الأتراك تمامًا! توقفت الثرثرة العالية فجأة بينما هم يقومون من على مقاعدهم، ويمدون أيديهم سريعًا يلتقطون السكاكين والبنادق. انقلبت الكراسي وتأرجحت ذهابًا وإيابًا على الأرضية الحجرية غير المستوية. تدفق الماء عبر قمم المناضد، وسقط فنجان القهوة ليتكسر على حجارة البلاط، بينما صحنه يتم ركله تحت طاولة قريبة.

رأى «كونور» أن الرجال الذين يحيطون به يرتدون ملابس مدنية، ولكن لديهم ندوب وعيون ميتة لا تكون إلا لجنود. قبل أن يبدأ «كونور» في تخمين هوية هؤلاء الرجال حتى، ركله «جمال» من خلف ركبتيه ليسقط الأسترالي على الأرض. شعر «كونور» بمن يجذب شعره من الخلف بعنف فجأة، ونصل بارد يداعب حلقه. بعد سنوات من إرسال الحيوانات المزرعة ليتم ذبحها، وجد نفسه فجأة عند الطرف الآخر من السكين. كل مخلوق يموت بشكل مختلف؛ تنطلق الأغنام بالثغاء ثم تستلقي في استسلام، بينما يظل الدجاج ينقر ويقاوم ويخدش بمخالبه حتى النهاية، بينما الأرانب، ربما لأنهم وُلدوا بريين وأبرياء، ينظرون إليك بارتباك ومفاجأة حقيقيين.. ظن «كونور» أنه يعرف نفسه، ولكنه كثيرًا ما تساءل، عندما تحين لحظة موته، عما إذا كان سيموت كشاة أم كدجاجة.. تفاجأ عندما أدرك أنه ليس خائفًا! عرف أنه إذا أراد «جمال» قتله لكان قد شعر بالفعل بنار حارقة عبر حلقه، ودفء دمه وهو يسيل من داخل ياقته ويختلط بشعر صدره. من موقعه المنبطح هذا قام بمسح وجوه الرجال العشرين اليائسين الموجودين حوله في القبو. كان هناك الكثير من الحديث عن المتمردين القوميين. افترض أن هذا هو ما يوحد هذه المجموعة من الرجال. لكن «كونور» اندهش؛ «حسن» كان يتعاون مع قوات الاحتلال، ليس

من المنطقي أن يجرب حظه مع المناضلين من أجل الحرية. عندما تغلبوا على صدمتهم الأولية، استرخى الرجال وبدأوا في إنزال أسلحتهم. خرج «حسن» من فيما بينهم، في حيرة من أمره.. أعلن «جمال» باللغة التركية:

-ليس من قبيل المصادفة أنه هنا. لقد تبعك طيلة طريق عودتك من مكتب الحرب!

تحولت حيرة «حسن» إلى غضب، قبل أن يسأل «كونور» بالإنجليزية بخشونة:

-من أرسلك؟

شد «جمال» شعر «كونور» بقوة أكبر هاتفًا:

-لابد وأنه جاسوس.. دعني أقتله!

مع عدم وجود أي شيء يخسره الآن، تحدث «كونور»، وهو يكافح ليتنفس، بينما «جمال» يزيد من ضغطه على رقبته.

-لم يرض أحد أن يخبرني إلى أي معسكر أخذوا «آرثر». أنا فقط بحاجة إلى اسم المعسكر، السجلات... بالتأكيد جيشك لديه سجلات.

حدق «حسن» في الأسترالي الراكع على ركبتيه، متسائلًا عما إذا كان يقول الحقيقة. نظر بعمق في عيني «كونور» الزرقاوين، باحثًا عن أي لمحة من المكر أو الخداع. بادله «كونور» النظرات، دون أن يوجد شيء بنظرته سوى التصميم. بغض النظر عن مدى جنونه وعناده، بطريقة ما كان «حسن» متأكدًا من أن الأسترالي لن يبيعه أو يبيع رجاله. «كونور» غاضب تمامًا من البريطانيين بمقدار غضبه هو نفسه. أشار التركي إلى «جمال» بأنه يجب أن يطلق سراح «كونور»..

-سيتسبب في شنقنا جميعًا!

قالها الرقيب بغضب وهو يُفلِت شعر «كونور» في اشمئزاز ويدفع المزارع للأمام ليسقط على يديه وركبتيه.

-من فضلك ساعدني أيها الرائد «حسن»، لقد وصلت لطريق مسدود..

ناشده «كونور».. رد «حسن»:

-إذن فنحن في نفس الطريق المسدود معًا.. اذهب حالًا!

كافح «كونور» للوقوف على قدميه وتراجع إلى الوراء نحو الباب. فتح الحارس التركي الشاب الباب للحظات حتى انزلق «كونور» خارجًا. في

الداخل، شاهد «جمال» و«حسن» «كونور» يختفي.

-لقد قاتلت بجانبك لأكثر من خمسة عشر عامًا ولكني لا أفهم هذا. ماذا تريد من هذا المزارع؟ مغفرة؟ خلاص؟

تكلم «حسن» بصوت منخفض:

-أنت كنت هناك.. بعض الأشياء لا ينبغي نسيانها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والعشرون

انخفض سرب من الصقور في أعقاب العبارة، بينما تلك الأخيرة تشق طريقها عبر الموجات المتلاطمة والتيار المتصاعد الذي تقاطع مع المياه العميقة الداكنة لمضيق البوسفور. جلست «عائشة» على المقعد الخشبي الطويل تحت شمس الربيع، وأخذت تتسلى برمي قطع صغيرة من خبز «السميط» للطيور التي حامت من حولها، متحينة كل فرصة للاستيلاء على قطع خبز من يدها. بخلفية المشهد تألقت الأبراج على مبعدة، تؤنسها قباب وصخب منطقة السلطان أحمد. إلى الأمام كانت التلال المكسوة بالغابات الجانب الآسيوي من القسطنطينية، المدينة التي انقسمت بين قارتين. فهل من الغريب أن ننسى من يُفترض أن نكونه لبعض الوقت؟

-المدينة انقسمت لشطرين مثل التوائم، فقط مع أبوين مختلفين..

اعتاد «إبراهيم» أن يقول هذا لـ«عائشة» عندما كانت طفلة، قبل أن يبدأ مرضه العقلي بسنوات. لم تكن سوى رحلة قصيرة بالعبارة عبر مضيق البوسفور، ولكن الجانب الآخر ينتمي لعالم بعيد. آخر مرة تتذكر فيها «عائشة» قيامها بزيارة آسيا عندما كان «تورغوت» لا يزال على قيد الحياة. كانت ابنة «عمر» و«فاطمة» المسماة «فاطمة» الصغيرة قد وُلِدت للتو، وقد قاما بعبور المياه حاملين صناديق ملفوفة بعناية، تحتوي على البقلاوة من الخباز اليوناني ولقم الفستق الأخضر الفاتح المغطاة بالسكر الناعم. مرر «تورغوت» الوقت برواية القصص. لم تستطع «عائشة" أن تعرف أبدًا ما إذا كان زوجها يحكي حكاية خيالية لا تستند إلى ما هو أكثر من خصوبة خياله، أم أنه كان يخبرها بقصص حقيقية. كان هذا أحد الأسباب العديدة التي جعلتها تحبه.

- «عائشة» هانم. هل تعرفين لماذا هذا المكان يسمى البوسفور؟

-لا يا أستاذ «تورغوت». لكنني متأكد من أنك ستخبرني.

-حسنًا، بدأ كل شيء في عصر مضى ونُسِي منذ زمن طويل مع الإله اليوناني القديم «زيوس».. كان لديه أشياء كثيرة، بصفته ملك الآلهة، وكان الأقوى بين الجميع. لكنه كان أيضًا زائغ العينين بخصوص السيدات..

لكزته «عائشة» بقوة في ضلوعه وهي تهتف:

- «تورغوت»!

-ماذا؟ لا تلوميني! لا أستطيع تغيير التاريخ، فمن أنا لأجادل الآلهة؟ على أي حال، كان «زيوس» هذا زائغ العينين بخصوص السيدات كما قلنا. وفي يوم

من الأيام، لمح بنظرة خاطفة حورية جميلة اسمها «لو»، والتي كانت تتراقص بسعادة وسط بساتين الزيتون المورقة، الواقعة خارج أسوار مدينة «أرغوس». كانت ذات عيون واسعة مرقطة بالذهب، وبشرة بيضاء نقية كحفنة من الثلوج التي سقطت للتو، وأما الأطراف فكانت طويلة نحيلة. كانت، أجرؤ على القول، تقريبًا بجمالك يا زوجتي. فعل «تورغوت» ما لا يمكن تصوره حينها، ورفع يد «عائشة» على شفتيه وقبلهما بلطف. تذمر ركاب آخرون جالسون في الجوار باستنكار واستداروا بعيدًا عن هذا العرض العلني للمشاعر. احمر وجه «عائشة» خجلًا وشعرت كأنما ماتت ألف مرة في داخلها، لكنها شعرت أيضًا بالابتهاج بسبب افتقار «تورغوت» لضبط النفس. سحبت يدها بلطف ولكن بحزم من قبضته وهتفت: - إذن فأنت تستخدم هذا فقط كعذر لإحراجي؟

أحنى «تورغوت» رأسه ووضع يده على قلبه معتذرًا:

- لكي أعتذر يا سيدتي. هل يمكنني الاستمرار في تلاوة قصتي؟

أومأت برأسها مبتسمة.

- كان «زيوس» مأخوذًا بجمال تلك الحورية الشابة الفاتنة، وصمم على إغوائها. الشيء الوحيد الذي يقف في طريقه كان أمر المزعج إلى حد ما، والمقصود به زوجته الإلهة «هيرا»، التي كانت تغار وتنتقم ولم تكن تنظر بتعاون إلى مداعبات «زيوس».

-وهو شيء مفهوم..

- إلى حد كبير. قرر «زيوس» -هل ذكرت أنه كان زائغ العينين بخصوص السيدات؟- قرر أن الطريقة الوحيدة التي يمكنه من خلالها حماية «لو» من زوجته المنتقمة هي أن يحولها إلى بقرة صغيرة، وقد فعل - بقرة بيضاء جميلة بجلد لامع مثل الساتان، وما زالت عيناها اللطيفتان مرقطتين بالذهب. لكن «هيرا» كانت ذكية فلم تنطلِ عليها حيلة زوجها ونصبت له فخًا. لا أوصي بفعل مثل هذا الشيء بالزوج، لَكن «هيرا» فعلت. طالبت بالبقرة البيضاء الجميلة كهدية، مع العلم أن «زيوس» لا يمكن أن يرفض طلبها وإلا كشف ذنبه، ثم وضعت «هيرا» الماكرة وحشًا شنيعًا بمائة عين بجانبها لرعايتها، لكن «زيوس» لا يمكن تحويله عن خططه. أمر ابنه الماكر والسريع المدعو «هيرميس» بقتل حارس «هيرا»، وهو ما فعله...

-اعذرني، أيها الشاعر العظيم، ولكن ما علاقة أي من هذا بالبوسفور؟

-الصبر يا هانم.. أنا بصدد الوصول إلى العلاقة حالًا. بعدما قتل «هيرميس» حارس «هيرا»، الحارس الذي يرى كل شيء، صارت تلك الإلهة غاضبة.

أرسلت ذبابة لتعذيب «لو» المسكينة. طاردتها الحشرة المزعجة من نهاية البحر المتوسط إلى الأخرى، قبل أن تصل هذه الشواطئ وعبرت من أوروبا إلى آسيا، وبالنهاية وجدت السلام. هذا هو المكان الذي مرت منه من القارة إلى الأخرى. إذن هذا هو «البوسفور»، ومعناه «معبر البقر» باليونانية.

وأشار إلى إحدى النساء اللاتي أخذن تتذمرن بصوت عالٍ عندما رأينه يقبل يدها.. قال: -اليوم نعيد تمثيل هذه اللحظة التاريخية. أترين تلك البقرة العجوز هناك، ذات الوجه الكئيب والوشاح الأسود؟

ابتسمت «عائشة» لتلك الذكرى.

بينما كانت العبارة تطلق بوقها عند الاقتراب من محطة «كاديكوي»، مدت «عائشة» يدها إلى الوشاح الحرير الذي وضعته على كتفيها وربطته تحت ذقنها مثل شال. فكت العقدة ورفعته لتغطي رأسها وتغطي شعرها وجبهتها، وشبكت الأطراف وراء رقبتها ولفتها مرة أخرى على صدرها. تحسست بأناملها حافة القماش الناعم المطرزة، مستشعرة التطريزات المعقدة من الدانتيل التي جاهدت لتطريزها، تحت عين أمها الساهرة، بينما هي تقوم بإعداد جهازها. عندما تم وضع محتويات صندوق مهرها ليتفقده الجيران والأصدقاء وعائلة زوجها، قبل أسبوع من زواجها من «تورغوت»، كانت جودة تطريزها أكثر من مجرد انعكاس لمدى ملاءمتها كزوجة؛ كانت مسألة فخر للأسرة وعلامة على كفاءة والدتها كأم. تم إجبار «عائشة» -المشاكسة نوعًا ما- على فك وإعادة أطوال لا حصر لها من التطريز، لأن والدتها اعتبرته أخرق أو غير متساوٍ. شعرت «عائشة» بأن تلك العملية تستغرق وقتًا طويلاً ومتعبة وبلا فائدة حقيقية؛ كانت تهتم قليلًا بمثل هذا العمل اليدوي، وكانت تعلم أن عدم قدرتها على صنع الدانتيل لن تردع عزم «تورغوت» العنيد على جعلها زوجته. من المؤكد أن حياتهما معًا كانت مليئة بالضحك والفرح والقليل من أعمال التطريز. ومع ذلك عندما تركها ليذهب للحرب، للدفاع عن وطنهم، لم يترك لها شيئًا من هذا.

لقد كافحت خلال السنوات القليلة الماضية، في محاولة للبقاء على قيد الحياة بدونه. على الرغم من أنها تقاوم، إلا أنها كانت تجد صعوبة في بعض الأحيان لتهدئة شعور الاستياء الذي يتصاعد في مؤخرة حلقها حينما تتذكر تبذير «تورغوت» الشديد لثروة أبيها. لو أنه كان أكثر اقتصادًا، أو قام ببعض التفكير في المستقبل، لم تكن لتقع الآن في هذا الوضع الذي لا يطاق. لكنها على الرغم من كل شيء، وجدت صعوبة في أن تبقى غاضبة منه لفترة طويلة. وصلت العبّارة للرصيف، وسرعان ما قفز البحارة من على السطح لتأمين السفينة. وقفت «عائشة» مع زملائها من الركاب وخطت بحذر نازلة

درجات السلم شديد الانحدار للطابق السفلي، حيث انتظرهم الطاقم ليقوموا بوضع الألواح الخشبية لينزل الركاب من فوقها.

على عكس الشوارع على الجانب الأوروبي من المدينة حيث يختلط الناس من مختلف الأعراق والأديان، وهناك قبول أكثر لطريقة أكثر ليبرالية للحياة، كانت جميع النساء اللاتي تنتظرن ركوب العبارة في «كاديكوي» قد قمن بتغطية رؤوسهن - وبعضهن غطين وجوههن بالكامل- بالحجاب، ووقفن بخنوع خلف رجالهن سواء كانوا أزواجًا أو أبناءً أو آباءً أو إخوة. تذكرت «عائشة» -بسبب الوجوه المطيعة للسيدات الصامتات اللاتي أخذن تنظرن إليها- بالغرض من زيارتها للشاطئ الآسيوي وملأها بشعور مقزز بالرهبة.

-ينتظرني الكثير من الإزعاج على هذا الجانب من مضيق البوسفور.

رغم أنها تعرف طريقًا أسرع، لكن «عائشة» قررت أن تتبع طريقًا غير مباشر عبر أسواق «كاديكوي»، في محاولة يائسة لدرء ما لا مفر منه. على الرغم من أنها في أواخر الربيع، سيسعدها أن تجد مقهى صغيرًا لا يزال يبيع السحلب. تجاهلت النظرات الجانبية الرافضة التي اجتذبتها من الناس الذين يمرون على طول الشارع الصاخب، وجلست بمفردها على منضدة صغيرة في الهواء الطلق وأخذت ترشف مشروبًا ساخنًا كريميًّا برائحة القرفة، والتي تناثرت على قمته. في الزاوية المقابلة وقف بائع سمك، ازدحمت صوانيه ورفوفه بالمخلوقات البحرية؛ استلقى أخطبوط وردي لامع مفرود عبر لوح عمودي، وقد امتدت مخالبه وثُبِتَت لعرض حجمه؛ صينية مكدسة بكمية ضخمة من الحبار الصغير لونه كاللؤلؤ؛ سلال من القش تمتلئ بالسمك الزلق المتلألئ. لكن هناك شيء ما وضعه الصياد للتو، وكان مختبئًا من نظرات «عائشة» بسبب جحافل النساء اللاتي أخذن تدفعن بعضهن البعض بعيدًا من أجل الوصول إليه. تغلب عليها فضولها، وبمجرد أن أنهت «عائشة» آخر رشفة لها من مشروبها، قامت بعبور الشارع لمعرفة سبب الشغب والزحام هذا. سألت إحدى النساء المحجبات الواقفات في الخارج عند حافة الزحام.

-سردين! الرجل يبيع سردين!

لم تصدق «عائشة» حظها. اقترب موسم السردين من نهايته، واختفت الأنشوجة الممتلئة من الأسواق تمامًا – فهم في أواخر الربيع، وصارت العثور عليها على الإطلاق بمثابة معجزة. لكن تلك الأسماك الزيتية الصغيرة هي المفضلة لدى والدها «إبراهيم». شقت طريقها إلى مقدمة الزحام وتمكنت من وضع يديها على رطلين من السمكة الفضية الدهنية. الليلة سيتناولون عشاءً من طبق سردين مع الأرز البخاري ستبطن الطبق بالسمك المخلي من الشوك، وتملؤه بالأرز المتبل اللذيذ، ثم تضعهم بالفرن حتى تفوح الرائحة

ويصير لونهم بنيًّا ذهبيًّا. أملت أن يساعد ذلك والدها على التخلص من الاكتئاب العميق الذي استهلكه منذ ذلك الحادث على سطح الفندق. أخذت الطرد المغلف بالورق، وواصلت التسوق، مرت ببعض المحلات التجارية المكدسة بالطرشي المعبأ في برطمانات زجاجية ضخمة تصل حتى السقف، بعضها به الخيار المخلل، والبعض الآخر القرنبيط، أو البنجر أو الجزر أو الملفوف والفلفل، متلألئين مثل الأحجار الكريمة، سابحين في محلول ملحي ملون.. وأكشاك تبيع أصناف لا حصر لها من الزيتون والجبن المعروض في أكياس من الخيش.

توقفت عند متجر امتلأت نافذته بمجموعة أخاذة من الحلويات والكعك، معظمها غير مألوفة لـ«عائشة». خطت من خلال الباب الأمامي لتسكرها باقة من الروائح؛ ماء الورد، وزهر البرتقال، وبندق محمص، وفستق مطحون، وعسل، وشربات، ولوز محمص. اشترت مجموعة مختارة من البقلاوة، وطلبت من صاحب المتجر أن يحزمها في صندوق هدايا. عند عودتها إلى الشارع، عرفت أنها لا تستطيع تجنب الغرض الحقيقي من زيارتها. أخذت «عائشة» منعطفًا في أحد الأزقة الصغيرة العديدة التي تتفرع من الشارع الرئيسي. كان يومًا ربيعيًّا معتدلًا، وقد أخذت الشمس تُدفئ ظهرها وهي تتقدم على المنحدر الصغير نحو المنطقة السكنية بالمقاطعة. في ظل ظروف أخرى، كان يومًا منعشًا مثل اليوم من شأنه أن يرفع معنوياتها، لكن الشيء الذي عرفت أنها يجب أن تواجهه عند قمة التل لم يزد مزاجها إلا سوءًا.

ها هي قد وصلت.. لم تكن قد نست الطريق، ولا أدى ترددها -للأسف- إلى تدمير إحساسها بالاتجاه. في النهاية وصلت إلى المنزل الخشبي المكون من طابقين..كان بيتًا خشبيًا في حالة جيدة، بنوافذ بارزة فوق الرصيف تطل على الخليج، وقد التمعت زجاج النوافذ كلها، صف من العديد من الصفوف الطويلة من الشرفات التي اصطفت عبر الشارع الواسع. بدا الطلاء الأزرق الفيروزي جديدًا، مع إطارات نوافذ مطلية باللون الأبيض بدقة.

انحنى جار يكنس الرصيف وقد تقوس ظهره فوق مكنسة مصنوعة من القش بدون مقبض، توقف الرجل مؤقتًا عما كان يفعله للتحديق فيها بقلق وهي تقترب من باب المنزل الأزرق الأنيق. ترددت «عائشة» أوروبية الميول. عرفت أنها بمجرد أن تدخل، فإنها ستكون قد ألزمت نفسها وعائلتها بمسار أحداث لا رجوع فيه.

شعرت بنفسها وهي تفكر في الأمر كأنها تهوي داخل بئر من اليأس الذي لا قاع له، ولا مفر منه. لكنها قد تجاوزت النقطة التي كان لديها فيها أي خيار..

أخذت تحارب رغبتها في الفرار، وصعدت الدرج وقرعت على الباب! سمعت صوت خطوات خفيفة على طول الرواق، ثم انفتح الباب.

- «عائشة» هانم ، أهلًا وسهلًا بكِ.

بدت «فاطمة» تمثالًا نموذجيًا للجمال، بعينين زرقاوين لوزيتي الشكل، فوق عظام وجنة عالية وشفاه ممتلئة ومحددة جيدًا. رغم محاولاتها للاحتشام، فشل الفستان الواسع الذي ترتديه عمدًا في إخفاء منحنيات جسدها الأنثوية. مالت «عائشة» لتقبيل نسيبتها على كل خد ترد تحيتها: -أهلًا بكِ يا «فاطمة» هانم.

ومثل «عائشة»، قامت «فاطمة» بتغطية شعرها بوشاح، وظل الوجه مكشوفًا. مدت يدها، تدعو «عائشة» لدخول المنزل. تخطت «عائشة» العتبة وخلعت حذاءها؛ هي ملتزمة الآن باستكمال الموقف للنهاية. قدمت لفافة البقلاوة لـ«فاطمة» التي قدمت كلمات الشكر الواجبة، ثم وضعتها على منضدة بالردهة. لطالما كانت علاقة المرأتين مهذبة ومتحضرة، رغم كونها متوترة إلى حد ما. على الرغم من أنهما من نفس العمر، كانت المرأتان شديدتا الاختلاف. شاركت «فاطمة» «عمر» عدم الموافقة على أسلوب حياة «تورغوت» و«عائشة»، وأدانتهما باعتبارهما فاسقين وغير مسئولين، ولأن لديها ابنتان لتقلق بشأن تجميع مهريهما، فقد استاءت من المال الذي تدفق من خزائن عائلتها لدعم زوجة وابن شقيق زوجها الميت وأحوالهما المتدهورة.

بالنسبة لها، بدت غطرسة «عائشة» مذهلة!

تفكيرها بأنه يمكن لمرأة أرملة إدارة مشروع تجاري وإيواء عاهرة تحت سقفها والاختلاط بالرجال الأجانب، والأسوأ أن هذا يحدث على الساحل الأوروبي، كان هذا فوق قدرتها على التصديق. ومن جانبها، لم تكن «عائشة» تكن احترامًا كبيرًا لزوجة أخو زوجها كذلك، مستهجنة ما تراه من تذلل «فاطمة» وطاعتها وانقيادها وتقواها المتعجرفة العتيقة والمزعجة. لكن اليوم، تصاعد التوتر السائد بين المرأتين. قامت «فاطمة» بتحية «عائشة» ببرود، ثم إنها أشارت إلى درجات السلم الصاعدة لأعلى بإيماءة أنيقة من يدها: -تفضلي.

وعند الوصول لأعلى السلم، أشارت إلى باب مغلق وهي تقول: -هذه هي غرفة النوم الأولى.

وبعد بضع خطوات عبر الممر الضيق، فتحت «فاطمة» باب غرفة ثانية مردفة: -اعتقدنا أن هذه الغرفة ستكون مناسبة لـ«أورهان» الصغير.

أمام أحد الجدران انتصب سرير صغير مرتب بعناية ومغطى بلحاف ساتان مطرز. أما على ألواح الأرضية فقد رقدت سجادة صلاة صغيرة حمراء اللون؛ الزينة الوحيدة الموجودة في الغرفة كانت نصان إسلاميان مؤطران معلقان على الجدار فوق السرير. تدفق ضوء الشمس إلى الغرفة الفسيحة من خلال ستائر الدانتيل المفتوحة. تحركت «عائشة» صوب النافذة وأطلت على الشارع أدناه. على مبعدة، فوق أسطح المنازل المجاورة، أمكنها رؤية مضيق البوسفور، وأما وراء ذلك، فقد ظهر برج «جالاتا» المدبب في «بيوغلو» والمساحات الخضراء المورقة لحدائق وشرفات قصر «طوب قابي» في «نقطة سيراجليو».. شعرت بآلام مريرة من الحنين إلى الماضي عند رؤية الشاطئ المقابل. استدارت «عائشة» إلى «فاطمة»، التي وقفت عند المدخل ويداها مشدودتين بإحكام، حتى ابيضت مفاصل الأصابع. ابتسمت «عائشة» لها معلقة: -إنها غرفة رائعة يا «فاطمة»، لكن ماذا عن البنتين الحبيبتين؟ أين ستنامان الآن؟

ابتسمت «فاطمة» برفق وهي ترد:

-سوف تتشاركن غرفة في الوقت الحالي، لكنهما ستتزوجان قريبًا.

ثم إنها عادت إلى الردهة، وفتحت بابًا ثالثًا وهي تقول: -ويمكن لوالدك النوم هنا.

مثل الغرفة الأولى، كانت نظيفة وتحتوي على سرير مفرد ضيق. لكنها صغيرة، ولا تكاد توجد فيها مساحة كافية للدوران حول السرير، ومتقشفة أكثر بكثير مقارنة بغرفة النوم الفاخرة المكسوة بالسجاد التي يقيم فيها «إبراهيم» حاليًا. النافذة الوحيدة تنفتح على سلم خارجي ضيق مغلق ويسمح فقط بدخول شعاع من الضوء الرمادي الفاتح. لم تستطع «عائشة» إخفاء خيبة أملها. تخيُل منظر والدها في هذه الغرفة المظلمة التي تفتقر للأناقة والحيوية تسبب في تضخيم ما بداخلها من قلق. شعرت «فاطمة» بمخاوفها، فحاولت طمأنتها: -ستكون حياة مختلفة لـ«إبراهيم» بيك. لكن الفتاتين سوف تعتنيان به جيدًا.

-ربما يمكنه أن يأخذ غرفة «أورهان»؟

هزت «فاطمة» رأسها بقوة مجيبة:

-كان «عمر» يدعو دائمًا أن يكون له ولد يملأ تلك الغرفة.

ثم مشت إلى نهاية الرواق وفتحت بابًا آخر قائلة:

-هنا، ستكونين بجوار والدك.

دلفت «عائشة» للغرفة المخصصة لها. مثل غرفة والدها، كانت مظلمة وصغيرة، وقد احتل معظم مساحتها سرير مزدوج. دارت حول السرير حتى وصلت للجانب الآخر، ثم استدارت لمواجهة «فاطمة»، التي وقفت متوترة وقد تشابك ذراعاها وزمت شفتيها بقوة. تحركت في عدم ارتياح وهي تقول: -ستكون هذه غرفتك.. سينضم إليكِ «عمر» كل ثلاثة ليالي.

للحظة، وضعت «عائشة» مخاوفها جانبًا. لو كان هذا السيناريو يمثل ثورة لا يمكن تصورها لـ«عائشة» وعائلتها، فلابد أن الأمر مؤلم بشكل مضاعف لـ«فاطمة»!

بفضل إحساس «عمر» بالالتزام الأسري، عالمها على وشك أن ينقلب رأسًا على عقب. مكانة ابنتيها في الأسرة على وشك أن يغتصبها ابن امرأة أخرى، وسوف تضطر إلى مشاركة زوجها بأكثر الطرق حميمية مع امرأة لا تحبها ولا تحترمها حتى!

تحدثت «عائشة» إلى «فاطمة» برقة:

-وأنتِ مرتاحة لهذا الترتيب؟

استدارت «فاطمة» وغادرت الغرفة متجنبة السؤال. كل ما قالته كان: -«عمر» رجل طيب وزوج جيد.

تبعت «عائشة» «فاطمة» دون أن تتكلم، ونزلتا درجات السلم إلى الصالون.

جلس «عمر» على كرسي بذراعين مرتفع الظهر في الغرفة الأمامية التي ملأها ضوء الشمس، والصحيفة أمامه. دخلت واحدة من ابنتيه من مؤخرة المنزل بقهوة في فنجان صغير متوازن على صينية فضية، وقدمتها له. تقبلها منها بشكر وابتسامة متحفظة، ثم ارتشف المشروب الساخن وأعطى إيماءة بالموافقة. أما عند النافذة، انحنت ابنة «فاطمة» و«عمر» الأخرى فوق قطعة رقيقة من الكتان، تقوم -بشق الأنفس- بحياكة الزخارف من تصاميم على مفرش طاولة مخصص لجهازها. انتقلت «فاطمة» لتفحص عملها اليدوي، وهمست ببعض كلمات التشجيع. شعرت «عائشة» بأنها متطفلة غير مرحب بها بينما هي واقفة في المدخل. عندما رآها «عمر»رفع حاجبيه ولوح بيده يدعوها للدخول. دعت «فاطمة» الفتاتين بهدوء للخروج من الغرفة حتى يمكن لـ«عمر» و«عائشة» مناقشة الأمور على انفراد. طوى جريدته ووضعها على منضدة خشبية صغيرة مطعمة بجانب كرسيه، ثم وقف «عمر» وواجه أرملة أخيه. سألها: -هل رأيتِ الترتيبات الجديدة؟ وكل شيء مُرضٍ لكِ؟

-إنه منزل جيد.

لم تجد «عائشة» شيئًا آخر يمكن أن تقوله.

-حسنًا، إذن فكل شيء متفق عليه، بعدما تنتهي من فترة الحداد التقليدية، وارتداء الملابس السوداء، يمكننا بعد ذلك أن نتزوج. سآتي بعد الصلاة هذا المساء وسنخبر «أورهان» سويًا.

شعرت «عائشة» ببطنها تنقبض من القلق وتزايدت وتيرة دقات قلبها. هتفت:
-لا، اسمح لي بيوم آخر وسأقول له بطريقتي الخاصة، من فضلك.

ولأنه تعود جيدًا على محاولات «عائشة» لتجنب ما لا مفر منه، لم يتفاجأ «عمر»، لكنه لم يكن مسرورًا كذلك بالتأخير. ولكن بروح من الوفاق السلمي، وافق على منحها ذلك الامتياز: -كما تحبين.

غادرت الغرفة وقامت بتوديع «فاطمة» وابنتيها، كانت «فاطمة» لا تزال لطيفة بتحفظ، لكن الفتاتين أظهرتا لها الاحترام والمودة المناسبين. خرجت من المنزل ونزلت الشارع باتجاه العبارة التي ستعيدها إلى منزلها، وقد حفرت أظافرها الكثير من الخدوش في راحة يدها بينما هي تقاوم الرغبة في الركض، وتحارب الدموع التي تشعر أنها تتجمع في عينيها.

يوم آخر.. هذا كل ما تبقى لنا.. يوم آخر!

عادت «عائشة» إلى الجانب الأوروبي من المدينة، ممزقة بين رأيين؛ معرفة ما يجب عليها فعله، واليأس المدمر الذي يثقل قلبها كأنه رصاص يثقل كاهل ستارة من القماش. احتفظت بأفكارها لنفسها واستمرت بالتحرك عند وصولها إلى المنزل، لكنها كانت شديدة التوتر ومنزعجة. أخذت تلعن نفسها في صمت، بينما هي تتعثر وهي تقطع سمك السردين الفضي الصغير الذي أحضرته إلى المنزل من أسواق «كاديكوي» لشرائح رفيعة. مزقت اللحم الرقيق وأفسدت الطبق الذي صنعته بالماضي مرات أكثر مما تستطيع أن تحصى والمفترض أنها خبيرة فيه، حتى الفرح الذي التمع في عيني والدها عندما لمح القبة المتلألئة من السمك والأرز المتبل لم يفعل سوى القليل لتحسين مزاجها. انفجرت في «أورهان» وعاقبته على بعض الأخطاء التافهة، ولمحت نظرة الصدمة التي ارتسمت على وجهه، وفمه المذهول، ولم تتفاجأ عندما أتي إلى غرفتها لاحقًا بذلك المساء، بعد أن ذهب إلى الفراش بوقت، وقد بدا شعره الأسود مشعثًا وتفوح منه رائحة العرق، بينما اتسعت عيناه، وشحب وجه من هجوم كوابيس الليل ووحوشه. رفعت الغطاء فزحف تحته، واحتضن جانب والدته، وقد ارتاح رأسه الثقيل على حضنها ولف كتفه داخل ذراعها النحيلة، أخذ عقلها يتجول في منزلهم المستقبلي، ووجدت صعوبة في تخيلهم وهما يرقدان معًا هكذا داخل غرفتها الجديدة. ظلت راقدة هناك في الظلام على ظهرها لبعض الوقت، شاعرة بأنفاس «أورهان» الخافتة تداعب وجهها.

لكنها كانت قلقة للغاية لدرجة منعت عنها النوم. بعد أن تأكدت أن ابنها قد غاب في سبات عميق، رفعت «عائشة» برفق بساقيها فوق حافة السرير وخطت على ألواح الأرضية الباردة. تدفق ضوء القمر إلى الغرفة، وسقط على صورة ذات إطار، تمثلها وهي واقفة جوار «تورغوت»، وقد بدا كئيبًا وجادًا في يوم زفافهما. بجانبها صورة تفضلها كثيرًا؛ «توغورت» وهو يعزف الموسيقى وقد اتسعت عيناه، ويجلس على كرسي خشبي وقد ارتاح عوده على إحدى ركبتيه، وعلى ركبته الأخرى جلست «عائشة» وهي أصغر سنًا، في منتصف العشرينيات من عمرها، وبدت خالية من الهموم، وقد أراحت يدها على كتفه. وقفت وسارت إلى الخزانة، وأخذت لفافة من الدرج السفلي وفتحتها بحرص. طقطق الورق البني الخشن كالنار في الهشيم. تناولت المحتويات بحذر شديد في يديها قبل أن تلتفت لتواجه المرآة الضخمة في زاوية الحجرة.

انفرد ثوب الحداد الأسود الطويل مثل الكفن بينما «عائشة» تحمله أمام جسدها.

نظرت إلى انعكاسها الظاهر في ضوء القمر، وأخذت تبكي بصمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والعشرون

-أمسك هذا هناك.. أمسكه بإحكام، لا تدعه يتحرك من مكانه، وإلا قد تنزلق المطرقة فتدق إصبعك بالخطأ!

انعقد حاجبا «أورهان»، وقد ضغط بلسانه على شفته العليا، بينما هو يركز ويحاول اتباع تعليمات «كونور»: -حسنًا.. هذا جيد. الآن حافظ على ثباتك، وسأدق المسمار الآن.

رفع «كونور» المطرقة وهوى بها بحركة قوية وفعالة، دفعت المسمار داخل اللوح الخشبي الذي أمسكه «أورهان» بهيكل حظيرة الدجاج. منذ وصوله إلى فندق «طروادة»، أزعجت الدواجن التي تهيم بحرية غريزة المزارع داخل «كونور» في تنظيم الأشياء، وبما أنه وجد أنه متفرغ لبعض الوقت، فقد جند «أورهان» لمساعدته في بناء مسكن خشبي صغير لسكان الفندق ذوي الريش. بالإضافة إلى أنها كانت ذريعة لفعل شيء مفيد. في أعلى دكة خشبية عريضة في المطبخ الذي يطل على الفناء، أخذت «عائشة» شاردة الذهن تدفع أكوامًا صغيرة من لفائف الأرز المتبل بالكمون والكزبرة ووضعتها بشكل مرتب وبحزم داخل أوراق العنب، ثم قامت بتعبئتها بإحكام بداخل مقلاة مبطنة بشرائح الطماطم الطازجة. أخذت يداها تتحركان غريزيًا، بينما انتباهها في مكان آخر. نظرت نحو ابنها والرجل الأسترالي عريض الكتفين وهما يعملان بهدوء في الفناء. كان «كونور» قد شمر كميه حتى المرفقين، ولا يسعها إلا أن تلاحظ عضلات ساعديه وهي تنثني بينما هو يرفع المطرقة. التمعت الشعيرات الذهبية فوق بشرته التي لوحتها الشمس، بينما التمعت جبهته من العرق. تفاجأت «عائشة» من تغير مشاعرها تجاه «كونور»، فلانت بطريقة لم تكن لتتوقعها أبدًا.

لفترة طويلة، كانت أستراليا ورجالها يلوحون في الأفق مثل شبح في مخيلتها، هدف أخرس لحزنها وفقدانها وغضبها المرير. لم يكن لديها من تلقي اللوم عليه غيرهم. عندما انتهت حملة «شنق قلعة»، لم يعد «تورغوت».. لم يكتب لها.. لم يطرق بابهم رسول يرتدي الزي الرسمي ليبلغهم بتعازي الجيش العثماني، أو قائمة أو صحيفة بها اسمه مطبوع في قائمة جرد القتلى والجرحى.. مجرد صمت. لفترة من الوقت، حافظت «عائشة» على إيمانها بأنه سيعود، وعانت من هجوم موجات من التفاؤل الأعمى، ثم الإحباط، وأخيرًا اليأس. حتى جاء اليوم الذي اعترفت فيه لنفسها أنه رحل ولن يعود. في ذلك اليوم، وجهت غضبها العاجز نحو أولئك الرجال الذين سافروا عبر نصف الكرة الأرضية لغزو ديارها. حمّلت الأستراليين - الأنزاك الملاعين - وزر حسرة قلبها. وكان تحويلًا فعالًا لها. حتى جاء هذا الرجل متثاقلًا عبر بابها،

وحطم كل الأشياء التي اعتقدت «عائشة» أنها تعرفها، ونزع حقدها بشخصيته الهادئة وافتقاره إلى المكر، أي بقية باقية داخلها من العداء اختفت عندما رأت رابطة وثيقة تتشكل بين ابنها وذلك الأسترالي.

بقدر ما هي متحررة، فإن عالم الرجال بدا غامضًا لـ«عائشة» للغاية، لكن بمشاهدة «أورهان» مع «كونور» أمكنها أن ترى أن هناك الكثير من القواعد التي تحكمه، قواعد تتجاوز اللغة والعمر والجغرافيا.. لقد مرت سنوات عديدة منذ أن كان لـ«أورهان» رجلًا ذا شخصية قوية في حياته، ويكون أيضًا معجبًا به. ابنها يعشق جده، ولكن موضوع تفكك عقل «إبراهيم» جعل «أورهان» يداعبه كما لو كان أخًا صغيرًا له. حتى عندما كان «تورغوت» لا يزال معهم، كان مشتتًا جدًا بموسيقاه والحياة الاجتماعية خارج منزل العائلة، بحيث لم يتفاعل «أورهان» أبدًا مع والده بهذه الطريقة، صحيح أنهما استمتعا معًا، وحظيا ببعض المرح سويًا، لكن «أورهان» كان لا يزال صغيرًا وقتها. وهي تراقب ابنها مع «كونور»، صُدمت من إدراك مروع خطر لها. ابنها يكره عمه، وحتى لو عاش «أورهان» تحت نفس السقف الذي يعيش فيه «عمر»، فلن يشعر به أبدًا بنفس الدفء تجاهه، ولو أنها تحدثت بصدق مع نفسها، فهي لا تريد أن يخنق «عمر» روح ابنها بصرامته. أعادتها هذه الفكرة إلى الحاضر، وطاف ببالها التفكير فيما وعدت بفعله اليوم. كانت قد استسلمت لمصيرها بالأمس. لكن عندما استيقظت هذا الصباح ورأت فستان حدادها الأسود معلقًا في خزانة الملابس مثل طائر ميت، وجدت أنها لا زالت لا تستطيع حمل نفسها على ارتدائه. عملت «ناتاليا» بجانب «عائشة» مما أضاف إلى كومة ورق العنب المحشو التي أخذت في التزايد. قاطعت أفكار «عائشة»، وهي تهمس لها بالفرنسية: -إنه وسيم ، ألا تعتقدين ذلك؟

-لا أفكر في الرجال الآخرين.. أنا متزوجة.

هكذا أجابتها «عائشة»، وقد احمرت وجنتاها؛ كانت محرجة من أن المرأة الروسية أمسكتها وهي تحدق في «كونور». قالت الروسية بخبث: -لا، بالطبع... لقد مرت أربع سنوات بالنسبة لكِ، أليس كذلك؟ لابد أن خيوط عنكبوت قد نمت هناك.

رفعت «عائشة» يدها وضحكت محرجة:

- «ناتاليا»... من فضلك!

-لا تتظاهري بأنكِ لا تفتقدين تلك الأشياء...

-أفتقدها مع زوجي.. هذا يختلف.

-وهل تظنين أن زوجك سيرغب في أن تذبلي وتبكي وتعيشي في بؤس؟ هل هذا هو ما كان عليه؟

أخذت المرأتان تشاهدان «كونور» وهو يوجه «أورهان» بلطف ويرفع قطع الأخشاب ليضعها في مكانها، وقد التمع صدره القوي أسفل قميصه.

-كل معداته هناك يا «عائشة» هانم.. في حاجة إلى الممارسة فقط.

ردت «عائشة» قائلة:

- كفى يا «ناتاليا». هذا كثير. اذهبي وتناولي إفطارك.

-لا بد أنه مختون أيضًا.

وضعت «عائشة» كلتا يديها على أذنيها متظاهرة بالرعب. بإلقاء نظرة خاطفة على الفناء، رأت أن «كونور» و«أورهان» قد أنهيا عملهما، واستدارا عائدين إلى الوراء نحو الفندق، وتوقفا عند الحوض الصغير لغسل نشارة الخشب عن أيديهما.. هتفت «عائشة» برفيقتها: -صمتًا أيتها المرأة المخزية.. إنهما قادمان.

دفعت «عائشة» «ناتاليا» خارج المطبخ، تلكأت المرأة الروسية قليلًا وهي خارجة. دفع «أورهان» الباب وهو يهتف بالتركية: -أمي، «كونور» بيك قادم معنا إلى خزان الماء... يريد رؤيته!

نظرت «عائشة» إلى وجه «أورهان» الذي طفح بالترقب. هزت رأسها وتحدثت إليه باللغة التركية: -لا.. أنا وأنت فقط اليوم يا عزيزي..

تحولت «عائشة» إلى «كونور» وتحدثت بالإنجليزية:

-أنا آسفة يا سيد «كونور». هذا غير ممكن.

أومأ «كونور» برأسه متفهمًا، بينما أضافت هي:

-لن يكون ذلك مناسبًا.

-بالطبع. أنا ذاهب إلى الصليب الأحمر هذا الصباح على أي حال.

شعرت «عائشة» بيد صغيرة في يدها، وأحست بإحباط «أورهان». تحول التعبير المرتسم على وجهه من الحماس والترقب ليصبح حزنًا مطلقًا.

-هذا غير ممكن يا صغيري.

ولكن بينما كانت «عائشة» تقول له هذا، شعرت بمقاومتها تنهار: -حسنًا... سيد «كونور»، المكان الذي سنذهب له يقع بالقرب من الصليب الأحمر. ربما إذا تبعتنا، تسير خلفنا بمقدار عشرين خطوة مثلًا، لن يكون هناك مشكلة.

صاح الصبي بفرح:

-تعال، تعال يا «كونور» بيك. تعال وأحضر قبعتك.. فلنذهب. فلنذهب الآن.

قام «أورهان» بقيادة «كونور» من المطبخ من يده، وسار الرجل الكبير بارتباك ولكن عن طيب خاطر في أعقاب الطفل. لم تر «عائشة» أي ضرر حقيقي في السماح له بهذا التساهل البسيط. عالم الصبي سوف يتحطم قريبًا جدًا على كل حال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس أحد قدامى المحاربين، وهو لا يزال يرتدي الملابس البالية ولكن المرقعة النظيفة من بقايا زيه العثماني على حجر شحذ، يدير الدواسة للحفاظ على دوران القرص اللامع. وضع طرف سكين بيد خشبية على الحجر، فتطاير الكثير من الشرر من حوله. توقف «كونور» ليتأمل بإعجاب تعامل الرجل الماهر مع الشفرة الحادة ولاحظ الندوب على أصابع الرجل. عندما انتهى الرجل، رفع السكين إلى أذنه، وقرع النصل بأظافره، واستمع إليه كأنه شوكة رنانة. ممتاز. نادى اسم صاحب السكين ونظر لأعلى، وهنا لمح «كونور» ندبة حرق تذوب على وجه الرجل، وعينان بيضاوان من غير سوء لا تريان أي شيء.

على طول جدار الزقاق المزدحم، جلست مجموعة من الباعة في صف واحد على مقاعد منخفضة مصطفة أمام متاجرهم، يدخنون سجائرهم ويتبادلون النميمة. عندما تحركت «عائشة» أمامهم، انضمت إلى مزاحهم وثرثرتهم؛ على الرغم من أن «كونور» لم يكن لديه فكرة عما تقوله، لكن نغمة صوتها وعواصف الضحك التي أعقبت كلماتها لم يتركا شكًا في أنها تحظى بشعبية في حيها. وقف أحد الرجال وخلع قبعته وانحنى لها بطريقة مسرحية. بادلته «عائشة» الانحناءة بمثلها وضحكت ببساطة، واستمرت في طريقها، بينما «أورهان» يسير في أعقابها.

صارت الحارة أكثر انحدارًا هنا، وظهرت مجموعة ضيقة من الدرجات العريضة، التي جعلت النزول على الحصى الزلق أقل خطورة. سار «كونور» لمسافة قصيرة خلف المرأة، فبدا كمتلصص عن غير قصد. لم يستطع أن يبعد عينيه عنها؛ وجد أنه من المستحيل ألا يكون مفتونًا بجسد «عائشة» المتناسق، وطريقتها الانسيابية والرشيقة وهي تتحرك. رأسها مرفوع فوق رقبة طويلة كراقصات الباليه، وكانت تطأ الأرض بقدميها بخفة وهي تمشي، مع كل خطوة، ترتفع تنورتها قليلًا، مقدمة لـ«كونور» لمحة عن ربلة ساقها الرشيقة وكاحلها الرقيق. شعر بالنغزة غير المألوفة في حلقه، والتي تصاحب الرغبة. أثار لقاء «كونور» ب»ناتاليا» شيئًا داخله؛ كان قد ظل إزعاج لما بدا

له كأنه العزوبية الأبدية.. انحرف كل من «عائشة» و«أورهان» إلى طريق مسدود، واقتربا من مدخل ضخم مفتوح محاط بأعمدة عتيقة علتها الطحالب. دلفا إلى الداخل وتبعهما «كونور».

على الفور سمع صوتًا مألوفًا ومُرحِبًا؛ صوت ماء.. ماء يقطر ويتدفق. والرائحة؛ رائحة حادة تتخلل الهواء البارد. وبينما تتكيف عيناه، لمح أعمدة من الضوء تخترق الظلام من الشقوق والثقوب في سقف الخزان. أشرقت أشعة الشمس على غابة هائلة ضخمة من الأعمدة السميكة والطويلة مثل أقدم أشجار الكافور في الوطن. تلألأت الأشجار فوق جسم مائي يمتد نحو أحلك أعماق الخزان. لم يسعه إلا أن يهتف متعجبًا. شرحت له «عائشة»: -هذا هو المكان المفضل لـ«أورهان».. إنه ينتمي للحقبة الرومانية.. وما زال يحتوي على أفضل مياه في المدينة.

كانت كمية الماء هنا لا يمكن سبر غورها. التقط «كونور» قطعة من الطين من خليط من الرخام والسيراميك المكسور، والذي أخذ يتكسر تحت القدم، وقذفها بقدر ما يستطيع في البركة الواسعة. استطاع أن يحدد بسبب صوت الارتطام الأجوف الذي تصاعد عندما صدمت سطح الماء أن الخزان عميق جدًا. ركع عند الحافة وغمس يده في البركة، ثم رفعها نحو شفتيه. طعمها بدا كطعم الماء في المسجد الأزرق، حلوًا وباردًا. قال: -هذا الماء لا يأتي من تحت الأرض.

انحنت «عائشة» تستخدم قدر صغير لملء جرة كبيرة أحضرتها معها من الفندق. أجابته: -لا، إنها تأتي من الجبال على طول قناة «فالينس» التي تمر عبر القسطنطينية. المياه تأتي دائمًا، حتى في منتصف أكثر فصول الصيف سخونة.

استدار «كونور» إلى «أورهان»، وسأله:

-هل تعرف كيف تجد ماءً؟

بدت الحيرة على «أورهان»، أكثر مما يستحقه مثل هذا السؤال الواضح. أجاب الصبي: -عندما تمطر، تأتي المياه من السماء.

-المكان الذي أتيت منه مثل الصحراء، وأحيانًا لا تمطر لسنوات، علينا أن نجد الماء الذي سقط من خلال الشقوق في الأرض، هناك أنهار وبحيرات تحت هناك عليك أن تجدهم.

- كيف تجده تحت الأرض؟

بدا «أورهان» متشككًا.

تسمر الأسترالي مكانه للحظات. بدت موهبته الغريبة طبيعية جدًا له لدرجة أنه نادرًا ما فكر فيها للحظة في الديار، تقبل جيرانه قدرته على استخراج الماء بدون سؤال. لا يستطيع التفكير في آخر مرة طُلب منه أن يشرحها. قال: -هذه هي الحيلة.. عليك أن تشعر به.. الأمر كأن الأرض تتحدث معي.

انعقد حاجبا «أورهان» و«كونور» يتابع:

-أولًا، أبحث عن أدلة فوق الأرض – مثل قيعان الأنهار القديمة أو الصخور الضخمة. إذا رأيت الأشجار تنمو، فأنا أعلم أنه يجب أن يكون هناك ماء في مكان ما بالأسفل. ثم أبدأ البحث حقًا، وأستخدم يدي، والأمر كأنما هما بطريقة ما يستطيعان الرؤية تحت الأرض.

كافح «كونور» للتفكير في طريقة يصف بها الموضوع للصبي. قال بالنهاية: -عندما تحاول العثور على شيء في الظلام، تستخدم يديك، أليس كذلك؟

أومأ «أورهان» برأسه ، مأخوذًا بكل كلمة يقولها «كونور».

-الأمر يسير بنفس الطريقة تمامًا. الأشياء المدفونة عميقًا تحت الأرض ترسل لي رسائل ويمكنني سماع رسائلها تلك بيدي. عندما أجد البقعة أحفر بحثًا عن الماء.

-وتجد الماء في كل مرة؟

ضحك «كونور» على فكرة محاولة عد المحاولات الفاشلة التي قام بها على مر السنين، قبل أن يجيبه: -لا.. لقد حفرت الكثير من الآبار التي انتهى بها الأمر إلى أن تكون مجرد حفر في الأرض.

خطا خلف الصبي وأسند يديه على كتفيه وهو يقول:

-هيا بنا.. سأريك.. أغلق عينيك.

خفض «أورهان» جفنيه بطاعة، رفع «كونور» بلطف ذراعي الصبي ليتمددا أمامه.

-الآن مد أصابعك وحركها ببطء في دائرة.. بالضبط هكذا.. ببطء.

وبينما هي تشاهدهما من الركن، أُخِذت «عائشة» بالرقة غير المتوقعة التي سند بها «كونور» يدي «أورهان» في كفه الخشنة. قلب يدَي الصبي ومرر «كونور» أصابعه برفق فوق الأوردة التي نبضت باللون الأزرق على معصم الصبي. سأل: - هل تشعر به هنا؟ شعور بالوخز؟

فتح الصبي خلسة عين واحدة لإلقاء نظرة خاطفة على «كونور»، وقد بدت عليه خيبة الأمل وهو يجيبه: -لا، أشعر به.. أشعر بيدك فقط.

- هيا.. أغلق عينيك.. لا تفتحهما! هل تشعر به الآن؟

-لا.

-هل أنت متأكد؟

-لا يا «كونور» بيك. لا أشعر بشيء.

انحنى «كونور» واغترف بعض الماء بيديه، ثم نثرها ضاحكًا على وجه «أورهان» هاتفًا: -أيمكنك أن تشعر به الآن؟

صرخ «أورهان» ببهجة ورشّ هو الآخر بعض المياه على «كونور».

ظلا يتبادلان رش المياه واحدة بواحدة حتى تساقط الماء من شعرهما وابتلت قمصانهما. لمعت عيونهما، وقد فكر كلاهما بنفس الفكرة الخبيثة في وقت واحد، ومعًا اتجها نحو «عائشة» ذات الوجه الجاد.. لا يوجد شك في نواياهما.

وقفت «عائشة» ثابتة ووضعت يديها على وركيها.

-لا تفكرا مجرد التفكير بفعلها! هذا تصرف غير مهذب!

تمالك «كونور» نفسه، مدركًا لما تستدعيه اللياقة، وشعر أنه أخرق للغاية.. اعتذر لها: -أنا آسف جدًا.

ومن العدم ومضت ابتسامة شريرة عبر شفتي «عائشة» وهي تقذف بما داخل القدر الصغير من ماء في وجه «كونور»، خرجت من الخزان، وهي تصرخ ضاحكة، وقد انطلق ابنها خلفها في مطاردة ساخنة.

رمش «كونور» وهو يمسح الماء عن عينيه، وشاهدهما يغادران وقد أخذ شعره يقطر ماءً وقلبه يدق بشدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«أتمنى لو كان بوسعي تقديم بعض المساعدة، لكن كل ما فعلناه هو أن أرسلنا حزم الإغاثة لمعسكرات الاعتقال، مع قطع من الصابون، والبطانيات وما إلى ذلك. لم يكن لدينا أي اتصال مباشر مع الجنود. لم تكن حربنا كما تعتقد.»

تغلبت ممرضة الصليب الأحمر على دهشتها الأولى عند دخول «كونور» المفاجئ ومظهره الغريب للغاية. لا يزال شعره رطبًا وقميصه وسرواله مبتلين من معركة الماء، فبدا شخصية غير تقليدية، حاول فرد شعره بكفيه، ولكن الخصلات البنية الفاتحة التصقت في كتل ضالة شاردة تفتقر للتنظيم. كانت هناك شعلة من النيران في برميل معدني ضخم ينتصب في ركن من الفناء يمكن رؤيته من خلال باب المستشفى القديم. أخذت النيران تتغذى

على جبل من المجلدات والملفات القديمة التي يلقي بها عاملون تركيون وسط ألسنة اللهب من قبل. شرحت قائلة: -نحن نحزم أمتعتنا هنا، سنعود للديار.

-ولكن ماذا عن أسرى الحرب؟

سألها «كونور» بإصرار، فأجابت:

-لأقول لك الحقيقة يا سيدي، لم يكن هناك الكثير من هؤلاء. وأولئك الذين مروا من هنا لم يطيقوا الانتظار للعودة للديار، فعظمهم لم يروا عائلاتهم منذ سنوات.

-هل هناك أي مكان آخر... أي شخص آخر... قد يكون قادرًا على مساعدتي؟

لمحت الممرضة اليأس في عينيه، خفضت صوتها وأخذت تتحدث بهدوء: -أولئك الذين عاشوا لم يتمكنوا من الخروج من هذا المكان بسرعة كافية. لو أن ابنك لم يعد إليك بعد... حسنًا، انا آسفة جدًا لقول ذلك، ولكن من المحتمل أنه لم ينج. قيل لي إن المعسكرات كانت أماكن وحشية.

حدق «كونور» في ألسنة اللهب المتصاعدة بيأس، وأخذ يراقبها وهي تستهلك صفحة بعد صفحة من السجلات العسكرية، ثم ترسل الرماد والدخان الأسود نحو السماء.

شعر أنه مرتبك ومكسور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والعشرون

استقر فنجان القهوة داكنة اللون كالوحل وغير شهية في كف «كونور». افترض أنه بمرور الوقت قد يتمكن من الاستمتاع بمذاق تلك القهوة التركية الثقيلة، أخذ رشفة.. من غير المرجح أن يستمتع بها أبدًا. جلس رجلان تركيان منعزلين على منضدة في الصالون. كان أحدهما يقرأ الصحيفة وهو يعبث بشاربه المصفف بعناية مبالغ فيها، في حين أخذ الآخر يتسلى بتأمل الحديقة، ويطرق بأطراف أصابعه المشذبة بعناية على المنضدة. كان فندق «طروادة» مشغولًا بعدد أكبر من النزلاء عما اعتاد منذ سنوات، فهناك أربعة نزلاء بالكامل، بما في ذلك النزيلة الدائمة، «ناتاليا».

تحركت «عائشة» عبر الصالون، تقدم لنزلائها شاي العصر مع حلوى الملبن المحلاة بماء الورد، والمغطاة بالسكر البودرة، على أطباق فضية صغيرة، مع القهوة التركية. شعر «كونور» أن أفكاره تستهلكه.. أخذ يفكر في محاولة للتخطيط لخطوته التالية، فيما عادت «عائشة» إلى منضدته، مشيرة إلى فنجان القهوة الموضوع بجانبه. قالت: -لا تأخذ الموضوع باستخفاف واعتن بالفنجان جيدًا، مصيرك يكمن هناك كما تعلم.

رفع الفنجان والصحن وقدمه لها وهو يقول:

-لم يتمكن أي شخص آخر من مساعدتي.. ربما يمكنك معرفة ماذا يجب أن أفعل بعد ذلك.

-إنها لعبة سخيفة.

ضحكت وهي تعيد الفنجان لـ«كونور»:

-وعليك أن تشربه أولاً! لكن تأكد من أنك تشرب من جانب واحد فقط من الفنجان، وإلا لن تنفع.

عاد برأسه للخلف، وقد تقلصت ملامحه بينما هو يبتلع القهوة السميكة في جرعة واحدة. مدت «عائشة» يدها وجلست على المقعد المقابل لـ«كونور».

-يكفي هذا. والآن أعطني إياه.

وضعت الصحن فوق الفنجان ثم مدت يدها به عبر المنضدة إلى «كونور» وهي تقول: -بحذر.. أمسك الصحن من الأعلى وقم بعمل ثلاث دوائر في نفس اتجاه عقارب الساعة.. مثل هذا...

تظاهرت «عائشة» أنها تحمل الفنجان ودارت به أمام صدرها. كان «كونور» مستمتعًا، وقرر اتباع تعليماتها. تناولت الفنجان بالطبق وقلبته بسرعة حتى

استقر الفنجان مقلوبًا على الصحن. ابتسمت وهي تقول: - الآن ننتظر.. هل تعلم؟ نحن نقرر كل شيء هنا عن طريق القهوة. الأعمال، والعطلات، وحتى الأزواج.

-وهل هذا يعمل؟

-بالطبع، إنها أفضل طريقة.. عندما تأتي عائلتان معًا لترتيب الزواج، تقدم الفتاة القهوة لوالديها، إذا كانت حلوة فإنهما يعرفان أنها توافق على العريس، وإذا كانت مرة فمعناها أن يطرداه!

ولوحت بكفها رفضًا مع آخر جملة. أكملت:

-كلما زاد السكر، زاد حبها...

-ومع زوجك؟ ماذا فعلتِ؟

-لقد استخدمت وعاء السكر كله.

ثم ضحكت على الذكرى مكملة:

-اعتقد والداي أنه سيمرض.

تحركت «عائشة» في مقعدها، ويبدو أنها أدركت فجأة الرفض الظاهر لسلوكها في نظرات النزلاء الآخرين.

حاولت تغيير الموضوع:

-الآن، فلنرى قهوتك وماذا ستخبرنا؟

رفعت «عائشة» كأس الخزف الصيني الدقيق وحدقت في بقايا القهوة المترسبة في الداخل. قالت: -أرى رجلًا عنيدًا..

رد «كونور»:

-لا، لا بد وأنك تقرأين من فنجان شخص آخر.

-لا، أرى مزارعًا يأكل البيض المسلوق فقط، أراه في مدينة حيث توجد امرأة... انظر، ها هي.

أشارت «عائشة» داخل الفنجان مكملة:

-امرأة هي أفضل طاهية في تركيا على الإطلاق..

-أعتقد أن هذه الكثير من التفاصيل بحيث يصعب أن يحتويها مثل هذا الفنجان الصغير.

خفضت «عائشة» صوتها ومالت عليه بجدية:

-كل شيء يظهر في القهوة. الفنجان لا يكذب أبدًا.

-هممم. هل أخبرك الفنجان ما إذا كانت هذه الطاهية جميلة؟

احمرت وجنتاها وتراجعت للخلف في مقعدها، واندفعت نظراتها للرجلين التركيين في الغرفة. تبادلت هي والرجل الأسترالي النظرات.. قال يستحثها:
-أخبريني ماذا قرأتِ بالفنجان حقًا.

حدقت «عائشة» داخل الفنجان باهتمام. فجأة نهضت على قدميها وقالت:
-كل هذا هراء!

ثم تناولت فنجان قهوة «كونور» والصحن وخرجت مسرعة من المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما هي تسرع نحو المطبخ، انزعجت «عائشة» لمرأى «عمر» واقفًا في المدخل. كما وعد، أتى ليضع الأمور في نصابها الصحيح مع ابنها. لكن التعبير المقبض المرتسم على وجهه دلها على أنه شاهدها تتبادل الحديث مع «كونور»، وأنه غاضب. مرت بجواره وسارت بسرعة عبر الرواق، بينما شقيق زوجها المتوفي يسير في أعقابها. بمجرد وصولهما إلى المطبخ المنعزل وصارا يتمتعان ببعض الخصوصية، استدار «عمر» نحوها: -لماذا لا ترتدين ملابس الحداد؟ وأين «أورهان»؟

وضعت «عائشة» فنجان القهوة بعنف على المقعد واستدارت لتواجهه، وقد تقاطع ذراعاها بشكل دفاعي أمام صدرها. بعد ليلة من النوم المضطرب أدارت خلالها خياراتها بعقلها، عرفت أنه لن يكون هناك طريق سهل لها أو لعائلتها. ولكن بعد مشاهدة ابنها في الخزان هذا الصباح ورؤية مدى سعادته، ولمعرفتها أن الحياة مع «عمر» وزوجته ستكون مقيدة بالواجب وتفتقر للحب والعاطفة، فقد اتخذت قرارها: -حتى أتأكد من وفاة «تورغوت»، لا يمكنني أن...

قاطعها بحدة:

-هل تظنينني أحمق؟

-لا، وعرضك سخي للغاية وأفهم هذا.

ارتفع مستوى غضب «عمر» لدرجة الغليان:

-كلانا يعرف، الجميع يعرف ما عدا «أورهان». أخي في السماء!

ارتفع صوت «عائشة» ليتناسب مع صوته، وقد تزايد ما بداخلها من خوف وإحباط: -أنا لست مستعدة للزواج مرة أخرى.

-أتيتِ إلى منزلي واتفقنا. ستهينينني الآن أمام زوجتي وبناتي؟

-لا يمكنني أن أكون الزوجة الثانية لأي رجل.

-إذن لن تتزوجي مرة أخرى أبدًا. من غيري سوف يتحمل الزواج منكِ في ظل وجود والدك وابنك؟ وأنتِ تفكرين فقط في نفسك، ولكن هذا الزواج ليس لكِ. إنه لـ«أورهان».. يحتاج إلى أب.. وسيصبح ابني.

التعبير الجاد عن العزيمة المرتسم على وجه «عائشة» لم يدع أي شك داخل «عمر» أنها لن تغير رأيها. صاح بها: -لدي واجب تجاه أخي! هذه طريقتنا!

هزت «عائشة» رأسها نفيًا:

-لا، هذه طريقتك أنت!

-هذه المهزلة لا يمكن أن تستمر. هذا خطأ.

دخل «عمر» الرواق وأخذ ينادي على ابن أخيه.

- «أورهان»! تعال!

فعلت «عائشة» كل ما في وسعها لتجنب تلك اللحظة على مدى السنوات الأربع الماضية. التفكير في حدوثها - معرفة ماذا سيفعل هذا بابنها - جعل ركبتيها ترتعدان. همست: -من فضلك.. لا.. ليس بهذه الطريقة. أرجوك.

نظر إليها «عمر» بغل وقال:

-كبرياؤكِ وعنادك هما ما أوصلانا لهذا.. يا «أورهان»!

عرفت «عائشة» أن «أورهان» دائمًا ما يخشى تلبية نداء عمه - في معظم الأحيان يكون مناداته له مصحوبًا بشدة من الأذن ووابل من الكلمات الصارمة. وكان المشهد الذي واجهه عندما وصل إلى المطبخ - وجه أمه الشاحب وقد تلألأت عيناها بالدموع، بينما التوى فم عمه «عمر» في شكل خط رفيع قاسٍ، في حين التمعت عيناه السوداوان بغضب، كل هذا لا يبشر بخير.

تحرك إلى جانب والدته وأمسك بيدها قائلًا بخوف: -ماذا فعلت؟ أقسم أنني لم أرتكب أي خطأ مؤخرًا.

نظرت له تحميه:

-لا شيء يا عزيزي.. اذهب.. اتركنا.

قالت آخر كلمة تستحثه ليرحل، لكن «عمر» تقدم عبر المطبخ، وأخذ كف الطفل الآخر. توجه إليه بالحديث بلطف ولكن بإصرار: - «أورهان»... والدك مات! لقد مات منذ أربع سنوات. لقد كذبت أمك عليك!

حاولت «عائشة» أن تتحدث بصوت أعلى من صوت «عمر»، محاولة إخفاء كلماته السامة. أخذت وجه «أورهان» بين يديها ونظرت في عينيه تقول له: -لا تستمع لهذا يا ولدي العزيز.. لا تستمع.

دفع «عمر» يدي «عائشة» بعيدًا، وجذب الصبي إليه، هاتفًا به: -هل تفهم؟

شحب وجه «أورهان» وهتف بأمه بلهجة مثيرة للشفقة: -أمي؟ من فضلك؟

أدار وجهه نحو وجه أمه، ومن الحزن الذي ارتسم على ملامحها أدرك أن عمه قال الحقيقة. استمر «عمر» بينما كافحت «عائشة» لوضع يدها على فمه لتسكته، وأزاح يدها بعنف مكملًا: -والدك شهيد يا «أورهان».. كن فخورًا به.

اتسع فمه من الرعب وعدم التصديق، وانتزع «أورهان» نفسه من بين براثن عمه وركض في الرواق يبكي. صرخت «عائشة»: -لن تحصل عليه أبدًا.. لن تحصل عليّ أبدًا أو أتركك تستولى على هذا المكان!

-هل تظنين أني أحب أن تصبحي زوجتي أو تقيمي بمنزلي؟

بصق «عمر» نحوها قائلًا:

-أنتِ لستِ أفضل من الفاسقة الروسية التي تقيم في الطابق العلوي!

تفجرت سنوات من الأسى والألم المتراكمين داخل روح «عائشة»، صفعت «عمر» على خده بكف يدها وصرخت: -لهذا السبب لم يرزقك الله ابنًا قط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شقت الأصوات التركية المرتفعة طريقها إلى الصالون. وقف «كونور» وتحرك نحو المدخل، غير متأكد مما يجب فعله. ليس هناك شك على الإطلاق في أن «عائشة» في محنة، لكنها في المطبخ مع صهرها؛ إنها مسألة عائلية. و«كونور» يعرف من التجربة المريرة أنه لا يمكنه أن يتوقع أي شكر للتدخل في الشئون الخاصة. وقف في حرج في الردهة ويداه داخل جيوبه، عندما اصطدم به «أورهان»، فهتف به: -مهلك يا صديقي! ماذا جرى؟

رفع «أورهان» ذراعيه حول خصر «كونور» ودفن وجهه في قميصه، فطوق «كونور» الصبي بين ذراعيه، وأخذ يربت على ظهره. وفي المطبخ، استمر وابل القذائف. لم يستطع «كونور» فهم ما يقال بالضبط، لكن ليس هناك شك

في الغضب والنقد اللاذع في أصواتهما. غطي «أورهان» أذنيه، محاولًا صد الكراهية المخيمة على المكان من اقتحام أذنيه، ثم رن صوت صفعة عالية عبر الفندق، تلاه شجار وسقوط الأواني على الأرضية الحجرية. لم يعد «كونور» يستطيع كبح جماح نفسه. ضغط على كتف «أورهان» برفق هامسًا: -ابق هنا يا بني.

دخل المطبخ في الوقت المناسب ليرى «عمر» ينزل بكفه المفتوح في غضب عارم على وجه «عائشة، تخلت عنها ركبتيها وسقطت أرضًا، وإحدى يديها تمسك جانب وجهها. أمسك صهرها بذراعها بغلظة، وحفرت أصابعه الرفيعة في ساعدها الأبيض الناعم وهو يرفع يده الأخرى لصفعها من جديد. انفجر بركان من الغضب داخل «كونور»، فاندفع للأمام وأحاط بذراعه عنق «عمر»، يجره بعيدًا عن «عائشة»، ثم قذف به على الأرض! صُدِم الرجل التركي، وحاول الاعتدال راكعًا على البلاط. بكلتا يديه، أمسك «كونور» بياقة قميص الرجل التركي بغلظة، ورفعه إلى قدميه. قبض «كونور» يده بقوة على استعداد للضرب، ولكن قبل أن يتمكن من سحب ذراعه، شقت «عائشة» طريقها بين الرجلين ومدت يديها تضغطان على صدر «كونور» وتقيدانه تهتف به: -توقف! توقف! يالك من أحمق. هذا ليس من شأنك!

تخلى «كونور» عن قبضته على ياقة قميص «عمر»، وأخذ يحدق في «عائشة» وهو في حيرة من أمره. رفع «عمر» قبضته وهو ينظر بغضب تجاه الرجل الأسترالي، وقد بدأت العروق في صدغه تنبض بقوة، والأوتار في رقبته مشدودة مثل أسلاك البيانو، وهو يجز على أسنانه بغضب دون النظر بعيدًا، قام بجلد «عائشة» بلسانه: -الآن فهمت.. هذا ما تريدينه.. العدو!

لكن «عائشة» ردت عليه على الفور:

-لا علاقة له بالأمر.

-لدي عينان، كما تمت رؤيتكما معًا في الخزان.. أخي كان أحمق.

بصق «عمر» كتلة سميكة من البلغم على الأرض، ثم عدل ياقته ومر بيده على شعره الأسود المغطى بمادة دهنية سميكة يساويه، وبينما هو يحدق بازدراء في أحذية العمل البالية التي يرتديها «كونور» ويديه الخشنتين، واصل «عمر» خطابه: -ابن الحمار هذا لا يفهم كلمة واحدة من لغتنا. وأنتِ؟ إنك تسيئين إلى هذه العائلة.

ثم استدار «عمر» خارجًا من المطبخ..عندما استدارت «عائشة» لتواجه «كونور»، لاحظ كم كانت غاضبة: -اذهب! لقد أسأت إلى شرفه!

ارتبك «كونور» من رد فعلها غير المتوقع وحاول الدفاع عن نفسه: -لقد ضربك.

-نعم. لكنني ضربته أولًا.

هكذا أجابته ساخرة، ثم أكملت:

-أنت لا تفهم شيئًا! لن تفهم أبدًا.

-اعتقدت أنه كان الشيء الصحيح الذي يجب القيام به.

-نعم ، أنت وأبناؤك وجيوشكم، كلكم تفعلون الشيء الصحيح. هل كان من الصواب دفعنا للحرب؟ هل كان من الصواب أن تقوموا بغزو بلادنا؟ كل ما فعلته هو سرقة والد «أورهان» منا وتركه أمام اختيارات مستحيلة مثل هذه.

بدت حزينة.. منكوبة.. وضائعة..

-إذن أرجوكِ اسمحي لي أن أساعدكما.

تفاجأ «كونور» نفسه بما قاله. لقد كان يبذل قصارى جهده لقمع انجذابه المتزايد لهذه المرأة، واندفاع الأدرينالين المسكر الذي يتفجر في دمه عندما يراها. لم يكن متأكدًا مما يقصده بعرضه للمساعدة. لكن هناك شيء واحد يعرفه، في هذه اللحظة، لا يوجد شيء ليس مستعدًا لأن يفعله لمساعدة «عائشة» وابنها.

نظرت إليه بذهول. سألت:

-الآن تريد أن تنقذنا؟

تلعثم «كونور»:

-لم أقصد الأمر على هذا النحو. أنا ربيت ثلاثة أولاد...

- وأين هم الآن؟ هذا ليس عالمك. عد لبلدك يا سيد «كونور».

صدم بما قالته، لم يجد كلام يرد به عليها، فخرج صامتًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بوجه ملطخ بالدموع وعينين حمراوين منتفختين، سهر «أورهان» على باب الفندق، وشاهد «كونور» وهو ينزل بحرص وبطء السلم الضيق إلى الردهة، وهو يحمل حقيبته البنية الصغيرة، وقد اعتمر قبعته العريضة فوق رأسه. لمح «كونور» الصبي، لكنه ظل صامتًا.. لا يوجد شيء ليقوله. لم تكن «عائشة» موجودة بالجوار، أخرج «كونور» مفتاح غرفته من جيبه ووضعه بعناية على المنضدة الأمامية.. ودون أن يلقي نظرة أخرى، خرج إلى الشارع المرصوف

بالحصى، لتغمره أشعة شمس الربيع الدافئة. ارتطمت بظهر«كونور» فجأة عصا خشبية فأرسلته محلقًا إلى الأمام، حركة أخرى سحبت ساقيه من تحته. اصطدمت ركبتيه بالرصيف بعنف وسقط على يديه، شعر بالألم الحارق يتصاعد من معصميه لينفجر في كتفه. انتزع المهاجم الخفي حقيبته من تحته ورماها إلى الخلف على سلم الفندق، فانفتحت على مصراعيها، لتتسرب محتوياتها في شلال أسفل درجات السلم. من زاوية عينه رأى «كونور» «أورهان» وهو يندفع لجمع ممتلكاته فشعر بالارتياح لرؤية الصبي يضع مذكرات ابنه «آرت» بأمان تحت ذراعه. رفعت أيدي غليظة «كونور» على قدميه. كانا رجلين، واحد منهما عند كل كتف. وقف «عمر» أمامه ممسكًا بهراوة، رجع بيده التي تمسك بها لخلف ظهره، ثم هوى بها بكامل قوتها نحو أحشاء «كونور»!

شعر «كونور» بالهواء الذي يخرج من رئتيه، قبل أن تندفع قبضة قوية نحو وجنته، فتُفرِق جلده نصفين. شعر بتدفق الدم الدافئ والمذاق المعدني اللاذع على شفتيه، ثم هوت ضربة قوية أخرى على مؤخرة رأسه ووجد نفسه مفلطحًا في الشارع، ووجهه لأسفل، بينما حصى أرضية الشارع حاد الحواف يقتحم وجنتيه. استمرت الضربات والكدمات والركلات من مجموعات متعددة من الأحذية تضرب أضلاعه؛ فتكور في شكل الكرة لحماية صدره. ولسبب غير مفهوم، انتهي الهجوم فجأة كما بدأ، فتح «كونور» عينيه ليجد نفسه على بعد بوصات من زوج من الأحذية السوداء اللامعة. نظر «كونور» إلى الأعلى، وقد أعماه مؤقتًا ضوء شمس بعد الظهر، أخذ ينظر من حوله في حيرة من أمره. وقفت شخصية مهيبة بزي رسمي بجانبه، وقد وضع يديه على ركبتيه.. حاول «كونور» التركيز، ووضع يده أمام عينيه يقيهما من ضوء الشمس القاسي. ليس هناك شك، أنف «جمال» الشبيه بمنقار الصقور وجبينه العريض، منحه الضابط التركي نصف ابتسامة وهو يقول: -يبدو أنك تعثرت على بعض درجات السلم يا «كونور» بيك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثلاثون

كانوا يفوقونه عددًا. لكن «جمال» لم يكن من النوعية التي تخاف من مواجهة قوة متفوقة عددًا. قط وقف وقد أعد ذراعيه، وهو يحسب بهدوء احتمالات النجاح لو اضطر لمواجهة مهاجمي «كونور».

أحاط بـ«عمر» من كلا الجانبين رجلان قويا البنية مستعدان للقتال، قرر «جمال» أنه يمكن أن يذهب في أي من الاتجاهين. لا يوجد شك في أن الرجل التركي حسن الملبس كان غاضبًا؛ عيناه صارتا شفرات قاتلة سوداء اللون تتنقل بين «كونور» و«جمال». أمكن لرجل الجيش التركي أن يرى أن «عمر» غضب بسبب وصوله، وحريصًا على استئناف هجومه على الأسترالي. لكن السلطة المنوطة بـ»جمال»، والمتمثلة في زي الجيش العثماني، ومجموعة الميداليات المعلقة على صدره، كل هذا جعل «عمر» يتردد. استجمع «عمر» شجاعته وتوجه بالحديث لـ«جمال»: -هل تعرفه؟ هذا الرجل ألحق العار بعائلتي.

رفع «جمال» حاجبه دون أن يتغير تعبير وجهه.

-الأوامر التي صدرت لي هي أخذه إلى الرائد «حسن».

تقدم «عمر» بحدة إلى الأمام ثم لكم «كونور» في بطنه بهراوته.

-أولاً سنعلمه معنى الشرف.

ضرب «كونور» العصا بظهر يده.

-ثلاثتكم سوف تعلمونه؟ سويًا؟

هكذا علق «جمال» بسخرية. ثم استطرد:

-لماذا لا تترك مواضيع الشرف لهؤلاء الذين حاربوا من أجل هذا البلد؟

انحنى ومد يده نحو «كونور» ليساعد الأسترالي النازف والمصاب بالكدمات ليقف على قدميه. استدار الرجلان للمغادرة، وسدد «جمال» عصاه ليفرق مهاجمي «كونور» وهو يقول: -إذا كنتم تحبون القتال لهذا الحد، افعلوا شيئًا مفيدًا لبلدكم وانضموا إلي القوميين.

تردد «كونور» ووقف مكانه.

-حقيبتي.

نظر «جمال» إلى الخلف، ورأى «عمر» يسير عند مدخل فندق «طروادة»، فوضع يده على ظهر «كونور»، واستحثه ليتقدم للأمام.

-يمكنك استرداد أغراضك لاحقًا يا «كونور» بيك، أعتقد أنه من الأفضل أن نغادر الآن.

بعدما قام بإلقاء نظرة خاطفة على «عمر»، أومأ «كونور» بالموافقة. ثم مشي بحذر شديد وراء «جمال» الذي قاده أسفل الشارع المرصوف بالحصى.

-ربما كان يجب أن تكون دبلوماسيًا يا «كونور» بيك.

علق التركي بابتسامة ساخرة، قبل أن يكمل:

-تعالَ، سآخذك إلى الرائد «حسن».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تصاعد البخار إلى السماء، وتجول بهدوء حول قبة صغيرة مغلقة، فيما أشع ضوء الشمس من خلال أقراص زجاجية ملونة مثبتة في السقف، وتشكل أعمدة ضبابية من الضوء. في كل من التجاويف الأربعة المتفرعة من الغرفة الوسطى، تم نحت ألواح رخامية بخطوط متقنة وثُبِتت في كل حائط. تدفق الماء الساخن من الصنابير النحاسية المزخرفة ليصب في الأحواض، وانتهي به الأمر كشلالات فوق الأرضية الرخامية ذات اللونين الأبيض والرمادي. ظل «حسن» يتسكع على طول السلم المنخفض الذي امتد حول الجدران المكسوة بالرخام، لا يرتدي شيئًا سوى البشتاميل الحريري الفاخر حول خصره. غمس يده في الحوض لاختبار درجة الحرارة. التقط صحنًا نحاسيًا يطفو داخل مياه الحوض واغترف بعضًا من الماء الدافئ، وسكبه على رأسه وفرك وجهه وشعره القصير بيده الأخرى أثناء سيلان المياه على جلده. قدم «حسن» الصحن لـ«كونور»، فهز هذا الأخير رأسه بابتسامة مصطنعة.

جلس الأسترالي منتبهًا مستقيم الجسد بجانب الضابط التركي. عندما وصل إلى الحمام مع «جمال»، أدخلوه إلى غرفة تغيير ملابس صغيرة مبطنة بالخشب وأعطوه ما افترض أنه منشفة خفيفة. عندما خرج من الكشك كان لا يرتدي من ملابسه إلا بنطاله الداخلي الطويل، همهم رفيقه الضخم باستنكار وأخذ المنشفة من يد «كونور»، وعامله كأنه دمية، فقام بلف المنشفة حول وسط «كونور». هكذا وجد «كونور» نفسه في الحمام، وبنطاله الداخلي يقطر ماءًا، وقد التفت قطعة قماش لونها هو مزيج من الأبيض والأحمر بشكل غريب حول وسطه. رقد «جمال» على بطنه على منصة رخامية ضخمة ساخنة في وسط الغرفة، هيبته بالكاد محفوظة بواسطة البشتاميل غير الكافٍ لتغطية جسده كله، فامتدت أطرافه وبرزت بشرته وردية مثل الرمان، بينما انهمك مدلك نحيل يدعك ويدلك بخشونة عضلاته المرهقة. أخذ يئن: -أنا بحاجة إلى امرأة.

أخذ «حسن» يضحك:

-لكن زوجتك في محافظة «أرضروم» البعيدة يارجل!

-لا تتحدث عن زوجتي عندما أفكر في هذا.

هبت نسمة من الهواء البارد فتدفقت صافية عبر البخار، خيم الصمت على الرجال الثلاثة، وأخذوا ينظرون نحو الجانب الآخر من الغرفة التي انفتح بابها الخشبي ليسمح بدخول شخصين تقدما ببطء نحو الكوة المجاورة. كان هناك رجل عجوز بشعر فضي وكتفين بارزي العظام، وقد أحاط بأحد ذراعيه بمرافقه، وهو رجل أصغر منه بكثير، وقد مال الرجل الأصغر سنًا بشدة على العجوز. شاهد «كونور» الرجلان وهما يستقران بجانب الحوض؛ وَجّه الرجل الأشيب رفيقه الشاب بحنان لدرجة أنه من الواضح أنه والد الصبي. التقط العجوز الطبق النحاسي ونزل بالماء الساخن فوق صدر الشاب. كانت عينا الشاب الخاليتان من التعبير مجرد بركتين سوداوين ساكنتين. حدق «كونور» فيهما بذهن شارد، قبل أن يُبعد عينيه فجأة عندما لمح اللون الأحمر في تجويف كتف الصبي حيث كان يجب أن يكون ذراعه الأيمن. صار التعبير المرتسم على وجه «جمال» كئيبًا، استدار إلى «كونور» قائلًا: -لقد وجدت اسم ابنك في قائمة الجرحى. أرسلوه من «شنق قلعة» إلى معسكر في «أفيون قره حصار».

كان الغرض من اجتماع «كونور» مع «حسن» غير واضح حتى الآن. كلما قضي «كونور» المزيد من الوقت في هذا البلد، كلما اعتاد على الطريقة العثمانية المطولة في إدارة الأعمال وعبور طريق غير مباشر مثل مسار راعي الماعز. نادرًا ما تتم معالجة القضايا مباشرة، والحل لا يكون فوريًا أبدًا. أي مناقشة يسبقها جولة محبطة وممتدة من المجاملات الاجتماعية وشرب المشروبات الساخنة. بالنسبة لـ«كونور»، الذي لم يكن لديه أي وقت بالماضي لهذا، ولا كان لديه موهبة إدارة محادثة صغيرة، فقد كان وجوده بهذا البلد عقوبة قاسية بطريقة غير عادية. هذه الزيارة للحمام هي أسوأ مثال حتى الآن. لكن يبدو أنه قد تم مراعاة البروتوكولات المتوقعة، وسيكتشف الآن سبب جره طيلة منتصف الطريق عبر المدينة للجلوس هنا في ملابس داخلية مبللة...

-ما هي «أفيون» هذه؟

شرح له «حسن»:

- «أفيون قره حصار». هي بلدة في الأناضول. ويعني اسمها «قلعة الأفيون السوداء». لم نعرف ما حدث له بعد بلدة «أفيون» هذه.. الشتاء صعب هناك.

تأوه «جمال» وهو يتدحرج إلى حافة المنصة ويؤرجح ساقيه للجلوس على حافة لوح الرخام الساخنة.

-إذن مات هناك؟

على الرغم من الهواء الرطب داخل الحمام الذي أفرز أنهارًا من العرق على ظهر وجبين «كونور»، فقد ذعر هذا الأخير كأن هناك كتلة من الرهبة محشورة في المريء. هز «جمال» أصابع كلتا يديه ونفخ نفخة من الهواء من وجنتيه المنتفختين وهو يجيبه: -اختفى أثره بدءًا من هناك، لا أستطيع أن أجيب سؤالك، لا مزيد من السجلات، نحن عثمانيون ولسنا ألمانًا.

سأله «كونور» بلهجة إصرار:

-هل يمكن أن يكون لا يزال في «أفيون»؟

منذ علم «كونور» بأسر «آرت» في «لون باين»، فقد تمسك «كونور» ببذرة أمل رقيقة أن يكون ابنه قد خرج من الهاوية ونجا، لكنه وجد نفسه ضائعًا على غير هدى. لقد فكر «كونور» في كل الاحتمالات في عقله - هناك العديد من الأسباب التي قد تكون قد منعت «آرت» من القدرة على العودة. ومعظمهم أسباب غير قابلة للتصديق تمامًا. لكن في أحلام «كونور»، كان «آرت» بخير، وعلى قيد الحياة. تكلم «حسن» بهدوء: - لا.. هناك الكثير من القتال في الأناضول الوسطى. لا أحد سيختار أن يكون هناك حاليًا. إذا كان بإمكانه المغادرة، لكان قد ذهب بالفعل.

وهنا تهدل كتفا «كونور»، وانحنى عموده الفقري القوي. شعر بصوت الماء المتدفق يملأ أذنيه، كل شيء آخر تحول لأزيز باهت.. شعر بقلبه يتوقف للحظة ثم يدق بقوة في صدره، ملأ البخار رئتيه، وشعر بنفسه يغرق. تبدد الأمل الزائل الذي شد قواه منذ رحلته إلى «جاليبولي» فتبخر وسط أعمدة الضباب التي تملأ الغرفة.

شاعرًا بالكآبة التي غمرت جليسه، مد»حسن» يده واضعًا إياها على كتف «كونور» وهو يقول: -في الصباح ستعود إلى أستراليا. لكننا سنسافر غدًا شرقًا إلى أنقرة.. «مصطفى كمال» يجمع جيشًا هناك...

صوب «جمال» نظرة حذرة على قائده، من الواضح لـ«كونور» أن «جمال» ما زال يعتقد أن الأسترالي يمثل خطرًا جسيمًا على الأتراك. تجاهل «حسن» صديقه واستطرد: -سنمر عبر بلدة «أفيون».. لو لم تكن محترقة بالكامل، سأسأل ما إذا كان هناك من يتذكر ابنك.

نظر «حسن» أسفل قدميه، يراقب تيارات المياه التي تجمعت خلف كعبيه وجرت بين أصابع قدميه. أخذ يشاهدها تسري في القنوات المنحوتة في

الرخام وتختفي في الأنابيب التي تجري تحت أرضية الحمام، متدفقة كما هو الحال منذ قرون.

أكمل «حسن» بأسى:

-لكني.. كجندي وأب، أخبرك أن الموقف قد تعدى مرحلة الدعاء. ابنك مفقود!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس «كونور» منحنيًا إلى الأمام فوق ركبتيه في المقعد المنخفض في مقصورة تغيير الملابس الضيقة، وقد مال ساعداه بشدة على فخذيه العاريين. تعلقت يداه عاجزتين بين رجليه.. راحتان عريضتان، وأصابع قوية مسطحة، كلها قطعتها الكثير من الندوب العميقة، الملطخة بشكل دائم بالتراب الأحمر من الديار، إلى أين الآن؟

هل هذه النهاية حقًا؟ يبدو أنه قد استنفد بدائله.

البريطانيون متشوقون لرؤيته قد رحل، وبالطريقة التي ترك بها الأشياء، فهو بالكاد يتوقع ترحيبًا في فندق «طروادة» المكان الوحيد في هذه المدينة الغريبة، والذي بدأ يشعر فيه بالراحة. وأسوأ شيء لو اتضح أن «حسن» و«جمال» كانا محقين، في أن الأمل ضئيل في العثور على «آرت» حيًا. شعر بالجدران تضغط عليه، وسمع صوت ثرثرة غير مفهومة يأتي من خارج الباب، وتردد صداها داخل رأسه.

كانت الغرفة رطبة وتفوح برائحة عفنة، تثقلها رائحة الجلد المبتل، وتفوح منها رائحة عرق القدمين والشعر الرطب. أغلق عينيه ونقل نفسه إلى سهول حمراء مغبرة، بسماء زرقاء شاسعة، وهواء ساخن وجاف لدرجة تحرق الرئتين، دارت طاحونة الهواء بإيقاع منوم. في مزرعته، عرف «كونور» وتقبل الأرض كما هي، فلم يقاتلها، بدلاً من ذلك خضع لسيادتها وتعجب من تقلبها، ليس لديه خيار. أشاعت الطبيعة الخراب في مجتمعه الصغير، مثل حالات الجفاف التي تستمر لفترة طويلة لدرجة أن الأطفال الصغار يخافون عندما يرون المطر لأول مرة يسقط من السماء، الحرائق التي تلتهم كل شيء حي في طريقها، تاركة حقول من الجثث المتفحمة، وجذوع الأشجار السوداء، وبقايا النباتات المحترقة حيث امتدت قبلًا السهول الشاسعة التي امتلأت بأعواد القمح. لكن تلك الكوارث المألوفة له صاروا أصدقاء قدامى في الشدائد. تساءل لماذا يجد كل شيء هنا في غاية الصعوبة، لماذا لا يستطيع تقبل ما يبدو واضحًا للجميع، وهو أن كل أولاده قد ماتوا. يعلم الله كم سيكون مريحًا لو توقف عن المحاولة ولو للحظة، وقام بتقبل الحقيقة. ولكن لو كان «آرت» قد مات خائفًا ووحيدًا في معسكر بعيد كل البعد عن أخويه، فإن عظامه الآن ترقد في أرض غريبة مثلهم، غير أن عظامه لا يعتني بهم أحد ولا

حزن عليهم أحد، هذه الفكرة جعلت «كونور» يشعر بأن شيء ما ينقصه، وشعر بنفسه مريضًا جسديًا ويائسًا تمامًا.. يجب أن يعثر عليه.. ارتفع صوت دقات مفاجئ وحاد على بابه.

- «كونور» بيك؟

-نعم.. سيد «حسن»؟

-لقد أخبرني «جمال» عن المشكلة التي حدثت مع الرجال عند فندقك، سوف نتناول الآن الطعام في الحانة التي تبعتني لها قبلًا، ربما تحب الانضمام إلينا والعودة من أجل استرداد أشيائك لاحقًا.

أغلق «كونور» عينيه وهو يجيبه:

-شكرًا لك.. سأفعل هذا.

في ظل غياب أي مكان للنوم في تلك الليلة، كان هذا هو الخيار الوحيد المتاح أمامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«الريح غير المرئية ستحملنا لجميع أنحاء العالم. اذكر الله حتى تنسى نفسك»... يحيا «مصطفى كمال»!

هتف «جمال» -وقد اقتبس أول جزء من جملته من قصائد الرومي- بعيون مغلقة، وقد رفع إحدى يديه وهو يمسك فيها بكأس زجاجي طويل وضيق مملوء حتى أطرافه بمشروب مسكر، خمر من نوع ما غالبًا. تجمع الرجال الآخرون في الغرفة حول مناضد صغيرة مغطاة بالرخام، يرفعون كؤوسهم ويرددون نخب «جمال» الصاخب: - يحيا «مصطفى كمال»!

وبنفس اللحظة، رموا رؤوسهم للوراء وتناولوا مشروبهم في رشفة واحدة. سأل «كونور»: - نخب من هذا الذي يشربه؟

راقب «حسن» الرقيب باعتزاز:

-نخب الرجل الذي يمثل مستقبل تركيا..

ثم قدم للأسترالي طبقًا مغطى بالنقوش الزرقاء، يحتوي على زيتون أسود مالح مجفف. هز «كونور» رأسه.

-لا، شكرًا.. لا يروق لي للأسف..

أشار «حسن» إلى طبق من المكسرات على المنضدة. ابتسم «كونور» ابتسامة شاحبة. بدت شكوكه واضحة في حذره الشديد وهو يلتقط حبوب

فستق غير مقشرة من الطبق، ثم وضعها بفمه. قبل أن يتمكن «حسن» من إيقافه، طحن «كونور» القشرة بأسنانه، فجفل بينما هي تتشقق على لسانه. قال «حسن»: -يطلق عليه اسم «فستق».. لكن يجب أن تفتحه أولًا.. مثل هذا..

شرح له «حسن»، وهو يلتقط بعض ثمار الفستق من الطبق، بينما «كونور» يبصق بقايا القشرة من فمه. قام الضابط التركي بإحداث شق صغير بين نصفي القشرة بإبهامه، وفصلهما ليتبدى قلب ثمرة الفستق الحلبي. سحب «كونور» واحدة أخرى، وتمكن من فتحها هذه المرة، وأدخل قطعة المكسرات في فمه. ابتسم مندهشًا وهو يقضم الثمرة حلوة المذاق ذات الرائحة القوية.. قال: -هذا ليس سيئًا.. لذيذ حقًا.

راقب «حسن» الأسترالي الذي بدا واضح القلق مما حوله، جفل «كونور» وبدأت عيناه تنطلقان من جانب واحد من الغرفة إلى الجانب الآخر، وقد بدا خارج بيئته المعتادة تمامًا.. لكن كان بوسع «حسن» أن يرى أنه رجل لا يتحول بسهولة عن هدفه.. في الحمام لم يكن لدى «حسن» القوة ليقول لـ«كونور» الأخبار التي وردت من الأناضول، إذ يتدفق الناجون كل يوم إلى القسطنطينية هربًا من المجازر، ويحملون معها حكاياتهم عن الفظائع والوحشية التي تفوق التصديق. بينما يقوم الجيش اليوناني بغارات جوية على الجانب التركي من بلدة «سميرنا»، انقلب الجيران الأتراك واليونانيون على بعضهم البعض، وقام تراكم قرون من القسوة المتقيحة بسبب حلقات حقيقية ومتخيلة للنهب بتحريض الرجال على الاغتصاب ونزع الأحشاء، لدرجة تصل لنزع اللحم عن العظام.

لا يتصور «حسن» أن أي شخص، وخصوصًا لو كان أجنبيًا أسير حرب، يمكن أن يبقى عن طيب خاطر في وسط مثل هذه الفوضى. لكنه لا يستطيع أن يجد في نفسه القدرة على أن يحطم البقية الباقية من الأمل داخل «كونور». سار «جمال» مترنحًا نحو المنضدة حاملًا زجاجة من الراكي كأنها سلاح. سكب كمية كبيرة من السائل الصافي في ثلاثة كؤوس، وأضاف عليها بعض الماء من إبريق بجوار مرفق «كونور»، ليتحول الكحول إلى لون أبيض حليبي.

-الآن، أصبح الراكي يدعى «حليب الأسد»!

مد «جمال» إحدى الكؤوس إلى «كونور»:

-اشرب أيها الأسترالي!

رفع «كونور» كأسه إلى أنفه وشم رائحته.

-رائحته طيبة. مثل العرقسوس.

أخذ رشفة كبيرة فشعر بالهواء ينسحب من رئتيه. أخذ يسعل وعيناه تدمعان. بعد أن أخذ «جمال» رشفة كبيرة من كأس الراكي الخاص به، وقف في وسط الغرفة، ومال برأسه إلى الجانب ورفع كلا الذراعين على مستوى الكتف، وقد واجهت راحة يد واحدة السقف، بينما راحة اليد الأخرى متجه لأسفل نحو أرضية الحانة المفطاة بالغبار. بدأ في الدوران بشكل أخرق وببطء.

- في الخارج، كل شيء يسيطر عليه الجنون، كلنا جننا.. هزيمة، ألم، حزن.. بينما بالداخل بالمنتصف كل شيء هادئ.

هز «حسن» رأسه وقال:

- الآن هو صوفي.. دائمًا ما يزداد إيمانه بتلك الطريقة عندما يحتسي بعض الراكي.

وكما بدأ فجأة، توقف «جمال» عن الدوران فجأة و ووقف متسمرًا كصخرة في منتصف المكان. لم يبد الرجال المتناثرون في مجموعات حول الغرفة نحوه سوى القليل من الاهتمام، وظلوا منغمسين في أعماق محادثات، وقد انعقدت الحواجب وكثر التلويح باليدين بشكل قاطع. أغلق»جمال» عينيه وأخذ نفسًا عميقًا، ثم بدأ في الغناء بصوت شجي رخيم، لا يليق بمثل هذا الرجل الضخم. أخذ يتمايل مع النغمات ويصفق مع الإيقاع بيدين مرفوعتين لأعلى. اتجهت الوجوه نحوه مبتسمة وقد تعرفوا على اللحن، وكأنما قد انتقلوا بعيدًا نحو الجبال المكسوة بأشجار الصنوبر في المناطق النائية في الأناضول من خلال قوة غناء «جمال».

بدأوا في الانضمام، يطرقون على الزجاجات والكؤوس بالملاعق المعدنية، ويقومون بالتطبيل على الموائد والتصفيق على أفخاذهم. سعد «جمال» للانتباه الذي اجتذبه، فبدأ بالانسجام أكثر والرقص وهو يغني. انتشرت الأغنية بالغرفة مثل النيران في الهشيم وانضمت إليه أصوات أخرى بينما هو يعلو بإيقاع صوته، ليصل لأعلى مستوى له. تمايل الرجال معًا، ذراع في ذراع.

عاد «جمال» إلى حيث جلس «كونور» مع «حسن» وسحب كرسيًا ليتهالك عليه. مال «حسن» إلى الأمام، وهو يصيح لـ«كونور» فوق الضجيج: - إنه مغن متحمس، ولكنه أسوأ رقيب في الجيش العثماني كله.. لقد أنقذت حياة هذا الرجل ثلاث مرات، ولا مرة منها في معركة!

سكب «جمال» المزيد من الراكي في كؤوسهم الثلاثة، قال «جمال» مداعبًا «حسن» بمودة: -انظر إليه. كأنه طاووس بشارب ضخم وأزرار ذهبية...

ثم أخذ يترنم مداعبًا:

-أحب زوجتي، وأحب أطفالي.

أخذ «كونور» يضحك على الرغم منه. استدار «جمال» نحوه وهمس بخبث:
-الليلة نقتل هذا الرجل معًا، اتفقنا؟ أنت وأنا. نقتله بحليب الأسد. هيا!

رفع «كونور» كأسه وأخذ رشفة صغيرة مجيبًا:

-هيا!

هز «جمال» رأسه وهو يعود إلى اللغة التركية: -أنا لا أثق به.. لا يشرب مثل الرجال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الواحد والثلاثون

الليل ساكن والهواء ثقيل.

شق «كونور» طريقه عبر الشوارع المظلمة، لم يتوهج إلا عدد قليل من الفوانيس في نوافذ المباني ذات الشرفات التي مر عليها بينما هو يصعد المنحدر الحاد نحو قمة التل. تحركت الظلال وذابت بينما بعض سحب ضباب البحر المنخفضة تسبح أمام قرص القمر. رنت قرعات حذائه الثقيل عبر الأزقة وتردد صداها، مستدعية عواء كلب ضال بدأ بأنشودته الحزينة. توقف، وأخذ يستمع وقد تأكد من أن أحدهم يتبعه، لا يزال هناك ضوء واحد يشتعل في بهو فندق «طروادة». لم يستطع «كونور» رؤية أي حركة بالدور الأرضي؛ الوقت متأخر، ولابد أن أهل البيت نائمون. ارتقى درجات السلم بهدوء، شاعرًا بالحرج من تسلله بتلك الطريقة، فهذه ليست طريقته المعتادة. جرب حظه مع مقبض الباب النحاسي اللامع، الذي صقلته السنوات العديدة من الاستخدام المتكرر.

لحسن الحظ لم يكن الباب مغلقًا، سامحًا لـ«كونور» بدفع الباب يفتحه. لو كان الباب الأمامي مغلقًا، فهو غير متأكد مما سيفعله - غالبًا لن يكون لديه خيار وقتها سوى إيقاظ «عائشة» أو «أورهان»، وهي الفكرة التي أثارت ضيقه.. اتجه نحو الردهة باحثًا عن حقيبته، ثم تحرك نحو مكتب الاستقبال، ولاحظ وجود ضوء في الصالون.

-سيد «كونور»؟

في الضوء الشحيح، أمكنه أن يميز «عائشة» جالسة على كرسي بذراعين مكسو بالقطيفة وذو ظهر مرتفع في الصالون، أخذ يتنفس ببطء.. لكم هي جميلة. قال: -آسف للغاية لأنني أزعجتك.. أنا هنا فقط لآخذ حقيبتي...

وقفت «عائشة» وتقدمت عبر الردهة نحوه، وقد رفعت يدها في اعتراض: -لا، أنا سعيدة لأنك أتيت، كنت أنتظر متمنية عودتك. وددت أن أعتذر عن كل ما قلته.. لقد كنت غاضبة لحظتها.. لم أقصد أي كلمة مما قلتها لك.

بالنظر إلى الظروف التي افترقا بها، لم يكن هذا هو الاستقبال الذي يتوقعه «كونور». شعر بموجة من الندم تهاجمه. قال: -أنا من يجب أن أعتذر. افترضت أكثر مما ينبغي لي...

-إنه أمر صعب حتى بالنسبة لأولئك الذين يعيشون هنا منا.

-لا، لقد كنتِ على حق. ملأت رؤوس أبنائي بكل ذلك الكلام الفارغ عن الشجاعة والبطولة... الله، الملك، والوطن... أولادي الأشقياء الأحباء

المليئون بالحياة.

شعر بحزن لا يمكن السيطرة عليه ينبعث من مكان مظلم ليبتلع روحه حتى النخاع. همس: -كانت مهمتي هي أن أقودهم إلى عالم الرجال، وقد فشلت فيها وخذلتهم.

نظرت في عينيه معلقة بتعاطف:

-أقيس الرجل من خلال مقدار حبه لأطفاله، وليس بما فعله العالم بهم.

غمرهما الصمت، لم يعرفا ماذا يقولان.. حطم «كونور» الجمود المخيم بقوله: -حسنًا، إذا كان بإمكانك فقط توجيهي لحقيبتي سأكون ممتنًا. ليلة سعيدة للكِ، وآسف مرة أخرى لإزعاجك...

-ولكن أين ستبقى الليلة؟ أنت ستغادر على متن السفينة البريطانية غدًا، أليس كذلك؟ «عمر» لن يعود هنا قبل ذلك.. يمكنك الإقامة بغرفتك حتى يأتي الصباح.

بعد أن استسلم وأعد نفسه لضرورة قضاء ليلة غير مريحة في مكان ما عند رصيف الميناء في انتظار شروق الشمس، شعر «كونور» بالارتياح لعرضها. قال ممتنًا: -شكرًا لكِ.. أنتِ لطيفة للغاية.

تحركت «عائشة» نحو مكتب الاستقبال، أشارت معتذرة نحو رفات حقيبة «كونور»، والتي جلست متهالكة على مكتب صغير.

-لقد حاولت أنا و«أورهان» إصلاحها، لكن المزلاج مكسور.. صباح الغد سأعطيك حبلًا لربطها قبل أن تغادر.

تقدم «كونور» نحو بقايا حقيبته، ورفع الغطاء ليغمره شعور بالارتياح عندما لمح مذكرات «آرت» ونسخة كتاب «ألف ليلة وليلة» على قمة مطوية بعناية ولكن متربة من الملابس. أخذ المذكرات ووضعها بعناية داخل جيب صدره. ثم مد يده بكتاب «ألف ليلة وليلة» إلى «عائشة» قائلًا: -لن أحتاج إلى دليل المنطقة العتيق الخاص بي بعد الآن. هل تعتقدين أنه قد يعجب «أورهان»؟

-أنا متأكدة من أنه سيحبه.

هكذا أجابته وهي تأخذ الكتاب بين يديها وتبتسم بحزن. جمع «كونور» الحقيبة المكسورة تحت ذراعه. قال: -شكرًا لكِ مرة أخرى.

ثم تحرك نحو السلم مستطردًا:

-سيأتون هنا من أجلي في الصباح للتأكد من أنني سأكون على متن المركب. ليلة سعيدة.

-سيد «كونور»؟

توقف، والتفت نحوها متسائلًا. سمعها تقول:

-قبل أن تذهب، هل لي أن أطلب منك خدمة صغيرة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس «كونور» على المقعد الحجري الطويل الذي يمتد بطول جدار المطبخ. فوق السطح الرخامي المكسور والمنقور تراصت مجموعة من الأطباق الصغيرة، بعضها لامع مثل الأحجار الكريمة، منقوشة بضربات فرشاة من اللون الفيروزي والأخضر الزمردي والأحمر القرمزي، بينما البعض الآخر مصنوع من صفائح وردية من النحاس المحفور والمختوم بأشكال هندسية. كل طبق يحتوي على شيء مختلف، ويفترض - كما أمل هو - صالحًا للأكل. بطبق منهم تراصت مكعبات أرجوانية صغيرة لامعة منثور عليها عشب أخضر مفروم ناعم، بطبق آخر رقدت دوامة من معجون أصفر كالزبد تعلوها نفحة من مسحوق أحمر وقطرات من زيت أخضر لامع، وبثالث كانت عجينة حمراء زاهية مرقطة برقائق برتقالية. تعرف «كونور» على واحد أو اثنين من المكونات في هذا الطبق أو ذاك، لكنه لم يستطع التوصل لاسم لأي من هذه الأطباق.

-أفهم من هذا أنه لا يوجد بيض مسلوق إذن؟

ضحكت «عائشة» مجيبة:

-لا.. لا يوجد بيض على الإطلاق. أغلق عينيك.

أطاعها «كونور»، ثم شعر بها تضع شيئًا في أصابعه وهي تقول: -جرب هذا.

وضعه في فمه ومضغ، فشعر بمذاقه قشدي نوعًا ما، ربما يكون زبادي؟ لكن النكهة الحادة للثوم اللاذع كانت غير مألوفة تمامًا لغدده التذوقية، والنعناع المجفف بالرغم من رائحته الذكية كان غير متوقع.

-إنه يسمى «جَاجِيْك»، أو «خيار بالزبادي».. إذن؟ ما رأيك؟

-حسنًا

وابتلع ثم غمغم:

- مثير للإعجاب.

-لقد تعلمت أن أصنع هذا من جدتي باستخدام زبادي من حليب الغنم.

-ألا توجد أبقار في هذا البلد؟

أجابت بلهجة جافة:

- لم أر أيًّا منها.

ثم أضافت وهي تُسلِم «كونور» ما شعر به مثل سيجار صغير: -والآن جرب هذا.

مضغها فوجد العجين -الرقيق كالحرير– المقلي يذوب في فمه. في وسطها حشو دافئ ولذيذ من الجبن اللاذع والبقدونس المفروم.

-أوه. هذا جيد للغاية!

هكذا علق «كونور» مبتسمًا وهو يفتح عينيه، وقد اندهش أنه أعجبه لذلك الحد. ردت له «عائشة» الابتسامة بمثلها وقد برقت عيناها الخضراوان. إنها تستمتع بهذا. قالت: -أما هذا فاسمه «لفائف بورُك». أفضل طبق أجيد صنعه. وهو المفضل لدى «أورهان».

بعد ذلك، أعطته شوكة.

-والآن، موعد طبق الحلوى.

نظر «كونور» بريبة إلى القطعة المشوهة من الفاكهة التي تسبح في شراب يملأ أحد الأطباق.

-وما هذا؟

-تين مسلوق في ماء الورد مع الفستق والبهارات. شم رائحة القرفة، استشعر كم تبعث فيك من دفء.

أغلق عينيه بطاعة مرة أخرى، وأخذ قضمة منه: -أوه، ياللسماء! هذا لذيذ. مم قلتي أنها تتكون مرة أخرى؟

-تتكون من ألف عام من حب الطعام.

ثم بدا عليها التردد. قالت:

-كيف يمكن لرجل يشعر بالأنهار تحت الأرض ألا يستطيع رؤية ما يوجد أمام عينيه؟

فتح «كونور» عينيه ونظر إليها. قال:

-أرى جيدًا بما يكفي.

بادلته «عائشة «النظرات، وشعرت بأن روحها نفسها تذوب.

-اليوم، لم تفترض كثيرًا، لم تبعد بافتراضك عن الحقِيقة في الواقع.

استقرت يدها الناعمة على المقعد، وقد فردت أصابعها على الرخام. مد «كونور» يده نحوها، ووضع يده الخشنة على يدها.

رفعت «عائشة» كف «كونور» إلى شفتيها وقبلته، ثم وضعته برفق على وجنتها، تسارعت دقات قلبها.. لم تمس قط رجلا غير زوجها بهذه الطريقة، لكن الإحساس بجلد «كونور» على جلدها جعلها تريد أن تحني ظهرها وتستسلم.

-ليس لديّ مكان في قلبي لرجلين.. منذ وصلت أنت وهو يتلاشى من داخلي، وهذا يخيفني.

وقف «كونور» وأدارها بلطف في مواجهته. أحنى رأسه ولامس شفتيها بشفتيه، ولف ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه، مالت «عائشة» بذقنها وعانقته هي الأخرى، شعر «كونور» بجسدها الناعم وهو يجذبها نحو صدره. كانت الرغبة والعاطفة من الانغماسات غير المجدية في المناطق النائية الأسترالية، ولم يكن لدى «كونور» الوقت أو الرغبة في الاستسلام لأي منهما.. لكنه يريد ويشتهي هذه المرأة بالذات بقوة ترعبه، شعور يتصاعد من داخل روحه نفسها فيملأ صدره ويجعل التنفس صعبًا.. أخذت «عائشة» بيده لتقوده من المطبخ.

-تعال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضوء الوحيد في غرفة «عائشة» هو ضوء القمر الأزرق الباهت الذي تدفق من خلال الستائر الدانتيل، فيمر عبر الملاءات البيضاء المنشاة، ويحط فوق ظل الجسدين المستلقيين على السرير. ارتمى زوج من الأحذية الجلدية البالية على الأرض بركن الغرفة، بعدما تم نزعهما على عجل بأصابع خرقاء رمتهما على السجادة. أما تحت حافة فرش السرير الصوفي، فقد تم طوي فردتي حذاء أنثوي رقيق عنابي اللون بدقة جنبًا إلى جنب، بعدما تم فك أزرارهما الصغيرة بحذر وتصميم. رقد كل من «عائشة» و«كونور» في مواجهة بعضهما البعض على السرير الفرنسي الصغير، وقد ارتاح رأسها فوق ذراعه، ويدها على صدره. كان بوسعها أن تشعر بنبضات قلبه وأنفاسه اللاهثة. اتجهت نحوه وضغطت بوجنتها على صدره، ودست رأسها تحت ذقنه. أمكنها شم رائحته، دافئة رجولية وبها عبق الدخان، وشعرت بأنفاسه تداعب شعرها بينما هو يخفض رأسه لتقبيل قمة رأسها.

همست:

-لقد نسيت ما يتم فعله بهذه المواقف.

أخذ «كونور» يدها ورفعها إلى شفتيه. همس:

-ليس علينا فعل أي شيء. أنا راضٍ بالاستلقاء هكذا أنظر إليكِ.

قال هذا على الرغم من أنه يرغب بها لدرجة أنه بالكاد يستطيع التنفس، لأنه يعلم أنه سيكون من غير المناسب أن يضغط عليها.

-لم أتخيل قط أنني سأرقد هكذا بجوار رجل آخر، لكن....

ثم صمتت مترددة لثوانٍ قبل أن تكمل:

-لكن يمكنني تلبية احتياجاتك.

كان «تورغوت» شديد الفحولة والشهوة، ولم يكن من الممكن لها دائمًا أن ترضي احتياجاته كما ينبغي لزوجة مخلصة أن تفعل. كانت «ناتاليا» هي من تحدثت إليها عن الطرق الأخرى التي يمكن للمرأة أن تجلب بها المتعة للرجل. قال لها: -ليس إذا كنت لا أستطيع الانسجام مع احتياجاتك.

تصارعت مع ضميرها تحاول أن تقاوم:

-لا ينبغي لي أن.....

حاول «كونور» إخفاء خيبة الأمل في صوته:

-حسنًا.. لا بأس.. فلنكتفِ بالاستلقاء هكذا.

أدرات وجهها نحو وجهه وقبلته بتردد بينما هو يضغط بيده على أسفل ظهرها. ويسحبها نحوه. شعرت «عائشة» بحاجة إلى الشعور بجلده على جلدها. فمدت يدها إلى الأزرار الصغيرة اللؤلؤية التي تغلق قميصها ذو الأكمام الطويلة. ارتجفت أصابعها وهي تفتحهم واحدًا بعد الآخر، حتى سقط القميص الحريري الفيروزي عن جسدها. وبينما القميص يتنحى جانبًا ليكشف عن بشرتها العاجية الجذابة، شعر «كونور» أنه مأخوذ من فرط جمالها. انحبس صوته في حلقه لثوانٍ، قبل أن يخرج غليظًا وأجشّ: -أوه... كم أنتِ جميلة.

تبادلا النظرات، وقد سكنت الأيدي الآن عن الحركة. كسرت «عائشة» حاجز الصمت: - يجب أن ننام الآن. سيأتي النهار قريبًا.

قام «كونور» بتقبيل «عائشة» برفق على شفتيها: - نعم يجب علينا أن نفعل.

استلقى على الوسادة وراقبها وهي تغلق عينيها. تسلل ضوء القمر ساقطًا فوق منحنى خصرها وانتفاخ صدرها وهي مستلقية بجانبه. يريد أن يكون معها، لرعايتها. لكنها قوية جدًا وعالقة بين عالمين، ولا يأمل في أن يتمكن من فهم أي منهما. شعرت «عائشة» بنظرة «كونور» وفتحت عينيها.. قبلته وابتسمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني والثلاثون

اهتز جسد المرأة فوق الرجل، بينما يداه العريضتان تحيطان بخصرها الصغير. كانت النشوة تملؤهما وفجأة انطلق هدير مدفعية يصم الآذان بالخارج. تبعه صوت ارتطام هائل، ثم صوت تناثر الشظايا وهي تخترق الوحل واللحم.

نظر إلى وجهها.

تساقط شعرها فوق جبينها ليحجب ملامحها عن بصره.

ارتفع صوت انفجار آخر؛ اهتزت الأرض تحتهما. لم يبد عليها أي انفعال، كأنما صمت أذنيها عن الأصوات المميتة للمعركة من حولهما. استمرت تحرك جسدها فوق جسده، وتعيد شعرها الطويل خلف ظهرها.

- «إديث»؟

شعر أنه مرتبك للغاية. مستحيل أن تكون «إديث»، فهي في بلدة «رينبو». لا ينبغي أن تكون «إديث» هنا! شعر بالدماء -الساخنة والرطبة- تتدفق على وجهه. رفع يده إلى جبينه فشعر بالجرح الخشن والعميق. شعر بالعظام التي ظهرت من أسفل اللحم المشوه، بينما استمرت فكرة ظهور «إديث» تراوده. نهض، واستمر في مواقعة المرأة الجاثمة فوقه بينما يدق الرصاص والقذائف من حولهما. التفت إلى اليسار. مستحيل أن يكوه ما يراه حقيقة!

شعر أن أخاه يرقد بجواره. تساءل:

- هل هذا «هنري»؟

بدا رأس «هنري» كأنه منقسم لنصفين؛ العين الزرقاء الباقية بدت خاوية ميتة.. ميتة مثل صاحبها الذي صعد للسماء بالفعل تاركًا هذا العالم بالكامل. بكى، ثم نظر إلى اليمين.. لمح «إيد»، وقد تسربت الكثير من الدماء من خلال سترته، لتتجمع في ملاءة أسفل الجانب الأيسر من رأسه. لن يظل طويلًا بهذا العالم. شاهد «إيد» يرفع يده متوسلًا. وهنا أدار «آرت» نظراته بعيدًا، وثبّت عينيه على الهيئة التي ابتعدت عنه، شعر بجسده كله ينبض كقلب ضخم، ويكاد ينفجر. رفعت يديه الملطختين بالدماء إلى ثدييها، بينما هو يصل لذروته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والثلاثون

خفضت المرأة تنورتها وترجلت من فوق الرجل الشاب الذي رقد على أريكة متسخة ومتهالكة. كان السرير المنخفض مختفيًا عن الأنظار بستارة مصنوعة من قماشة خشنة من الخيش القديم، وقد سحبتها المرأة جانبًا الآن. تقدمت بضع خطوات وسرعان ما اختفت في الأعماق المظلمة للمبنى المتشعب.

تمايل الشاب مرتبكًا، وأرجح ساقيه إلى حافة السرير، منتظرًا أن يتوقف رأسه عن الدوران. جلس وهو يغلق سرواله ويدخل قدميه داخل زوج من النعال الجلدية البالية، ثم مد يده يلتقط السترة الكاكية الباهتة المزينة بشعار القوات الأسترالية الإمبراطورية والمعلقة على المشجب. أدخل أحد ذراعيه بخرق في كم سترته ثم أتبعه بالآخر، قبل أن يحاول الوقوف، ليتعثر في أحد الأجساد التي استلقت عند قدميه. كانت الغرفة المكسوة بألواح خشبية مضاءة بشكل خافت، وأرضيتها عبارة عن مزيج من المراتب والوسائد القديمة الملطخة والكليم البالي. كان من الصعب الرؤية من خلال الضباب الناجم عن دخان الأفيون، والذي ارتفع في حلقات ودوامات من الغلايين التي استقرت بين أصابع الرجال اللامبالية، والذين تمددوا على الأرض متشابكي الأطراف.

بصعوبة رأى قدميه وشق طريقه عبر غابة من الأجساد المتشابكة نحو باب خشبي في الجانب الآخر من الغرفة. أخذ يعرج حتى وصل لعصا مستندة على الجدار، فأمسكها وفتح الباب، ليغمر ضوء الصباح المبكر الغرفة. حدق «آرت» بعينيه الزرقاوين تجاه الشمس، قبل أن ينطلق متعثرًا في الشارع، وقد اتكأ بشدة على العصا. أخذت الديوك تصيح مرحبة بمجيء الصباح، ليتردد صدى صيحاتهم على طول الأزقة الضيقة والمتربة. انطلقت الدجاجات تنقر الحبوب السائبة في الشارع بينما جلست قطة بيضاء بعين خضراء وعين زرقاء على عتبة بيت تنظف نفسها. انحنت امرأة عجوز ترتدي فستانًا أسود ووشاحًا مبهرجًا بشراشيب ملفوف حول رأسها، وأخذت تكنس عتبتها الأمامية وتلقي الماء من كوب – كأنها تلقي ببعض البذور- لتُبقي الغبار بالأسفل.

كان «آرت» غافلًا عن أصوات استيقاظ المدينة، وشعر بنفسه في حلم يقظة. رفع يده ليخدش القمل الذي استوطن شعره البني الفاتح. شقت ندبة حمراء متعرجة جبهته، وأما سرواله - الفضفاض والأبيض على الطراز المحلي - فكان ملطخًا وخشنًا، وقد تدلى حول خصره الهزيل بفضل الحزام الذي حمل شعار القوات الأسترالية الإمبراطورية.

وقف ثابتًا في منتصف الشارع، وقد جذب انتباهه منظر كلبة نحيلة للغاية برزت ضلوعها من تحت جلدها المتسخ، تُرضِع جراءها الثلاثة. رقدت الكلبة

مستسلمة، مضروبة، بعينين غائمتين، بينما تقاتلت الثلاثة كلاب الصغيرة على أثدائها. حدث ما قاطع حلم يقظته، وكان متمثلًا في رجل ضخم يقود حمارًا محملًا بالكثير من حزم القمح يحاول المرور هاتفًا:

-احذر! احذر!

تراجع «آرت» للوراء نحو الحائط الحجري المطلي باللون الأبيض، وقد رفع يديه وهو يرد باللغة التركية:

-حسنًا، لا بأس يا أخي. حسنًا. اهدأ.

تموجت الأرض تحت قدميه.

أغلق «آرت» عينيه وهو يتراجع نحو الحائط بينما الرجل يهز رأسه ويندفع مارًا بجواره، وشعر «آرت» بالبرودة الليلية الرطبة في الحجارة تتسرب إلى عموده الفقري، بينما أشعة شمس الصباح تدفئ وجهه. هبت رائحة كريهة مزعجة اخترقت رائحة الأفيون التي سيطرت على أنفه. عبر الزقاق، جثمت امرأة شابة ضخمة على لوح خشبي تقطع وتصنع قوالب طوب من السماد لتقوم بتجفيفها في الشمس ليتم استخدامها فيما بعد كوقود. عند قدميها سلة منسوجة من القصب المجفف، ملطخة ببقعة من بقايا الروث التي جمعتها في منزلها في الليلة السابقة، لتضيف إلى الوحل الفاسد بعض فضلات الطيور والحيوانات والبشر على حد سواء. استدار وبدأ في الصعود إلى أعلى التل هربًا من الرائحة الشنيعة. تقدم «آرت» بحذر محاولًا الحفاظ على توازنه على أرضية الشارع -المرصوفة بالحصى- الزلقة وغير المتساوية، وقد مد إحدى يديه ليثبت نفسه على السور، بينما يده الأخرى تمسك بعصاه الخشبية.

تقاطع شارع ضيق آخر مع الزقاق، بينما امتلأ الهواء هنا برائحة دافئة للخبز الطازج المخبوز لتوه. من خلال نافذة زجاجية، لمح كومة من الأرغفة الشهية ذهبية اللون تتأرجح بشكل غير مستقر، وقد وقفت مجموعة من النساء في حلقة خارج المتجر، في انتظار قيام الخباز المغطى بالدقيق بخدمتهن. رؤوسهن مغطاة بأوشحة ذات ألوان زاهية وأطراف من الدانتيل رقيق حواف. انخرطت النسوة في الضحك والثرثرة، وقد ازدحمت وجوههن بنية اللون بالكثير من التجاعيد، مستمتعات بفترة راحة من أعمال اليوم الروتينية. بينما يعرج «آرت» مارًا بجوارهم، مال الخباز وهو يرفع يده بالتحية وينادي على الشاب ليقترب. سار الشاب مترنحًا وقد انحرف عن طريقه، وخطا متجهًا إلى باب المخبز حيث تراجعت النساء وتحركن جانبًا لتسمحن له بالمرور. أخذ قطعة الخبز التي قدمها له الخباز وعبر عن امتنانه للهدية برفع يده إلى جبينه.

-شكرًا.. سلمت يداك.

ابتسم الخباز بلطف وهو يومئ برأسه ويرد تحيته بالتحية التركية المعتادة:

-بالهناء والعافية والصحة.

لم تفت «آرت» مدى سخرية تلك التحية بالنظر لحالته الصحية.. ابتسم بمرارة وهو ينحدر عبر مدخل المتجر المجاور ويغرز أسنانه في الخبز المقرمش، مستشعرًا طعم الخبز الذي لا يزال دافئًا، والناعم كالسحاب، وتفاجأ لسماع صوت قرقرة معدته. أخذ يمضغ، يُدحرج العجين المالح الحلو داخل فمه. اعتمد وجود «آرت» البائس المدقع كليًا على كرم الآخرين؛ صار تواجده مألوفًا في شوارع بلدة «أفيون» وأمست حياته قائمة على الصدقات التي يمن بها عليه أصحاب الدكاكين ومن يسكنون في البيوت الصغيرة التي تصطف في الشوارع؛ هدايا صغيرة من الطعام، والملابس، وبعض العملات المعدنية بين الحين والآخر. مع مرور السنين، خفتت شعلة الطاقة التي تحركه إلى وميض خافت؛ تقلصت احتياجاته الجسدية تمامًا بسبب الحرمان، لدرجة لم تعد الأحاسيس مثل الجوع والتعب تمثل تأثير على وعيه المتبلد. ابتلع قضمة الخبز، شاعرًا بآخر قضمة من الرغيف تمر عبر حلقه ونحو بطنه.

سمع صوتًا واضحًا وسط هواء الصباح، في البداية اعتقد «آرت» أن صوت الدقات يأتي من داخل رأسه، فظنها دقات إيقاعية تتصاعد من داخل جمجمته الجريحة. ولكن بعد ذلك سرعان ما انضم صوت نغمة الناي الحزين إلى دقات الطبل. اتكأ على عصاه ليرفع جسده وينتصب واقفًا، وقف وقد أرهف سمعه، ثم بدأ يسير محاولًا اتباع مصدر الأصوات، ولكنه في نفس الوقت تساءل عما إذا كان اللحن حقيقيًا، أم أنه من نسج خياله المضطرب. استدار عند الزاوية، فارتفع صوت الموسيقى. إلى يساره رأى سلمًا منخفضًا يؤدي إلى قوس حجري ينفتح على شرفة ضخمة محاطة بسور حجري مرتفع. الشرفة مرصوفة بحصى صغير أسود وأبيض لامع، مرتب على شكل رقعة شطرنج. هنا كان قرع الطبول بصوت أعلى، وأكثر ثباتًا، بينما يتردد صداها حول جوانب الفناء الأربعة. صعد «آرت» درجات السلم الواسع بحذر، وتشبث بالمدخل الحجري المتهالك بأصابع ضعيفة. كان السير على الحصى صعبًا؛ ضغطت الأحجار المستديرة بشكل غير مريح على باطن قدمه، وقد صارت عصاه غير مجدية على مثل هذا السطح غير المستوي. في قمة الفناء يوجد مبنى ضخم، يحد مدخله رواق ذو أعمدة وقد تخللت الجدار الطويل المواجه لـ«آرت» نوافذ كبيرة مقوسة، أمكنه رؤية الحركة عبر النوافذ. اتجه نحو الرواق واقترب من باب المبنى، ليرتفع صوت الموسيقى مع تقدمه عبر الأبواب الخشبية الضخمة المنحوتة التي وقفت مواربة.

تبدت أمام ناظريه الغرفة الكبيرة غير المفروشة.

تحت سقف مرتفع وقف سبعة رجال متباعدون مثل قطع الشطرنج في حلقة على أرضية مغطاة بالبلاط، يدور كل منهم ببطء وبشكل إيقاعي، وأذرعهم ممدودة على ارتفاع الكتف، وقد رفع كل واحد منهم كف يد ليواجه السقف، بينما الكف الآخر يواجه الأرض، وقد مال رأسه نحو أحد كتفيه، والعيون مغلقة بهدوء. كان جميع الرجال يرتدون سترات طويلة رمادية فوق تنانير منتفخة لدرجة أنها تطايرت كأمواج البحر وهم يدورون، ليذكر منظرهم «آرت» بمنظر أمواج مياه البحر وهي تتكسر على الشاطئ. على قمة الرؤوس ارتدوا قبعات طويلة مخروطية الشكل. في الزاوية، قبع الموسيقيون، الذي كان عزفهم هو النداء الذي جلب «آرت» لهذا المكان، جالسين على مقاعد خشبية صغيرة، يهزون رؤوسهم ببطء مع الموسيقى. الأكثر غرابة أن ولا واحد من الرجال أظهر أي اهتمام بوصول «آرت»، كأنه كان غير مرئي بالنسبة لهم في حالة النشوة التي هم فيها. بدا المشهد بعيد الاحتمال لدرجة أن «آرت» شعر أنه غير متأكد مما إذا كان يهلوس أم لا. شعر أن إدراكه للواقع يتفكك ويتحلل. الخط الفاصل بين الكون الحقيقي والمتخيل أمسى شفافًا قابلًا للاختراق بشكل متزايد؛ غالبًا ما تتنقل بعض المشاهد والرؤى بين أحلامه الناتجة عن الأفيون والعالم من حوله. أسقط عصاه على الأرض، وقد أخذت حواسه تدور، بينما هو يشاهد الرجال وهم يدورون بصمت في نشوة. انجذب «آرت» نحوهم كأنه قمر صناعي يتم سحبه إلى مدارهم. تمايل إلى الأمام في وسط الدائرة وقد مد ذراعيه، وأغمض عينيه، بينما تنقله الموسيقى لعالم آخر، وهو يدور بجسده الأعرج محاولًا تقليد الدراويش حوله دون نجاح كبير. للحظة استولت عليه نشوة صوفية وشعر «آرت» أنه في مركز عالمه لكن لا يوجد وحي ينتظره.. كل ما يراه هو هاوية سوداء ميؤوس منها.. توقفت الموسيقى، وبالمثل توقف الدراويش عن دورانهم.

نظر «آرت» إلى السقف، وأخذت الدموع تنهمر على وجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والثلاثون

انتفض «كونور» جالسًا في ضوء الفجر، يتنفس بصعوبة.. هتف:

-إنه على قيد الحياة!

بعينين مثقلتين بالنوم، استيقظت «عائشة».. كانت مستلقية بجانب «كونور»، ومدت أناملها لإغلاق قميصها بينما هي تعتدل جالسة بجواره، همست:

-كيف لك أن تعرف؟

لم يتركها اليقين الواضح في عيني «كونور» نهبًا للرفض أو الشك، ثم أدركت شيئًا. قالت:

-كنت تعرف هذا بالفعل منذ البداية، أليس كذلك؟ لهذا أتيت إلى هنا.

بدا أن تصميم «كونور» الذي لا يتزعزع منطقيًا. أكملت:

-أنت لم تأتِ هنا لمطاردة الأشباح.

انحني «كونور» لربط حذائه، وهز رأسه، كان يتحدث إلى نفسه بقدر ما كان يتحدث إليها:

-لم تصدقني «ليزي» قط. وبالنسبة لي ، لم أشعر أن «آرثر» ميت أبدًا، ليس بنفس الطريقة التي أشعر بها نحو «هنري» و«إيد».

قاطعت دقات عالية مفاجئة على باب الفندق الأمامي «كونور»، تجمد هو و«عائشة» كما لو كانا مراهقين تم الإمساك بهما. ساد الصمت للحظة ثم ارتفع من جديد صوت الدقات الجوفاء التي تردد صداها عبر الرواق وفوق درجات السلم. ثم ارتفع بعدها صوت النداء المفاجئ نافد الصبر:

-انزل من فضلك يا سيد «كونور»! ما زال أمامنا مسيرة طويلة إلى رصيف السفن!

نظرت «عائشة» إلى عيني «كونور» وهمست:

-لا تستطيع العودة الآن.

عرف كلاهما أن فكرة الوصول إلى هذا الحد ثم السماح بأخذه إلى سفينة بخارية متجهة إلى أستراليا لم يعد خيارًا.

قال «كونور» باقتناع:

-لن أذهب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند المدخل، قام الكابتن «بريندلي» بجمع يده في صورة قبضة غاضبة وأخذ يطرق على الباب بقوة أكبر. ملتزمًا بكلمته، فقد أتى هنا مع رجاله لمرافقة «كونور» إلى رصيف الميناء، لضمان انسحاب الأسترالي من القسطنطينية وفقًا للتعليمات. بدا هواء ما قبل الفجر مميزًا؛ برد نقي يخدش مؤخرة الحلق مثل شوك السمك. أخذ جندي بريطاني يقفز من قدم إلى أخرى لتدفئة نفسه، فيما أراح العريف بندقيته على جدار الفندق وأخذ ينفث ضبابًا دافئًا وقد كوّر يديه بينما وضع قائده أذنه على الباب الخشبي ليستمع لأي حركة بالداخل. الصمت المطول بالمكان جعل «بريندلي» أكثر توترًا. انتظر بقدر ما سمح له كبرياؤه، وعندما لاحظ الابتسامة التي ارتسمت وراء راحتي عريفه المكورتين انفجر:

-أعطني بندقيتك!

أعطى الأمر، وبدأ في الطرق على الباب الخشبي بعقب البندقية. تردد صدى القرعات المتكررة من خلال البهو الفارغ، ولكن ظل الصمت مخيمًا على الفندق. شعر «بريندلي» وكأنه كلب يقلق سلحفاة تراجعت داخل قوقعتها. ولابد أنه يبدو الآن سخيفًا بنفس القدر. إن وقاحة «كونور» هذا مذهلة بالنسبة لـ«بريندلي»، وتؤكد كل ما يحتقره في المستعمرين وموقفهم من السلطة. فلا عجب أن الجنود الأنزاك كانوا يتمتعون بمثل هذا التجاهل الصارخ للرتب، عندما يكونون جميعًا قد وُلِدوا من نسل المحكوم عليهم. يفخر «بريندلي» بنفسه لكونه من نسل شعب غارق في المجد والتاريخ، حيث التعيينات يتم شراؤها أو تأتي كحق مكتسب. تأسس الجيش البريطاني على مبدأي الانضباط والطاعة. الأوامر هي الأوامر، مهما بدت غير منطقية أو مضللة للمنصب والمجموعة.

يعرف «بريندلي» ومن حوله أن أوامرهم هي جزء من مخطط كبير يلعب فيه كل فوج دورًا، لذلك يطيع هو وزملاؤه الأوامر دون نقاش، حتى لو لم يفهموا تمامًا العواقب المقصودة نتيجة أفعالهم. لقد سارت الأمور بهذه الطريقة لقرون. يجب أن تعمل تروس عجلات الآلة العسكرية البريطانية في تناغم مثالي، وإلا سيتفكك الإطار بأكمله، ولهذا فإن عقوبة عصيان الضابط شديد للغاية؛ سيواجه الجندي المتمرد المحاكمة العسكرية والإعدام في أخطر القضايا. إذا تعثر الرجال وانهارت الأساسات، يمكن أن يسقط الجيش بأكمله. أما المستعمرون فلديهم وجهة نظر مختلفة تمامًا، ربما بسبب أنهم جيش متطوع. يشير «بريندلي» وأقرانه إليهم على أنهم «غير نظاميين»، وهو اللقب الذي يبدو أن الأنزاك يعتبرونه إطراءً. هؤلاء الرجال يقطعون نصف الطريق عبر العالم ويذهبون إلى الحرب كما لو كانت مغامرة كبيرة، مع كل توقع

للعودة للوطن لعائلاتهم والعودة للحياة الحقيقية كقطعة واحدة عندما تنتهي المهمة. حرية الاختيار والتعبير عن الإرادة يمثلان كل شيء للجنود الأستراليين. تعلم «بريندلي» بالطريقة الشاقة أن الاحترام بالنسبة لهم لا يُعطى، بل يجب اكتسابه. لا يمكن لرجل ذي رتبة عليا أن يتوقع التمتع بالاحترام الواجب من الجنود الاستعماريين الموجودين تحت قيادته تلقائيًا. واجه «بريندلي» في جاليبولي وفرنسا الأستراليين الذين تبعوا ضباطهم عن طيب خاطر إلى أبواب جهنم ذهابًا وعودة، ولكن فقط أولئك القادة الذين وضعوا قيمة عالية لسلامة رجالهم والذين لم يرسلوهم قط لمعركة إذا لم يكونوا هم أنفسهم مستعدين أيضًا للانضمام إلى القتال. قرأ عن هذا مرارًا وتكرارًا في الرسائل التي كان يراقبها. أعظم مدح يمكن أن يعطيه جندي أسترالي لضابطه كان أنه «يتعامل مع الموضوع كأنه لعبة» و «يقود الرجال من الأمام». لهذا ليس مفاجئًا أن تفقد قوات الأنزاك الكثير من الضباط.

لو أن «بريندلي» كان صادقًا مع نفسه، فإن أكثر ما أثار ضيقه هو أنه على الرغم من، أو ربما نتيجة، هذا الاستياء المتأصل من السلطة، كان أولئك المستعمرون يمثلون قوة مقاتلة هائلة. من المؤكد أن رؤوسهم العنيدة هي الشيء الوحيد الذي منع أن يتم اجتياحهم لينجرفوا من فوق منحدرات جاليبولي على يد الأتراك. رفضهم اتباع الأوامر يعني أنهم أعدوا بعض الخطط الفردية للهجوم من عفو اللحظة، والتي غالبًا ما كانت تفاجئ العدو في كثير من الأحيان. ولكن لم يكن هذا هو الحال هنا في تركيا فقط. فعلى خط «هيندنبورغ»، سرعان ما تم إدراك أن الطريقة الأكثر فعالية لكشف الثغرات في الدفاعات الألمانية كانت عن طريق السماح للأستراليين «غير النظاميين» بالانطلاق من مقودهم. تعلم الأنزاك بعض الدروس الصعبة في شبه جزيرة جاليبولي. أصبحت محاولاتهم أسطورية. حتى «بريندلي» قد سمع عن قوات الخيالة الخفيفة في «نيك»، والذين تمت إبادتهم في هجوم أغسطس. كانوا بضع مئات فقط من الرجال –ليس عددًا ذا قيمة في سياق الحرب- لكنه يعلم أن موت كل أولئك الشباب لا يزال يعتبر نقطة مشينة في زحفهم الوطني الجماعي، ولهذا، فإن الأنزاك لا يزالون يلقون اللوم على البريطانيين.

لذلك، في فرنسا وبلجيكا حيث كان حل الحلفاء للمأزق هو طلب موجة تلو موجة من الشباب لإلقاء أنفسهم على المدافع الرشاشة الألمانية، كان الأستراليون يرفضون الذهاب ببساطة. استهزاء الفرسان بالسلطة كان يبدأ من أعلى نقطة في القيادة الأسترالية نفسها. في الخطابات التي يتم إرسالها للديار، اعترف ضباطهم بإعادة الأوامر إلى القيادة البريطانية، يماطلون، ويستعلمون، وبالنهاية يرفضون إرسال رجالهم فوق القمة عندما اعتقدوا أنهم ليس لديهم فرصة للانتصار. تذكر «بريندلي» أنه دخل في جولة مع ضابط أسترالي هدد بإطلاق النار على أي جندي بريطاني سيراه ينسحب من قرية

«فيليرس بريتونوكس»، باعتبار من سيجرؤ على فعل ذلك هارب من الجيش! أمر رجاله أن يحذوا حذوه، اعترض «بريندلي» مشيرًا للضابط الأسترالي أن هناك فرق كبير بين الانسحاب والهروب. قال «بريندلي» بإصرار:

-ليس عليك أن تلعب دور القاضي والجلاد. هناك قواعد!

-احتفظ بآرائك لنفسك يا صاح! لم أضطر إلى إطلاق النار على أي شخص حتى الآن...

وهنا ابتسم الأسترالي ثم أضاف:

-إذن لابد أن الرسالة قد وصلت، أليس كذلك؟

كانت قرية «فيليرس بريتونوكس» نقطة تحول في الحرب، وقد أحدثت تصرفات الأستراليين فرقًا بين النصر والتراجع المحرج. وكان الشيء الذي أثار حفيظة «بريندلي» بشأن الجنود الأستراليين على الجبهة الغربية - نفس الشيء يجعل دمه يغلي وهو يقف هنا في البرد، أسفل ضوء الفجر خارج فندق «طروادة» يدق على الباب الأمامي - هو ما جعل هؤلاء الرجال جنودًا استثنائيين. كانوا يقاتلون حتى الموت من أجل بعضهم البعض ومن أجل كبريائهم الملعون، وعندما يتم إصدار أمر، يكاد يكون مضمونًا دائمًا أنهم سيفعلون العكس تمامًا. هتف:

-أنا أفقد صبري يا «كونور»!

لا شيء ولا رد.

-حطموا الباب اللعين!

تقدم رقيب ذو جسد ضخم مثل لاعبي الرجبي وعنق ضخم إلى الأمام. جرى لبضع خطوات قبل أن يرتطم بكتفه في الباب، الذي اهتزت مفصلاته، لكنه لم يتحرك ولو شبر واحد من مكانه. الباب هنا منذ مائتي عام ولن يستسلم بتلك السهولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دفع «كونور» ذراعيه داخل كمي سترته وفحص جيبه بحثًا عن مذكرات «آرت»، والتي أصبحت الآن أثمن ما في حوزته. استقرت عيناه على «عائشة» وأخذ يتأملها؛ بدا شعرها الداكن أشعث من النوم، والاستيقاظ لا يزال يجاهد للظهور داخل عينيها الخضراوين الواسعتين، اللتان لا تزالان مفزوعتين من الطرقات المتصاعدة من الطابق السفلي. ارتكز لسانها على شفتها العليا بتركيز وهي تغلق آخر الأزرار الصغيرة من قميصها الحريري. نظرت إلى الأعلى، والتقت أعينهما في اعتراف صامت بوجود أشياء كثيرة

متبقية لم تُقال، والكثير من الأشياء التي تُرِكت دون أن تُفعَل. شعرت «عائشة» بوخزة عميقة من الأسف والندم تنهشها. لو لم يكن البريطانيون يدقون على بابها، ولو أنها تمكنت من التغلب على إحساسها المقيد بالأدب والاحتشام، فإنها على استعداد تام لأن تقدم أي شيء تقريبًا للاستسلام للرغبة التي داخلها، لتشعر بهذا الرجل بجانبها. لكنها رغبة تتجاوز التفكير والمنطق.

إنه شيء لا يمكنها أبدًا –ولن يمكنها أبدًا– أن تستسلم له. فتح «كونور» فمه للتحدث، ولكن بدلًا من ذلك أفلتت منه تنهيدة ووجد نفسه عاجزًا عن الكلام. شعر بدفء لا لبس فيه يملأ صدره وهما يتبادلان ابتسامة حزينة، شعور لطيف بحب حلو ومر كان يُزهِر لكن فاجأته رصاصات الخسارة القاسية التي لا مفر منها. سيكون، وسيظل دائمًا، ممتنًا للأمسية التي قضاها بين ذراعي «عائشة»، لكنه الآن يعرف أنه يجب أن يتعلم التمسك بتلك الذكرى، والتحرر من الندم والحاجة للتفكير. أصبح صوت الطرقات من الطابق السفلي أعلى الآن، وأكثر إصرارًا، وأما الألواح خشبية التي كونت الأرضية فقد زأرت ناقلة الضجيج الثقيل عند اقتحام الباب الأمامي. همست «عائشة»:

-بسرعة، من السقف!

ثم فتحت باب غرفة النوم لتجد «أورهان» واقفًا في الرواق، وهو لا يزال في قميص نومه القطني ويفرك عينيه المنتفختين من النوم. لقد أيقظته الطرقات العالية في الطابق السفلي؛ لابد أن باقي سكان البيت لن يلبثوا أن يستيقظوا كذلك. وضعت «عائشة» ذراعها على كتف ابنها وسحبته إلى جانبها. تفاجأ الصبي للحظات برؤية «كونور» في غرفة والدته، لكنه لم يستفسر بخصوص شيء، لأنه لسبب ما شعر أن هذا ليس خطأ، شعر أن هذا هو الطبيعي.. أخبرت ابنها باللغة الإنجليزية:

- «كونور» بيك سيغادر يا «أورهان». يجب أن تودعه.

-متى ستعود؟

هكذا سأله الصبي، فركع «كونور» على ركبتيه وأمسك يد «أورهان» بيديه وأخذ يهزهما بصمت، وكانت هذه إجابة كافية على سؤاله. تلألأت الدموع في عيني الصبي بينما النعاس يفسح المجال للحزن. بالأمس شعر «أورهان» بسبب كلمات عمه القاسية بأن وجود والده ينسل ليختفي من بين أصابعه مثل سحابة من الدخان، والآن يجب أن يواجه خسارة هذا الرجل القوي اللطيف الذي تمكن بطريقة ما من جعله يشعر بالأمان مرة أخرى. عندما يكون مع والدته ومع «كونور»، يشعر «أورهان» أنه وجد طريقة للاحتفاظ

برأسه فوق سطح بحر الأحزان الذي فاض فغطى حياتهما. ألقى الصبي ذراعيه حول رقبة «كونور» القوية واحتضنها بقوة قائلًا:

-وداعًا يا «كونور» بيك، عد سريعًا.

ابتسم «كونور» وهو يداعب شعر «أورهان» الأشعث، قبل أن يقول له:

-ستكون رجلًا عظيمًا، تمامًا مثل والدك.

سمعوا صوت الطرقات المكتوم، يتبعها صوت أنين الخشب وهو يتشقق بالطابق السفلي. ارتعد «أورهان» وتشبث بذراع أمه.

-كل شيء على ما يرام يا «أورهان». يجب أن تكون قويًا. أنت أصبحت رجلًا الآن.

هكذا طمأنت «عائشة» ابنها قبل أن تكمل:

-اذهب وافتح الباب قبل أن يكسروه.

وبينما يتجه «أورهان» عبر الرواق أضافت:

-وعطِلهم بقدر ما تستطيع.

وجه لها ابتسامة واسعة، قبل أن ينزل درجات السلم.

وصل «أورهان» إلى البهو في نفس اللحظة التي قرر فيها الباب الأمامي أن يستسلم للاعتداء البريطاني وانفصل قفله من مكانه! خطا «بريندلي» من خلال الفجوة، متبوعًا بنصف دزينة من الجنود الذين تعثروا بالمكان في محاولة لتمييز تفاصيل الموجودات من حولهم في الضوء الخافت. وقع بصر «بريندلي» على «أورهان» الذي وقف عند أول درجات السلم، وقد برزت ساقاه النحيلتان من أسفل قميص نومه الأبيض. سأله:

-أين «جوشوا كونور»؟

-هل تريد غرفة يا سيدي؟

-بسرعة! الأسترالي! في أي غرفة يقيم؟

-الغرف عندنا رخيصة جدًا.. ماء ساخن.. لا يوجد ألمان.

لم يكن «بريندلي» في حالة مزاجية تسمح لتضييع وقته مع «أورهان». أمسك سجل الفندق وبدأ في تقليب الصفحات. وهنا هتف «أورهان»:

-أتقصد الرجل الأسترالي؟ «كونور» بيك؟ إنه في الطابق الأول. سوف أريكم.

دفع «بريندلي» الصبي بخشونة وصعد السلم خطوتين في كل مرة. استدعى رجاله الذين قطعوا درجات السلم من خلفه:

-الطابق العلوي. فتشوا كل الغرف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمعت «ناتاليا» الضجيج من غرفتها فقامت من السرير مذعورة..

سحبت روبًا فوق ثوب نومها..

بدا صوت انغلاق الأبواب في غرف النزلاء الفارغة بعنف واضحًا وغير معتاد، بينما شق الجنود طريقهم إلى أسفل الرواق تجاه غرفتها! كانت لا تزال نصف نائمة، لكن تغلب عليها شعور غير عقلاني من الخوف والهلع، دون أن تتمكن من السيطرة عليه. على الرغم من أن «ناتاليا» مدركة لأنها موجودة بالقسطنطينية، فإن قرع الأحذية الرسمية الثقيلة على ألواح الأرضية سحبها إلى أحلك الأماكن من ذاكرتها وأكثرها يأسًا. قبل مجيء الحرس الثوري ليقرعوا باب بيتهم في «سانت بطرسبرغ»، توسلت «ناتاليا» إلى زوجها أن يهربوا، لكنه كرجل أعمال افترض أنه يمكنه التفاوض معهم، وهي النظرية التي أثبتت فشلها عندما قاموا بضربه حتى الموت عند عتبة منزله على مرأى ومسمع من الحي بأكمله، بينما اختبأت «ناتاليا «وابنتها الرضيعة «إيلينا» تحت السرير، وهي تستمع إلى صرخات احتضاره! عاثت الأحذية الرسمية الملطخة بالدماء الفساد في منزلهم حتى وجدوهما بالنهاية وانتزعوهما من مخبأهما. صرخت «ناتاليا» وهي تُقّرِب طفلتها من صدرها بذراع، وتحارب بأظافر يدها الأخرى بيأس محاولة منع مهاجميها، لكنهم تمكنوا من انتزاع «إيلينا» من قبضتها وأُلقِيَت مثل لعبة مهملة من نافذة الطابق الثاني!

بعد سماعها لصرخة «إيلينا» تخفت إلى لا شيء، شعرت بقلبها يتحجر، فلم تعد تشعر بشيء غير الاعتياد على فساد البلاشفة. لا شيء يمكن أن يفعلوه لها يمكن أن يكون أسوأ من سماعها صرخات احتضار ابنتها الرضيعة. كان ذلك قبل عامين، وها هي مرة أخرى تسمع عند عتبة بابها نفس صوت الأحذية المرعب! ثم سمعت صوت طرقات خشنة قوية على بابها متبوعًا بهتاف خشن:

- «كونور».. هل أنت بالداخل؟

ثم انفتح الباب بعنف وظهر من ورائه اثنان من الجنود البريطانيين الشباب، وهما يبرزان بندقياتهما ويصرخان، متوقعين مواجهة مزارع أسترالي عنيد هارب، لذلك فوجئا عندما وجدا «ناتاليا» واقفة أمامهما في ثوبها الحريري القرمزي، وقد أحاطت بها قطع أثاث صالون يمتلئ بالزخارف على طراز

الإمبراطورية الروسية. وقفت المرأة ساكنة، متحجرة، وعيناها منخفضتان نحو الأرض، تتوقع الأسوأ.. خطا الجنديان داخل الغرفة بحرج وهما يكادان يعتذران لها، للتحقق مما يوجد تحت السرير وخلف الباب. ارتجف صوتها ودموع الخوف تنهمر من عينيها وهي تتوسل لهما بالإنجليزية:

-خذوا ما تريدون، لكن لا تؤذوني من فضلكم.. لدي أوراقي. كلها هنا. هل تريدون رؤيتها؟

ظهر جندي آخر -برتبة أعلى كما أدركت «ناتاليا»- فخطا إلى غرفتها، وبدا شاربه ضخم مصفف بعناية أكثر من اللازم. قال لها:

-أنا الكابتن «تشارلز بريندلي» يا سيدتي. أبحث عن السيد «جوشوا كونور».

تخطى «أورهان» الضابط البريطاني ووقف أمام «ناتاليا»، وقد وضع يداه على فخذيه ومال بذقنه إلى الأمام متحديًا الجنود.. تنهد «بريندلي» معلقًا:

-أريد «كونور» فقط.

ثم أتى صوت الخطوات الواضح من فوق رؤوسهم، متبوعًا بصوت كشط وتحطم بلاط السقف المصنوع من الطين في الشارع أدناه، وهنا هرع الجنود خارجين من الغرفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت «عائشة» في الشرفة المطلة على قمة أسطح المنازل في منطقة السلطان «أحمد».. اعتلى «كونور» سور الشرفة ووقف على حافة السطح. كانت سماء الليل ذات اللون الأزرق الداكن قد انسحبت بالكامل، بينما ظهرت هالة من الضوء البرتقالي فوق الجزء العلوي من سور المدينة، لتصبغ كتل الحجر الرملي باللونين العنبري والوردي. لم يكن «كونور» منتبهًا لمشهد السماء البديع، وأخذ يدي «عائشة» وقبلهما بلطف. وبينما وجنته الخشنة تحتك بوجنتها اللامعة، أخذت تهمس في أذنه سطرًا من الشعر باللغة التركية:

-ولسوف أنتظر.. فهل لي أن أشهد ليلة أخرى كتلك الليلة؟

-أستميحكِ عذرًا؟

سألها مستغربًا، فردت باللغة الإنجليزية:

-كنت أقول، «لا تكسر المزيد من البلاط».

سمعا صوت أقدام البريطانيين وهي تهدر عبر الرواق تجاههما، واختلسا قبلة سريعة أخرى قبل أن يلتفت «كونور» ليعدو فوق سقف الفندق. اندفع فوق المنحدر الذي يقود نحو القمة، بينما القرميد المستدير للبلاط الأحمر ينخلع

ويتكسر تحت حذائه الثقيل. سمعت «عائشة» صراخًا مسعورًا يتصاعد من داخل فندق «طروادة»:

-توقف الآن! أوقفوه!

واستدارت فلمحت ضابطًا بريطانيًّا يتجه نحو المدخل، وقد رفع مسدسًا في يده. تبعه جندي في أعقابه وهو ينادي:

- كابتن «بريندلي»، إنه فوق السقف يا سيدي!

تقدم «بريندلي» عبر الرواق وهو يسُب ساخطًا، عاقد العزم على عدم السماح للأسترالي بالانتصار عليه. أغلقت «عائشة» الباب وضغطت بكتفها عليه بكل قوتها، ولكن قبل أن تتمكن من إغلاق القفل، حطمه «بريندلي» بكتفه في عنف، ليلقي بها على سور الشرفة. تفقد السقف بأكمله ولاحظ ظل طريدته وهو يتدلى فوق قمة السقف، وقد ظهر ظل قبعته المميزة عريضة الحواف على رأسه. رفع «بريندلي» بندقيته وصوبها نحوه هاتفًا:

-توقف يا «كونور»، وإلا أقسم أنني سأطلق النار!

ترددت صرخته فوق أسطح المنازل، لتفزع العصافير التي حلقت هاربة من بيوتها فوق السقف، ولتحطم الهدوء المخيم على الشوارع أدناه، والتي خيم عليها الهدوء في مثل هذا الوقت المبكر من الفجر. ميزت «عائشة» التهديد الكاذب في كلماته وهي تتردد عبر الأزقة الضيقة، وينعكس صداها فوق الشرفات الخشبية. خفض بندقيته. قد يكون «بريندلي» ساخطًا على الرجل لدرجة الضغط على الزناد، لكنه لا ينوي إطلاق النار على الأسترالي. بدلًا من هذا ظل يشاهده وهو يتسلق فوق قمة السقف ويختفي عن الأنظار.

التفت «بريندلي» نحو رجاله بغضب، قبل أن يشير إلى أقرب رجاله هاتفًا:

-أنت! اصعد هناك! اذهب وراءه!

وبينما يقوم الجندي بمحاولة فاترة لتسلق سور الشرفة لينفذ الأمر، ظهر «إبراهيم» من غرفة نوم قريبة، وهو يرتدي قميص نوم طويل، وقد بدا مشوشًا بشكل واضح بسبب كل هذا الضجيج.. سأل ابنته:

-هل حدث انقلاب آخر؟

تخطى «بريندلي» الرجل العجوز وألصق إصبعه في صدر العريف التابع له وهو يقول بغلظة:

-هذه ليست نهاية الأمر. أريد «كونور» على متن ذلك المركب! اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انزلق «كونور» على الجانب الخلفي من سقف الفندق، متشبثًا بالطحلب الجاف المترسب فوقه وأطراف البلاط، وأخيرًا لامس بالحذاء اللوح الخشبي الذي يدعم السقف فتوقف. أخذ نفسًا وقفز مسافة صغيرة تفصله عن السقف التالي، ليشعر بأن البلاط ينكسر تحت حذائه وهو يهبط. اندفع راكضًا فوق السقف المائل التالي ونحو قمة السقف، وقد صارت كلتا يديه الآن حمراوين، مثلما كانتا تتسخان في منطقة «مالي» بأستراليا، من غبار البلاط.

وجد نفسه يقف عند نهاية الممر الخشبي الضيق الذي يربط البيوت المجاورة، والذي بُنِي منذ قرن، ليساعد الناس في تكوين صف لتمرير دلاء المياه على طول الممر الضيق كلما هددت حرائق المنازل بابتلاع الحي. ارتفعت أصوات تصرخ بالإنجليزية ليتردد صداها من الشارع بالأسفل، بينما اندفع «بريندلي» ورجاله يلاحقون «كونور» من فوق الأرض.

أخذ يهرول في ضوء الشمس، ولاحظ الأسطح القرميدية وهي تفسح المجال لكتل الحجر الرملي المحفور. فجأة وجد نفسه يركض على طول سور قديم، بينما أطراف سور المدينة المحطم تنتصب بجانبه. توقف «كونور»، وأخذ يستنشق هواء الصباح المنعش ويستقصي معالم المدينة البارزة لمعرفة الاتجاهات. لمح المآذن الشاهقة للمسجد الأزرق، والقباب المتلاحقة في قصر «طوب قابي». خلال اندفاعه اليائس عبر أسطح المنازل، كان عقل «كونور» يعمل بطريقة تحليلية، فيقيس خياراته. منذ لحظة لم تكن لديه أدنى فكرة عن وجهته. أما الآن، فبغض النظر عن كيفية نظره للموضوع، هناك مكان واحد فقط يمكنه الذهاب إليه. لكنه طريق محفوف بالمخاطر.

تسلق «كونور» ماسورة الصرف نازلًا، بينما ظهره يحتك بالحائط المجاور، ليشق طريقه نزولًا إلى مستوى الشارع من فوق سور المدينة المدمر. شعر بقلبه ينبض لغرض واحد فقط، عدل من وضع ياقة سترته وهو يندمج مع الناس التي بدأت تتحرك في السوق. طرق برأسه وحنى كتفيه في محاولة واهنة للاندماج في حشد من الناس لم يكن في المعتاد إلا ليبرز وسطهم. شعر بالعيون تخترقه وهو يحاول التحرك بسرعة في الشوارع، متأكدًا من أنه في أي لحظة سوف يصرخ صوت ما مشيرًا لمكان وجوده لمطارديه. من ركن عينه لمح شخصيات تتدافع وسمع أصواتًا مرتفعة. شد قبضتيه، وقد توترت أعصابه بينما هو يتوقع صرخة لأن أحدهم تمكن من تمييزه. أو ربما تمكن «بريندلي» من تمييز قبعته العريضة من وسط رؤوس المتسوقين. قاوم «كونور» الرغبة المتزايدة داخله في الركض، مدركًا أنها ستجذب فقط المزيد من الاهتمام غير المرغوب فيه. اختلس النظر نحو مصدر الضجيج، لتغمره موجة من الراحة. كانا فقط اثنان من التجار يتشاجران. صار لديه الآن تمييز نوعًا ما للتشابك الذي يضم الأزقة التي تنتهي صعودًا وهبوطًا على تلال

السلطان «أحمد»، التي تؤدي في اتجاه واحد، ثم في الاتجاه التالي. لقد تعلم أن أفضل طريقة للخروج من المتاهات هي اتباع المعالم المميزة.

وهكذا ابتعد «كونور» عن الشارع الرئيسي ومر بصف من الحلاقين يمارسون عملهم بانهماك، قبل الانعطاف يسارًا عند قصر من ثلاثة طوابق له بوابة من الحديد بتصميم متقن. سمع الصوت المثير للتوتر للأحذية يرن على الحصى من خلفه مع كل خطوة يخطوها. انخفض الشارع لأسفل ثم تفرع إلى قسمين، وانتصبت نافورة رخامية عند التقاطع، تتدفق المياه منها في حوض منحوت، قبل أن تسري على حجارة الرصيف. خطا «كونور» فوق قناة الماء وأخذ الزقاق الأيمن. كان الشيء الوحيد الذي يخترق الزقاق هو شريط ضيق من الضوء يمر من بين شرفات الأدوار العليا، وفروع من اللبلاب التي تدلت كستائر من الشبكات الحديدية التي غطت النوافذ البارزة. رأى «كونور» المكان الذي يبحث عنه في نهاية الزقاق. امتد صف عشوائي من الدرجات الخشبية أسفل مستوى الشارع -بالكاد يمكن اعتباره سلمًا- يؤدي إلى باب القبو. امتد شريط ضيق من الزجاج المغطى بالغبار على طول جانبي الباب الخشبي البالي باعثًا منه باهت من مصدر ضوء متذبذب في الداخل. هتف بينه وبين نفسه:

-نعم. هذا هو المكان. أنا متأكد من ذلك!

نظر «كونور» فيما حوله، وقد صار متأكدًا إلى حد ما الآن من أنه لا يتم اتباعه. نزل السلم بحرص ووقف في القاع للحظة ليستجمع نفسه ويفكر في خطوته التالية. لم يفت الأوان لتغيير رأيه.. لا يزال بإمكانه اللحاق بالمركب. صحيح أن»بريندلي» لن يكون مسرورًا جدًا، ولكن ما هو على وشك القيام به الآن سيصيب الرجل بسكتة دماغية. ما زالت الرؤية التي خطرت له هذا الصباح واضحة أمام عينيه، لا تزال ملموسة ولا تزال حقيقية جدًا. عرف «كونور» أنه إذا كانت هناك أدنى فرصة لكون «آرت» لا يزال على قيد الحياة، فعليه الطرق على هذا الباب.

أخذ نفسًا طويلًا ببطء، ثم طرق على الباب بسرعة بظهر يده وهو يستعد لما يتوقع أنه ينتظره؛ لن يكون استقبالًا ترحيبيًّا بالتأكيد.

بعد وهلة، انفتح الباب بصرير عال، وظهر من ورائه الرجل الذي ميز فيه «كونور» صاحب الحانة من مساء اليوم السابق. ارتسمت المفاجأة في عينيه الداكنتين لرؤية الأسترالي واقفًا هناك. بدا حذرًا وصامتًا. شعر «كونور» بالحيرة؛ ليس لديه فكرة عما يقول. في النهاية نطق بالشيء الوحيد الذي خطر بباله والذي قد يمنحه الدخول إلى الخان.

- «مصطفى كمال».

رفع الرجل ذقنه وتراجع عن المدخل، ليسمح لـ«كونور» بالدخول إلى الغرفة المليئة بالدخان.

جلس «جمال» في زاوية، يعُب من مشروب الراكي. نظر للأعلى وحدق في «كونور»، ولمعت عيناه.

-أنت ذلك الأسترالي! لا يمكنك تركنا وشأننا، أليس كذلك؟

تقدم «حسن» للأمام ووقف أمام «كونور»، وقد تقاطع ذراعاه أمام صدره. كان قد استبدل زيه العثماني بسروال صوفي فضفاض كالذي يرتديه الفلاحون، وقميص قطني، وسترة مطرزة. حدق في «كونور» بهدوء، ودون أن يقول شيئًا. هتف «كونور»:

-إنه على قيد الحياة. أنا متأكد من ذلك، لذا إما أن تقتلني، أو تأخذني معك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والثلاثون

-سوف يتباطأ القطار من أجلنا.

ركع «كونور» بجانب «حسن» و«جمال» وثلاثين أو أكثر من رفاقهم القوميين وراء صف من القصب الطويل الذي امتد بعد ضواحي المدينة مباشرة، وقد شعر بحواف الحصى الرمادي الحادة تنغرس في ركبتيه.

عند الجزء العلوي من التلال حيث يرقدون، امتد خط السكة الحديدية على طول جسر شديد الانحدار. اقترب قطار، وقد تصاعدت منه أعمدة كثيفة من الدخان الأسود والبخار الأبيض نحو السماء. بعيدًا عن التل باتجاه الميناء والأكواخ المتداعية التي تتشبث بالحافة الخارجية للمدينة كأنها زوج من النظارات، اقترب قطار من خلال منحدر حاد، وقد تصاعدت أعمدة كثيفة من الدخان الأسود والبخار الأبيض نحو السماء. مرت لحظة في الحانة، كان «كونور» على يقين خلالها من أن «حسن» سيصدر الأمر لـ«جمال» بقطع حلقه. كان المناخ المسيطر على الغرفة قاتمًا ومقبضًا، وقد استعد للأسوأ. مع التخيل المتشائم الذي يحل على المرء في مثل هذه اللحظات، لدرجة أن «كونور» شعر بها تمر كأنها ساعات وليس ثوانٍ، أو دقائق على أقصى حد، وقد أرهقه شعوره بـ»حسن» وهو يتأمله ببرود. لكن لمعان خاطف في عين الرجل التركي أفصح عن قراره، وسرعان ما لانت ملامح وجه «حسن» تماشيًا مع حالة الاسترخاء الطفيف العائدة لشخصيته العسكرية. فـ»حسن» هو صاحب اليد العليا هنا.

تحرك كل شيء بعد ذلك بسرعة فائقة. استمع الرجال باهتمام بينما «حسن «يرسم خطة دقيقة للوصول إلى نقطة التجمع. غادروا الحانة في مجموعات صغيرة على فترات عشوائية؛ كان «كونور» قد تم تعيينه ضمن مجموعة من أربعة من بينهم كل من «حسن» و«جمال». لم يخف «جمال» استياءه وعدم ثقته في «كونور» عن قائده، فأخذ يتذمر بالتركية بسخط وهم يستعدون للمغادرة. تجاهل «حسن» سلوك «جمال»، وأوضح بخشونة ما يخططون له لـ«كونور» بالإنجليزية قبل مغادرتهم لغرفة الطابق السفلي. وبينما كان يقف عند الباب، التفت إلى الأسترالي يقول:

-لا يجب أن تتحدث ونحن نتحرك في المدينة. سوف نبذل قصارى جهدنا لتجنب الجنود البريطانيين. لكن إذا مررنا بأيهم لا تتحدث معهم، إذا حاولت جذب الانتباه لنا بأي شكل، لن أتردد في إعطاء «جمال» الإذن بإعدامك.

ثم إنه ابتسم بسخرية مكملًا:

-وكما لا بد وأنك قد لاحظت، فهو متشوق للغاية لأداء تلك المهمة.

بعد ذلك دارت جميع الأحاديث باللغة التركية، وكان «حسن» و«جمال» يعطيان «كونور» تعليمات هادئة باللغة الإنجليزية وقت الحاجة، أثناء تنقلهم في الشوارع. عندما اقتربوا من إحدى النواصي وواجهوا دورية بريطانية صغيرة، هوى قلب «كونور» في قدميه. توقع الأسوأ، توقع أن يتعرف الجنود عليه! لكنه شعر بالارتياح عندما أدرك أن الانتباه الوحيد الذي جذبه كان عبارة عن نظرات فضولية لمنظر ذلك الرجل أوروبي المظهر الذي يرتحل مع ثلاثة فلاحين أتراك، وهو فضول لم يلبث أن تبخر عندما ابتسم لهم «كونور» ورفع قبعته على سبيل التحية. مر الأربعة رجال في رحلتهم الملتوية إلى ساحة السكك الحديدية من أسفل ممر مغطى بالطحالب، يمر عبر سور المدينة البيزنطية. على الجانب الآخر كان الوجه الحجري كاسر الأمواج على بحر مرمرة.

بينما «كونور» يشق طريقه عبر السور، تعجب من براعة الصيادين الذين جعلوا هذا المكان الآن منزلهم. نبتت أكواخ من الخشب الطافي والألواح المهملة من المعدن -كأنها مجموعة من الحشائش- في الثغرات القديمة في دفاعات السور. أثناء إحدى جولاتهما الأولى سويًا عبر القسطنطينية، كان «أورهان» يستمتع بإخبار «كونور» أن السلطان «محمد» الفاتح قد شق طريقه عبر أسوار المدينة باستخدام المدفع ودفع المسيحيين إلى البحر. وأضاف بابتسامة واسعة:

- و«مصطفى كمال» سيفعل ذلك مرة أخرى.

الآن فقط بدأ «كونور» يدرك مدى المخاطرة التي يقوم بها الأتراك من أجل تحويل حلم «أورهان» الجريء لحقيقة. عندما وصلوا إلى الرصيف، فوجئ «كونور» أن أعضاء الحزب الآخرين لم يكونوا ينتظرونهم. شرح له «حسن»:

- يجب أن نغادر المدينة من أماكن مختلفة. إذا سافرنا معًا، فسوف يدق هذا ناقوس الخطر، البريطانيون لا يريدوننا أن نغادر المدينة بقدر ما يريدونك أنت أن تبقى.

وقف صياد عجوز ذابل محني الظهر ينتظرهم قرب الرصيف، وقادهم إلى أسفل الرصيف باتجاه مركب شراعي لونه هو مزيج من الأبيض والأزرق مربوط بحاجز، يرتطم به في مع كل موجة قوية تمر به، وقد بدت حواف المركب المنخفضة قريبة بشكل خطير من خط الماء. هبت ريح باردة إلى الشاطئ عبر المضيق الضيق، وتساقط رذاذ البحر على وجه «كونور» في كل مرة اصطدمت فيها الأمواج بالرصيف. قام «جمال»، وهو رجل مؤمن بالخرافات، بالطرق بمفاصل أصابعه على الأخشاب وهو يقول:

-إن شاء الله لن يكون عبورًا صعبًا..

كان وجهه شاحبًا، وقد تقلصت ملامحه وطبيعته الاجتماعية بشكل غريب. ضحك «حسن»، وربت على ظهر «جمال» قائلًا:

-هذا الرجل لا يحب السفر بالماء.

-لأن هذا ليس طبيعيًا. وإلا لكنا خُلِقنا بقشور وزعانف كالسمك.

أثناء العبور من أستراليا، بينما هم يمرون من خلال المناطق الاستوائية، شهد «كونور» بعض العواصف الضخمة. في بعض الأحيان، بدا أن القارب يميل من طرف إلى الآخر وسط الأمواج التي لاحت في الأفق فوق رأس الصاري، أمواج من المياه ذات اللون الأزرق الداكن التي هددت بإغراق القارب وتحطيمه لشظايا، مرسلة كل من على متنه إلى قبر مائي أبدي. بالنسبة لرجل كان وجوده بأكمله مرتبطًا بالأرض، فإن تقلبات حياة البحر كانت مربكة، وقد بدا الإحساس بسطح السفينة وهو يتحرك باستمرار أسفل قدميه مقلقًا بشدة.

ابتسم لـ«جمال» قائلًا:

-أنا معك فيما تعانيه يا رفيق.

وكما هو متوقع، كان العبور من الشاطئ الأوروبي إلى الرصيف في «كاديكوي» صعبًا. أمسك الصياد العجوز بدفة القارب بلا مبالاة، وقد وقف على ساقين مقوستين في مؤخرة القارب. أمسك «كونور» الحافة الناعمة للمقعد الطويل الذي امتد بطول القارب وقد ابيضّت مفاصل أصابعه، وأصر على أسنانه، بينما هو يقاوم الشعور المفاجئ بالغثيان الذي أصابه.

لا يمكن أن أدعهم يعتقدون أنني ضعيف!

بدا المعبر بلا نهاية..

في كل مرة ينظر خلفه نحو الشاطئ الآسيوي، كان يشعر أنهم يتقدمون ببطء أو لا يتقدمون على الإطلاق. لم يبد على «حسن» ما إذا كان مهتمًا بما يدور من حولهم من الأصل؛ وجهه كان جامدًا عديم التعبير. من جانبه لم يحاول «جمال» أي محاولة ليتظاهر بالتماسك؛ قضى معظم الرحلة منحنيًا على حافة القارب، محاولًا إفراغ معدته، فتقيأ كل ما تناوله على الإفطار منذ فترة طويلة ليصبح وليمة مروعة للأسماك الفضية الصغيرة التي اندفعت في أعقاب القارب. عندما وصلوا أخيرًا إلى اليابسة، تسلق «كونور» إلى الشاطئ شاعرًا بالراحة. وأما «جمال» فركع على ركبتيه بمجرد أن شعر بأرضية صلبة تحت قدميه؛ لقد اهتز من تجربة العبور هذه لدرجة أنه شعر بالحاجة الملحة لاحتساء كوبين من الراكي ليُقوي أعصابه.

بالمقارنة مع رحلتهم عبر المياه، كان الطريق عبر شوارع «كاديكوي» إلى نقطة الالتقاء بجانب خط السكة الحديد مجرد نزهة هادئة. ربضت المجموعة خلف القصب والشجيرات التي انتصبت على التلال، وأخذوا يراقبون البضائع التي يتم تحميلها في طابور طويل من العربات، وبدأ قطار أنقرة في صعود المنحدر الحاد من المحطة أدناه. أعلن «حسن»:

-سيتم فتح عربات الشحن السادسة والسابعة.

وبينما القطار يقترب من مكان اختبائهم، أخذ يتباطأ. أخذ «حسن» يعد العربات، وفجأة صرخ في رفيقه «جمال»:

-هناك! هاتان العربتان!

زحف «جمال» فوق الجسر إلى خط السكة الحديد، وهرول بجانب القطار المار، ثم دفع الأبواب -غير المؤمنة- لعربات المواشي الفارغة وفتحها. قفز داخل العربة الثانية وأشار للرجال الآخرين أن الأمور على ما يرام. وبسرعة كانوا يركضون فوق المنحدر المغطى بالحصى، وقاموا بالتشبث بحواف العربات، ثم رفعوا الصناديق الخشبية التي احتوت على البنادق والذخيرة على متنها، ورموا أمتعتهم على الأرضية الخشبية، قبل القفز في القطار. انتظر «حسن» حتى أصبح جميع رجاله على متن القطار قبل أن يستدير إلى «كونور»:

-لم يفت الأوان بعد لتغيير رأيك أيها أسترالي.

لم يتردد «كونور» ولو للحظة وهو يجيبه:

- مستحيل. ليس لدي أي مكان آخر للذهاب الآن.

-إذا كنت مصرًا.

أشار «حسن» لـ«كونور» ليتقدم إلى الأمام وصعدا فوق الجسر، واندفعا للعربة الثانية. استحثه «حسن»:

-هيا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا الهواء صافيًا رائقًا أكثر من اللازم بينما القطار يبدأ رحلة صعوده البطيء إلى الجبال المكسوة بالشجر التي تقع شرق مدينة «إزميت» التركية. تم فتح أبواب العربة –القابلة للطي كالأوكورديون- التي يجلس فيها «كونور» بالكامل على كلا الجانبين، مما أتاح للهواء النقي تجديد الهواء الراكد داخل العربة، مما حسّن معنوياتهم بعد الهواء الثقيل والرطب الذي لازمهم من الميناء. بعد مغادرة «إزميت»، غير الجنود ملابس الفلاحين ووضعوا الزي الرسمي. جلس

البعض منهم وقد تدلت أرجلهم على الجانبين، يقومون بالتدخين بهدوء والدردشة، بينما استرخى آخرون داخل العربة، وقد استندوا بظهورهم إلى كومة الصناديق التي وُضِعَت في زاوية العربة، يقومون بتنظيف بنادقهم أو استغلال الفرصة للنوم، وقد مالت قبعاتهم فوق عيونهم لتقيها الضوء المتسلل عبر الفرجات المفتوحة في الألواح الخشبية.

جلس «كونور» في جانب القطار الذي يواجه منحدر الجبل الهابط، يشاهد مياه بحر مرمرة اللامعة تنحسر على مبعدة. تسمر مكانه مفتونًا بسبب منظر الغابة الخضراء الممتدة أمامه. كان عكس أي شيء شهده من قبل، فقد اعتاد على منظر السهول الواسعة الجافة وأشكال الحياة الصخرية الصلبة التي تمكنت من البقاء على قيد الحياة هناك. أما التربة البركانية الغنية التي تغطي هذه المنحدرات الصخرية فقد شجعت نمو العديد من الكائنات الحية. امتدت أقواس من زهور الليلك فوق بساط كثيف من الزنابق الحمراء كالدماء، بينما شكلت الأشجار المرتفعة مظلة - من إبر الصنوبر الأخضر الداكن، وأوراق شجر عريضة خضراء زمردية، وأوراق شجر البلوط - ألقت ظلالًا ذهبية فوق أرضية الغابة. قال «جمال» وهو يتخذ مجلسه بجانب «كونور»:

-أخبرني أيها الأسترالي، أي جزء من الإمبراطورية العثمانية حصلت أستراليا عليه؟

-لا شي منها، فبالنسبة لنا لم تكن الحرب تتعلق بالأرض قط.

علق «جمال» بسخرية:

-دائمًا ما يتعلق الأمر بالأرض. الإنجليز حصلوا على مصر وفلسطين، وفرنسا حصلت على سوريا. حتى إيطاليا حصلت على شاطئ. وأنتم لم تحصلوا على أي أرض؟

-لسنا بحاجة إلى المزيد من الأراضي. لدينا الكثير منها بالفعل. لم يعرف الأستراليون أين كانت تركيا أصلًا قبل الحرب. لم نكن نقاتل من أجل الأرض. قاتلنا من أجل مبدأ.

لكن مجرد قول ذلك جعل «كونور» يشعر بالفراغ.. هلك جيل كامل من الشباب الأسترالي قد انتهى بتلك الحرب الملعونة، وأما خزائن البلد فجُرِدَت.. ياله من مبدأ مكلف بالفعل!

ربت «جمال» على فخذه بمرح، وأخذ يضحك بصوت عالٍ مجيبًا:

-تقاتلون، وتموتون دون الحصول على أي شيء. مبدأ جيد! يجب أن نتعامل مع بلدك!

ثم ترجم «جمال» فحوى الحوار لزملائه المقاتلين الذين أخذوا يضحكون معه. هز «جمال» رأسه وصرخ ينادي «حسن» الذي استرخى على حقيبته في زاوية العربة.

-لا بد أن بلده كله من البحر الأسود!

شعر «كونور» بالارتباك. لم يفهم مقصده.. أوضح «جمال»:

-كل الأتراك شجعان وأذكياء. لكن ليس في المنطقة المجاورة للبحر الأسود، حيث يكون كل الناس أغبياء.

ودون حاجة لأي تشجيع، انطلق «جمال» يحكي قصة:

-كان هناك رجلان يعيشان في مدينة «طرابزون» التركية، أحدهما يدعى «تيميل»، وأما الآخر فيدعى «دورسون». تشاجرا ولم يعودا يتحدثان مع بعضهما. ذات يوم مر «تيميل» قرب «دورسون» الذي كانت معه عنزة، وقال «تيميل»، «إلى أين أنت ذاهب بهذا الحمار؟» وهنا صرخ «دورسون»، «إنه ليس حمارًا، إنه عنزة!» فرد «تيميل» عليه، «اخرس! أنا لا أتحدث إليك، وإنما أتحدث مع العنزة! «فهمت؟

ثم غرق «جمال» بالضحك مكملًا:

-سكان البحر الأسود أغبياء مثل الأستراليين!

ثم أصبح تعبير وجه «جمال» جادًا فجأة:

-لقد فعلناها بسبب سفينتين حربيتين.

- ماذا؟

-ذهبنا إلى الحرب بسبب سفينتين حربيتين. كلفتانا أربعة ملايين من جنيهاتكم. دفعنا لملككم المدعو «جورج» ليبني لنا سفينتين حربيتين. لكنه سرق أموالنا واحتفظ بسفننا.

طرقع «جمال» أصابعه أمام عيني «كونور»:

-ذلك هو السبب في كون الأتراك يساعدون القيصر.

هز «كونور» رأسه عابسًا:

-البريطانيون لم يفعلوا ذلك.

من ركنه في العربة نخر «حسن» معلقًا:

-بل فعلوا في الواقع، لكنها أخبار قديمة. الحكومات ستجد دائمًا سببًا للذهاب إلى الحرب.

--والفلاحون مثلي ليسوا بحاجة إلى سبب. إطلاق النار عليّ أكثر إثارة من العناية بالخراف.

ثم ضحك «جمال» مكملًا:

-أحب الحرب لأنني هكذا لم أعد مضطرًا لممارسة الجنس مع زوجتي.

ثم كرر هذا بالتركية ليثير عواصف من الضحك من رفاقه.. واستمر القطار منطلقًا بطريقه عبر الغابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أراح «كونور» رأسه على كيس خيش ملفوف، يفوح برائحة الشوفان المطحون وغبار القش. أخذ يغفو بشكل متقطع، وقد قامت اهتزازات القطار الإيقاعية أثناء انتقاله على طول القضبان بهدهدته حتى نام. من خلال الشقوق الموجودة في جانب العربة، أفسح ضوء الغابة المتقطع المجال لضوء الشمس الأبيض الرائق بهضبة الأناضول الوسطى العظيمة، وبدأت الطرق تمتد بطريق مستقيم. تسارع القطار وهو يغادر الجبال وبدأ في عبور السهول العشبية الواسعة. بدأت درجة حرارة العربة في الازدياد بينما الشمس تصب جام غضبها على سقفها. تحرك «كونور» غير مرتاح، لكن لا يزال نصف نائم، مشوش ويشعر بالدوار.. أيقظته ضربة مفاجئة من شيء خشبي على الخشب المكون للعربة بجوار أذنه، فجلس منتصبًا.

وقف «جمال» وساقاه متباعدتين، ويده الضخمة ملفوفة حول مقبض مضرب كريكيت. قال:

- لقد وجدت هذه القطعة الخشبية في خندق في «شنق قلعة»، في نفس اليوم الذي هرب فيه الأستراليون من قومك. طوال اليوم كنت أشاهدهم وهم يستخدمونه على الشاطئ. حتى أثناء إلقاء القنابل والرصاص. لم يكونوا يتركونه قط. احتفظت به ليذكرني بنصر ذلك اليوم. أمسكه بكلتا يديه وأخذ يقلبه مكملًا:

-أخبرني. هل هو لعبة أم سلاح؟

مد «كونور» يديه مبتسمًا وهو يجيبه:

-كلاهما، في اليد المناسبة. يمكنه أن يكون سلاحًا أو لعبة.. هيا، أعطني إياه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حلقت كرة مرتجلة مصنوعة من الجوارب الملفوفة والخيط عبر الهواء، بعدما ضربها «جمال» نحو «كونور»، الذي وقف عند نهاية العربة ممسكًا بالمضرب. صدّها «كونور» لتطير عائدة إلى الطرف الآخر من عربة السكة الحديد، حيث وقف ستة من الجنود على أهبة الاستعداد للإمساك بها. اعتاد «كونور» قضاء معظم فترة الظهيرة ببلدة «رينبو» يلعب الكريكيت، مما جعل مستواه باللعبة جيدًا، وتمكن من تصويب الكرة بمهارة بين أقدامهم، بعيدًا عن قدرتهم على لمسها بأطراف أصابعهم أو إمساكها. هتف:

-ها!

كان «كونور» مبتهجًا للغاية. أخذ الجنود يضحكون، لكن «جمال» حملق فيه بسخط، متظاهرًا باللامبالاة.

التقط الكرة مرة أخرى وقذفها بقوة نحو رأس «كونور»، لكن الأسترالي تمكن من صد التسديدة بالمضرب.

-لا.. هذه ليست الطريقة الصحيحة، يجب عليك فرد ذراعك. وإلا فستفلت الكرة.

تقدم «جمال» نحو «كونور» ساخطًا:

-أنتم أيها الإنجليز تضعون القواعد لأي شيء - ثم مد يده نحو المضرب - أعطني العصا الآن.

اهتزت العربة مع تباطؤ القطار فجأة، قفز «حسن» على قدميه وتقدم إلى الباب المنزلق، ناظرًا لفترة وجيزة قبل الإمساك بالمقبض وإغلاقه.

-أيها الرقيب!

صاح ناظرًا إلى «جمال» ليغلق الآخر. انتبه «جمال»، مستجيبًا غريزيًا للنغمة القاطعة بصوت «حسن»، وانطلق سريعًا إلى الباب الآخر وهو يلقي نظرة خاطفة قبل أن يجره مغلقًا إياه. ضغط بظهره على الباب وهو يخاطب «كونور»، بوجه جامد الأسارير:

-ما زلنا نريد سفينتينا الحربيتين!

أخذ القطار يزحف الآن بخطى سريعة. لاحظ «كونور» الرائحة الكريهة الثقيلة للرماد والدخان التي خيمت على الهواء. هناك شيء آخر أيضًا؛ شيء حلو الرائحة لكنه لا يستطيع التعرف عليه. لا يستطيع رؤية أي شيء، لكن أخبره حدسه بأنه أيًا كان ما يجري خارج العربة، فهو ليس جيدًا. تلاشى أي شعور بالاسترخاء بسرعة بينما «جمال» يوجه الجنود لتجهيز أسلحتهم. بوجوه مكفهرة، جهز الرجال بنادقهم واستعدوا لإطلاق النار.

اختلس «كونور» النظرات من خلال الفتحة الضيقة في باب عربة السكة الحديد، ولمح قرية على مقربة تلتهمها النيران، بينما تصاعدت أعمدة كثيفة من الدخان الأسود نحو السماء الزرقاء. التفت إلى «حسن» يسأله:

-اليونانيون؟

أومأ «حسن» برأسه ورفع حاجبيه مجيبًا:

-إنهم جيش الشيطان من المرتزقة الملاعين. أرسلوا فوجًا خاصًّا قبلهم لترهيب القرويين. لقد حكمنا اليونانيون لأربعمائة عام، والآن يعتقدون أن دور عودتهم لمقاليد الحكم قد حان مرة أخرى.

ثم إنه أخذ مسدسه من الحافظة الخاصة به، واتكأ على جانب العربة، يجر الباب قليلًا فاتحًا إياه فتحة صغيرة، للحصول على لمحة أفضل عن البلدة التي يمرون بها. تحرك «جمال» إلى جواره ورفع بندقيته. زحف القطار على طول خط السكة الحديد أمام القرويين الفارين من المذبحة، وقد غطى التراب والسخام وجوههم، وقد حملوا ممتلكاتهم هزيلة على ظهورهم. ظلت امرأة تمشي بجانبهم لمسافة قصيرة، وقد بدا تعبير وجهها جامدًا من الصدمة. كانت منحنية الظهر تحت وطأة حِملها المكون من طفل مربوط إلى ظهرها بشرائط صغيرة، وحامل مليء بالدجاج الذي انطلق بالصياح بين ذراعيها. سار خمسة أطفال بجانبها، يدًا بيد، والدموع تلطخ وجوههم الصغيرة البائسة، في حين دفع صبي رجلًا عجوزًا مشلولًا في عربة يد. رأوا عددًا قليلًا للغاية -إن وجدوا- من الرجال البالغين اللائقين جسديًا. وأما داخل العربة، جلس كل من «حسن» ورجاله صامتين مقطبي الوجوه. شد «كونور» قبضتيه في حالة من الغضب العاجز. لم يكن من النوعية التي تراقب من الخطوط الجانبية بينما الآخرون بحاجة للمساعدة. لم تتركه حياته بمنطقة «مالي» غريبًا عن المعاناة. لقد نال نصيبه منها بالديار.

لقد رأى أسرًا تعاني الفاقة من ويلات الجفاف والحريق والفيضانات، في مناسبة واحدة رهيبة شهدَ مقتل امرأة لطيفة مع ابنتيها بالرصاص على يد زوجها السكير. لكنه هنا شعر بنفسه يغرق وسط بحر غامر من البؤس العشوائي المحطم للأعصاب. يكاد يكون من المستحيل بالنسبة له أن يتصور أن بشر آخرين يمكن أن يكونوا مسئولين عن مثل هذا الألم. عندما تدمرت مستوطنة في الوطن بنيران الغابات، أو غمرتها المياه، اجتمع جميع من في المقاطعة لمساعدة المنكوبين. بخلاف المشاجرة العرضية في الحانة المحلية، نادرًا ما كان الناس يؤذون الآخرين. هبط الوحي على «كونور» مثل الصاعقة؛ كان الأستراليون مشغولين جدًا في قتال الطبيعة من حولهم للتفرغ لمحاربة بعضهم البعض!

لا حدود لأستراليا مع أي دول أخرى، ولا لاحت منافسات قديمة مع الجيران في الأفق مثل برميل بارود في انتظار فتيل. أتي «كونور» من أمة خاضت دائمًا معارك الآخرين. كان على أبنائه السفر منتصف الطريق حول العالم ليجدوا شخصًا ما للقتال. من خلال الفتحات الموجودة في العربة لمح طفلًا وحيدًا يتجول حافي القدمين بين العشب الطويل على جانب القضبان، ممسكًا بيديه معًا، ووجهه ملتوٍ من الخوف والحزن. أصّر «كونور» على أسنانه وأمسك حافة الباب المنزلق، غير قادر على تمالك نفسه أكثر من هذا. استعد للقفز من القطار لمساعدة الطفل.

-لا!

ارتفع الهتاف، بينما هبطت يد بقوة على معصمه. كان «جمال»، والذي أكمل:

-سوف تموت يا «كونور». وبعد ذلك نموت جميعًا. وكل هذا من أجل طفل واحد.

سحب «كونور» معصمه بغضب بعيدًا عن قبضة «جمال»، هاتفًا بضيق:

-لكنه وحده. لا يمكن تركه بمفرده!

ثم نظر إلى «حسن» الذي هز رأسه مغمومًا وقال:

-ربما يذهب إلى قرية يقيم فيها عمه، أو يجد والده وأمه، ربما شقيقه قادم قريبًا وسوف يجده. ربما، وربما لا. هذه حرب.

تحرك «جمال» يسد الطريق بين «كونور» والمدخل، بينما تابع «حسن»:

-سيكون هناك الكثير من الأطفال مثله إذا لم نصل إلى أنقرة.

أسقط «كونور» ذراعه إلى جانبه وتراجع للخلف نحو الحائط. لا يستطيع أن ينكر المنطق في حجة «حسن». لكنه ضد كل ما يؤمن به.

أدار رأسه بعيدًا عن جانب القطار وأغلق عينيه، كأنما ينشد أن يحمي بصره من موكب البؤس الدائر في الخارج، ويحارب الدموع التي بدأت تتجمع في مقلتيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفجأة، توقف القطار الذي كان يتقدم ببطء شديد. أشار «حسن» من وسط السحب الخانقة للرجال ليبقوا ساكنين وهادئين، وأشار لـ«جمال» للتحقق من سير الأمور. قام «كونور» بتتبع «جمال» إلى باب العربة. شد الرقيب التركي الباب يفتحه بما يكفي للنظر بحذر للخارج. كان من الصعب في البداية رؤية أي شيء من خلال الحجاب السميك من الدخان الأسود الذي تصاعد من

الكتلة الصلبة التي سدت طريق القطار. عندما هبت عاصفة من الرياح من خلال مستنقع مروع، بالكاد استطاع «كونور» فهم ما أمامه. تم إلقاء عدد لا يحصى من الجثث على خط السكة الحديد، ثم إضرام النيران فيها! استلقى أمامهم خليط منفر من الأطراف المتفحمة النازفة، والجماجم المحروقة التي تمت تعريتها من اللحم، وقد تشابكت معهم بقايا الملابس المحترقة، لتشكل حاجزًا رهيبًا يكاد يصل إلى ارتفاع محرك القطار. مزيج من الشعور الطويلة، والأطراف الصغيرة، والأيدي الكبيرة. رجال ونساء وأطفال.

قفز سائق القطار من مقصورته ووقف متسمرًا، غير قادر على تصديق المشهد الشنيع الذي بدا أشبه بلوحة تمثل مشهد من يوم الدينونة، وقد تدلت يداه بجانبه بلا حول ولا قوة. حطم ذلك الصمت طلقة واحدة، ورأى«كونور» السائق يسقط على ركبتيه، بينما رأسه يتفجر في رذاذ مروّع من الدماء الحمراء القانية!

-للداخل! الآن!

هكذا هتف «جمال» وهو يدفع «كونور» مرة أخرى إلى داخل العربة ويغلق الباب. حبس الرجال في العربات أنفاسهم.. انتظروا.. أرهفوا سمعهم. للحظة، كان كل ما يمكنهم سماعه هو حفيف الريح وسط الأشجار. ثم ارتفع صوت يشق الأذن من نيران الرشاشات وهي تخترق الأخشاب!

ظهرت موجة من المرتزقة النظاميين على طول الجزء العلوي من الجسر، متجهين نحو القطار. تسابق البعض فوق الحصى وقد رفعوا بنادقهم، يطلقون منها الرصاص ويعيدون تعبئتها بأسرع ما يمكنهم، وقد التوت وجوههم وأخذوا يصرخون باللغة اليونانية. بينما اندفع آخرون أسفل المنحدر على ظهور خيول قوية ممتلئة الجسم. صرخ «حسن» بتعليماته لجنوده الذين نزلوا إلى الأرضية هربًا من وابل النيران الذي انهمر على العربة. أخذ الرجال يصرخون ويهتفون بينما الرصاصات تصيب أهدافها، تشق طريقها مخترقة اللحم والعظام. ارتفعت رائحة الدم المعدنية المرعبة لتملأ عربة القطار، بينما تأوه الرجال الجرحى وهم يقبضون على أطرافهم الملطخة بالدماء، ينزف الدم من بين أصابعهم ليتناثر على الأرض المتربة.

ظل «كونور» منخفضًا، ومد يده للرجل المصاب الذي سقط بجانبه. بدا وجه الرجل شاحبًا، وشفتاه زرقاوين تقريبًا، بينما هو يحاول بضعف إيقاف نزيف الدم من الجرح الغائر في فخذه الأيسر، وقد ظهرت العظام المحطمة عبر زيه الكاكي الممزق. أمسك «كونور» بكيس من الخيش ولفه في شكل وسادة، ثم ضغط به على الجرح المتفاقم. عرف أنه لا جدوى من ذلك لأن الدم تسرب من خلال النسيج خلال لحظة، وسرعان ما شقت الدماء

المتسربة من فخذ الرجل طريقها فتسري لتغطي الأرض. وعندما وهن قلبه وانسحبت معظم دماؤه من جسده، رقد الرجل ساكنًا. سكن صوت الطلقات للحظة، ففتح «جمال» الباب جزئيًا واستهدف أحد المرتزقة على ظهر جواد يركض بجوار القطار. مال الراكب إلى الوراء في سرجه وسقط من فوق مؤخرة جواده، وقد انفجر نصف رأسه.

دون تفسير، انسحب اليونانيون من القطار.

سكن كل شيء للحظة، ثم سمعوا صوت أنين وقذيفة هاون هاوية أثناء تحطيمها للعربة التي أمامهم. تصاعد جدار من الحرارة والضجيج فارتطم ب»كونور، بينما عربة السكك الحديدية المجاورة ومعظم الجنود الأتراك ينصهرون داخلها وسط موجة من الشظايا المنصهرة. سحق كل من «حسن» و«جمال» وبقية الأتراك بعض ألواح جدران العربة المحطمة بأعقاب بنادقهم وقاموا بالرد بإطلاق النار وقتل بعض مهاجميهم.

ولأن «كونور» كان غير مسلح، فقد شعر بأنه عاجز عديم الفائدة. سمع حشرجة الباب خلفهم بينما يتم فتحه عنوة. اقتحم المرتزقة المكان عبر الفجوة. صوب «حسن» مسدسه بدقة ونال من اليونانيين وهم يحتشدون داخلين العربة. دار «جمال» على عقبه ورفع بندقيته وأطلق النار على أحد المرتزقة في الوجه، محطمًا إياه إلى عجينة لا ملامح لها. قبل أن تسنح الفرصة لـ«جمال» لإعادة تعبئة بندقيته، قام رفيق الرجل الذي سقط للتو بإطلاق النار عليه في بطنه، فسقط الرجل التركي الضخم على ركبتيه وهو يمسك بطنه! واصل اليونانيون الهجوم، واستمروا في دخول العربة فتغلبوا على الأتراك الباقين على قيد الحياة.

رفع «حسن» مسدسه مستعدًا لإطلاق النار، ولكن هوى عقب بندقية على مؤخرة ساقيه ليسقطه أرضًا. استلقى منبطحًا، وقد انحشرت فوهة البندقية في وجنته! إلى جانبه، شعر «كونور» بأنه منفصل بشكل غريب عن الواقع، بينما المرتزق الآخر يصرخ فيه باليونانية، ليرغمه على البقاء أرضًا، حيث جثا على ركبتيه، وقد صُوِبَت بندقية الجندي نحو رأسه. قفز ضابط في العربة، وأخذ ينبح بالعديد من الأوامر. استولى المرتزقة الباقون على البنادق الساقطة وصناديق الذخيرة، وأخذوا يسحبون ويركلون الأتراك الناجين من العربة نحو الجسر الذي يمر بجانب القطار. تحرك الضابط اليوناني نحو «حسن» وانحنى يتفحصه كما لو كان غائط كلب عالقًا في حذائه. انتزع الشارة العسكرية من على سترة الرجل التركي وعبث بالأطراف المشذبة لشارب «حسن» الضخم، قبل أن يتشمم الهواء من حوله، ثم يستدير لمخاطبة قواته باليونانية.

وهنا أشار «حسن» إلى «كونور»، ورفع رأسه وأخذ يتحدث إلى الضابط باليونانية، ثم استدار نحو «كونور» يقول له:

- لقد أخبرته أنك أسترالي ومن حلفائهم، وقلت أنك أسيري.

تفحص زعيم المرتزقة «كونور» متشككًا. ثم سأله بريبة:

-أسترالي؟

ثم مد يديه أمامه، مقلدًا المخالب، مكملًا:

-بلد الكنغر؟ أتتحدث الإنجليزية؟›

أومأ «كونور» برأسه مجيبًا:

-نعم.. أسترالي.

لوح الضابط اليوناني للجندي الذي يحتفظ ب«كونور» كأسير ليبعده قائلًا:

-فليبق الأسترالي هنا.

ثم أشار إلى «حسن» ورمى لأحد الرجال كيس من الخيش، وهو يطلق أمرًا ما في خشونة. ضحك وشرح لـ«كونور»:

-سنطلق النار على الكلب التركي بمسدسه نفسه. ثم نقطع رأسه، ونأخذه معنا إلى مدينة «سميرنا» اليونانية.

نزل القائد إلى جانب خط السكة الحديد، حيث قام رجاله بمحاصرة القوات التركية المتبقية وإلقاء القبض عليها. تم دفع «جمال» و«حسن» حتى الباب الموجود في الجانب المقابل من القطار ورميهما إلى الحصى بالأسفل. غطت بقعة حمراء كالنبيذ الجزء الأمامي من سترة «جمال»، وأخذ يشهق بصوت عالٍ زفيرًا عاليًا متألمًا بينما هو يصطدم بالأرض. دفعت الصيحات والشتائم الآتين من خارج العربة «كونور» للتحرك، صيحات تخللتها ضربة بندقية وصوت الارتطام المكتوم لجسد يسقط على الأرض. رفع نفسه على يديه وركبتيه، ثم اندفع على أرضية عربة السكة الحديد، يدفع الجثث الملطخة بالدماء والصناديق المتساقطة جانبًا في محاولة يائسة للعثور على سلاح. كان المرتزقة دقيقين للغاية في تنظيفهم للمكان. لم يكن هناك سلاح من أي نوع!

أثناء بحثه، رأى «كونور» من خلال الألواح الخشبية أنه عند قاعدة الجسر وقف رجل قوي البنية من المرتزقة، وقد أجبر «جمال» على الركوع على ركبتيه. تلطخ الجزء الأمامي من سترة الرجل التركي وسرواله بالدماء الداكنة. سال تدفق لا إرادي من البول نازلًا فخذي «جمال» وهو يكافح لإخفاء ألمه. شحب وجهه بينما يسحب الجندي اليوناني ذراعيه وراء ظهره، ليفتح

الجرح في أمعائه. أخذ رجل آخر من المرتزقة يتفقد خزان طلقات بندقيته، ويضع إصبعه على الزناد، قبل أن يضغط ببندقيته على جبين «جمال». وأما داخل العربة، فقد استمر «كونور» في البحث عن شيء لتسليح نفسه، بينما دقات قلبه تبلغ عنان السماء. ثم لمح شيئًا. كان محشورًا بين أحد أجساد الأتراك الساقطة وجدار العربة. سحب جسد الرجل جانبًا وأمسك بالشيء. لم لا؟ وهنا سمع الصراخات المتصاعدة من الخارج.

- «أنزاك» بيك!

نظر «كونور» إلى الخارج، ليجد «جمال» ينظر نحوه من خلال الباب المفتوح، قبل أن يقول له:

-لا تغزوا دولة إذا كنتم لا تعرفون أين هو.

وهنا سحب الجندي الزناد وسقط جسد «جمال» الخالي من الروح إلى الأمام! شعر «كونور» بساقيه تتخليان عنه. استمر صوت إطلاق النار في الجانب الآخر من العربة، يرافقه الصوت المكتوم الرهيب لطلقات الرصاص وهي تخترق اللحم والعظام والروح. وقف «حسن» بجانب رفيقه الذي سقط للتو، وأغلق عينيه ورفع يديه أمامه، وقد رفع كفيه نحو السماء، يدعو لروح «جمال»، متجاهلًا الأمر الذي صدر له بالركوع. وهنا هوت ضربة وحشية على الجزء الخلفي من ساقيه لتجلبه على ركبتيه، وجاهد من أجل البقاء منتصبًا. قام اليوناني بإعادة تعبئة مسدس «حسن» ببطء متعمد. وهو يقول:

-سوف يأتي رأسك معنا. سيتم عرضه في مقرنا الرئيسي.

ثم ضغط بفوهة المسدس على قاعدة جمجمة «حسن»، مكملًا:

-حتى لا نتسبب إلا في أقل ضرر ممكن لوجهك.

لكن «حسن لم يجفل أو يتحرك من مكانه، وإنما ظل ثابتًا كالطود. فتح عينيه وركز نظراته على اليوناني. تمتم بالتركية:

-احفظ عائلتي يا الله. الله أكبر!

رد المرتزقة بتحية يونانية:

-فليحيا الرئيس «فينيزيلوس»!

ارتفع صوت ارتطام ضخم، ثم ترنح الجندي ساقطًا للأمام.

فزع «حسن»، متوقعًا التأثير الحارق للعيار ناري وهو يخترق مخه!

لكن بدلًا ذلك، انهار اليوناني وأخذ جسده يتشنج وينزف من الفم والأذنين، وقد تحطمت جمجمته. رأى التركي «كونور» يقف بلا حراك خلف الجندي ممسكًا مضرب الكريكيت، الذي أخذت حافته تقطر بكتل دموية ولزجة من الشعر الأسود. استدار اليوناني أثناء سقوطه، ومد يده يمسك قميص مهاجمه، محاولًا الاقتراب منه. سعل اليوناني وهو ينثر قطرات من الدماء الساخنة على وجه «كونور»، الذي نظر في رعب في عيني الرجل المحتضر. التقط اليوناني الآخر سلاحه، ووجهه نحو «كونور» الذي كان هدفًا سهلًا أمامه!

تحرك «حسن» كالبرق، فالتقط مسدسه سريعًا من قبضة اليوناني المصاب بجروح قاتلة، وأطلق النار على الجندي اليوناني الآخر في القلب. سقط الرجل ميتًا من قبل أن يلمس جسده الأرض. تحرك «حسن» بسرعة إلى جانب «كونور»، ووجه مسدسه نحو رأس الرجل المحتضر وسحب الزناد. نظر «كونور» إلى مضرب الكريكيت الملطخ بالدماء الذي يمسكه بيديه، مشلولًا غير قادر على تصديق ما فعله. أمسكه «حسن» من الكوع ودفعه تحت القطار. نظرا للجانب الآخر، فرأيا الجنديين التركيين الوحيدين المتبقيين يتم إطلاق النار على رأسيهما، قبل أن يهوى جسداهما فوق الحصى بصدى مكتوم. رن صوت هذه الطلقات الأخيرة وتردد صداها عبر المكان. توقف اليونانيون عما كانوا يفعلونه، وخيم صمت غريب مقبض لثوانٍ! بعد أن أنهى اليونانيون عملهم الرهيب، بدأ قائدهم يصدر أوامر جديدة:

-اجمعوا كل أسلحتهم وفتشوا حقائبهم بحثًا عن الذهب. بسرعة! ثم ابتعدوا سريعًا لأننا سنقوم بتفجير القاطرة.

زحف «حسن» عائدًا من تحت القطار، ونظر لبداية ونهاية خط السكة الحديد. بالمؤخرة أمكنه أن يرى مجموعة من الخيول مقيدة، وكان ركابها مشغولين على الجانب الآخر من القطار.

أخذ «كونور» يتحرك سريعا بوجه شاحب، وهو لا يزال في حالة صدمة. انزلق «حسن» أسفل القطار، ثم نكزه بكوعه في جانبه ليجذب انتباهه. أشار إلى الخيول، وهمس:

-هناك.. انتظر حتى أشير لك، ثم سنركض.

التفت «حسن» للناحية الأخرى ليتحقق من أن المرتزقة ما زالوا مشغولين، يتنقلون بين حقائب وملابس القتلى الأتراك. هتف فجأة:

-نعم.. الآن!

اندفع الرجلان خارجًا وركضا، منحنيان حتى لا يظهران، تجاه الخيول. تم فك رباطهم جميعًا بتعليمات «حسن» الهامسة، ثم أمسك كل واحد منهما بزمام

جواد قبل أن يقفز فوقه، فأخذت أرجلهما تتأرجح من فوق السرجين. وبينما هما يزيدان من سرعتهما، قام التركي والأسترالي بتشتيت الخيول الأخرى بالصفع على مؤخراتهم، ثم دفعا الجوادين الذين يركبانهما نحو الجسر مبتعدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والثلاثون

كان «كونور» فوق جواد أبيض طويل قوي. شعر بعضلات الحصان تنتفخ مع حركة ساقيه القويتين، وهو يتحرك فوق المنحدر الحاد المغطى بالحصى. أما «حسن» فقد وقع حظه في جواد أناضولي ممتلئ الجسم تمكن بسهولة من مجاراة خطوة جواد «كونور». لما وصلا إلى قمة المنحدر سمعا صرخة ترن من الأسفل. لقد تم رصدهما! رن الرصاص من حولهما يخترق آذانهما، ولكن عندما رفعا نفسيهما فوق التلال نحو السهل، وجدا أنهما قد اختفيا عن وابل الطلقات اليونانية. امتد وادي نهر عميق عبر الحقول على مقربة، وقام الرجلان بدفن كعبيهما في جانبي جواديهما يستحثاهما لركضا بكامل سرعتهما نحوه. كانا قد تركا أصوات وروائح الموت بعيدة كل البعد بالخلف عندما أبطأ كل من «كونور» و«حسن» في نهاية المطاف من ركض دابتيهما إلى مشي.

أخذت حوافر الجوادين تمر فوق حصى النهر الناعم البراق الذي غطي أرضية الوادي، والذي جرفته مياه النهر الضحلة ولكن ذات التيار القوي، والتي تمر عبر الهوة. بدا صوت اصطدام الحجارة ببعضها في الماء مثل سقوط الثلج على سطح من الصفيح. ومن فوق صوت خرير المياه السارية، سمع «كونور» زقزقة الطيور وصوت النسيم الخفيف وهو يهب من خلال فروع النباتات المتسلقة الخضراء الزاهية التي تدلت من أغصان الصفصاف. بدا الجمال من حولهما غريبًا يكاد يكون غير معقول بالمقارنة مع المشهد الرهيب الذي تركاه للتو بالخلف.

-هل سيتبعوننا؟

بدا «حسن» صامتًا، غارقًا في التفكير.

-نحن؟ لا أعتقد ذلك. لديهم بلد كامل لينهبوه.

ثم شد زمامه وأوقف حصانه مكملًا:

-جوادانا بحاجة إلى الراحة.

مال «حسن» إلى الأمام، وأخرج قدمه من ركّاب السرج، وأرجح ساقه اليمنى فوق السرج للترجل، وبخفة قاد جواده إلى حيث يتفرع النهر صانعًا بركة صغيرة واقعة في الظل، وتبعه «كونور». غطس الجوادان رأسيهما في الماء وشربا بشراهة، وهما ينفضان الذباب المتحلق من حولهما بالتلويح بذيليهما وتحريك أقدامهما. انحنى «كونور» ليقبض على حفنة من الرمل الرطب، يقشر به الدم الذي جف على يديه، لتسيل سحابة وردية في المياه الصافية أسفل يديه. غمس يديه في النهر مرة أخرى، واغترف بعض الماء النظيف ورشه على وجهه، يفركه من خلال شعره لإزالة الغبار والدماء التِي جفت

عليه. تهالك «كونور» على الشاطئ المغطى بالحصى. بينما بدأ اندفاع الأدرينالين الذي أبقاه مستمرًا حتى تلك اللحظة في التلاشي، شعر بالرعب من التفكير فيما فعله، يطارده وجه الرجل المحتضر. نظر إلى «حسن» قائلًا: -رائحة أنفاسه كانت خليطًا من الثوم والتبغ.

أخرج «حسن» من المتاع الذي تدلى من سرج حصانه زجاجة صغيرة عليها ملصق مطبوع عليه نص يوناني بخط أسود ثقيل. ألقى بها إلى «كونور» قائلًا: -أنا أحمل أنفاس المئات الذين قتلتهم. اغسل أنفاسه عن كاهلك برشفة من هذا.

حمل «كونور» الزجاجة بيد مرتجفة وتفحص السائل الصافي قبل أن يسأله: -أهذا «راكي»؟

-لا، هذا مشروب يدعى «أوزو». من نفس الأم.

فتح «كونور» غطاء الزجاجة، ثم عاد برأسه إلى الوراء وأخذ رشفة ضخمة. أجفل «كونور» بينما السائل السميك الذي شابته روح اليانسون المسكرة تحرق مؤخرة حلقه. بعدما قاما بربط مقودا الجوادين بفرع ساقط في الظل، انضم «حسن» إلى «كونور» على الشاطئ الدافئ المغطى بالحصى ومد يده نحوه. مرر له «كونور» الزجاجة فأخذ التركي منها جرعة وافرة، قبل أن يلتفت إلى الأسترالي ويعيد له زجاجة «الأوزو» قائلًا: -لولاك لكنت مت اليوم يا «كونور» بيك. بالرغم من أنك في «شنق قلعة» كنت أنت من ستقتلني بنفسك. كم هي غريبة هذه الدنيا.

أجابه «كونور» بجفاف:

-ما زلت أستطيع فعلها.. لكن ليس قبل أن تريني كيفية الوصول إلى بلدة «أفيون».

ألقى «كونور» نظرة على عيني رفيقه الخاويتين والتعبير الكئيب المرتسم على وجهه، وتذكر كل ما فقده رفيقه التركي. رفع الزجاجة قائلًا: - نخب «جمال».

أخذ رشفة أخرى ثم مرر زجاجة «الأوزو» إلى «حسن» حتى يشرب هو الآخر.

تناول «حسن» الزجاجة وأومأ برأسه مجيبًا:

-شكرًا لك يا «جوشوا» بيك.

لاحظ «كونور» أن «حسن» قد استخدم اسمه الأول المسيحي لأول مرة. ارتشف «حسن» رشفة ضخمة من الزجاجة. قال: -الرجل الذي أحبه «جمال» أكثر من أي شخص آخر مدفون بالقرب من هنا، اسمه «نصر الدين حوِجة».

كان مهرجًا مشهورًا عاش قبل مئات السنين. عندما يكون «جمال» ثملًا من كثرة ما شربه من الراكي، اعتاد أن يروي نكاته ويضحك كثيرًا لدرجة البكاء. كانت قصته المفضلة هي قصة حدثت للإمبراطور المغولي العظيم «تيمورلنك»، والذي رأى نفسه في المرآة وانفجر في البكاء عندما أدرك كم هو قبيح. طبعًا أخذ جميع من في البلاط يخبرونه كم كان وسيمًا، ليجعلونه يشعر أنه أفضل. الكل ما عدا «نصر الدين خوجة»، الذي انفجر في البكاء مثله.

واستمر بالبكاء بلا توقف. قال له الإمبراطور: «أنا لدي سبب للبكاء، أنا رب أراضٍ كثيرة وسيد للكثير من العبيد. لكني لا أفهم لماذا تبكي أنت هكذا «. أجابً نصر الدين: «يا مولاي، بكيت سموك لمدة ساعتين عندما رأيت انعكاسك للحظة، لكن عبدك الفقير عليه أن يراك طوال اليوم!».

ثم إن «حسن» هز رأسه مكملًا:

-إنها لمعجزة أن غض الله الطرف عن «جمال» كل هذه المدة من الأصل.

-أنت تؤمن بالجنة، أليس كذلك؟

-نعم. لكنه لن يذهب هناك.

هكذا أجاب «حسن» ضاحكًا قبل أن يكمل:

- «جمال» هو فرصة الله العظيمة للانتقام من الشيطان.

ثم رفع الزجاجة إلى السماء قبل أن يأخذ رشفة ضخمة أخرى مردفًا: -آه يا «جمال». نخب شعرك الفظيع.

ثم جلس الرجلان في صمت بينما يندفع الماء ماضيًا بالقرب، وحلقت اليعاسيب وغطست فوق سطحه. ظهرت الغيوم البيضاء الناعمة بلا حراك على سجادة من السماء الزرقاء الشاحبة، وفاح الهواء بروائح الطحالب وحبوب اللقاح والعشب الطازج. أسقط «حسن» رأسه: -لا.. حتى الشِعر سأفتقده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتد السهل الذهبي العظيم في كل الاتجاهات، وقد تقاطعت معه مسارات صغيرة مغبرة والطريق المليء بالحفر الذي يظهر من حين لآخر. كان «كونور» و«حسن» يتبعان وادي النهر المتعرج، بينما بدأت الشمس الساطعة تنحدر نحو الأفق، ثم استدار وتبع درب الغنم الضيق الذي مر متعرجًا من النهر حتى شفة الجرف. خلت المناظر الطبيعية التي أمامهما بشكل غريب من مظاهر الحياة. على مقربة كانت هناك مجموعة صغيرة من البنايات

المنخفضة، المبنية من الحجر، والمغطاة بأسقف من القش. لكن لم يتصاعد أي دخان من المداخن، ولا يوجد أشخاص يمكن رؤيتهم. حفز الرجلان جواديهما على الركض على طول الطريق، ودخلا القرية بحذر. عندما اختلس «كونور» النظرات من خلال الأبواب التي تُركت مواربة في البيوت المتواضعة، رأى خليطًا فوضويًا من الممتلكات المنزلية؛ الملابس وأدوات المائدة والشراشف المتناثرة حولها. سأل «كونور» رفيقه التركي: -أين ذهبوا جميعًا؟

-كانوا يعرفون ما سيحدث واختاروا المغادرة قبل وصول العدو.

ترجل «حسن» عن حصانه مكملًا:

-تعال، سنجد بعض الطعام هنا.

انضم «كونور» إلى «حسن» وأخذا يتنقلان عبر المنازل والساحات، يجمعان المواد الغذائية التي تركها القرويون وراءهم عندما هربوا؛ عسل، ورغيف خبز، وبعض البصل، وعلبة زيتون، وبعض الطماطم التي نمت على ساق نبات صغير في علبة زيت فارغة عند عتبة باب شخص ما، وبعض المشمش والخوخ الذين نضجوا في بستان. كانت الشمس قد انحدرت أكثر في الأفق الآن، وأخذت أشعتها تتلاشى عبر الحقول الصفراء. استدار «كونور» إلى «حسن» يسأله: -هل سنقوم بقضاء الليلة هنا ؟

-لا، اليونانيون قريبون جدًا، وهم يتحركون بهذا الاتجاه. ستكون هذه القرية مستهدفة.

ثم إنه وضع قدمه اليسرى في الرِّكاب وأرجح ساقه عبر ظهر حصانه مكملًا: -يجب أن نعثر على مكان آخر.

بينما يصعد «كونور» خلفه، أومأ «حسن» برأسه نحو مساحة من التلال المغطاة بالأشجار المنخفضة التي يمكن رؤيتها خارج الحقول الشاسعة.

-هناك سنجد مأوى.

ركل الرجلان جانبي جواديهما، وتسابقا عبر السهل نحو الغابة البعيدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رن رأس «كونور» بأزيز يصم الآذان من جوقة من الذباب حلقت من حوله وهو يمر تحت مظلة مظلمة من أشجار الصنوبر التي اصطفت على جانبي الطريق العريض. ارتفعت قرعات حوافر جواده وهي تضرب الألواح الرخامية التي رصفت الجادة القديمة، تطحن أكوام الزعتر البري والأوريجانو التي نمت بين الشقوق، لتطلق رائحة حلوة في الهواء الدافئ الساكن. انتصبت على

جانبي الطريق جذوع ما، كانت ذات يوم أعمدة مهيبة فوق قواعدها، تناثرت من حولهما شظايا الأعمدة المكسورة، وتناثرت كتل ضخمة من الرخام المنقوش عشوائيًا بين الأشجار المتشابكة كأنها لعب منبوذة لطفل عملاق. من خلال الأشجار ظهر سور ضخم شُيِد من كتل حجرية مستطيلة ضخمة، كل واحدة منها بارتفاع خصر «كونور». نمت أشجار زيتون ذات جذوع ضخمة للغاية من الفجوات في السور. استدار «كونور» إلى «حسن» الذي خطا بجواده بجانبه في صمت، وسأله: -يوناني أم روماني في اعتقادك؟

هز «حسن» كتفيه غير عارف، وأجاب:

-لا فارق.. تنتمي لإمبراطورية شخص ما.

ارتفع تل شديد الانحدار على يسارهما. على مبعدة، بدا كما لو أن شخصًا ما قد أخذ قضمة من جانبه.

بينما «كونور» يقترب، رأى صفوفًا من المقاعد الحجرية مرتبة في طبقات شديدة الانحدار حول المنخفض شبه الدائري بجواره، أدار «حسن» مقود جواده عن الطريق الممهد إلى مسار الماعز الضيق الذي يتعرج بين الأنقاض المتساقطة، متجهًا إلى المدرج. قال لمرافقه الأسترالي: -يمكننا أن نرتاح هنا.

قام الرجلان بالترجل عن جواديهما وربطا مقودهما، وعبرا الأرضية الرخامية المتشققة لما كان يومًا ما مسرحًا، مرت أحذيتهما فوق الحصى المتساقط الذي يغطي الطريق المرصوف جزئيًا. تحركا حول الأنقاض، وجمعا الفروع وقطع الأخشاب لاستخدامها فيما بعد لإيقاد النار. استطالت الظلال وهبّت برودة الليل الشديدة لتقطع حرارة اليوم. شيد «كونور» شعلة صغيرة بسرعة في تجويف داخل أحد الأعمدة الساقطة، وكان لدى «حسن» مقلاة صغيرة أخذها من القرية، فقطع فيها بعض الطماطم والبصل، قبل أن يضع المقلاة على الفحم ويجلس ساندًا ظهره مقابل أول صف من المقاعد، وقد مدد ساقيه على الأرضية. قدم لـ«كونور» عبوة معدنية صغيرة من الزيتون الأسود الذابل، بعد أن أخذ عددًا قليلًا منه لنفسه. هز «كونور» رأسه نفيًا، وكمش أنفه قائلًا: -لا زلت لا أستطيع استطعام هذا الشيء.

مضغ «حسن» الزيتون المر باستمتاع واضح، قبل أن يبصق النوى على الأرض. ثبتت عيناه على الشعلة الخفيفة الباهتة على مبعدة. قال: -أول أسترالي قابلته - ليس لأطلق النار عليه، وإنما للتحدث معه - كان لصًا.

أخذ «كونور» يضحك:

-ليس هذا بالغريب. كنا جميعًا مدانين، كما لابد وأنك تعلم.

-التقيت به في معركة «لون باين». لوح ذلك الرجل بقطعة قماش بيضاء، هتف مناديًا وهو يتقدم مباشرة عبر أرض قاحلة ليس بها بشر. رأينا أنه يحمل شيئًا. اتجهت ألف من البنادق التركية نحوه، خلفهما ألفين من العيون التركية. ولكنه استمر في المشي. وصل إلينا وأسقط واحدًا من جرحانا أمامنا.

-لماذا فعل ذلك بحق الشيطان؟

-كان شجاعًا للغاية. لكن غبي جدًا.

ثم رفع «حسن» حاجبيه، وهز كتفيه مكملًا:

-وجلست أنا وهو على أكياس الرمل وتشاركنا سيجارة. ثم سار مبتعدًا عائدًا من حيث أتى.

-ولا أحد حاول إطلاق النار عليه؟

-لا، كانوا منذهلين للغاية مما فعله. كان يجب أن أطلق النار عليه بصراحة، رغم ذلك عندما وصل إلى الخنادق الأسترالية أدركت أنه سرق سجائري.

ثم أخذ كلا الرجلين يضحكان. فجأة، انضم إلى ضوء الأفق الخافت رشقات صغيرة من اللهب بدت كالزهور، أخذت تتفتح فوق خلفية من غروب الشمس البديع المتوهج ذي اللون الوردي. أشار «حسن» نحو مصدر الضوء معلقًا: -إنهم خلفنا بمقدار يوم على الأكثر. سأصطحبك حتى بلدة «أفيون». ولكن بعد ذلك يجب أن أذهب إلى أنقرة.

أومأ «كونور» برأسه.

-قل لي يا «جوشوا» بيك. إذا وجدت -بمعجزة ما- ابنك، ماذا ستقول له؟

كان هذا سؤال لم يخطر ببال «كونور» حتى. تفكيره كان منحصرًا في العثور على «آرت». أما بعد هذا، فهو لا يعرف ما سوف يفعله. أجاب بتردد: -أعتقد... سأخبره أن يعود إلى المنزل. إنه المكان الذي ينتمي إليه.

أومأ «حسن» برأسه، وقد قطب حاجبيه. ثم قرر تغيير الموضوع: -سينضج الطعام قريبًا.

ثم وقف وتحرك إلى حافة النار، باستخدام عصا ذات نهاية على شكل حرف v قام برفع المقلاة من فوق الفحم من مقبضها. ثم عاد بها إلى حيث جلس «كونور» وناوله رغيف الخبز الجاف الذي معهما. قطع «كونور» قطعة بحجم قبضة اليد وقطعها إلى قطع أصغر، وغمسها في مزيج الطماطم المطبوخة الناعمة ذات الرائحة الذكية معلقًا: -رائحتها شهية.

كانت الطماطم قد تفككت صانعة صلصة كثيفة تخللت قطع الخبز الجافة. كانت وجبة لذيذة، أو ربما هو كان أكثر جوعًا مما يعتقد. تناول الرجلان الطعام في صمت، وأكلا كل ما كان في المقلاة حتى صارت نظيفة كأنما غُسِلَت للتو. كانت الشمس قد انخفضت تاركة الأفق منذ فترة، وغلف الليل جانب الجبل. قام «حسن» بمناولة «كونور» بطانية السرج.

-الآن يمكننا أن نظفر ببعض الراحة.

ثم إنه أومأ تجاه الوهج المقبض من الحرائق البادية في الأفق. استطرد: -لكننا لن نبقى هنا فترة طويلة. غدًا سنستيقظ عند شروق الشمس وننطلق إلى «أفيون»، وهي ليست بعيدة للغاية عن هنا.

قام «كونور» بلف بطانية السرج ووضعها فوق قاعدة أول درجة من المدرج، وحرك جسده نحو حرارة نيران المعسكر التي صنعها، وأراح رأسه على الملاءة. كانت رائحة شعر الخيل والعرق مريحة ومألوفة. وبينما تنحدر رطوبة الليل بالهواء، رفع ياقته لحماية رقبته من برودة الحجارة وقام بغلق أزرار معطفه حتى ذقنه. على الرغم من أنه لم يعترف بهذا أبدًا لـ«ليزي»، إلا أن «كونور» استمتع دائمًا بالأوقات التي اضطر فيها إلى قضاء الليل نائمًا تحت النجوم. عندما كان يبحث عن الماء بمكان بعيد عن المنزل ويصل إلى نهاية اليوم دون نجاح، فإنه يفرح عندما يصبح من الواضح أنه سيتعين عليه إشعال بعض النار وإخراج أغراضه ليقوم بالنوم تحت قبة واسعة من سماء الليل الزرقاء المخملية.

تلألأت النجوم فوق رأسه وبدت كما لو كانت تضغط عليه. شعر وهو راقد هكذا على الرمال التي كانت لا تزال دافئة من حرارة الشمس، شعر بأن حياته لا معنى لها على الإطلاق عند قياسها ضد ضخامة هذا الكون الواسع. بالكاد تمكن البشر من خدش المكان الذي يدعوه «كونور» بالديار. في تلك القارة الجنوبية الضخمة، تعد الحياة معركة بلا نهاية ضد قوى الطبيعية التي تبدو مصممة على مسح البشرية من فوق سطحها وهو يحب ذلك. في بعض الأحيان يكون من الجيد أن يشعر أنه ليس له أي قيمة في مخطط الأشياء. أن هناك مخطط أكبر ليس له يد فيه. ولكن هنا، حتى صوت المخلوقات الليلية كان مريحًا. أزّت الصراصير بصوت خافت، بينما همهمت بومة بهدوء. بدا أن كل شيء يتحرك في تناغم مع تنفس الرجلين الراقدين تحت النجوم. ينتمي بعض الناس المحظوظين إلى هذه المناظر الطبيعية، هكذا فكر «كونور». شعر «كونور» بشقوق الرخام تحتك بظهره؛ شقوق سببها مرور أقدام لا حصر لها على مدى آلاف السنين. لم يكن الحصى الذي يحيط بالمنصة الحجرية القديمة من صنع الطبيعة أو عوامل التعرية على مدار آلاف السنين، وإنما كان من صنع البشر. أدرك هذا في وقت سابق بينما هو ينحني لجمع

الحطب؛ ما بدا مثل قطع من التربة البرتقالية الفاتحة والرمادية الباهتة كانت في الواقع شظايا من السيراميك. كانت بعض القطع صغيرة مثل رؤوس أعواد الثقاب، بينما بدت بعض القطع الكبيرة الأخرى مثل شظايا من أطباق مكسورة أو أيدي صنابير مكسورة. انتقل الكثير من الناس عبر هذه الأرض -نابذون ومتخلون عن الكثير بينما هم يمرون- ولم يعد من الممكن التمييز بين ما صنعه الإنسان وما وُلِد من رحم الطبيعة.

أحب عظمة وطنه الشديدة، لكن هنا في هذا المكان الخصب والوفير الذي كان يغذي البشر لعشرات الآلاف من السنين، اختبر «كونور» شعورًا غير متوقع وهادئ بالانتماء. بالرغم من أهوال اليوم - الصدمة والعنف الذين يفوقون أي شيء كان يمكن أن يتخيله - فقد شعر وكأنه في منزله في هذه الأرض. ثقلت أطراف «كونور» بينما هو يستسلم للنوم تحت كوكبة من النجوم غير المألوفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والثلاثون

ارتفعت صرخات مروعة فجأة، عبر صف غير منظم من الجنود الأتراك عبر أرض خالية من البشر تمامًا. خطوا متعثرين على الأطراف المشوهة وأشلاء الرجال القتلى والمحتضرين، يطأون بأقدامهم على الوجوه والأنوف، المغروسة في الطين الذي فاح برائحة الموت. تدفق سائل أحمر ثقيل فوق حواف الأحذية الجلدية التي يرتدونها، فلوث أصابع أقدامهم العارية التي برزت من أحذيتهم البالية. لم تمطر السماء منذ شهور؛ تشبعت التربة بدماء آلاف القتلى من الجنود.

هناك. مثل قطعة من عرق السوس تمر عبر المناظر الطبيعية المشوهة، ظهرت خنادق الأنزاك، في متناول اليد تقريبًا. ركض «هنري» و«إيد» مثل الأرانب، يتمايلان ويتسابقان بينما تقدمت القوات مقتربة. تراجع «آرت» خلف أخويه، وقلبه يخفق بصوت عالٍ. يمكنه أن يسبق الاثنين.. لديه سيقان أطول.. كما أنه يسبقهما ببضع سنوات.. ياللجحيم، إنه عداء أسرع منهما، ولن يتمكن أي منهما من اللحاق به. لكنه لا يستطيع أن يدير ظهره لهما ويتخلى عنهما. مد ذراعيه نحوهما، وسحبهما إلى الخندق الآمن نوعًا ما.

هو بحاجة إلى معرفة أنهما بأمان.

«لقد وعدت أبانا!»، هكذا فكر...

آمنين تقريبًا. ياللراحة. صارا فوق الحافة، تحت خط النار، بعيدًا عن الأذى.

«الآن دوري.»، هكذا فكر.....

شعر بساقيه تنبضان بقوة، وعينيه زائغتين.. عوائق لعينة من الأسلاك الشائكة، والكثير من الأطراف المقطوعة وحفر القنابل. تصاعدت صرخة مرعبة منه عندما اختفت الأرض من تحت قدميه. شق المعدن الساخن طريقه من خلال اللحم.

الحرارة ، والضوء الساطع، وضغط داخل رئتيه.

ثم ألم بالأذنين.

لا يمكنه رؤية أي شيء، ولا الشعور بأي شيء.

لون أبيض يخيم على كل شيء من حوله.

ثم ظهر شيء ما من خلال اللون الرمادي المخيم على كل شيء.

أنين، طنين بالأذنين، شيء ما. كان بوسعي أن أسمع شيئًا ما. ماذا كان؟

- «آرت»؟

- «آرتي»!

-هل أنت بخير يا «آرتي»؟

-لا! عودا مرة أخرى حيث كنتما! هكذا فكر...

- «إيد» و«هنري»، كنتما بأمان. لماذا عدتما؟ عودا!

زحفا عبر الوحل نحوه، ممسكين ببنادقهما.

-تبًا، ابتعدا أنتما الاثنان!

هكذا زجرهما وهو يشعر بالألم من حيث تدلى اللحم من ساقه في شرائط. شعر بالأرض تميد من تحته، ورأسه يدور. شعر بأنفاسه منحبسة داخل صدره. هتف بضعف: -ابتعدا واتركاني!

-نعم، سنفعل كل ما تقوله يارفيق. اهدأ فقط.

هكذا رد «هنري» عليه.

لكنهما زحفا على أقدامهما الآن في خط متعرج باتجاه شقيقهما.

رفع «آرت» رأسه. تناثرت مجموعة من الرصاص في خط باتجاههما. ثم توقف إطلاق النار فجأة.

-قلت لكما اتركاني!

من وسط عش مصنوع من أكياس الرمل، ظهر جندي تركي ورفع فوهة بندقيته الآلية، ثم انحنى، وصوب سلاحه نحو الهدف بالأسفل!

-لا! .... ارحلا! ... اذهبا!

ضغط التركي على الزناد بينما «هنري» و«إيد» يعبران رقعة الأرض الأخيرة الملطخة بالدماء ويصلان إلى أخيهما.

ظهر لمعان أبيض ساخن من الفوهة.. بصقت البندقية بضعة رصاصات.. وانغرست كل الرصاصات في أهدافها بدقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن والثلاثون

دفأت الشمس وجه «آرت».

أغلق عينيه بضعف ضد وهجها.. مال برأسه قليلًا على أحد كتفيه، وقد مد ذراعيه؛ أحد كفيه باتجاه الأرض، بينما الآخر مقلوب نحو السماوات، وأما شفتيه فانثنتا بضعف في صورة ابتسامة باهتة. ظهرت سحب صغيرة من فم «آرت» عندما حاول التنفس وسط هواء الفجر البارد المخيم على المكان. تحرك ببطء على كعب قدم واحدة، بينما يسحب قدمه الأخرى الخالية من الحياة من ورائه، ويدفع سجادة صلاة صوفية صغيرة. كانت سترة «آرت» الرسمية المهترئة قد تمزقت في أكثر من موضع، كاشفة عن جذعه الهزيل المشوه لأشعة شمس الصباح الضعيفة. بدا بطنه غائرًا كبطن كلب شارع، وقد برزت ضلوعه وترقوته للغاية لدرجة أنهم ألقوا بظلالهم على بشرته الشاحبة المليئة بالندوب. زلت قدمه، فتساقط شلال من الحصى وقذائف الهاون المتآكلة وارتد على الجوانب شديدة الانحدار لسور القلعة المتهدم. تعثر، وقد تعلقت إحدى قدميه في الفراغ. ظهرت غريزة البقاء داخله فجأة.

على قمة السور، أخذت أصابع قدميه تخربش بحثًا عن حافة البساط الخشنة. رفرف الصوف المنسوج بخشونة في مهب الرياح التي دارت بين الأطلال التي بدت كأنياب وحش أسطوري. اعتدل «آرت»؛ نظر إلى أسفل من موقعه بالأعلى. بدت المنازل ذات الأسطح داكنة اللون بالأسفل عند قاعدة القمة وكأنها ألعاب، وأما الناس الذين ساروا على طول الشوارع المتعرجة والأزقة فبدوا صغيري الحجم مثل الحشرات.

اندفع ضوء الشمس الباهت عبر جذوع الأشجار بينما «كونور» و«حسن» يتبعان درب ماشية ضيق نحو قمة مجموعة طويلة من التلال المغطاة بالأشجار. ملأت رائحة الصنوبر المنعشة والندية الهواء بينما الجوادان ينزلان المنحدر، يسحقان في طريقهما سجادة من الإبر الخضراء الداكنة الساقطة التي وقعت تحت الأقدام. مع شروق الشمس، نزلت أسراب من شغالات النحل نحو الغابة، تزحف فوق اللحاء البرتقالي الخشن لأشجار الصنوبر الشاهقة. لوح «كونور» بيده ليبعد مجموعة من النحل ظلت مصممة على الهبوط على وجهه.

-أين توجد الزهور؟

سأل «كونور» بفضول، فرد عليه رفيقه التركي باستغراب: -أي زهور؟

-لماذا النحل هنا؟ لا أرى أي زهور بالمكان.

نظر «حسن» نحوِ المكان الذي تنتشر فيه الحشرات حول جذوع الشجر.

-لا.. إنهم هنا من أجل ذلك....

هكذا أجابه وهو يشير تجاه مادة بيضاء كالقطن، متجمعة على شكل رقع فوق الأغصان الخشنة.

-يستخدمه النحل لصنع العسل. اسمه «عسل الصنوبر». إنه الأفضل في تركيا.

لم يسع «كونور» إلا أن يتعجب من خصوبة هذا البلد. علق: -أنت محظوظ هنا. هناك الكثير من الخيرات الوفيرة.

ضحك رفيقه معلقًا:

-نعم، محظوظ جدًا. لدرجة أن الناس يتقاتلون للاستيلاء على كل شيء منذ آلاف السنين.

لم تفت المفارقة التي يقصدها عن بال «كونور». على مبعدة، امتد خط متدرج وخشن من الجبال الضخمة نحو السماء الزرقاء الباهتة، بينما بدت المنحدرات السفلية داكنة تزدحم بالكثير من الغابات الكثيفة. بدت الروافد العليا عارية من النباتات وتحيط بها طبقة كثيفة من شيء شديد البياض؛ أدرك «كونور» متفاجئًا أنه ثلج، وهو شيء لم يسبق له أن رآه من قبل. بدت إحدى القمم أعلى من الأخريات، وقد اختفت قمتها وسط السحب. أشار «حسن» نحوها وقال: -هذا جبل «ديندي مون». بالنسبة إلى الوثنيين القدامى، كان موطن أكثر الآلهة أهمية؛ إلهة الخصوبة الأم، والمدعوة «سيبيل». كانت تركب عربة يجرها أسدان ويمكنها أن تعبر بين عوالم الأحياء والأموات.

-أولئك القدامى لا يجعلون الأمور سهلة أبدًا على البشر. كم أحتاج إلى عربة مثلها.

-أفترض أنهم يعتقدون أن هذا ضد النظام الطبيعي للأشياء، العبور من الموت إلى الحياة ذهاب وعودة.

هكذا رد «حسن «عليه، فعلق «كونور»:

-ما هو ضد النظام الطبيعي للأشياء فعلًا هو اضطرار الآباء لدفن أبنائهم الصغار!

وصل الرجلان إلى التلال، والتي امتدت بشكل حاد على جانبيهما. كبحا جماح جواديهما وتأملا المنظر المذهل.

امتدت الشوارع المليئة بالأشجار، والشبيهة بالشبكة، ومسرح المدينة القديمة نصف الدائري وراءهما. أما أمامهما فقد امتد سهل الأناضول العظيم، وقد

امتلأت الحقول وردية اللون بالكثير من القرى الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى. على مبعدة، تلاقت الطرق التي عبرت السهل مثل انفجار نجمي يسقط فوق مدينة أكبر. كان هناك في مركزه جرف ذو جوانب شديدة الانحدار، أبرز سمة جغرافية في هذا السهل المتموج، وعلى قمة هذا الجرف ظهرت أطلال بعض الجدران العتيقة المتهدمة. أشار «حسن» نحو الأنقاض: -ها هي بلدة «أفيون».. «قلعة الأفيون الأسود» التي تبحث عنها.

أخذ «كونور» يضحك قائلًا:

-لديكم الكثير من الأنقاض أيها الأتراك.

نزل الرجلان نحو الحقول المفتوحة ودلفا لطريق ضيق مليء بالحفر يمتد متعرجًا نحو بلدة «أفيون». مر الطريق من خلال الحقول الكثيفة، التي امتلأت بالنباتات ذات السيقان العالية التي تصل إلى الفخذ، والأوراق الرمادية. رفرفت بتلات مدورة ناعمة مثل الحرير عندما يتمايل مع النسيم، منها الأحمر القرمزي، والوردي، والأبيض كالثلج. أزهرت الأزهار وتساقطت، بيننا تمايلت قرون البذور الممتلئة المنتصبة فوق السيقان الرقيقة، في تفيح بعصارتها بانتظار الحصاد. وقف شخصان وحيدان -رجل وامرأة– في حقل خشخاش الأفيون، وقد حنيا رأسيهما ومدا أذرعهما ببراعة يصنعان الشقوق في جوانب البذور الناضجة ذات الأوراق المثنية. هتف «حسن» مناديًا الرجل يحييه بالتركية. رفع الرجل العجوز رأسه، وقد رفع يده ليحميها من وهج الشمس، وقد غاصت عيناه الشبيهتان بحبات الزبيب بعمق داخل المحجرين. لم يبد أي دهشة لرؤية شخصية مهيبة بالملابس الرسمية ك»حسن» أمامه. رد تحية «حسن» بمثلها، ودارت محادثة قصيرة بين الرجلين بالتركية. أشار الرجل العجوز بيد ملطخة باللون الوردي بينما هو يتكلم. استدار «حسن» إلى «كونور» يقول له: -اليونانيون يتحركون بسرعة. الليلة الماضية كانوا في بلدة «إيش حصار»، على بعد ثلاثة عشر ميلًا فقط. تعال، يجب أن نسرع.

حفز الرجلان جواديهما على الركض فوق الطريق الترابي باتجاه أطراف بلدة «أفيون»، حيث قابلا مجموعة من القرويين الأتراك الفارين من منازلهم. رعى الأطفال الأغنام والماعز بجانب النساء اللائي حملن أطفالهن الرضع، بينما دفع الرجال عربات اليد، في حين تراكمت الممتلكات المنزلية عشوائيًا على الصواني المسطحة. صارت مجموعات اللاجئين القليلة طوفانًا، واضطر «كونور» و«حسن» إلى إبطاء تقدمهما وهما يسبحان ضد تيار النزوح. أمامهما، لاحت في الأفق القمة الضخمة الموجودة في قلب بلدة «أفيون»؛ تجمعت المنازل المغطاة بالجص الأبيض حول قاعدتها. بدأ حجم المنازل يصغر نحو ضواحي المدينة، وتخللتها حقول صغيرة محاطة بأسوار حجرية منخفضة وخشنة تحيط بحظائر الحيوانات، والبساتين، وحدائق الخضروات.

نظر «كونور» عبر التربة الغنية المحروثة مؤخرًا باتجاه ساحة مفتوحة محاطة من ثلاثة جوانب بمباني طويلة ومنخفضة..

في البداية، لم يستطع تمييز ما يقع أمام عينيه.

كان مشهدًا مألوفًا له لدرجة أنه للحظة لم يبال به، ثم ميزه فجأة.. كانت أشرعة من الصفائح المعدنية المسطحة العريضة تدور مع الرياح فوق إطار طويل؛ طاحونة هوائية! تمامًا مثل طواحين الهواء الموجودة بالديار! قاد «كونور» حصانه حول المكان، وقفز فوق الممر نحو الميدان.. أخذ يصرخ: -إنه هنا!

هبت رياح ساخنة من الجنوب الشرقي، فحملت الغبار الذي تطاير من حوافر جواد «كونور». استدار «حسن» إلى الوراء واستحث جواده على الإسراع، ليلحق برفيقه، بينما بلغت الإثارة والترقب لدى «كونور» مبلغهما. عند دخوله إلى الميدان قفز من على حصانه قبل أن يوقفه حتى، وألقى الزمام بعيدًا وهو يتقدم نحو قاعدة الطاحونة. دارت الأشرعة بنشاط مع الريح العاتية، بينما ارتفع قضيب ضخ مرتجل وغطس، وأخذ يسحب الماء من المياه الجوفية أدناه قبل إطلاقها من صنبور في حوض صخري عميق. سحب «حسن» حصانه بجانب الأسترالي وترجل سائلًا: -ما هذا الشيء؟

-إنه من صنع «آرت»!

على الرغم منه، تجمعت الدموع في عيني «كونور» وهو يستطرد: - «آرت» هو صنع هذا؛ إنها طاحونة هوائية.

ثم وضع يده تحت الصنبور، اندفع الماء البارد عبر كفه، وأردف شارحًا لرفيقه: -إنها تسحب الماء من تحت الأرض.

-هل أنت متأكد من أنه هو من صنعها؟

هبت موجة من الارتياح واليقين فغمرت «كونور» الذي أجاب: -نعم.. لا يمكن أن يكون أي شخص آخر.. «آرت» هنا.. أنا متأكد من هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحرك «حسن» نحو أحد المباني الواقعة على حافة الميدان. ارتفع عمود رقيق من الدخان نحو السماء من باب المبنى المفتوح جزئيًا. جلس رجل عجوز في الظل على كرسي منخفض القاع وقد مدد ساقيه. التمع الرضا في عيني الرجل العجوز وهو يدخن سيجارة ملفوفة باليد، وقد أراح بندقية في حجره. توجه «حسن» بالحديث للعجوز بالتركية: -عليك أن تنسحب إلى الشرق يا حاج، لا يمكنك الانتصار بالبقاء هنا!

-أفضل الموت في منزلي، شكرًا لك.

ثم تراجع متأرجحًا بالكرسي، متجنبًا عيني «حسن»، الذي ابتسم وهو يرد:
-إذن، فليحفظك الله. أخي، نحن نبحث عن غريب؛ رجل إنجليزي.. جاء إلى هنا كسجين. هل يوجد غرباء في البلدة؟

نظر الرجل العجوز إلى الأفق البعيد، وهز كتفيه، ورفع حاجبيه، قبل أن يجيبه:
-لا، ذهب الجميع، الجبناء كلهم رحلوا!

تجمعت حبيبات لامعة من البصاق على شفته السفلية البارزة داكنة اللون. كرر: -الجبناء.

أعرض «حسن» عن الرجل العجوز، ونادى رفيقه:

- «جوشوا» بيك. تعال... سنجد شخصًا آخر نسأله!

على مضض، ترك «كونور» الطاحونة وتبع «حسن» في الشوارع الضيقة خلف الميدان. بدت البلدة مهجورة. لأول مرة منذ فرارهما من القطار، أمكنهما سماع صوت الانفجارات من بعيد. شعر «حسن» بالتعجل الذي بدأ في التكون في رفيقه الأسترالي، والذي تسارعت أنفاسه فجأة. لم يستطع «كونور» كبح جماح نفسه أكثر، وبدأ في الهتاف بصوت عال: - «آرت»! «آرثر»! أين أنت؟!

دار الرجلان حول الزاوية ليجدا مشهدًا لا يصدق. جلس أربعة رجال حول منضدة صغيرة في ظل شجرة تين عتيقة، وقد دُسَت سجائر بين الشفاه أو تدلت بين أناملهم الغليظة. كانوا منغمسين في إعداد لعبة الطاولة التي افترشت المنضدة أمامهم. تحدث «حسن» إلى الرجال بالتركية: -السلام عليكم.

-وعليكم السلام.

هكذا رد الرجال دون أن ينظروا نحوه. وجه «حسن» كلامه لهم جميعًا: -نحن نبحث عن الرجل الذي بنى طاحونة الهواء في الميدان... مضخة الماء. هل تعرفون أين هو؟

رفع أحد لاعبي الطاولة حاجبيه الفضيين الكثيفين وأصدر صوت طقطقة بلسانه على سقف فمه: -لا.. لقد رحل، غادر مع الأتراك.

صحح له أحد أصحابه، مشيرًا إلى أطلال الكنيسة الكائنة أعلى المنحدر: -لا.. ذلك المسيحي لا يزال هنا، في الكنيسة القديمة.

أومأ «حسن» برأسه ووضع يده على صدره وهو يقول:

-شكرًا لكم.

هز الرجل ذو الحاجبين الكثيفين رأسه معلقًا:

-أتمنى نهاية هذا الجنون.

لم يكن لدى «كونور» أي فكرة عما يتم مناقشته. سأل رفيقه التركي باستغراب: -الجميع غادروا المكان.. فلماذا لا يزالون هم هنا؟

-إنهم يونانيون. ليس لديهم ما يخشونه.

هكذا رد عليه «حسن» وهو يومئ برأسه تجاه الكنيسة مكملًا: - «جوشوا» بيك.. مرادنا هناك.. هناك يمكنك أن تجد ما تبحث عنه بإذن الله. لكن يجب أن تسرع.

ثم إنه نظر من فوق كتف «كونور» مستطردًا:

-هل ترى هذا الدخان؟ القرويون يحرقون محاصيلهم بدلًا من تركها لليونانيين. يفعلون ذلك فقط عندما يكون لا يكون هناك أدنى أمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعر «كونور» بقلبه يكاد يثب من فمه وهو يتطلع نحو الكنيسة وقد ثبت نظراته على برج الجرس على السطح. أرخى زمام الجواد، ومنحه ركلة سريعة في جانبه، فاندفع الحصان أعلى التل. توجه من خلال أزقة المدينة المرصوفة بالحصى والمغطاة بالتراب، ينحرف مع الطريق من وقت لآخر، وقد ثبتت عيناه على سطح الكنيسة. كان الجواد الذي يمتطيه «كونور» مدربًا ليخوض المعارك، ويبقى هادئًا وقت تبادل النيران فلا يجزع، وثابت القدمين فوق الممرات الجبلية الضيقة. ركض الجواد في الشوارع بغبطة ولا مبالاة، وقد انثنت أطراف الجواد بانتباه بينما «كونور» يعتدل فوق السرج، قبل أن يربت على رقبة الحصان عندما صارا يسيران على الجانب الآخر.

ومضت شوارع بلدة «رينبو» في ذهنه؛ واسعة، متربة، ومستقيمة. كانت بلدة «رينبو» قد بُنِيَت على مساحة مسطحة، بلا حصون أو أسوار، فبدت تلك البلدة الهادئة كأنها من عالم بعيد للغاية. استدار عند الزاوية وقد لاحت الكنيسة في الأفق أمامه خلف سور حجري. شد «كونور» بقوة على زمام الجواد وقد بلغت منه الإثارة مبلغها، ووجه جواده من خلال قوس منخفض في الفناء الأمامي ولكن تهدل كتفاه بعد ذلك.

شعر أن هذه الكنيسة حية تتنفس، كانت مطلية حديثًا ولها جرس لامع معلق في برجها. سيتم على الأرجح الترحيب به من قِبَل قس ملتح يرتدي رداءً أسود طويلًا، لن يلبث أن يلتفت للداخل لينادي «آرت». لكن لم تكن هناك أي

حياة هنا، فقط القشرة الجافة لمبنى مهجور منذ فترة طويلة وتُرِك لينهار. تدلى الجص من الواجهة كأنه جلد ثعبان أسقطه عن جسده منذ لحظات، ولكن بدلًا من ظهور طبقة جديدة لامعة من الجلد تحته كما يحدث مع الثعابين، رأى «كونور» عوارض خشبية مكسورة وأحجارًا محطمة.

تبع الطريق المؤدي إلى المدخل حيث لا تزال ثلاثة أقواس قائمة متحدية الصعاب. كان سقف الردهة الذي تدعمه الأقواس الثلاثة قد انهار صانعًا كومة من الجص والخرسانة على الأرض. خطا فوق الأنقاض إلى المدخل الأمامي، حيث تدلت القطع المتبقية من عتبة الرخام المزخرفة في كآبة. تردد «كونور» متسمرًا عند الثقب الأسود حيث كان الباب ينتصب بالماضي، وقد شعر بنفسه غارقًا وسط لُجّة من اليأس. غرق قلبه بأعماق أحشائه أكثر فأكثر وهو يخطو إلى الداخل، مهما يكن من أمل ضعيف كان داخله في الفناء الأمامي، فقد تحطم وتبخر الآن بما رآه.. كان داخل المكان مظلمًا كئيبًا باستثناء خيط رفيع من الضوء الذي تسلل من خلال فجوة في السقف المقبب.

- «آرثر»! «آرت»!

أخذ ينادي في الفراغ.

بدت الغرفة طويلة تتخللها منافذ صغيرة. استقرت طبقة رفيعة من الرمل والغبار على الأرض مثل الطمي الذي يأتي بعد تراجع الفيضان. صارت الأرضية التي كانت مكسوة بالفسيفساء الجميلة ذات يوم مجرد حطام شققته قراميد السقف المتساقطة والكتل الحجرية التي هبطت عليها من فوق، تناثر البلاط الفسيفسائي كأنه بعض الأسنان غير الثابتة.. تم تزيين الداخل بمعرض رائع من اللوحات الجدارية. كانوا يتدلون من السقف على كل الجدران ويمتدون جنبًا إلى جنب بطول المبنى، على طول الطريق إلى المذبح تلاشت الكثير من تفاصيلهم مع مرور الوقت؛ سقطت بعضها من على الجدران وانهارت لتتحول لغبار التصق بالأرضية، مخلفة وراءها بقع كبيرة من الملاط الرمادي والأحجار العارية، لتقطع سرد حكايات الكتاب المقدس. بالقرب من السقف، حيث يعشش الحمام ويهدل تحت الأفاريز، امتدت خيوط بيضاء طويلة من روث الحمام، تقطر أسفل وجوه المسيح، والقديس «جورج»، والحواريين الاثنى عشر، كدموع حمضية جردت اللوحات من ألوانها الأصلية الزاهية.

اقترب «كونور» من الحائط.. عيناه لم تكونا تخدعانه؛ كانت عيون جميع الشخصيات الموجودة بالرسوم الجدارية ممحية. لا يمكن أن يكون هذا صدفة. مرر «كونور» أطراف أصابعه فوق الوجوه المتشققة، مستشعرًا أثار

تدمير إزميل مسعور. لقد مر شخص ما بطول الجدار وتكبد الكثير من العناء لتشويه تلك الأيقونات بجدية وإزالة عيونهم.

-هذا لأننا نؤمن أن تصوير النبي يسوع تدنيس للمقدسات، وأنه شيء يحرمه الله.

هكذا أعلن «حسن» من مكانه عند المدخل، ثم أردف:

-لذلك قام السكان المحليون بطمس أعينهم.

انتصبت في الزاوية البعيدة سقالة بدائية مصنوعة من الأخشاب والحبال؛ محاولة واهية لإبعاد الدمار والتفكك الذين أصابا المكان. في الزاوية المجاورة انتصبت حظيرة حيوانات مصنوعة من الفروع الجافة وأخشاب التسقيف المسروقة. لكنها الآن مهجورة وانهارت عشوائيًا. هبت رياح عاصفة من خلال فجوات في الجدار ونفخت الروث الجاف والقش المتعفن في دوامات حلقت في هواء الغرفة في كوة مظلمة في الحائط، لمح «كونور» مجموعة من الأشكال الغريبة التي أثارت فضوله، فتقدم لفحص المجموعة عن كثب. رقدت بطانية مهترئة بالية وسترة بجانب موقد. تبعثر خليط من القدور والمقالي خارج دائرة من الحجارة المُسودة، ومن بينها طبق واحد وشوكة. تواثب قلب «كونور» داخل صدره، وبدون تفكير دفع يده نحو الفحم الموجود في الموقد.

كان باردًا للغاية!

أيًا كان من صنع كل هذا، فقد ذهب منذ زمن طويل....

رفع «كونور» بصره إلى اللوحات الجدارية على كوة بالحائط. حدقت رسمة يسوع به من وسط الظلام بلون أحمر وبرتقالي وأزرق نابضين بالحياة. وثب التعليم الديني –الذي تم إجبارِ «كونور» على تلقيه في مدرسة الأحد في طفولته بينما هو يجلس متململًا– من بقعة خفية بذاكرته فطفا على سطح أفكاره وميز المشهد.. تعرف على الفور على شخصية السيد المسيح بعدما عاد من بين الأموات، وهو يُظهِر جراحه لـ«توماس»، الذي وضع أصابعه داخل جانب يسوع النازف. ولكن على عكس الشخصيات الأخرى المرسومة بالمكان، فهذا المسيح كان مبصرًا. عينان رُسِمتا حديثًا، ولكن ليس بمهارة شديدة، بلون أزرق لامع.

نظر «كونور» إلى اللوحة التالية، والتالية، ليتأكد من أن جميع الشخصيات المرسومة في هذا الطرف من الكنيسة قد استعادوا عيونهم حديثًا.

-هذا غريب. شخص ما أصلح هذه اللوحات.. العيون مرسومة.

هكذا أخبر «حسن»، ونادى من جديد باندفاع:

- «آرثر»؟ «آرثر»!

دخل «حسن» الكنيسة، وأخذ «كونور» من ذراعه، وقاده برفق إلى المدخل قائلًا: -تعال يا «جوشوا»، لقد ذهب.. لا يوجد أحد هنا.

رفض «كونور» سماعه ونفض ذراعه بعنف يحررها من يد «حسن»، وسرعان ما عاد إلى صحن الكنيسة هاتفًا: لا! إنه هنا. أنا متأكد من ذلك.

صرخ بأعلى صوت بوسعه:

- «آرت»!

تردد صدى الاسم من السقف المقبب وتلاشى إلى لا شيء، تاركًا من ورائه أشد أنواع الصمت قسوة. أحنى «كونور» رأسه.. لم يبق لديه شيء يفعله.

لكن بينما هو يستدير للانضمام إلى «حسن»، ارتفع صوت من عند العوارض الخشبية، مترددًا وخافتًا لدرجة أن «كونور» شك للحظة أنه سمعه فعلًا: -من أنت؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والثلاثون

استدار «كونور» عندما سمع صوت احتكاك الخشب ونظر في التجاويف الغامضة للمبنى المدمر.

أشار «حسن» إلى شخص رث الثياب والهيئة ينزل ببطء من فوق السقالات القائمة في الزاوية البعيدة. تحركت يد الرائد تلقائيًا إلى جيب مسدسه وفكه ببطء، كرد فعل منعكس ناجم عن توقع المتاعب مدى الحياة. استطاع «كونور» و«حسن» بالكاد تمييز هيئة ذلك الشخص وهو يمر من خلال الغبار والضباب المخيم على المكان، لكن أمكنهما رؤية لحية بنية وشعر أشعث. كان يرتدي خفًا، وسروالًا قرويًّا تركيًّا فضفاضًا من القماش، وقميصًا كاكيًّا ملطخ بطلاء أزرق. تأمل «كونور» الرجل في صمت وهو يتمايل بشكل غريب وأجفل. انتصب واقفًا، ثم تناول عصا لرعاية الغنم بيده اليمنى وبدأ يسير نحوهما. قال شيئًا مرة أخرى باللغة التركية، ثم كرره باللغة الإنجليزية:

-من أنت؟

استغرق الأمر من «كونور» لحظة لربط هذا الشاب المحطم مع الذكرى التي يحملها داخل ذاكرته لابنه. ولكن ليس هناك مجال للخطأ. بدرت عن «كونور» همسة حزينة:

- «آرت»؟

بادله الرجل النظرات بقلق، وقد بدا تائهًا في زمان ومكان آخرين. سأل:

-أبي؟

لقد سمع «كونور» تلك الكلمة آلاف المرات من قبل، لكنه لم يتوق إلى سماعها أكثر من الآن. أبدًا لم تحمل مثل هذا التأثير عليه. شعر بأنفاسه تتسارع، وعينيه تحترقان بالدموع.

-بني!

-هل أنت هنا حقًا؟

سأله «آرثر» وهو يمد يده غير مصدق. ربت على وجه والده بأطراف أصابعه المرتجفة كما لو كان لا يثق في عينيه. ضغط «كونور» بيد «آرت» على وجنته، وقبل كف ابنه المفتوح. استشعر حلاوة تلك اللمسة، وأفلتت منه تنهيدة ضخمة حملت كل ما اعتمل بداخله من مشاعر متضاربة من الراحة واليأس. همس «كونور»:

-أنا هنا معك يا بني.

وضع «آرت» رأسه على كتف والده وبدأ يتنفس بالتزامن مع صعود وهبوط صدر والده العريض.

أحاط «كونور» جسد «آرت» بين ذراعيه وبدأ يداعب شعره المشعث. كان عسيرًا على التصديق بالنسبة له أن يكون هذا الهيكل العظمي الهش الذي تغطيه طبقة من الجلد الذابل هو ابنه الحبيب. الآن بعد أن وجده، أدرك «كونور» أن ابنه «آرت» قد فقد شبابه والقوة المحركة له، وتسبب هذا الإدراك في تحطم قلب «كونور» من جديد. راقب «حسن» الأب والابن من مدخل الكنيسة، وهو يدعو لهما بصوت خافت. همس «كونور»:

-حان وقت العودة إلى المنزل يا بني.

هز «آرت» نفسه فجأة محررًا إياها من عناق والده، وتراجع نحو تجويف الحائط مثل حيوان محاصر، وقد أخذ يلوح بعصاه في وجه والده المرعوب. قال:

-أنا لن أعود إلى المنزل! لا أحد منا سيعود.. لقد ماتا.. لا أحد منا سيعود إلى المنزل يا أبي.

ثم أفلتت من عينيه دموع خاوية وهو يكمل:

-اتركني. اذهب و اتركني هنا.

-أنا أعرف.. أنا أعرف كل شيء عما حدث.

لكن نغمة «كونور» الهادئة لم تفعل شيئًا لتهدئة «آرت»، الذي جثم لأسفل وهو يحرك الطلاء بشكل محموم في وعاء ويتحدث همسًا:

-ما كان يجب أن تأتي هنا، يجب أن تذهب، الوضع خطير للغاية هنا، ما كان يجب أن تأتي هنا..

توقف «آرت» عن الحديث ولوح بعصا تقطر بطلاء أزرق سماوي نحو «كونور» وقال:

-اذهب الآن!

ثم أدار ظهره لأبيه، وغمس فرشاة ناعمة في الوعاء، وبدأ بترميم عيني الإمبراطور «قسطنطين»، الذي يحمل مدينة القسطنطينية المسورة بين يديه ويقدمها للمسيح. شعر «كونور» بأنه في أشد الحيرة من أمره، شعر بنفسه كأنه أعمى. وقف في صمت عاجز. أخذ يشاهد ضربات فرشاة «آرت»، بينما بدأت عينا الإمبراطور تلمعان مرة أخرى وتعودان إلى الحياة. وبينما «آرت» منهمك بالتلوين، أخذ ينظر من وراء كتفه بين الحين والآخر، وقد بدا

أنه قلق من وجود والده. تمزق الصمت الذي خيم على المكان بنيران المدفعية على مبعدة. أخذت الجدران ترتعش، وتساقط الغبار والجص وفضلات الحمام الجافة على الرجال الثلاثة مثل ندف الثلج، واستقروا فوق أكتافهم ورؤوسهم. نظر «كونور» نحو «حسن»، الذي كان لا يزال واقفًا في المدخل، وعيناه تحدقان نحو الداخل، باتجاه جسد «آرت» الجاثم على الحائط. ارتفع صوت قصف لقذيفة أخرى، هذه المرة أقرب، لتدفع «حسن» للتحرك، فقال:

-سيكون اليونانيون هنا قريبًا.. إنهم يتحركون بسرعة. ابنك على حق. يجب علينا أن نذهب الآن...

خفت صوته عندما رأى نظرة التسليم المرتسمة على وجه «كونور.» كان من الواضح أن الأسترالي لن يذهب إلى أي مكان بدون ابنه، وأن «آرت» ليس في حالة صالحة للسفر. بينما نيران المدفعية اليونانية تقترب أكثر فأكثر، تشارك الصديقان نظرة تفاهم وخرجا إلى الفناء الأمامي معًا. وضع «حسن» يده على كتف «كونور» قائلًا:

-لو أنني مكانك، فلم أكن لأترك ابني أيضًا.

في الخارج تحولت الريح إلى نباح كلب مسعور ينشب مخالبه في ملابسهما وقبعتيهما. بدت السماء سوداء ملبدة بالدخان والرمال المحمولة جوًا والتي لطخت وجهيهما وأيديهما كطلقات من الملح الصخري منطلقة من بندقية. وبينما «كونور» يميل بقبعته مع اقتراب العاصفة، رأى خيطًا طويلًا من النار ممتدًا على طول الأفق، بينما أخذت الحقول البعيدة تحترق. احتمى «حسن» و«كونور» بسور باحة الكنيسة حيث كان مقود جواد «حسن» مربوطًا بشجرة، بينما اختفى جواد «كونور» الأبيض تمامًا! لعن غباءه؛ في غمرة تعجله للبحث عن «آرت» ترك حصانه غير مربوط. لابد وأن وابل القصف المدفعي الهادر والعاصفة المتصاعدة أخافاه. وقف «حسن» بجانب حصانه.

-ابنك يحتاج لبعض الوقت فقط.

قالها بأمل ولكن بقليل من الاقتناع. هو و«كونور» قد رأيا الكثير من الرجال الذين تحطمت أعصابهم بصدمة من القذائف وذهبت عقولهم من خلال تجاربهم في زمن الحرب.

-لسوء الحظ أنه يحتاج لوقت أكثر مما لديك الآن. لكن إذا أخذته إلى الشمال الشرقي في اتجاه البحر الأسود، يمكنك العثور على عبّارة ستعيدك إلى إسطنبول. إذا سافرت بحذر، فقد يمنحك ذلك الوقت الذي تحتاجه. لكنني يجب أن أذهب إلى أنقرة لأنهم ينتظرونني هناك. لم تكن تلك هي المرة

الأولى بهذا اليوم التي يجد فيها «كونور» نفسه عاجزًا عن الحديث. ليس لديه أي فكرة عن سبب قيام هذا الرائد التركي بالمخاطرة بنفسه لأكثر من مرة فقط لمساعدته. لقد ساعده من أول يوم في جاليبولي دون تفسير ولا أمل في حصاد أي شيء في المقابل. سأل «كونور»:

-كيف يمكنني أن أشكرك؟

-بالتركية، الأمر سهل. «تشكرات» ستوفي الغرض.

-تشكرات إذن، يا «حسن» بيك. لم أستحق مساعدتك، لكن شكرًا لك على كل ما فعلته.

ثم تصافح الرجلان. لقد نشأت رابطة قوية بينهما على الرغم من اختلافهما، وكلاهما سيعترف أنهما قد أصبحا في وقت قصير أصدقاء بالمصادفة. شعر «كونور» بالخجل الشديد بسبب هجومه على «حسن» في «لون باين» بالسابق، لكن «حسن القاتل» لم يحمل أي ضغينة بداخله. أيقن في قلبه أنه لعب دوره في وفاة البعض؛ إن لم يكونوا أولاد «كونور»، فقد تسبب في موت الآلاف من الشباب أمثالهم. ولكنهم كانوا في حرب، لذلك لن يكون هناك اعتذار. ارتبط الرجلان بميثاق من الدم؛ دم «هنري»، و«إيد»، و«جمال».. كما ميز الاثنان في بعضهما البعض القدرة على استخلاص الأمل من أعماق الحزن والبؤس. أمسك «حسن» بيد «كونور» وقبله على الوجنتين.

-الله يعطيكما الصحة والعافية. السلام عليكم.

-وداعًا يا «حسن».

فك «حسن» رباط حصانه، وشد مقوده بقوة وهو يدخل قدمه داخل الركّاب.. جلس منتصبًا مهيبًا، بينما أخذ جواده يتململ في مكانه بينما «حسن»يضبط مجلسه فوق السرج.. التفت الرائد راحلًا ثم توقف لثوان، وقد بدا أنه قد تذكر شيئًا ما. ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتيه، ومال خارج السرج قائلًا:

- يا «جوشوا»، أخبر ابنك –عندما تتحسن حالته– أنه لا يزال مدينًا لي بعلبة سجائر..

للحظات بدا «كونور» في حيرة من أمره غير فاهم مقصده، ثم فجأة ارتسم الفهم في عينيه. أردف «حسن»:

-بمجرد أن رأيت صورة أولادك ميزت ملامحه. إنه مثلك تمامًا – شجاع جدًا وغبي جدًا!

ثم ضحك «حسن» بصوت عال، وركل جانبي جواده يستحثه على الحركة، وسرعان ما إختفى من خلال بوابة المجمع دون النظر إلى الوراء. شك

«كونور» في أنه سيشاهد صديقه هذا مرة أخرى. فراقهما هذا كان واحدًا من عدة فراقات مؤلمة مر بها «كونور»، ولكن هذه المرة كان الفراق مصحوبًا بمعجزة لا تصدق، وبالتأكيد لا تُنسى.

تسبب تتابع الانفجارات في هز الأرضية تحتهم لتعيد «كونور» إلى الوقت الحاضر. تشبث بقبعته وعاد إلى الكنيسة بينما الرياح تعصف بظهره. كان «آرت» لا يزال منهمكًا في إعادة رسم عيون كل الشخصيات المرسومة، دون أن –وربما غير مدرك له من الأصل- القصف أو الخطر المحيط. بدا غافلًا عن عودة والده حتى.

-هيا بنا يا بني..

استحثه «كونور»، الذي أكمل:

-من فضلك، علينا أن نغادر.

التفت له «آرت»، وقد بدا ودودًا بشكل مفاجئ. فلمح «كونور» لمحة من ابنه «آرت» القديم، في صورة لمعة ظهرت في عينيه الزرقاوين وشبه ابتسامة على وجهه الشاحب. سأل الابن والده:

-كيف حال أمي؟

هكذا سأله بلهجة عادية، كما لو كانا يتحدثان أثناء حفل شواء من الذي يُقام يوم الأحد، كما لو كانا قد رأيا بعضهما البعض لآخر مرة بالأمس فقط. تسمر «كونور» مكانه محاولًا التفكير في إجابة، غير متأكد مما إذا كان ذكر الحقيقة حول ما حدث لـ«ليزي» سيكون قاسيًا للغاية على حالة «آرت» الهشة. يمكن أن يدمره هذا تمامًا، أو يدمر قبضته الضعيفة المتمسكة بالواقع أكثر، أو قد تعيده الصدمة إلى الوقت الحاضر. لا شيء مضمون. قرر «كونور» أن يخاطر:

-هي مع أخويك الآن... لماذا لم تعد إلى المنزل يا «آرت»؟ فيم كنت تفكر بحق السماء؟

تسمر «آرت» مكانه للحظة، دون أن تظهر على وجهه أية علامة على الحزن أو المعاناة لفقد الأم التي كان يعشقها بالماضي.. لاحظ «كونور» أن «آرت» يحاول التفكير، محاولًا البحث داخل عقله عن إجابات لأسئلة بدا أنها قد انزلقت منذ فترة طويلة من فوق سطح وعيه. ببطء استجاب، وقد بدا صوته خاليًا من العاطفة:

-لقد نسيت أين كان الوطن. كيف يمكن أن ينسى المرء أين كان وطنه؟

ودون تحذير هوت قذيفة مدفعية لتقتحم السور الخارجي، محطمة الصخور والخرسانة لترسل شظاياهم عبر الفناء وعبر الباب الأمامي! تحرك حجر

ضخم بحجم كرة القدم عبر الأرضية محطمًا السقال الخشبية، محطمًا دعاماتها ومحولًا إياها لشظايا قاتلة. شعر «كونور» باليأس وحاول ذكر أي شيء اعتقد أنه قد يحفز ابنه: يمكننا بناء المزرعة مرة أخرى معًا. لم تتزوج «إديث» قط. إنها لا تزال تنتظرك. تعال معي يابني. دعنا نذهب إلى المنزل. انتصب «آرت» واقفًا، ومد «كونور» يده نحو ابنه في أمل وهو يردف:

-سنحصل على المساعدة. سنعيدك لطبيعتك مرة أخرى.

تحرك «آرت» نحو والده ونظر إلى عينيه دون شعور. بدا هادئًا ساكنًا. بالنهاية قال:

-لا يمكن أن يحدث هذا يا أبي. لقد طلبت مني أن أعتني بهما جيدًا، ولكنني بدلًا من ذلك تسببت بمقتلهما! والآن لن يعودا إلى المنزل أبدًا، فكيف يمكنني أنا أن أعود؟

التقط «آرت» عصاه وسجادة صلاة صغيرة واتجه للمدخل مكملًا:

-لذلك لا بأس في أن تتركني هنا يا أبي. في الواقع أريدك أن تفعل هذا.

تركت كلمات الابن «كونور» مرتبكًا غير عارف ما يقول؛ أن يأتي كل تلك المسافة ويتخطى كل تلك الصعاب ليجد «آرت» بالنهاية ليس لديه رغبة في العثور عليه هو تصور مؤلم لم يتصوره قط.

كان يجب أن أعرف! كان يجب أن أخمن!

لكن الآن بعد أن احتضن ابنه بين ذراعيه مرة أخرى، عرف «كونور» أنه لن يستسلم ويتركه أبدًا. ابنه هو كل ما تبقى له بهذا العالم. كان الذنب والألم اللذان يفيضان عبر عروقه لا يمكن احتمالهما. نظر بعجز نحو «آرت»:

-بحق السماء، لم أحاول منع أي منكم عن الرحيل.

ركض إلى المدخل وصرخ وراء «آرت»، الذي عرج عبر الفناء نحو العاصفة. ضاعت كلماته في مهب الريح، وتناثرت عبر قمة التل مثل جمر يحتضر:

-أنا من قتلت أخويك يا «آرت» في اليوم الذي لوحت لكم مودعًا فيه.. «آرت»!

دون تحذير صفرت قذيفة وهي تطير من فوقهما، متجهة نحو زاوية الكنيسة لتحطمها بدوي هائل. سقط «كونور» على قدميه، وشعر بطنين في أذنيه ودوار في رأسه من موجة الانفجار. رقد ووجهه متجه لأسفل، واضعًا ذراعيه على رأسه بينما حطام وشظايا الانفجار يتهاوون من حوله. عندما اعتدل من جديد، وجد الكنيسة ممتلئة بسحابة سميكة من الدخان، والتراب الحارق

وغبار الجص. شعر بكل الأصوات من حوله مكتومة تمر عبر جدار من القطن قبل أن تصل لمسامعه: نيران الهاون وهدير البنادق وصرخات أشخاص ما. كان أول ما فكر فيه هو ابنه.. أين هو؟ لا تمُت الآن من فضلك! ليس بعد كل ما مررنا به.. لابد أن يكون بخير. ناضل «كونور» ليقوم على قدميه وهرع منحنيًا إلى البوابة والسعال لا يتركه، مجاهدًا في يأس من أجل دفقة من الهواء الصافي. لمح على مبعدة طيفًا يعرج فوق طريق حجري، محاولًا البقاء بالقرب من الجدران، قبل أن يختفي بين منزلين. هرع «كونور» ليلحق بابنه، يتمايل مثل بحار، توازنه ما زال مختلًا بسبب الانفجار.

وصل إلى المنزلين واكتشف حارة ضيقة ودرجات سلم بدائية تؤدي إلى القلعة القائمة فوق القمة. تمكن «كونور» من رؤية القلعة القديمة المتهالكة من خلال موجات الدخان الداكن المتصاعدة من بلدة «أفيون» المدمرة. أمكنه رؤية ظل «آرت» وهو يرتقي درجات السلم بتصميم، وراوده على الفور شعور من التشاؤم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأربعون

تحرك «آرت» على طول باحات بلدة «أفيون» المنهارة، يتعثر عندما تنزلق عصاه على الحجارة المسطحة أو عندما تتحرك الأنقاض. وبينما هو يتحرك نظر من خلال الفجوات الموجودة في الأبراج المدربة نحو المدينة التي امتدت بجانب التل. من خلال ضباب المعركة لمح طاحونة الهواء في الساحة، وقد انقصمت عند الخصر وانثنت لأسفل، بينما رأسها يتأرجح فارغًا من الحياة مع الريح.

ها هي الهدية التي أهداها للقرية التي استقبلته عندما فُتحَت بوابات السجن تحولت الآن إلى خردة. عندما أتت قطارات الحرية من موانئ مدينة «سميرنا» اليونانية، والقسطنطينية، في النهاية من أجلهم، صعد زملاء «آرت» من السجناء على متنها بفارغ الصبر، حربهم قد بلغت النهاية. لكنه اختار بدلًا من ذلك الاختباء في بيت أفيون محلي وفر له نوعًا مختلفًا من الهروب. وصل «آرت» إلى أعلى نقطة في الأسوار حيث يلتقي السور ببرج حجري تمت إزالة رأسه خلال بعض الصراعات القديمة. أجفل راكعًا وهو يفتح سجادة صلاته بحيث تدلت شراشيبها المعقدة مثل مخالب قطة على حافة جدار البرج. شدّ نفسه مستندًا على عصاه، وقد مال على ساقه الهشة بينما الرياح تعصف بملابسه.

عندما تمكن «آرت» من استعادة توازنه، أخذ نفسًا عميقًا وأغمض عينيه، ليصد رعد المدافع وهدير البنادق ونحيب الأرامل حديثات العهد، وهي الأصوات التي حملتها الريح تجاهه بلا مبالاة. مد «آرت» أصابع قدمه للأمام بحذر حتى لامست حافة الهاوية، ثم رفع يده اليمنى، وقد وجّه كفها إلى أعلى، وأسقط ذراعه اليسرى وقد وجه كفها لأسفل. مال برأسه نحو كتفه الأيمن وانتظر سيطرة النشوة على جسده.. شعر «آرت» أنه انتقل لمكان آخر. فتح عينيه وحدق نحو مشهد المكان المدمر المنهوب الممتد أمامه، وشعر بنفسه ينتقل إلى مكان في ماضيه لن يتمكن من الهروب منه أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعد يشعر بالألم الشديد في ساقه. بدت أطرافه وكأنها منفصلة عن جسده... رقد «هنري» بجانبه، جلده الآن رمادي وبلا دم، وجهه شاحب، ملطخ بالطين والدم.

رحل أخوه للأبد عن هذا العالم!

وأما «إيد» فقد رقد في الناحية الأخرى، بوجه ملتوٍ من الألم، وأسنان تصطك، وقد ضاقت عيناه من الألم الذي يكابده. تلوى في الوحل، وقد تدلت لفائف

من أمعائه من الفجوة في جانبه. عبر «آرت» الوحل الملطخ بالدماء نحو أخيه الحي، وأمسك بيده يعتصرها، متمنيًا لو كان بوسعه أن يوقف معاناته. صار تنفس «إيد» متقطعًا بينما هو يجاهد لسحب الأوكسجين نحو رئتيه. جسده مدمر، لكنه لا يزال يجاهد للبقاء على قيد الحياة. بدا أنه شعر باقتراب «آرت» منه فهمس بضعف: - «آرت»؟ أهذا أنت؟

قاتل «آرت» لكبح دموعه وهو يجيبه:

-نعم ياعزيزي. أنا هنا بجوارك.

- لقد اتسخت للغاية يا «آرت». لم يعد بوسعي تمييز الدم من الوحل..

ثم تشنجت عضلات «إيد»، وأخذت أسنانه تصطك وأطرافه ترتجف بلا تحكم.

صار أهدأ الآن. همس «إيد» بضعف:

-أريد أمي.

وهنا انهارت مقاومة «آرت» وأخذ يبكي وقال:

-تماسك يارفيقي. سيأتي شخص ما من أجلنا.

صارت عينا «إيد» صافيتين الآن، عينان زرقاوان تخترقان الضباب المروع المخيم على ساحة المعركة. دفع «إيد» بندقيته عبر التراب نحو شقيقه وهو يقول بضعف: -لا يمكنني إطلاق النار على نفسي. لن يسمح لي الرب وقتها بالدخول إلى الجنة.

لا.. مستحيل أن يفعلها!

احتبست أنفاس «آرت» في حلقه وهو يقول بذهول: -لا يمكنك أن تطلب مني فعلها!

-ولم لا.. لا يمكنك أن تؤلم شخصًا ميتًا بالفعل.. أنا مصاب بلا أمل في النجاة يا «آرت».

لا لا.

-لا أستطيع...

شعر «آرت» كما لو أنه يغرق في الوحل، متذبذب، ويائس.. أخذ يستجدي أخاه المصاب: -من فضلك يا أخي. لا تطلب ذلك. لا أستطيع.

-أنت أخي. عليك أن تفعل ذلك! أرجوك.

لا لا لا.

دفع «إيد» البندقية إلى يد «آرت» ووجه فوهتها نحو جبهته!

-أرجوك يا «آرت»! افعلها بحق السماء!

نظر «آرت» بعمق في عيني «إيد» الزرقاوين كالسماء، وشعر بإصبعه يلامس الزناد. وأحس بهدوء أخيه واستسلامه..

-عد بجسدي إلى الديار يا «آرتي».

سحب «آرت» نفسًا.

ثم ضغط زناد البندقية.. وداخل عقله ارتفعت أصواتهما وهما أطفال: -اصعد على البساط السحري إذن يا صاح.. فلنخرج من هنا.

أغمض «آرت» عينيه، وانهمرت دموعه في الوحل والدم وعلى وجنتيه.

-الأمر يعمل فقط إذا كانت عيناك مغمضتين يا «إيد».

وعودة للحاضر، بنفس واحد قالا:

-تانجو!

وانطلقت الرصاصة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحول صوت انطلاق الرصاصة من المسدس في ذهن «آرت» ليصبح انفجار قذيفة يونانية بينما القذيفة تصطدم بسور القلعة أسفل المكان الذي يقف فيه. أعمت دموع «آرت» عينيه. لقد فقد قدرته على التحمل، ولم يعد يستطيع تمييز الخط الفاصل بين الخيال والواقع. ترنح متقدمًا إلى الأمام، غافلًا عن الحجارة والحصى التي انقذفت في الهواء والأنقاض التي تهدد بالانهيار تحت قدميه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل «كونور» إلى قمة الدرج الحجري وكاد أن يسقط من فوقه، الرأس فوق الكعبين بسبب تيار الهواء القوي والحطام المتطاير. أمسك نفسه - رأسه صار رائقًا الآن – وحاول اختراق سحب الدخان الكثيفة والسخام بعينيه بحثًا عن أي علامة لـ«آرت»، وتحرك بتثاقل بجوار السور، تعثر وتشبث ببقايا السور المتهالك.

ها هو هناك.

لمح هيئة أحدهم وسط الظلام. أدرك أنه كان ابنه وهو يتوازن على حافة مرعبة تهدد بسقطة مميتة، وذراعاه ممدودتان إلى جانبه. ماذا يفعل بحق

الشيطان؟ أتي الإدراك لـ«كونور» قبل أن يتشكل السؤال في عقله حتى، اجتاحه إحساس غامر بالخسارة وهو يشاهد ابنه وهو يعانق السماء بتلك الطريقة. هتف: -لا! «آرت»... لا تفعلها يا بني! أرجوك! أتوسل إليك... لا تفعلها!

ركض «كونور» نحو البرج، وتوقف بمجرد أن صار قرب ابنه، خائفًا من أن يفزعه. سمع «آرت» وقع خطوات حذاء والده فالتفت إليه ببطء. همس: -مات «هنري» دون أن ينبس ببنت شفة. مجرد رصاصة وبعد ذلك سكن فجأة للأبد.. لا شيء.. انفجر رأسه تمامًا. صارت عيناه خاويتين.

ثم خفض «آرت» رأسه مكملًا:

-ثم قتلت «إيد» كأنه كلب مصاب بالصرع يا أبي! أطلقت الرصاصة بين عينيه مباشرة....

ثم أخذ يبكي مردفًا:

-لكم أتمنى لو أنني انتظرت فقط.. قلت له يا أبي.. فعلت... أقسم أنني فعلت.. قلت له، «سيأتي شخص ما ليجدنا!»، وقد جاءوا فعلًا، لكنهم كانوا من الأتراك. كانوا سيصطحبونه هو الآخر لو كان حيًا. كان ليكون هنا أيضًا معي. لو أنني فقط انتظرت.

تسبب اعتراف «آرت» في شطر قلب «كونور» لنصفين، شعر الأب بقلبه يتمزق، ليس من أجل «إيد»، أو «ليزي»، أو حتى «هنري»، وإنما كان يتمزق من أجل «آرت» نفسه. لا يستطيع «كونور» أن يتخيل أي جحيم اضطر ولده الأكبر أن يعيش فيه منذ أن غادر ساحة المعركة الملعونة. بدا فجأة في تلك اللحظة أن الألم المحفور في عينيه وظِل الشعور بالذنب الذي تشبث بظهره فحني قامته منطقيًا. لم يتمكن «كونور» من الكلام. بدلاً من ذلك، تسلق لأعلى وأخذ يشق طريقه نحو ابنه، بينما الريح الشديدة تعصف بوجهه. انزلق حذاؤه على صخرة طينية زلقة. ألقى «كونور» ذراعيه للخلف ليعتدل بجسده. نظر لأسفل وشاهد الحجر يرتد ويتحطم على بعد مئات الأقدام تحته، فشعر برأسه يدور. كاد يلاقي نفس المصير منذ لحظات. نظر إلى ابنه، والذي لامست أصابع قدميه حافة الهاوية، وقد أخذ جسده يترنح على شفا السفح، مهددًا بالسقوط في أي لحظة. اتجه «آرت» نحو والده مرتبكًا ومتضارب المشاعر.. قال لأبيه: -انزل يا أبي! اذهب للمنزل! سوف تتسبب في مقتل نفسك!

ابتسم «كونور» بانفعال.. أخذ يقلد ابنه ورفع ذراعيه قائلًا: -أنت كل ما تبقى لي يا «آرت».. إذا لم تأتِ معي، فلم يبق لي مكان أذهب إليه.

-أبي ، لا تفعل هذا أرجوك!

هكذا توسل له «آرت»، فرد عليه:

-أنت الوحيد المتبقي من إخوتك يا «آرت». وهم على قيد الحياة داخلك، في ذكرياتك، في دمك.. هل تريد الاعتناء بهما؟ تريدهما أن يعيشا وتبقى ذكراهما حية؟ لو كنت تريد هذا فعلًا فانزل من فوق هذا السور اللعين وعد معي إلى المنزل!

فجأة اصطدمت قذيفة مدفعية بالبرج، فأحدثت فجوة في السور ونثرت بعض الحجارة والحطام نحو السماء. تراجع «آرت» للوراء نحو السور بسبب موجة الاندفاع الناتجة عن الانفجار. صار «كونور» أقرب إلى الحافة الآن، وأقرب إلى الخطر. سقطت صخرة من تحت قدميه وبدأت في الانزلاق على جدار البرج وسط كومة من الأنقاض والغبار. بينما «كونور» يجاهد للتماسك مكانه ومد يده للأمام، فإن غريزة البقاء داخل «آرت» فرضت سيطرتها، فألقى هذا الأخير بنفسه إلى الأمام على بطنه وأمسك بذراع والده! تعلق «كونور» فوق السور القديم، وساقاه ترفسان باحثتين عن موطئ قدم بين الحجارة. نظر لأعلى نحو «آرت» وتوقف عن الحركة. قال: -دعني أذهب.

- ماذا؟ لا!

عندما لمح «كونور» الارتباك على وجه ابنه حاول سحب ذراعه ليحررها من قبضته مكملًا: -إذا لم تكن عائدًا إلى المنزل معي، فأفلتني. لا لزوم لإنقاذي.

هز «آرت» رأسه رافضًا، وشدّد قوة قبضته أكثر.. تأرجح «كونور» وأخذ يركل الحائط..

-لقد أتيت من الناحية الأخرى من العالم، مائة قدم أخرى لن تقتلني!

وبينما «آرت» يستوعب عبثية ملاحظة «كونور» الأخيرة، ظهرت لمحة ابتسامة على شفتيه، لمحة من «آرت» القديم. قال الابن مازحًا: -أعتقد أن المائة قدم هذه خطيرة بما فيه الكفاية لقتلك.

وبدأ في سحب والده للأمان.

تدافعا مرة أخرى لأعلى نحو الأسوار، صدورهما تشهق، وعضلاتهما تصرخ من الجهد. رأيا في البلدة بالأسفل منازل اشتعلت فيها النيران، بينما الجنود اليونانيون يجتاحون الشوارع والأزقة كسرب من النمل الأسود مزدحم فوق جثة شاة ينهشها. تذكر «كونور» تحذير «حسن» له.. استدار إلى ابنه، وقال له وهو لا يزال يلهث من المجهود الذي بذلاه: -يجب أن نجد مكانًا للاختباء. اليونانيون لن يتركوا أي شيء سليم.

فكر «آرت» للحظة، ثم بدا كما لو أنه قد حزم أمره: -هيا بنا.

قالها وهو يجذب ذراع والده ويقوده بطول السور. تعثرا نازلين درجات سلم حجري قادهما إلى ساحة مفتوحة، كلاهما يعرج متألمًا، يستندان على بعضهما البعض أثناء عبورهما فوق الأرض.

-هناك...

هكذا هتف «آرت» وهو يشير إلى هيكل منخفض مغطى بقُبّة متهدمة جزئيًا. أكمل: -خزان القلعة.. لن يفكر أحد بتفتيشه.

كانت طبقة الجص الخارجية قد تحللت مع مرور الوقت وبدت هشة متضررة على وشك التفتت في أي لحظة. وجد «آرت» مدخلًا صغيرًا. أزاح المزلاج الصدئ ودفعه لفتح الباب الصغير. بالداخل كان المكان باردًا مظلمًا للغاية، لكن «كونور» لاحظ انعكاس الضوء من المدخل على السطح المتموج وأمكنه أن يشم رائحة الماء العذب.. سحبا الباب ليغلقاه من ورائهما، وتعثرا وسط الظلام لغلق الباب بالمزلاج الهش. نزل «آرت» و«كونور» ثلاث درجات للأسفل، فألفيا نفسيهما خائضين حتى الخصر في مياه الخزان، وقد ملأ الماء البارد كالجليد أحذيتهما وغرّق ملابسهما. تأقلم «كونور» تدريجيًا مع الظلام، وسرعان ما كان يبتسم وهو يرى لمحة من اللمعان القديم في عيني «آرت»، ولمح الحياة تعود للظهور على ملامح وجهه المجهدة.

غمس يده في الماء ونثره على وجهه، يغسل الغبار من عينيه والظل الكئيب لليأس من فوق روحه.

في الخارج، انحسر ضجيج المعركة مثل قعقعة القطار تخفت مع ابتعاده.

ثم قبعا في الانتظار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الواحد والأربعون

-بدأت أشعر وكأنني عدت إنسانًا من جديد يا أبي.

نظر «كونور» بحذر نحو «آرت»، حريصًا على عدم تشتيت تركيز الحلاق بينما هو يدير ماكينة الحلاقة حادة الشفرة جيئة وذهابًا على رقبته. تراجع ابنه بظهره للوراء، وقد مدد ساقيه في كرسي حلاقة آخر بجانبه، وأغمض عينيه، بينما تغطى ذقنه العريض برغوة كثيفة بيضاء. أمسك الرجل الذي يخدم «آرت» بأنف هذا الأخير وأماله جانبًا ومر بالنصل بعناية وتروٍّ فوق وجنة «آرت».. من الصعب فهم التحول المادي الذي حدث لـ«آرت» منذ لم شملهما. في كنيسة بلدة «أفيون»، كان «كونور» قد أنقذ همس الشاب المحتضر الذي أرسله إلى الحرب. عندما احتضنه وشعر بنتوءات ضلوعه الحادة وأطراف كتفه من خلال قماش قميصه الرقيق، أدرك «كونور» أن الحياة كانت شديدة القسوة على ابنه. لقد حمل وجهه ويلات الإدمان والحرمان، وقد برزت عظام وجنتيه الحادة فوق فكه الغائر، بينما اختبأت عيناه المذعورتان في محجريه الغائرين. لكن الآن، بينما الحلاق يعمل عليه، توهجت بشرة «آرت» باللون الوردي، وأصبحت خطوط ملامحه قوية مليئة بالصحة، بدلًا مما كانت عليه من هزال جعله يبدو كالأشباح.

استلقى «كونور» على ظهره، محدقًا في شريط السماء الزرقاء الذي ظهر بين الشرفات العلوية للمنازل الخشبية الطويلة التي اصطفت على جانبي هذا الشارع. رن نعيق النوارس وصوت وقع الأقدام على أحجار الرصف اللامعة لتشع ألفة دافئة ومريحة بداخله. المكان الذي كان بالماضي غريبًا ومربكًا صار يشعر الآن بأنه أقرب إلى كونه منزله. عندما نزلا من عبّارة ركاب البحر الأسود في «إمينونو»، وهما في أشد الإرهاق، لم يكن لدى «كونور» إلا وجهة واحدة في ذهنه. لكن قبل ذلك، هناك عمل ينبغي القيام به. لقد علم من تجربة سابقة أن شعر الوجه لم يكن شيئًا يتم التعامل معه باستخفاف في القسطنطينية. بينما كان الرجلان يشقان طريقهما عبر الحشود على الأرصفة، اجتذبت لحيتاهما الكثيفتان وغير المشذبتين نظرات محتقرة وهجومية. قبل فعل أي شيء آخر، علم «كونور» أنه هو و«آرت» بحاجة للحلاقة.

شق طريقه إلى صف من حلاقي الشوارع في الزقاق الضيق أسفل فندق «طروادة» مباشرة، وسرعان ما اتخذ الرجلان مجلسهما، ووضع حلاقان يرتديان سترات بيضاء ناصعة مناشف بيضاء هي الأخرى على صدريهما مبتسمين. استنشق «كونور» رائحة الليمون المنعشة عندما تم رش الكولونيا بسخاء على وجنتي رجل تركي يجلس على الكرسي بجانبه. تبادل الحلاقون المجاملات والنميمة بهدوء بينما هم يقومون بعملهم. خلال رحلتهما عبر

الأناضول الداخلية، بدأ «آرت» في تعليم والده القليل من اللغة التركية. على الرغم من أن الكثير مما قيل لا يزال غامضًا بالنسبة لـ«كونور»، إلا أن قدرته الحديثة في التعرف على بعض الكلمات والعبارات المتناثرة أثناء ثرثرة الحلاقين منحته شعورًا غريبًا من المتعة.

تراجع بظهره للوراء وأغلق عينيه، محاولًا احتواء ما ثار بداخله من موجات الإثارة التي ارتفعت داخل صدره عندما فكر إلى أين يخطط للذهاب بعد ذلك. ذكر «كونور» نفسه بأنها معجزة أنه موجود هنا أصلًا. في كثير من الأوقات خلال رحلتهما الشاقة من قلب تركيا ظن أن فكرة الوصول إلى القسطنطينية صارت حلمًا بعيدًا وخياليًا. والمثير للدهشة أن هروبهما من الخزّان في بلدة «أفيون» كان أقل صعوبة مما تخيله وهو يقف في المياه المتجمدة، بينما القوات اليونانية تدمر المدينة فوق رأسيهما. لكن بينما ركز الغزاة كل جهودهم على بلدة «أفيون»، تمكن كلًا من «كونور» و«آرت» من الهروب بسهولة نسبيًا.

في البداية تحركا ليلًا، خائفين من أن تكتشفهما القوات اليونانية التي استمرت في تخريب الريف. كان الرجلان حريصين على تجنب الطرق المزدحمة، بدلًا من ذلك اتبعا أشعة القمر الفضية من خلال مشاتل الخشخاش وحقول القمح الذهبي، والتقطا ما يستطيعان التقاطه من طعام من المزارع والقرى والبساتين المهجورة. لكن في غضون أيام من مغادرة بلدة «أفيون»، بينما بدأ تراكم الأفيون في مجرى دم «آرت» يتبدد، استولت عليه أعراض الانسحاب العنيفة والعدوانية، واضطر الرجلان إلى العثور على ملجأ في مزرعة حجرية صغيرة مهجورة. وبينما رقد «آرت» على منصة خشبية خشنة، كان «كونور» قد غطاها بمرتبة مؤقتة صنعها بشكل مرتجل من أكياس خيش فارغة وبعض القش، عانى جسد ابنه الهش الضعيف من تشنجات قوية للغاية. أُصيب الشاب بالحمى التي جعلت العرق يتصبب بشكل غير محتمل من جلده الذي بدا جافًا جدًا لا يحتوي على أي سوائل. عندما شاهد «كونور» بشرة ابنه تتحول إلى اللون الرمادي، وتنفسه يضطرب داخل قفصه الصدري الأجوف، لاحقته كوابيس الليل وأحلام اليقظة، وأيقن «كونور» أنه سيفقده!

شعر الأب الأسترالي بالعجز التام وهو يحمل دلاء الماء البارد من حوض تغذية الينابيع الذي يقع في وسط المزرعة، وأخذ يغسل وجه ابنه وأطرافه الهزيلة، في محاولة لإخماد الحمى الشديدة التي أصابته. بينما «كونور» يمرر قطعة القماش فوق جبين «آرت»، وجد القماشة تشد الجلد الهزيل الذي يغطي عظامه، وقد بدا جلده شفافًا واهيًا كقطعة من السيلوفان الأصفر. حتى استيقظ ذات صباح، بعد ليلة أخرى قضاها في نوم متقطع بجانب ابنه، ووجد

«آرت» يحدق فيه من فوق حافة سريره. بدا وجهه ممتقعًا شاحبًا، ولكن الحيوية كانت تطل من عينيه، بينما عكس وجهه أشعة شمس الصباح الساطعة التي تلألأت في الغرفة. بقيا في المزرعة بينما «آرت» يستجمع قوته، حتى صار مستعدًا للمضي قدمًا. صنع «كونور» فخًا من الآلات الزراعية المهجورة، واعتاد الخروج كل يومين أو نحو ذلك إلى الحقول، ليتفقد الفخ الذي يمسك به الأرانب التي يشويها على الفحم. عرف «كونور» أن ابنه سيعيش عندما رأى «آرت» يلعق أصابعه وهو يسحب اللحم الطري عن العظام ويأكل حتى انتفخ بطنه الهزيل تحت قفصه الصدري مثل بالون طفل شقي.

إلى الجنوب، أخذا يشاهدان الوهج الباهت للنيران المتروكة في أعقاب المرتزقة يختفي ببطء، وعرف الرجلان أنهما قد صارا بأمان. انتقلا إلى الشرق ثم اتجها شمالًا عبر قرى صغيرة، حيث اعتنت بعض العائلات بحقولهم وقادوا قطعانهم إلى التلال لترعى كل يوم، غير مدركين للصراع الذي كان قريبًا جدًا منهم! حاول «آرت» أن يشرح لوالده أنهما لا حاجة بهما للقلق؛ الأشخاص الذين سيواجهونهم سيكونون ملزمين بمنحهم العون. كان هذا شيء غير قابل للتصديق بالنسبة لـ«لكونور». لو ظهر شخصان غريبان على عتبة باب بيت ببلدة «رينبو»، ولا سيما اثنين من الغرباء الأجانب المحطمين مثلما يبدو «كونور» و«آرت»، فسيتم معاملتهما بأسوأ طريقة ممكنة. لكن «آرت» كان على حق. لم يمرا بقرية في رحلتهما من بلدة «أفيون» إلى البحر الأسود إلا وتم الاحتفاء بوصولهما فيها بموكب من الأطفال ووليمة يقيمها عمدة البلدة. مرت الكثير من الليالي التي رقد فيها «كونور» تحت بطانية صوفية خشنة، ببطن مليئة بالأرز، مندهشًا من مدى سخاء هؤلاء الناس الذين يقدمون الكثير دون سؤال.

عندما اجتاز «كونور» و«آرت» سهل الأناضول الواسع ومرا عبر الغابات الشاهقة والجبال الصخرية التي امتدت حتى أعماق البحر الأسود الداكنة في مدينة «زنغولداق»، فعلا ذلك دون إنفاق ولو عملة واحدة مقابل كل هذا الطعام ووسائل الراحة التي تضمن مرورهما الآمن عائدين إلى القسطنطينية. قام الحلاق بغمس منشفة في الماء الساخن المغلي، ثم نفضها للحظة، قبل أن يضعها ببراعة على وجه «كونور»، فيغطي وجهه بالكامل ما عدا أنفه تحت سحابة قطنية ناعمة. شعر «كونور» بنفسه يفيق من أحلام يقظته بينما هو يستسلم للطقوس. أخذ نفسًا، فشعر بأعمدة بخار معطر تملأ أنفه.

-أبي! كيف حالك أسفل تلك المنشفة؟

-لا أعرف يا صديقي.. أخبرني أنت.

أخذ ابنه يضحك بينما الحلاق يزيل المنشفة.

-بالكاد تعرفت عليك بدون لحية.

مد «كونور» يده إلى الأعلى وشعر بدفء ذقنه الناعمة. وقف الحلاق أمامه يرش ماء الكولونيا في باطن يده.

انتبه «كونور» بينما الحلاق التركي يصفع خديه وذقنه بقوة، والبلسم البارد العطري يلسع بشرته.

-أريد ترتيب مكان لإقامتنا يا بني.

مجرد التفكير في الأمر جعل دقات قلب «كونور» تثب للسماء. نظر «آرت» إلى أعلى التل حيث أبراج وقباب قصر «توبكابي» ترتفع نحو السماء الزرقاء. قال الابن: -سمعت أن قصر السلطان متاح.

ثم ابتسم «آرت» لنفسه مكملًا:

-فلنخبرهم أنه يمكن للحريم أن تبقى.

تظاهر «كونور» بأنه يقوم بربط رباط حذائه المفكوك كذريعة للتوقف في الظل واستجماع شتات نفسه قبل أن يدورا حول الزاوية، ويبدآ الاقتراب من القصر الوردي الكائن على قمة التل. اندفع الأدرينالين عبر عروقه وهو يكافح للسيطرة على أنفاسه، بينما كل خلية في جسده تستحثه أن يركض؛ بأي طريق، نحو القصر أم مبتعدًا عنه، لم يكن متأكدًا.

-هيا يا أبي. أسرع قليلًا! أنا أتوق للنوم تحت سقف.

صار «آرت» نافد الصبر، حريصًا على الاستقرار بمكان، توقف ليلتقط أنفاسه.

-دقيقة واحدة يا رفيقي.. سأكون معك فورًا.

على الرغم من أنه أخبر «آرت» عن فندق «طروادة» وعن المرأة والصبي الذين قابلهما هناك، فإنه لم يذكر بحديثه الحب الذي أزهر داخل قلبه تجاه «عائشة». فالخسارة التي يشعر بها «آرت» تجاه وفاة والدته لا تزال حديثة، و«كونور» لا يرغب في تعقيد ذلك من خلال الكشف عن المشاعر التي يكنها تجاه المرأة التركية. لذلك فقد كان غير قادر على الإفصاح عن الترقب المكبوت الذي كان يتزايد في داخله منذ أن صعدا على العبارة في مدينة «زنغولداق» على ساحل البحر الأسود. عندها فقط بدأ هذا الشعور المقبض من الرهبة والخسارة الذين طارداه طوال رحلاتهما ينحسر، وسمح «كونور» لنفسه بالاستمتاع بفكرة أنه قد يراها مرة أخرى ذات يوم. وقف، وأخذ نفسًا عميقًا.

-هنا بالأعلى، أليس كذلك يا أبي؟

هكذا حادثه «آرت» وهو يتقدم للأمام بسرعة، فأجابه: -بلى.. هنا يا بني.. قرب الزاوية.

اختفى «آرت» عند نهاية الزقاق، و«كونور» في أعقابه. هناك. ها هو المكان كما هو دون تغيير، اقترب أكثر. الواجهة تبدو أقل قدمًا مما يتذكر، وأما الطلاء والجص يبدوان أحدث؛ الحديقة منظمة أكثر. ثم أعاد التفكير فيما بينه وبين نفسه، فوجد أنه ربما يضفي على المكان طابعًا رومانسيًا أكثر من اللازم.

ثم ظهر ألف سؤال بعقله. ماذا لو لم تكن بالداخل؟ ماذا لو كان «عمر» هو يدير الفندق الآن؟ ماذا لو تزوجت شخصًا آخر؟ وأهم سؤال على الإطلاق: ماذا لو لم تعد تريدني؟ لعن «كونر» نفسه في سره، محتقرًا شكه في نفسه. تردد في مكانه، وقد راودته للحظات فكرة أنه يجب أن يستدير مغادرًا، ويتمسك بالذكريات الثمينة ويبتعد.

-أبي! هيا! لقد تأخر الوقت.

كان «آرت» قد وصل عند الفندق بالفعل، ووضع إحدى قدميه على العتبة. لم يعد بالإمكان تجنب الدخول. أجبر «كونور» نفسه على صعود درجات السلم. شعر بقلبه يغمره شعور من الدفء عندما سمع صوت «أورهان» المألوف آتيًا من الداخل، محاولًا استمالة زبون محتمل؛ ابنه»آرت»: -هل تريد غرفة يا سيدي؟ لدينا شراشف نظيفة، وأغطية فراش نظيفة، وماء ساخن...

دخل «كونور» إلى بهو الفندق وأنهى عبارة الصبي:

-ولا يوجد أستراليون، أليس كذلك؟

للحظة، تسمر «أورهان» مكانه، غير قادر على النطق. ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة هائلة وصرخ بفرح وهو يجري عبر الردهة ويلقي بكتفيه حول رقبة «كونور»: - «كونور» بيك! لقد عدت لي!

ضحك «كونور» ولف ذراعيه حول الصبي في عناق قوي، فشم رائحة دخان الخشب والقرفة في شعره.

- «أورهان»، هذا شخص أحب أن تقابله. هذا ابني «آرثر».

استدار الصبي وقد صار وجهه وقورًا فجأة. أومأ برأسه بجدية، لاعبًا دور المضيف: -مرحبًا بك يا سيد «آرثر».. يسعدني أن ألتقي بك، مرحبًا بك في فندق «طروادة».. ستكون ضيفنا.

مد «أورهان» يده بمودة، داعب «كونور» شعر الصبي وهو يتصافح مع «آرت».

-إذن، أنت رب البيت الآن، أليس كذلك؟

أتي صوت حفيف من خلف «كونور» بينما يتم سحب الستارة المزيّنة بالخرز جانبًا. شعر بقلبه يثب من صدره وهو يستدير.. لا، ليست هي، ولكن «ناتاليا». كانت ترتدي ملابس محتشمة تتكون من ثوب بسيط داكن اللون، وقد عقصت شعرها للخلف في وشاح مغطى بالزهور، فوق وجنتيها وضعت طبقة من مساحيق التجميل، وبعض أحمر الشفاه على شفتيها. قالت: -نعم، الآن هو رب البيت الصغير، وأنا مساعدته. مرحبًا بك مرة أخرى في الفندق يا سيد «كونور».

ثم لفت «آرت» انتباهها، والذي كان قد وقف جانبًا، مستمتعًا بمعرفة الناس بالمكان بوالده. اتسعت عيناها وهي تقول: - هل هذا ابنك؟

أومأ «كونور» برأسه مجيبًا:

-نعم.. هذا «آرت».

ابتسمت المرأة الروسية:

-يا له من شاب شديد الوسامة.

ثم فتحت دفتر النزلاء على المنضدة الأمامية وكتبت اسم «كونور» أمام أحد أرقام الغرف، ثم استدارت والتقطت مفتاحًا من خطافه على الحائط خلفها، وسلمته إلى «أورهان»: -من فضلك اصطحبهما إلى أفضل غرفة لدينا.

انحنى «أورهان» مجيبًا:

-سيكون هذا من دواعي سروري.

ثم زال القناع الرسمي الذي وضعه الفتى، وأخذ يضحك بصوت عالٍ، آخذًا «كونور» و«آرت» من أيديهما مكملًا: -تعاليا! سأريكما!

لكن «كونور» تلكأ:

-تفضل أنت يا بني وقُد «آرت» للغرفة.

ثم عاد إلى حيث تقف «ناتاليا» خلف النضد، وقبل أن يتمكن من فتح فمه، أومأت «ناتاليا» برأسها وابتسمت بلطف تطمئنه: -إنها في الخارج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سارت «عائشة» عبر الفناء باتجاه المطبخ، تحمل صينية صغيرة. فتحت الباب ودلفت للداخل، ووضعت الصينية الفضية على المقعد الحجري. نظرت برضا للحديقة، حيث اصطفت المناضد بنظام في الظل، وقد احتلت حفنة منهم مجموعات من المسافرين القادمين من أنحاء المدينة. جلس والدها على كرسي بجوار النافورة، مرتديًا بدلة من ثلاث قطع، وقد أمسك عصاه بكلتا يديه، وحدق في الأفق وأخذ يتحدث بهدوء مع نفسه. وقفت بجانب الفحم الساخن الذي توهج باللون البرتقالي في الموقد، تراقب وعاءً نحاسيًّا صغيرًا بينما القهوة الساخنة تصدر رغوة وتوشك على الغليان، وأخذت تفكر مندهشة في الأحداث التي غيرت حظها. عندما رفضت عرض «عمر» بالزواج، اضطرت لمواجهة احتمال خسارة الفندق ودفع عائلتها إلى الفقر المدقع. لكن جاء عرض في الوقت المناسب من ممثل لشركة «توماس كوك»، وهو العرض الذي قادها إلى القيام بعمل عفوي، وإن كان يائسًا نوعًا ما، وجمعت ما يكفي من المال لشراء إعلان في دليل «كوك» إلى القسطنطينية.

ومن قبل أن يتم نشر الدليل حتى، بدأت الشركة بتوصية المسافرين بالإقامة بفندق «طروادة»، وبسرعة كبيرة بدأ استثمارها يؤتي ثماره. صار أثرياء السياح القادمين من بريطانيا وأمريكا يختارون فندق «طروادة» عندما يزورون المدينة. تم حجز الغرف عن طريق البرقيات وأرُسِل «أورهان» للقاء الضيوف أثناء نزولهم من السفن الراسية على الأرصفة، أو المترجلين من قطار الشرق السريع في محطة «سيركجي». وبالمال الذي جلبه الوافدون الجدد، صارت «عائشة» قادرة على تحمل تكاليف إجراء بعض الإصلاحات التي كان الفندق في أمس الحاجة إليها. تصاعد خرير المياه بالنافورة المنتصبة في وسط الفناء بهدوء، وقد استُبدِلت مواسيرها وتم تنظيف زخارفها من الطحالب. أما قطع البلاط القديمة فتم رفعها، وتم استبدال الأرضيات المكسورة، كما تم وضع قطع ملاط جديدة. تم نفي الدجاج إلى زاوية بعيدة من الحديقة حيث ينقرون التراب داخل حدود الحظيرة التي أقامها «كونور»، التي سعِد لأنه رآها لا تزال منتصبة وصامدة. وأما الأعشاب الضارة فقد تمت إزالتها من الفناء واستبدالها بالكثير من شجيرات الورد والمصابيح والزهور عطرة الرائحة. وعلى الجدار في زاوية الفناء انتصب أكبر استثمار قامت به «عائشة»؛ ألا وهو غلاية أسطوانية من النحاس أخذت تنفث البخار، وقد أخذت مساميرها تلمع في ضوء الشمس. لن يتم الإمساك بـ«أورهان» يكذب مرة أخرى بشأن مدى توفر الماء الساخن في فندق»طروادة».

سمعت «عائشة» صرير الباب عندما دخل نزيل للحديقة. كانت منشغلة بصب المشروب الساخن ذي اللون البني الداكن في فنجانين صغيرين من الخزف الصيني منقوشين باللون الأزرق كالبحر، والأحمر القرمزي، والأصفر الذهبي.

وضعت الفنجانين على صينية فضية صغيرة مع طبق زجاجي احتوى على مجموعة مكعبات صغيرة تشبه الجواهر من الملبن التركي، ثم نظرت عبر الفناء. وقف شخص طويل متردد بجوار الباب، خلع قبعته عريضة الحواف وهو ينظر حول الحديقة. وانحبست أنفاسها في صدرها عندما أدركت هوية الرجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يجد «كونور» أي علامة تدل على وجود «عائشة»، فتحرك نحو إحدى المناضد بصمت، وسحب كرسيًا. اندهش لرؤية أن يده الخشنة الصلبة ترتجف.. جلس وحانت منه نظرة نحو المطبخ. هناك. ها هي ذي! كان رأسها مرفوعة عاليًا على رقبة رشيقة طويلة كرقاب البجع، وقد تراجع كتفاها للوراء بكبرياء، شعر بحلقه ينقبض من الشوق، وشعر بالدم ينبض في أذنيه. بدا أن «عائشة» غير مدركة لوصوله بعد وهي تفتح باب المطبخ بقدمها وتحمل صينية باتجاه إحدى المناضد الأخرى. ابتسمت بحرارة لضيفيها بينما هي تقترب من منضدتهما، وتضع فنجاني القهوة الصغيرين أمامهما، وقد التوت شفتاها الممتلئتان في ابتسامة واسعة، بينما التمعت عيناها الخضراوان.

استدارت وتطلعت نحو المكان الذي يجلس فيه «كونور» ولاحظت حضوره دون أن يبدو عليها المفاجأة أو السرور. أومأت برأسها له بتحفظ. كانت تتصرف بتهذيب وكياسة، لكنها بدت بعيدة للغاية كأنه شخص غريب. شعر «كونور» بالاكتئاب يهاجمه، وأما البهجة التي كانت داخله من لم شملهما من جديد استحالت خيبة أمل مريرة أخذت تنهش فيه. تحركت «عائشة» عبر الفناء نحو المكان الذي يجلس فيه الأسترالي برقة، وحنت رأسها بشكل رسمي تحييه: -مرحبًا يا سيد «كونور».

رد عليها «كونور» باللغة التركية:

-عمت مساء. أتمنى أن تكوني بخير.

لو أنها تفاجأت بسماعه يخاطبها بلغتها الأصلية، فهي لم تظهر هذا.. ردت بشكل روتيني: -أنا بخير.. شكرًا لك.

-تبدين.. بخير حال.

- لقد أخبرتك أنني كذلك.. أنت تتحدث التركية مثل القرويين.

احمرت وجنتاه خجلًا، ثم عاد «كونور» إلى اللغة الإنجليزية: -هل أنا مرحب بي هنا؟

هزت «عائشة» كتفيها الرقيقين، ورفعت حاجبيها السوداوين قليلًا وهي تجيبه: -الكل مرحب به هنا.. إنه فندق.

-وصهرك، هل سيرحب بي أيضًا؟

- لقد ذهب للقتال مع القوميين.

هكذا أجابته وقد ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيها، ثم أضافت: -أخيرًا اشترك بحرب لها هدف.

خيم صمت غير مريح على الإثنين.. شعر «كونور» باليأس.

ما كان يجب أن أعود أبدًا. هي لا تريدني هنا!

-هل لي أن أحضر لك فنجانًا من القهوة التركية يا سيد «كونور»؟

هز رأسه رافضًا:

- ما زلت لم أتمكن من الاستمتاع بطعمها.. حتى بعد كل هذا الوقت.

وضعت يديها على وسطها معلقة:

-إذا كنت تعرف الكثير عن بلدي الآن، ستعرف أيضًا أنه من غير المهذب رفض مثل هذا العرض.

احمرت وجنتا «كونور» وهو يجيبها:

-أوه.. نعم فعلًا.. حسنًا إذًا.. فنجان قهوة من فضلك، ولكن بسكر متوسط فقط.

أومأت «عائشة» بإيماءة مقتضبة واستدارت عائدة إلى المطبخ.

نظر «كونور» إلى راحة يديه شاعرًا بالإحراج.. إن هي إلا لحظات، ثم انفتح باب المطبخ مرة أخرى وخرجت «عائشة» منه وهي تحمل صينية عليها فنجان واحد. توقفت عند منضدة «كونور» وانحنت لتضع الفنجان قرب يده، جنبًا إلى جنب مع قطعة من البقلاوة. ابتلع ريقه وهو يقول: -لا يبدو أنكِ متفاجئة برؤيتي مرة أخرى.

نظرت إليه «عائشة» لثانية، ثم أجابت:

-لقد ظهر هذا في قهوتك.

قطب حاجبيه مرتبكًا، فأكملت:

-منذ أشهر قبل أن تغادر، أخبرني فنجانك أنك ستعود.. هل تتذكر ماذا أخبرتك عن القهوة؟ الجواب على كل شيء في فنجانك.

أشار نزيل في الجانب الآخر من الفناء لـ«عائشة». استدارت وتحركت برشاقة عبر البلاط الرخامي، وفخذاها يتأرجحان تحت تنورتها الضيقة.

شاهدها «كونور» وهي تغادر ورفع الفنجان الصغير إلى شفتيه. مهما كان مذاق القهوة سيئًا، فلا شيء يمكن أن يكون أسوأ من مذاق رفضها المر له. أخذ رشفة صغيرة ثم وضعها بسرعة مرة أخرى مقطبًا. كانت القهوة حلوة جدًا لدرجة جعلت لسانه ينقبض. غمس الملعقة الصغيرة في الفنجان، يغترف بعض القهوة، ورأى أنها محلاة بالسكر بشدة لدرجة جعلتها سميكة مثل العسل.

«كل شيء في القهوة. الفنجان لا يكذب أبدًا..»، هذا ما قالته له.

تذكر لمحة من المحادثة، التي بدت منذ زمن بعيد للغاية.

خفق قلب «كونور» بقوة. نظر إلى حيث وقفت «عائشة»، تزيل بعض الأطباق من فوق منضدة. نظرت نحوه، وابتسمت له بخبث.. «كلما زاد السكر، كلما زاد حبها.»، تذكرها بصوتها.. جلس «كونور» في مقعده وشعر بدفء شمس الظهيرة بينما النسيم العليل يهرع عبر الأشجار القديمة التي تظلل الفناء.. أخذ يضحك.. لقد قامت «عائشة» باختيارها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

رس المحتويات

عن الرواية..

مقدمة

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرون
الفصل الواحد والعشرون
الفصل الثاني والعشرون
الفصل الثالث والعشرون
الفصل الرابع والعشرون
الفصل الخامس والعشرون
الفصل السادس والعشرون
الفصل السابع والعشرون
الفصل الثامن والعشرون
الفصل التاسع والعشرون
الفصل الثلاثون
الفصل الواحد والثلاثون

الفصل الثاني والثلاثون
الفصل الثالث والثلاثون
الفصل الرابع والثلاثون
الفصل الخامس والثلاثون
الفصل السادس والثلاثون
الفصل السابع والثلاثون
الفصل الثامن والثلاثون
الفصل التاسع والثلاثون
الفصل الأربعون
الفصل الواحد والأربعون